

إستراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي ١٨٦٩ _ ١٩١٤م

في إطار التنافس العثماني البريطاني على أقطار الخليج العربي

أ. د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب الأسبق
مؤسس معهد الدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. ناجي عبد الباسط هدهود

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل معهد الدراسات والبحوث الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. محمود رمضان

مدير مركز الخليج
للبحوث والدراسات التاريخية
خبير الآثار والعمارة الإسلامية

مركز الحضارة العربية

استراتيجية الدولة العثمانية

في منطقة الخليج العربي



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◈ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆ ◈ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

استراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي

١٨٦٩ - ١٩١٤م

في إطار التنافس العثماني البريطاني على أقطار الخليج العربي

تأليف

أ. د. رأفت غنيمي الشيخ

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب الأسبق
مؤسس معهد الدراسات الآسيوية جامعة الزقازيق

د. ناجي عبد الباسط هدهود

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
وكيل معهد الدراسات والبحوث الآسيوية
جامعة الزقازيق

د. محمود رمضان

مدير مركز الخليج
للبحوث والدراسات التاريخية
خبير الآثار والعمارة الإسلامية



الكتـــاب: استراتيجية الدولة العثمانية
في منطقة الخليج العربي
١٨٦٩ - ١٩١٤م

المؤلف: أ. د. رأفت غنيمي الشيخ
د. ناجي عبد الباسط هدهود
د. محمود رمضان

النـــاشر: مركـــز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٤

الجمع والصف الإلكترونى: وحدة الحاسوب بالمركز
تصميم وجرافيك: محمد النوبي
011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢٠٣٨٨/ ٢٠١٣

الترقيم الدولي: 2-150-496-977-978

الشيخ، رأفت غنيمى.
رأفت عنيمى الشيخ: استراتيجية الدولة العثمانية فى منطقة الخليج العربى ١٨٦٩ - ١٩١٤م فى إطار التنافس العثمانى البريطانى على أقطار الخليج العربى.
ـ ط١. ـ الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٣
٢٥٦ ص؛ ٢٤ سم
تدمك: ٢ _ ١٥٠ _ ٤٩٦ _ ٩٧٧ _ ٩٧٨
١ - شبة الجزيرة العربية _ تاريخ _ العصر العثمانى.
٢ - الإمبراطورية العثمانية _ شبة الجزيرة العربية.
أ- هدهود، ناجى عبد الباسط (مؤلف شارك).

إهداء

لصاحب السمو الشيخ الدكتور

سلطان محمد القاسمى

حاكم إمارة الشارقة

عضو المجلس الأعلى لإتحاد الإمارات العربية

تقديرًا وعرفانًا

لما قدمه ويقدمه لخدمة العلم والعلماء فى مصر ودولة الإمارات العربية المتحدة وخاصة رعايته لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة والجمعيــة التاريخية المصرية ودار الوثائق القومية فى القاهرة ، وكليــة الزراعة جامعة القاهرة ، والمجمع العلمى المصرى وغير ذلك كثير.

داعين الله أن يمتعه بالصحة والسعادة

المؤلفون


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

الدولـة العثمانيـة "دولـة عثمانيـة مفتـرى عليها" هذا هو اسـم السـفر الكبيـر للمرحوم الأسـتاذ الدكتور عبد العزيز الشـناوي أسـتاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الأزهر، الـذي احتوت مجلداته الأربعة على تبيان دور الدولة العثمانية في نشـر الإسـلام والدفاع عن المسـلمين فـي أوروبا والأناضول وفي المشـرق العربي وفي المغرب العربـي أيضًا، بل وفي الجنوب العربي ضد الغزاة الأوربيين في تلك البقاع.

ولقد تعرضت الدولة العثمانية لاتهامات من بعض المؤرخين بأنها (اسـتعمرت واسـتغلت وأسـاءت إلى الشـعوب التى حكمتها)، وبلغ الأمر بالبعض بنسيان ما قامت به من إيجابيات لصالح المسـلمين وبلادهم في مواجهة الغزو والاسـتعمار الأوروبي، بداية من البرتغاليين ثم الأسبان، ثم الفرنسيين ثم الهولنديين وأخيرًا البريطانيين.

وحيـث إن لكل عهـد وحكم إيجابيته وسـلبياته، فإننا كمؤرخيـن لا يمكن الوقوف عند السـلبيات ونبرزها وننسـى الإيجابيات ونهملها.. ومن ثم فإننا نسـوق هذه الدراسـة عن الإسـتراتيجية العثمانيـة في منطقـة الخليج العربي لنشـير إلى ما قامت بـه الدولة العثمانية من خلال هذه الإسـتراتيجية من محاولات الوقوف أمام الأطماع الأوروبية في أقطار الخليج العربية اعتبارًا من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين الميلادي.

لقـد تطورت الدولة العثمانية منذ كانت إمارة في شـبه جزيـرة الأناضول بزعامة عثمان بـن أرطغـرل عام ١٢٩٩م، وتوسـعت في الأناضـول ثم في البلقان حتى وسـط أوروبا، ثم في أقطار الوطن العربي: العراق والشـام ومصر والحجاز وأقطار شـمال أفريقيا: الجزائر وليبيا (طرابلـس الغـرب) وتونس، وصارت قوة كبيرة يحسـب لها حسـابها عالميًـا. ولكن كما قال عبد الرحمن بن خلدون فإنه بعد القوة يأتي الضعف والتفكك والانهيار، وهو ما حدث للدولـة العثمانيـة فـي النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر، حتى أوائل القرن العشـرين، عندهـا تكالبت الـدول الأوروبية لاقتطاع أجـزاء من ممتلكات الدولـة العثمانية ووصفتها بالرجل المريض.

وقـد تميزت الإسـتراتيجية العثمانيـة في منطقة الخليـج العربي بالدفاع عـن أقطار تلك المنطقة ضد المطامع الأوروبية السـاعية لفرض نفوذها على تلك الأقطار التى تشـرف على طريـق حيـوي للتجارة الهندية التى يحتاجها الأوروبيون، ويحققـون من ورائها ثروات كبيرة

ويسعون من خلالها إلى فرض النفوذ والاحتلال والاستغلال.

ولأن منطقة الخليج العربي ذات أهمية إستراتيجية واقتصادية - وحتى قبل اكتشاف النفط واستخراجه والعمل في مجالاته - باعتبارها شريانًا حيويًا بين الهند - درة التاج البريطاني ومنبع التجارة في المواد التى تشتهر بها مثل الفلفل والبهارات وغيرها - فإننا ناقشنا أهمية مشيخات الخليج في أعمال التجارة والغوص على اللؤلؤ ونقل المتاجر والإبحار في المياه المحيطة مثل البحر العربي والمحيط الهندى.

وعندما تعرضت أقطار الخليج العربي للغزو الاستعماري الأوروبي بداية من غزو البرتغاليين حتى سيطرة البريطانيين، اهتمت الدولة العثمانية بالدفاع عن هذه الأقطار باعتبارها عمقًا إستراتيجيًا لولاية العراق العثمانية، ومن ثم اهتمت بكل تلك الأقطار، مما دفعنا إلى معالجة هذا الاهتمام العثماني بكل قطر خليجي عربي: الأحساء والكويت وقطر وغيرها، وناقشنا الموقف البريطاني من هذا الاهتمام العثماني بأقطار الخليج العربية، وذلك الاهتمام الذي تغلّف بفكرة الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية.

والله نسأل أن نكون قد توفقنا في عرض الإستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج العربي، ودور المصلح العظيم مدحت باشا والي العراق في تحقيق تلك الإستراتيجية، والذي وضع الأسس للإصلاح والإدارة المتميزة، وإن كانت الفترة التى عاشها في العراق وأشرف منها على منطقة الخليج قصيرة حيث امتدت من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٧١م.

والله ولي التوفيق

المؤلفون

الفصل الأول

الدولة العثمانية

- **مقدمة**

أولاً: قيام الدولة العثمانية ١٢٩٩ - ١٤٥٣م

ثانيًا: دور التوسع والقوة ١٤٥٣ - ١٦٨٣م:

١ - حقبة النمو والازدهار ١٤٥٣ - ١٥٦٦م.

٢ - حقبة الركود والانتعاشات ١٥٦٦ - ١٦٨٣م.

ثالثًا: دور الركود ١٦٨٣ - ١٨٢٧م.

رابعًا: دور الأفول والتنظيمات ١٨٢٨ - ١٩٠٨م.

خامسًا: دور الانحلال وخاتمة الدولة ١٩٠٨ - ١٩٢٢م.

سادسًا: الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م.

سابعًا: حرب الاستقلال التركية ١٩١٩ - ١٩٢٢م.

ثامنًا: أحوال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م.

مقدمــة:

الدولة العثمانية بالتركية العثمانية :دَوْلَتِ عَلِيّهٔ عُثمَانِيه؛ بالتركية الحديثة :Yüce Osmanlı Devleti) هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول ابن أرطغرل، واستمرت قائمة لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وبالتحديد منذ حوالي ٢٧ يوليو سنة ١٢٩٩م حتى ٢٩أكتوبر سنة ١٩٢٣م.

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاث :أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا. وصل عدد الولايات العثمانية إلى ٢٩ ولاية، وكان للدولة سيادة اسمية على عدد من الدول والإمارات المجاورة في أوروبا، التي أضحى بعضها يُشكل جزءًا فعليًا من الدولة مع مرور الزمن، بينما حصل بعضها الآخر على نوع من الاستقلال الذاتي.

كان للدولة العثمانية سيادة على بضعة دول بعيدة كذلك الأمر، إما بحكم كونها دولاً إسلامية تتبع شرعًا سلطان آل عثمان كونه يحمل لقب "أمير المؤمنين و خليفة المسلمين، كما في حالة سلطنة آتشيه السومطرية التي أعلنت ولاءها للسلطان في سنة ١٥٦٥م أو عن طريق استحواذها عليها لفترة مؤقتة، كما في حالة جزيرة "أنزاروت" في المحيط الأطلسي، والتي فتحها العثمانيون سنة ١٥٨٥م.

أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول "القانوني" - حكم منذ عام ١٥٢٠م حتى عام ١٥٦٦م - قوّة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها استانبول تلعب دور صلة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي[1]، وبعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، الذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئًا فشيئًا، على الرغم من أنها عرفت فترات من الانتعاش والإصلاح إلا أنها لم تكن كافية لإعادتها إلى وضعها السابق.

انتهت الدولة العثمانية بصفتها السياسية بتاريخ ١ نوفمبر سنة ١٩٢٢م، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣م، بعد توقيعها على معاهدة لوزان، وزالت نهائيًا في ٢٩ أكتوبر من السنة نفسها عند قيام الجمهورية التركية، التي

(1) Finkel, Caroline, Osman's Dream, (New York: Basic Books, 2005)

تعتبر حاليًا الوريث الشرعي للدولة العثمانية.

عُرفت الدولة العثمانية بأسماء مختلفة في اللغة العربية، لعلّ أبرزها هو "الدولة العليّة" وهو اختصار لاسمها الرسمي "الدولة العليّة العثمانية"، كذلك كان يُطلق عليها محليًا في العديد من الدول العربية، وخصوصًا بلاد الشام ومصر، "الدولة العثمليّة"، اشتقاقًا من كلمة "عثملى - Osmanlı" التركية، التي تعني "عثماني". ومن الأسماء الأخرى التي أضيفت للأسماء العربية نقلاً من تلك الأوروبية: "الإمبراطورية العثمانية" بالتركية: Osmanlı İmparatorluğu)، كذلك يُطلق البعض عليها تسمية "السلطنة العثمانية"، و"دولة آل عثمان". [1].

العثمانيون قوم من الأتراك، فهم ينتسبون - من وجهة النظر الأثنيّة - إلى العرق الأصفر أو العرق المغولي، وهو العرق الذي ينتسب إليه المغول والصينيون وغيرهم من شعوب آسيا الشرقية. وكان موطن الأتراك الأوّل في آسيا الوسطى، في البوادي الواقعة بين جبال آلطاي شرقًا وبحر قزوين في الغرب، وقد انقسموا إلى عشائر وقبائل عديدة منها عشيرة "قايي"، التي نزحت في عهد زعيمها "كندز ألب" إلى المراعي الواقعة شماليّ غربي أرمينيا قرب مدينة خلاط، عندما استولى المغول بقيادة جنكيز خان على خراسان. إن الحياة السياسية المبكرة لهذه العشيرة يكتنفها الغموض، وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقائق، وإنما كل ما يُعرف عنها هو استقرارها في تلك المنطقة لفترة من الزمن، ويُستدل على صحة هذا القول عن طريق عدد من الأحجار والقبور تعود لأجداد بني عثمان. ويُستفاد من المعلومات المتوافرة أن هذه العشيرة تركت منطقة خلاط حوالي سنة ١٢٢٩م تحت ضغط الأحداث العسكرية التي شهدتها المنطقة، بفعل الحروب التي أثارها السلطان جلال الدين الخوارزمي وهبطت إلى حوض نهر دجلة.

أولاً: قيام الدولة العثمانية (١٢٩٩ - ١٤٥٣)

توفي "كندز ألب" في العام التالي لنزوح عشيرته إلى حوض دجلة، فترأس العشيرة ابنه سليمان، ثم حفيده "أرطغرل" الذي ارتحل مع عشيرته إلى مدينة إرزينجان، وكانت مسرحًا للقتال بين السلاجقة والخوارزميين، فالتحق بخدمة السلطان علاء الدين سلطان قونية، إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة السلاجقة العظام وساندَه في حروبه ضد الخوارزميين، فكافأه السلطان السلجوقي بأن أقطع عشيرته بعض الأراضي الخصبة قرب مدينة أنقرة وظل أرطغرل حليفًا للسلاجقة حتى أقطعه السلطان السلجوقي

(١) د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ص١١ - ١٧.

منطقة في أقصى الشمال الغربي من الأناضول على الحدود البيزنطية، في المنطقة المعروفة باسم "سوغوت" حول مدينة أسكي شهر، حيث بدأت العشيرة هناك حياة جديدة إلى جانب إمارات تركمانية سبقتها إلى المنطقة. علا شأن أرطغرل لدى السلطان بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة، وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية في كل معركة ووجدت دومًا في مقدمة الجيوش وتمّ النصر على يدي أبنائها، فكافأه السلطان بأن خلع عليه لقب "أوج بكي"، أي محافظ الحدود، اعترافًا بعظم أمره، غير أن أرطغرل كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعه إياها السلطان السلجوقي، ولا باللقب الذي ظفر به، ولا بمهمة حراسة الحدود والحفاظ عليها؛ بل شرع يهاجم باسم السلطان ممتلكات البيزنطيين في الأناضول فاستولى على مدينة "أسكي شهر" وضمها إلى أملاكه، واستطاع أن يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير على مقاطعة حدودية، وتوفي في سنة ١٢٨١م عن عمر يُناهز التسعين عامًا، بعد أن خُلع عليه لقب كبير آخر هو "غازي"، تقديرًا لفتوحاته وغزواته.

بعد أرطغرل تولّى زعامة الإمارة ابنه البكر عثمان، فأخلص الولاء لل دولة السلجوقية على الرغم مما كانت تتخبط فيه من اضطراب وما كان يتهددها من أخطار[1]، أظهر عثمان في بداية عهده براعة سياسية في علاقاته مع جيرانه، فعقد تحالفات مع الإمارات التركمانية المجاورة، ووجه نشاطه العسكري نحو الأراضي البيزنطية لاستكمال رسالة دولة سلاجقة الروم بفتح الأراضي البيزنطية كافة، وإدخالها ضمن الأراضي الإسلامية، وشجعه على ذلك حالة الضعف التي دبت في جسم الإمبراطورية البيزنطية وأجهزتها، وانهماكها بالحروب في أوروبا[2]، فأتاح له ذلك سهولة التوسع باتجاه غربي الأناضول، وفي عبور الدردنيل إلى أوروبا الشرقية الجنوبية. ومن الناحية الإدارية، فقد أظهر عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته، بحيث قطع العثمانيون في عهده شوطًا كبيرًا على طريق التحول من نظام القبيلة المتنقلة إلى نظام الإدارة المستقرة، ما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها سريعًا إلى دولة كبرى. وقد أبدى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقباد الثالث تقديره العميق لخدمات عثمان، فمنحه لقب "عثمان غازي حارس الحدود العالي الجاه، عثمان باشا".

أقدم عثمان - بعد أن ثبّت أقدامه في إمارته - على توسيع حدودها على حساب

---

(١) شفيق جحا وآخرون: المصور فى التاريخ، جـ ٦، دار العلم للملايين، ص ١١٦

(٢) أ. د. محمد سهيل طقّوش: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة: ص ٢٦

البيزنطيين، ففي عام ١٢٩١م فتح مدينة "قره جه حصار" الواقعة إلى الجنوب من سوغوت، وجعلها قاعدة له، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، وهو أول مظهر من مظاهر السيادة والسلطة، ومنها قاد عشيرته إلى بحر مرمرة والبحر الأسود، وحين تغلب المغول على دولة قونية السلجوقية، سارع عثمان إلى إعلان استقلاله عن السلاجقة ولقّب نفسه "باديشاه آل عثمان" أي عاهل آل عثمان، فكان بذلك المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التركية الكبرى التي نُسبت إليه لاحقًا[1]. وظلّ عثمان يحكم الدولة الجديدة بصفته سلطانًا مستقلاً حتى تاريخ ٦ أبريل سنة ١٣٢٦م، الموافق فيه ٢ جمادى الأولى سنة ٧٢٦هـ، عندما احتل ابنه "أورخان" مدينة بورصة الواقعة على مقربة من بحر مرمرة، وفي هذه السنة توفي عثمان عن عمر يناهز السبعين عامًا بعد أن وضع أسس الدولة ومهد لها درب النمو والازدهار، وخُلع عليه لقب آخر هو "قره عثمان"، وهو يعني "عثمان الأسود" باللغة التركية الحديثة، لكن يُقصد به "الشجاع" أو "الكبير" أو "العظيم" في التركية العثمانية.

عُني أورخان بتنظيم مملكته تنظيمًا محكمًا، فقسمها إلى سناجق أو ولايات، وجعل من بورصة عاصمةً لها، وضرب النقود باسمه، ونظّم الجيش، فألّف فرقًا من الفرسان النظاميين، وأنشأ من الفتيان المسيحيين الروم والأوروبيين الذين جمعهم من مختلف الأنحاء جيشًا قويًا عُرف بجيش الإنكشارية. وقد درّب أورخان هؤلاء الفتيان تدريبًا صارمًا وخصّهم بامتيارات كبيرة، فتعلقوا بشخصه وأظهروا له الولاء. وعمل أورخان على توسيع الدولة، فكان طبيعيًا أن ينشأ بينه وبين البيزنطيين صراعٌ عنيف كان من نتيجته استيلاؤه على مدينتيّ إزمير ونيقية. وفي عام ١٣٣٧م شنّ هجومًا على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين نفسها، ولكنه أخفق في احتلالها[2] ومع ذلك فقد أوقعت هذه الغزوة الرعب في قلب إمبراطور الروم "أندرونيقوس الثالث"، فسعى إلى التحالف معه وزوجه ابنته. ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين وبين الاندفاع إلى الأمام، وتثبيت أقدامهم سنة ١٣٥٧م في شبه جزيرة غاليبولي، وهكذا اشتد الخطر العثماني على القسطنطينية من جديد. شهد المسلمون في عهد أورخان أوّل استقرار للعثمانيين في أوروبا، وأصبحت الدولة العثمانية تمتد من أسوار أنقرة في آسيا الصغرى إلى تراقيا في البلقان، وشرع المبشرون يدعون السكان إلى اعتناق الإسلام. توفي أورخان الأول في سنة ١٣٦٠م بعد أن أيّد الدولة الفتيّة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته العديدة، وتولّى بعده ابنه "مراد الله"، الملقب بمراد الأول.

---

(١) شفيق جحا وآخرون: مرجع سابق، ص ١١٦

(1) J. J. Norwich (1996) Byzantium: the Decline and Fall, Penguin, London p. 320

كانت فاتحة أعمال مراد الأول احتلال مدينة أنقرة مقر إمارة القرمان، وذلك أن أميرها واسمه علاء الدين، أراد انتهاز فرصة انتقال المُلك من السلطان أورخان إلى ابنه مراد لإثارة حمية الأمراء المجاورين وتحريضهم على قتال العثمانيين ليقوضوا أركان ملكهم الآخذ في الامتداد يومًا فيومًا، فكانت عاقبة دسائسه أن فقد أهم مدنه[1] وتحالف مراد مع بعض أمراء الأناضول مقابل بعض التنازلات لصالح العثمانيين، وأجبر آخرين على التنازل له عن ممتلكاتهم، وبذلك ضمّ جزء من الممتلكات التركمانية إلى الدولة العثمانية. ووجّه اهتمامه نحو شبه جزيرة البلقان التي كانت في ذلك الحين مسرحًا لتناحر دائم بين مجموعة من الأمراء الثانويين، ففتح مدينة أدرنة سنة ١٣٦٢م ونقل مركز العاصمة إليها لتكون نقطة التحرك والجهاد في أوروبا، وقد ظلت عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية في وقت لاحق، كما تم فتح عدّة مدن أخرى مثل صوفيا وسالونيك، وبذلك صارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جهة في أوروبا. وفي ١٢ يونيو سنة ١٣٥٨م، الموافق فيه ١٩ جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ التقت الجيوش العثمانية بالقوى الصربية - تساندها قوىً من المجر والبلغار والألبانيين، في إقليم "قوصوة"، المعروف حاليًا باسم "كوسوفو"، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة انتصر فيها العثمانيون، إلا أن السلطان قتل في نهايتها على يد أحد الجنود الذي تظاهر بالموت.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الأول ابنه بايزيد، وعند ذلك كانت الدولة قد اتسعت حدودها بشكل كبير، فانصرف إلى تدعيمها بكل ما يملك من وسائل، وانتزع من البيزنطيين مدينة "آلاشهر"، وكانت آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وأخضع البلغار عام ١٣٩٣م إخضاعًا تامًا. فجزع "سيكسموند" ملك المجر من هذا التوسع العثماني، خصوصًا بعد أن تاخمت حدود بلاده مناطق السيطرة العثمانية، فاستنجد بأوروبا الغربية، فدعا البابا "بونيفاس التاسع" إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين لمنعهم من التوغل في قلب أوروبا، فلبّى الدعوة ملك المجر سالف الذكر، وعدد من أمراء فرنسا وبافاريا والنمسا وفرسان القديس يوحنا في رودس وجمهورية البندقية، وقدمت إنكلترا مساعدات عسكرية. تقابل الجيشين العثماني والأوروبي في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م الموافق ٢١ ذي الحجة ٧٩٨هـ، ودارت بينهما رحى معركة ضارية هُزم فيها الأوروبيون وردوا على أعقابهم. حاصر بايزيد القسطنطينية مرتين متواليتين، ولكن حصونها المنيعة صمدت في وجه هجماته العنيفة، فارتد عنها خائبًا. ولم ينس بايزيد وهو يوجه ضرباته الجديدة نحو

(١) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تأليف: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، ط ١٠، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، ص: ١٢٩

الغرب، أن المغول يستعدون للانقضاض عليه من جهة الشرق، وخاصةً بعد أن ظهر فيهم رجلٌ عسكري جبّار هو تيمورلنك الشهير المنحدّر من سلالة جنكيز خان. لذلك عمل بايزيد على تعزيز مركزه في آسيا الصغرى استعدادًا للموقعة الفاصلة بينه وبين تيمورلنك. وهكذا خف الضغط العثماني على البيزنطيين، وتأخر سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين خمسين سنة ونيفًا[1] وفي ربيع سنة ١٤٠٢م، تقدّم تيمورلنك نحو سهل أنقرة لقتال بايزيد، فالتقى الجمعان عند "جُبق آباد" ودارت معركة طاحنة انهزم فيها العثمانيون وأُسر السلطان بايزيد وحمله المغول معهم عائدين إلى سمرقند عاصمة الدولة التيمورية، حيث عاش بقية أيامه ومات في سنة ١٤٠٣م.

وبعد موت السلطان بايزيد تجزأت الدولة إلى عدّة إمارت صغيرة كما حصل بعد سقوط الدولة السلجوقية، لأن تيمورلنك أعاد إلى أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد، واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ، ولم يبق تابعًا للراية العثمانية إلا قليل من البلدان. ومما زاد الخطر على الدولة عدم اتفاق أولاد بايزيد على تنصيب أحدهم، بل كان كل منهم يدعي الأحقية لنفسه، فنشبت بينهم حروب ضارية، ولكن النصر كان آخر الأمر من نصيب محمد بن بايزيد، المُلقب بمحمد الأول أو "محمد چلبي"، الذي استطاع أن يعيد للدولة بعض ما فقدته من أملاكها في الأناضول. وبعد محمد الأول تولّى عرش السلطنة العثمانية مراد الثاني، فاستمر بإخضاع المدن والإمارات التي استقلت عن الدولة العثمانية، وحاصر القسطنطينية، ولكنه لم يُوفق إلى احتلالها. ثم حاول أن يعيد إخضاع البلقان لسيطرته، ففتح عدّة مدائن وقلاع وحاول أن يضم إليها مدينة بلغراد لكنه فشل في اقتحامها، فكان هذا الهجوم إنذارًا جديدًا لأوروبا بالخطر العثماني، فقامت قوات مجرية - وعلى رأسها يوحنا هونياد - بالالتحام مع العثمانيين وهزمتهم هزيمة قاسية كان من نتائجها بعث الروح الصليبية في أوروبا، وإعلان النضال الديني ضد العثمانيين.

ولمّا توفي السلطان مراد الثاني ارتقى عرش العثمانيين ابنه محمد، فكان عليه بادئ الأمر أن يُخضع ثورة نشبت ضده في إمارة قرمان بآسيا الصغرى، فاستغل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر هذا الأمر، وطلب من السلطان مضاعفة الجزية التي كان والده يدفعها إلى البيزنطيين لقاء أسرهم الأمير أورخان حفيد سليمان بن بايزيد المطالب بالعرش العثماني. فاستاء السلطان محمد من هذا الطلب لما كان ينطوي عليه من

---

(١) شفيق جحا وآخرون، مرجع سابق، ص ١٢٠

تهديـد بتحريض أورخان هذا على العصيان، فأمر بإلغاء الراتب المخصص له، وراح يتجهّز لحصار القسطنطينية والقضاء على هذه المدينة في أقرب فرصة ممكنة. وكان أوّل ما قام به في هذا السبيل تشييده عند أضيق نقطة من مضيق البوسفور قلعة "روملي حصار" القائمة على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية. وعندئذ أرسل الإمبراطور قسطنطين بعثة من السفراء إلى السلطان محمد لتحتجّ لديه على ذلك، فلم يلقوا منه جوابًا شافيًا، بل أصرّ على البناء لما في القلعة من أهمية إستراتيجية. واستنجد الإمبراطور قسطنطين بالدول الأوروبية فلم تنجده إلا بعض المدن الإيطالية، أما البابا فقد أبدى استعداده لمساعدة الإمبراطور شرط أن تتحد الكنيستان الشرقية والغربية، ووافق قسطنطين على المشروع، ولكنّ تعصّب الشعب حال دون تحقيق ذلك.

وكان السلطان قد حشد لقتال البيزنطيين جيشًا عظيمًا مزودًا بالمدافع الكبيرة وأسطولاً ضخمًا، وبذلك حاصرهم من ناحيتيّ البر والبحر معًا. والواقع أن البيزنطيين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، لكن ما أن مضى ٥٣ يومًا على الحصار حتى كان العثمانيون قد دخلوا المدينة بعد أن هُدمت أجزاء كبيرة من أسوارها بفعل القصف المدفعي المتكرر، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف جدًا دارت رحاه في الشوارع، وذهب ضحيته الإمبراطور نفسه وكثير من جنوده. حتى إذا انتصف النهار دخل محمد المدينة وأصدر أمره إلى جنوده بالكف عن القتال، بعد أن قضى على المقاومة البيزنطية ونشر راية السلام اتخذ السلطان محمد لقب "الفاتح" بعد فتح المدينة، وأضاف إليه لقب "قيصر الروم"، على الرغم من عدم اعتراف بطريركية القسطنطينية ولا أوروبا الغربية بهذا الأمر، ونقل مركز العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي غيّر اسمها إلى "إسلامبول، أي مدينة الإسلام أو تخت الإسلام، وأعطى للمسيحيين الآمان وحرية إقامة شعائرهم الدينية، ودعا من هاجر منهم خوفًا إلى العودة إلى بيوتهم. سقطت الإمبراطورية البيزنطية عند فتح المدينة بعد أن استمرت أحد عشر قرنًا ونيفًا، وتابع السلطان محمد فتوحاته في أوروبا خلال السنوات اللاحقة التي أعقبت سقوط القسطنطينية، فأخضع بلاد الصرب وقضى على استقلالها، وفتح بلاد المورة في جنوب اليونان، وإقليم الأفلاق وبلاد البشناق وألبانيا، وهزم البندقية ووحد الأناضول عبر قضائه على إمبراطورية طرابزون الرومية وإمارة قرمان. وقد حاول السلطان محمد أيضًا فتح إيطاليا لكن وافته المنية سنة ١٤٨١م فانصرف العثمانيون عن هذه الجهة.

ثانيًا: دور التوسع والقوة (١٤٥٣ - ١٦٨٣)

يُمكن تقسيم هذه الفترة في التاريخ العثماني إلى حقبتين مميزتين: حقبة النمو والازدهار العسكري والثقافي والحضاري والاقتصادي، وهي تمتد حتى سنة ١٥٦٦م، وحقبة شهدت بأغلبها ركودًا سياسيًا وعسكريًا، وتخللتها فترات إصلاح وانتعاش، وقد دامت حتى سنة ١٦٨٣م.

١ - حقبة النمو والازدهار (١٤٥٣ - ١٥٦٦)

بعد موت السلطان محمد الفاتح تنازع ابناه "جم" و"بايزيد" على العرش. ولكن الغلبة كانت من نصيب بايزيد، ففر جم إلى مصر حيث احتمى بسلطان المماليك"قايتباي"، ثم إلى رودس حيث حاول أن يتعاون مع فرسان القديس يوحنا والدول الغربية على أخيه، لكن بايزيد استطاع إقناع دولة الفرسان بإبقاء الأمير جم على الجزيرة مقابل مبلغ من المال، وتعهد بأن لا يمس جزيرتهم طيلة فترة حكمه، فوافقوا على ذلك، لكنهم عادوا وسلموا الأمير إلى البابا "إنوسنت الثامن" كحل وسط، وعند وفاة الأخير قام خليفته بدس السم للأمير بعد أن أجبره الفرنسيون على تسليمهم إياه، فتوفي في مدينة نابولي، ونقل جثمانه فيما بعد إلى بورصة ودُفن فيها. اتصف السلطان بايزيد بأنه سلطان مسالم لا يدخل الحروب إلا مدافعًا، فقاتل جمهورية البندقية بسبب الهجمات التي قام بها أسطولها على بلاد المورة، وحارب المماليك حين قرر السلطان قايتباي السيطرة على إمارة ذي القدر ومدينة ألبستان التابعتين للدولة العثمانية، وعدا ذلك فكان يفضل مجالسة العلماء والأدباء. وفي عهده سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس؛ فبعث بعدّة سفن لتحمل الأندلسيين المسلمين واليهود إلى القسطنطينية وغيرها من مدن الدولة، وفي عهده أيضًا ظهرت سلالة وطنية شيعية في بلاد فارس، هي السلالة الصفوية، التي استطاعت بزعامة الشاه إسماعيل بن حيدر، أن تهدد بالخطر إمبراطورية العثمانيين في الشرق.

وفي أواخر عهد بايزيد دبّ النزاع بين أولاده بسبب من الأحق بولاية العهد. ذلك أن بايزيد اختار ابنه أحمد لخلافته، فغضب ابنه الآخر سليم، وأعلن الثورة على والده، وكان لثورة سليم أسباب سياسية ومذهبية وتجارية وعرقية، ذلك أن الصفويين كانوا يعملون على نشر المذهب الشيعي في الأناضول على حساب المذهب السني، وقطعوا طريق التجارة مع الهند والشرق الأقصى، ومنعوا نزوح المزيد من قبائل التركمان من آسيا الوسطى إلى الأناضول وأوروبا الشرقية، وكان الشاه إسماعيل يدعم الأمير أحمد للوصول إلى سدة الحكم ولم يحرك الأخير ساكنًا لمنع التدخل الصفوي في الشؤون العثمانية. نتيجة لكل

ما سلف، ثار سليم على والده وشقيقه ثم استولى على أدرنة، فما كان من بايزيد إلا أن انبرى لقتال ابنه سليم، فهزمه وقرر نفيه، لكن الجنود الإنكشارية قاموا بالضغط على السلطان وأرغموه بالتنازل عن العرش لصالح ابنه سليم. وقد مات بايزيد يوم ٢٦ مايو سنة ١٥١٢م الموافق ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨هـ، واختلف المؤرخون على سبب الوفاة. كان على سليم، بعد اعتلائه العرش، تثبيت أقدامه في الحكم والتفاهم مع الدول الأوروبية الفاعلة ليتفرغ لأخطر أزمة واجهتها الدولة منذ أعقاب معركة أنقرة، ألا وهي القضية الصفوية، فأقدم على قتل إخوته وأولادهم حتى لا يبقى له منازع في الحكم، ثم أبرم هدنة طويلة مع الدول الأوروبية المجاورة، وحوّل انتباهه إلى الجبهة الشرقية لمواجهة الصفويين والمماليك وكان السلطان سليم يهدف إلى السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، والتوسع على حساب القوى في المشرق، والقضاء على المد الشيعي، وتوحيد الأمصار الإسلامية الأخرى حتى تكون يدًا واحدة في مواجهة أوروبا، وخاصة بعد سقوط الأندلس وقيام البرتغاليين بالتحالف مع الصفويين وإنشائهم لمستعمرات في بعض المواقع في جنوب العالم الإسلامي وكان الشيعة المقيمون في آسيا الصغرى قد ثاروا على الدولة العثمانية اعتمادًا على تأييد الصفويين، فأخضع سليم هذه الثورة وعمد إلى اضطهاد الشيعة، فذهب ضحية هذه السياسة أربعون ألفًا منهم، ثم انبرى لقتال الشاه، فالتقى الفريقان في سهل چالديران والتحما في معركة كبيرة كان النصر فيها لصالح السلطان سليم، وفرّ الشاه ناجيًا بحياته، أما سليم فتقدم إلى تبريز عاصمة خصمه الصفوي، فاستولى عليها ورجع عائدًا إلى بلاده.

تقدم العثمانيون، بعد انتصارهم على الصفويين، لإخضاع السلطنة المملوكية، فنشبت بينهم وبين المماليك معركة على الحدود الشاميّة التركية تُعرف بمعركة مرج دابق، انتصر فيها العثمانيون وقُتل سلطان المماليك "قنصوه الغوري"، ثم تابعوا زحفهم نحو مصر والتحموا بالمماليك من جديد في معركة الريدانية التي قررت مصير مصر كلها، وانتصروا عليهم مجددًا ودخلوا القاهرة فاتحين. وفي أثناء ذلك قدّم شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان سليم اعترافًا بخضوع الأراضي المقدسة الإسلامية للعثمانيين[1] وتنازل في الوقت ذاته آخر الخلفاء العباسيين، محمد الثالث المتوكل على الله، عن الخلافة لسلطان آل عثمان، فأصبح كل سلطان منذ ذلك التاريخ خليفة للمسلمين، ويحمل لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة رسول رب العالمين". وعند نهاية حملته الشرقية، كان السلطان سليم قد جعل من الدولة العثمانية قوة إقليمية كبرى ومنافسًا كبيرًا للإمبراطورية البرتغالية على زعامة

---

(١) شفيق جحا وآخرون، مرجع سابق، ص ١٣٠ - ١٣١.

المنافذ المائية العربية. توفي السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠م، الموافق فيه ٩ شوّال سنة ٩٢٦هـ، وهو على أهبة الاستعداد لقتال فرسان القديس يوحنا في رودس.[١] فارتقى العرش من بعده ابنه سليمان، الذي يُعرف في الشرق باسم "القانوني"، ويُعرف في الغرب باسم "العظيم". والواقع أن الفتوح في الشرق شغلت السلطان سليم طوال أيام حكمه، فكان طبيعيًا أن ينصرف السلطان سليمان إلى ناحية الغرب ليُتم الفتوح التي كان أسلافه قد بدأوها من قبله. واحتل سليمان مدينة بلغراد بسهولة، عام ١٥٢١م، وعقد العزم على ما كان أبوه السلطان سليم قد شرع يستعد له قبل وفاته، أي الاستيلاء على جزيرة رودس، فتمكن من ذلك في سنة ١٥٢٣م، ثمّ ضمّ إلى الأملاك العثمانية القسم الجنوبي والأوسط من مملكة المجر، بعد أن استغل الأوضاع الداخلية المضطربة للمملكة، والأوضاع الخارجية الملائمة.

اشتبكت الجيوش العثمانية مع نظيرتها المجرية في وادي موهاج بالمجر بتاريخ ٢٦أغسطس سنة ١٥٢٦م، في معركة دامت حوالي الساعتين، وانتصر فيها العثمانيون نصرًا كبيرًا وثبتوا أقدامهم في البلاد لفترة طويلة من الزمن، وعين السلطان "جان زابوليا" ملك ترانسلفانيا حاكمًا عليها، عندئذ أرسل فرديناندملك النمسا، وفدًا إلى السلطان يلتمس منه الاعتراف به ملكًا على المجر، فسخر سليمان من الوفد وزجّ أعضاءه في السجن فترة من الزمن، ولمّا أفرج عنهم حمّلهم رسالة إلى الملك ليستعد لملاقاته. وقاتل سليمان فرديناد بجيش عظيم، فلم يصمد في وجهه، فراح سليمان يتعقبه حتى فيينا العاصمة، وهنا ضرب سليمان الحصار على هذه المدينة القائمة في قلب أوروبا، وأحدثت الجنود العثمانية ثغرًا في أسوارها إلا أن الذخيرة والمؤن نفدت منهم، وأقبل فصل الشتاء فقفل السلطان ورجع إلى بلاده[٢]. وفي عام ١٥٣٢م، عاود سليمان الكرّة، فحاصر فيينا من جديد، ولكن التوفيق خانه في حملته الثانية هذه أيضًا، فعقد مع فرديناند صلحًا احتفظ بموجبه بجميع ما استولى عليه من الأراضي المجرية. وكان مما رغّب سليمان في عقد الصلح اضطراره إلى الالتفات صوب الشرق بعد أن توترت العلاقات بينه وبين "طهماسب بن إسماعيل الصفوي" شاه فارس، وتفصيل ذلك أن عامل بغداد من قبل طهماسب خان مولاه الصفوي وانحاز إلى العثمانيين بناءً على إلحاح الشعب بسبب سياسة التطرف المذهبي التي انتهجها الصفويون، فسار إليه طهماسب يريد تأديبه، فلم يكن من السلطان سليمان إلا أن

(2) Hess, Andrew C. (January 1973). "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of the Sixteenth - Century World War

(١) أ. د. محمد سهيل طقّوش: مرجع سابق، ص ٢١٢

اغتنم هذه الفرصة للانقضاض على بلاد فارس، وهكذا احتل تبريز عاصمة الفرس، ثم استولى على بغداد ودخلها في أبّهة بالغة.

حقق العثمانيون أيام السلطان سليمان عدّة فتوحات بحرية مهمة، وذلك بفضل البحّار يوناني الأصل، خير الدين بربروس، الذي كان سبق وضمّ الجزائر للدولة العثمانية أيام السلطان سليم. عيّن السلطان سليمان خير الدين هذا أميرًا للبحر عام ١٥٣٣م، فنهض بالأسطول العثماني نهضة جبارة مكنته من انتزاع تونس من أيدي الإسبان وإخضاعها للسلطة العثمانية ولو لفترة قصيرة من الزمن. وفي سنة ١٥٣٨م حقق خير الدين للدولة العثمانية نصرًا بحريًا كبيرًا، فقد وفّق إلى إنزال هزيمة قاسية بأندريا دوريا الذي كان يقود أساطيل كارلوس الخامس ملك إسبانيا والبابا بولس الثالث والبندقية مجتمعة، وذلك قرب بروزة، الواقعة على خليج آرتا في الشمال الغربي من اليونان. ومن الفتوح المهمة التي حققها الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان، فتح طرابلس الغرب وتحريرها من الإسبان وفرسان القديس يوحنا على يد القبطان "طورغول بك. توفي السلطان سليمان في ٥ سبتمبر ١٥٦٦م الموافق فيه ٢٠ صفر سنة ٩٧٤هـ، وكانت الدولة العثمانية آنذاك قد بلغت أعلى درجات الكمال وأصبح وجودها ضروريًا لحفظ التوازن السياسي في الشرق الأوسط وأوروبا، ووصل عدد سكانها إلى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة بحسب بعض المصادر.

٢ - حقبة الركود والانتعاشات (١٥٦٦ - ١٦٨٣م)

يُعتبر عصر سليمان القانوني عصر الدولة العثمانية الذهبي، وما أن انقضى هذا العصر حتى أصاب الدولة الضعف والتفسخ. فقد كان سليم الثاني، خليفة سليمان، سلطانًا ضعيفًا لا يتصف بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلاً عن إضافة شيء إليها، بالإضافة إلى أنه كان حاكمًا منحلاً خاملاً، وكان ماجنًا سكّيرًا. وما يميّز عهد هذا السلطان هو أن وظيفة الصدر الأعظم أصبحت تجعل من يتقلدها الحاكم الفعلي وقائد الجيوش، فلولا وجود الصدر الأعظم محمد باشا صقللي المخضرم في الأعمال السياسية والحربية للحق الدولة الفشل، لكن حسن سياسة هذا الرجل وعظم اسم الدولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظها من السقوط مرة واحدة. ومن أعمال محمد باشا صقللي أن أرسل جيشًا كبيرًا إلى اليمن سنة ١٥٦٩م بقيادة عثمان باشا يسانده سنان باشا والي مصر، لقمع ثورة الأهالي، وتمكن الجيش من إخماد الثورة، ودخل مدينة صنعاء بعد أن فتح جميع القلاع ومن أعمال الصدر الأعظم أيضًا فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من أيدي البنادقة. شنّت الدولة العثمانية في عام ١٥٦٩م أيضًا حملة على مدينة أسترخان، الواقعة على مصب نهر الفولغا في بحر

قزوين، بهدف استرداد الإمارة ووضع حدًا لامتداد روسيا من ناحية الجنوب؛ خشية أن يؤدي توسعها إلى استيلائها على الطرق التجارية والأسواق الكبرى وإلى هيمنتها على تجارة البلدان الإسلامية، إلا أن هذه الحملة كان مصيرها الفشل، بسبب امتناع خاقان القرم، "دولت كراي الأول"، عن التعاون مع الجيش العثماني وسعيه شخصيًا لأن يقوم بالاستيلاء على أسترخان وقازان، كما تعذر ضرب الحصار على المدينة؛ لأن الروس بنوا قلعة قوية إلى الجنوب منها، على الطريق المؤدي إليها حالت دون تقدم الجيش العثماني.

وفي عهد السلطان سليم الثاني جرت موقعة ليبانتو البحرية التي هزّت صورة البحرية العثمانية والجيش العثماني الذي اعتبره كثيرون لا يُقهر. وتفصيل ذلك أنه بعد ازدياد الخطر العثماني في البحر المتوسط على أوروبا، وخاصة بعد فتح جزيرة قبرص، وبعض المواقع على البحر الأدرياتيكي، تحالف فيليب الثاني ملك إسبانيا مع البابا بيوس الخامس وجمهورية البندقية لوقف التقدم العثماني باتجاه إيطاليا من جهة، واسترداد جميع المواقع التي فتحوها على حساب أوروبا وبخاصة في شمال أفريقيا، من جهة أخرى. فجمعوا مائتين وثلاثين سفينة وثلاثين ألف جندي، وسلموا لواء القيادة إلى الدون يوحنا النمساوي، الذي أبحر إلى خليج باتراس، أحد فروع البحر الأيوني، وهناك اشتبك الأسطولان العثماني والأوروبي في معركة بحرية طاحنة هي إحدى أكبر المعارك في التاريخ الحديث، أسفرت عن انتصار الأوروبيين وانهزام العثمانيين هزيمة منكرة ولم تُقعد هذه الحادثة همّة الصدر الأعظم محمد باشا صقللي، بل انتهز فرصة الشتاء وعدم إمكانية استمرار الحرب لتجهيز أسطول جديد، وبذل النفس والنفيس في تجهيزه وتسليحه حتى إذا أقبل صيف سنة ١٥٧٢مكان قد تمّ بناء ٢٥٠ سفينة بما فيها ٨ غلايين حديثة، وأعلم الصدر الأعظم البنادقة باستعداده للجولة الثانية، ففضلت البندقية أن تجنح للسلام ووقعت مع الدولة العثمانية معاهدة بذلك سنة ١٥٧٣م، فتفرغ العثمانيون لمحاربة إسبانيا التي عادت لاحتلال تونس، وكذلك هزموا أمير البغدان الذي تمرّد على الدولة طلبًا للاستقلال.

توفي السلطان سليم الثاني يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٥٧٤م، الموافق فيه ٢٧ شعبان سنة٩٨٢هـ وتولّى بعده ابنه مراد الثالث. وفي عهد هذا السلطان تدخلت الدولة العثمانية في انتخاب حليفها "أتيين باتوري"، أمير ترانسلفانيا، ملكًا على بولندا بعد شغور العرش، وبذا تحولت الحماية العثمانية على بولندا من حماية اسمية إلى حماية فعلية. وساعد العثمانيون سلطان مراكش لإخماد ثورة اندلعت في بلاده، فاصطدموا مع الثوّار والبرتغاليين الذين ساندوهم في موقعة القصر

الكبيـر وانتصروا عليهم وأعادوا السـلطان إلـى الحكم. أما أهم ما حصل في عهد السـلطان مراد الثالث هو التوسـع العثماني في الشـرق، على حسـاب الدولة الصفوية، فبعد وفاة الشـاه طهماسب الأول من غير أن يسمي من سيخلفه، تنازع أبناؤه على السلطة، فأرسل الصدر الأعظم محمد باشـا صقللي حملة عسـكرية إلى بلاد فارس لفتح ما تيسر من مدنها، فضموا إليهم من أملاكها بلاد الكرج، ثم أذربيجان الشمالية، ثم بلاد داغستان.

تعرضت الدولة العثمانية بعد هذه الغزوات لأزمة سياسية عنيفة، عندما تقلّص نفوذ الصدر الأعظم محمد باشـا صقللي، ومن ثم قُتل في سـنة ١٥٧٩م، فعمّـت الفوضى بعد موته بفعل ضعف حلفائه وتمرّد الإنكشـارية، وراح الولاة يتنافسـون فيمـا بينهم على منصب الصدارة العظمـى. وفي عام ١٥٩٠م أبـرم العثمانيون صلحًا مع الصفوييـن، اعترفوا فيه بما تم ضمه إلـى الدولـة العثمانيـة، إضافـةً إلى جنـوب أذربيجان بمـا فيهـا العاصمة تبريز. وبعـد إبرام الصلـح اسـتتب الأمن على حـدود الدولة، إن في الشـرق أو فـي الغرب، فثار الإنكشـارية في القسـطنطينية وفي الولايات نظرًا لهبوط قيمة أجورهم، الأمر الذي دفع الصدر الأعظم الجديد، سـنان باشـا، أن يشـغلهم بالحروب مع النمسـا في المجر، ونظرًا لمـا وصل إليه الإنكشـارية مـن فوضى توالـت عليهم الهزائم، وفقـدوا بعض القلاع، وعلـى الرغم من أن سنان باشا استطاع أن يسـتردها لاحقًا، إلا أن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا استغلوا الموقـف وانتصـروا علـى الجيـوش العثمانيـة فـي بضعـة معـارك واسـتردوا منهـم بعـض المدن. وتوفي السـلطان مراد الثالث مسـاء ١٩ يناير سـنة ١٥٩٥م، الموافـق فيه ٨ جمادى الأولى سنة ١٠٠٣هـ، بعد أن أصيب بداء عياء.

تولّى عرش آل عثمان بعد مراد الثالث ابنه محمد، الذي خرج عن القاعدة التي استفحلت منذ أيام جده سـليم الثاني، وهي تولي الصدر الأعظم قيادة الجيش، فقاد الجيوش بنفسـه وخرج لقتال المجر والنمسا، وانتصر عليهم في موقعة كرزت سنة١٥٩٦م. وفي بداية القرن السابع عشر حصلت في الأناضول ثورة داخلية كادت أن تكون عاقبتها وخيمة على الدولة، خصوصًـا وأن نار الحروب كانت مشـتعلة على حدود المجر والنمسـا، وخلاصتها أن قائد إحدى فرق الإنكشـارية التي نفيت إلى الأناضول عقابًا لها لعدم ثباتها في موقعة كرزت، ادعـى أنه رأى النبي محمد ﷺ في منامه يبشـره بالنصر علـى العثمانيين، فأعلن العصيان وثـار علـى الدولـة وقام بعدد من الفتن إلى جانب شـقيقه، ثم مات بعـد أن أصيب بجراح في إحدى المعارك[1]، لكن شـقيقه اسـتمر يعصي الدولة إلى أن أعطته ولاية البوسنة ليحارب

(١) محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، ص: ٢٦٧ - ٢٧٠

الأوروبيين حتى هلكت جيوشه عن آخرها في المناوشات المستمرة بينها وبين النمسا والمجر. وأعقبت هذه الثورة الكبيرة ثورة أخرى في القسطنطينية هي ثورة الخيالة، الذين طالبوا بتعويضهم عما لحق بهم من أضرار جرّاء الثورة السابقة، فاستعانت الدولة عليهم بجنود الإنكشارية وأدخلتهم في طاعتها مجددًا.

تميزت المدة الممتدة على مدار القرن السابع عشر بمظهر أقل روعة من مظهرها فى القرن السادس عشر بالنسبة للدولة العثمانية، فبعد وفاة السلطان محمد الثالث ظهر سلاطين أكثر ضعفًا وانغماسًا في الملذات، على الرغم من بروز بعض الشخصيات القوية منهم، مثل السلطان عثمان الثاني ومراد الرابع، وبعض الوزراء الذين عملوا على صون هيبة وسلطان الدولة، ومن هؤلاء مراد باشا القبوجي، الذي كان عونًا وعضدًا للسلطان أحمد الأول الذي تولّى وهو لم يتجاوز الرابعة عشر إلا بقليل. وفي تلك الفترة تنازلت الدولة العثمانية عن عراق العجم للدولة الصفوية، فكانت تلك أول معاهدة تركت فيها الدولة فتوحاتها، وكانت بمثابة فاتحة الانحطاط. وبعد أحمد الأول تولّى أخوه مصطفى العرش لثلاثة أشهر فقط، قبل أن يُعيّن عثمان الثاني بدلاً منه، الذي حدث في عهده سابقة كانت الأولى من نوعها، وتدل على مدى الانحطاط الذي وصلت إليه الدولة آنذاك، إذ تخاذل الإنكشارية في القتال، فأراد أن يؤدبهم ويستبدل بهم جنودًا جددًا مدربين، فثاروا عليه وقتلوه وأعادوا عمه مصطفى إلى الحكم.

وما أن انتشر خبر قتل الخليفة حتى عمت الفوضى والثورات أرجاء الدولة العثمانية، وقام الولاة يعلنون الاستقلال عن الدولة، فأشار الصدر الأعظم المعين بواسطة الإنكشارية بعزل مصطفى الأول وتعيين ابن أخيه مراد الرابع. استطاع مراد الرابع أن يُطهّر الدولة من بعض الثورات مثل ثورة أباظة باشا والي أرضروم، وثورة قام بها الإنكشارية، وحركة أمير لبنان فخر الدين المعني الثاني الاستقلالية، كما استرجع بغداد وهمدان وتبريز ويري فان وكامل أذربيجان من الصفويين. وفي عهد خليفته إبراهيم الأول، انتعشت الدولة بعض الانتعاش، فدخل الأسطول العثماني جزيرة كريت من غير أن يلقى مقاومة تذكر، وبعد هذا العهد عرف العثمانيون فترةً من الضعف والعجز لم ينتشلهم منها إلا المصلح الكبير "محمد كوبرولي" الذي تولّى منصب الصدارة العظمى عام١٦٥٦م في عهد السلطان محمد الرابع، فنهض بالدولة نهضة جديدة وطهرها من آفاتها الفتاكة، وهكذا اشتد ساعدها من جديد. وبعد محمد كوبرولي تولّى ابنه "فاضل أحمد" ذات المنصب وسار على نهج

أبيه، فقامت القوات العثمانية سنة ١٦٦٣م بهجوم على بلاد المجر وهددت فيينا نفسها بالسقوط. وفي سنة ١٦٧٢م استولى العثمانيون على أوكرانيا وكانت تابعة لملك بولندا وفي ١٧ يوليو سنة ١٦٨٣م، حاصرت جيوش السلطان محمد الرابع فيينا للمرة الأخيرة، ولكنها صُدّت عنها[1].

ثالثا: دور الركود (١٦٨٣ - ١٨٢٧م)

عُزل السلطان محمد الرابع بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٦٨٧م، الموافق فيه ٢ محرم سنة١٠٩٩هـ، فعمّت الفوضى بعد عزله، وتوالت الهزائم على الدولة العثمانية، فاحتلت النمسا بلغراد وأجزاء من بلاد الصرب، واحتلت البندقية أجزاء كثيرة منها كرواتيا ودلماسيا وأكثر أجزاء المورة. ولم يُنقذ الدولة من تلك المشاكل إلا "مصطفى كوبرولي باشا"، الابن الآخر للمصلح الكبير محمد كوبرولي، فبذل جهده في بث روح النظام في الجنود، وأحسن للنصارى بشكل كبير حتى استمال جميع مسيحيي الدولة، واستطاع استرجاع بلغراد وإقليم ترانسلفانيا لكن على الرغم من ذلك، فإن الدولة العثمانية لم تحقق أي فتوحات جديدة وراء الحدود التي رسمها السلطان سليمان القانوني، فكانت حروبها وفتوحاتها خلال هذه الحقبة لاسترداد ما سُلب منها إجمالاً، ففي عهد السلطان مصطفى الثاني، انتصر العثمانيون على بولندا وأجبروا قيصر الروس بطرس الأكبر على فك الحصار عن مدينة آزوف، واستعادوا البوسنة وبعض الجزر في بحر إيجة، لكن الروس ما لبثوا أن عادوا لفتح آزوف، وانتصر النمساويون مرة أخرى على العثمانيين في "معركة زانطة"، وتحالفوا مع بضعة دول أوروبية ضد الدولة العثمانية وأجبروها على توقيع معاهدة "كارلوفتش"، التي فقدت فيها مدينة آزوف لصالح روسيا، وما بقي لها من بلاد المجر للنمسا، وأوكرانيا وبودوليا لبولندا، وساحل دلماسيا وبعض جزر بحر إيجة للبندقية.

إزداد وضع الدولة العثمانية سوءًا خلال السنوات القليلة اللاحقة، ففي أوائل القرن الثامن عشر، وفي عهد السلطان أحمد الثالث تحديدًا، طلبت السويد دعم العثمانيين في حربها ضد الروس، لكن الأخيرة رفضت في بداية الأمر، فمالت كفة الميزان لصالح الروس الذين هزموا السويد وأرغموا ملكها على الفرار ملتجئً إلى بلاد الترك، وعندما قررت الدولة العثمانية خوض الحرب أخيرًا، سنحت لها الفرصة أن تقضي على القيصر بطرس الأكبر، لكن الصدر الأعظم رفع الحصار عنه بعد تلقيه رشوة من خليلة القيصر كاترين. كذلك أجبر العثمانيون على توقيع معاهدة جديدة هي معاهدة "بيساروفتش"، وذلك بعد أن

(1) Lewis Bernard: The Emergence of Modern Turkey: p24

استنجدت البندقية بالنمسا لتجبر الأخيرة العثمانيين على إعادة جزيرة كريت إلى البندقية، واضطرت الدولة في هذه المعاهدة أن تستغني عن بلغراد، ومعظم بلاد الصرب وجزءًا من الأفلاق للنمسا، وأن تظل البندقية مسيطرة على سواحل دلماسيا، مقابل عودة بلاد مورة للعثمانيين. استرجعت الدولة العثمانية أيضًا بعض المدن التي فقدتها سابقًا لصالح الصفويين، مثل همدان وتبريز وإقليم لورستان، لكنهم عادوا وهزموا وتنازلوا عن كل ما أخذوه من الصفويين.

سجّلت هذه المرحلة بداية اليقظة العثمانية بالانفتاح على الغرب، وبدأت ترجمة بعض المؤلفات الغربية، وسُمح بإنشاء مكتب للطباعة في العاصمة، وجرت الاستعانة بمجريّ اعتنق الإسلام، لبناء المطبعة وتشغيلها. وأخذت وجهة الإصلاح تتجه نحو الاقتباس من الغرب الأوروبي مع المحافظة على الأصول العثمانية الإسلامية، إذ كانت الحضارة الغربية تتسرب، بشكل أو بآخر، إلى الدولة ولكن ببطء، وظهر عدد من المثقفين العلمانيين، كما وفد إلى البلاد عدد من الخبراء الأجانب الذين وضعوا خبراتهم في خدمة الدولة.

قامت الحرب مجددًا بين روسيا والدولة العثمانية خلال عقد الثلاثينيات من القرن الثامن عشر بسبب احتلال الأخيرة لبولندا بدعم من النمسا، فاتحدت الدولة العثمانية مع الفرس واستطاعت دحر الجيش الروسي والنمساوي وثأرت لنفسها من النمسا بعد أن أرغمتها على توقيع معاهدة بلغراد التي نصت على عودة بلغراد وما استحوذت عليه النمسا من أراضي الصرب والأفلاق إلى الدولة العثمانية، وأن تلتزم روسيا بهدم قلاع مدينة آزوف، وألا تبحر أي سفينة حربية أو تجارية تابعة لها في البحر الأسود. لكن نيران الحرب عادت لتستعر مجددًا بين الروس والعثمانيين خلال عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر، عندما فقد العثمانيون عدة مدن لصالح الإمبراطورية الروسية، إلى جانب إقليمي الأفلاق والبغدان. وحاول الروس احتلال طرابزون ولكنهم لم يستطيعوا، ولكنهم استطاعوا لاحقًا فصل القرم عن الدولة العثمانية، وقاومت الدولة العثمانية بكل ما أتيح لها من وسائل حتى أجلت الروس عن كثير من المناطق التي احتلوها. وعند هذه النقطة لجأت الإمبراطورية الروسية إلى أسلوب آخر لزعزعة كيان الدولة العثمانية، هو أسلوب الفتنة الداخلية، فقامت بإثارة مسيحيي المورة على العثمانيين، واتجه الأسطول الروسي إلى المورة لدعم الثورة، ولكنه مُني بالهزيمة، ولكن بعض السفن التي أفلتت تمكنت من إحراق جزء كبير من الأسطول العثماني، ثم اتجهت لاحتلال جزيرة "لمنوس"، فأجبرتها البحرية العثمانية على التقهقر، وأخمدت الثورة في المورة. وفي ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢م،

الموافق فيه ٩ ربيع الأول سنة ١١٨٦هـ، تهادن الفريقان مقابل بعض الامتيازات لصالح روسيا لعلّ أهمها هو حقها في حماية جميع المسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية وفي غضون الحرب العثمانية الروسية، ظهرت حركتان استقلاليتان عن الدولة العثمانية هي: حركة علي بك الكبير في مصر وحركة الشيخ ظاهر العمر في فلسطين، وقد تمكن العثمانيون من القضاء عليها.

ابتدأت محاولات الإصلاح الجدية في عهد السلطان سليم الثالث، الذي يُعد من أوائل المصلحين والروّاد الحقيقيين في التاريخ العثماني كله، وقد قلّده من جاء بعده، واستهدفت إصلاحاته نواحي الحياة كافة، إدارية وثقافية واقتصادية واجتماعية وعسكرية[1] كانت ثقافة هذا السلطان أكثر اكتمالاً من ثقافة من سبقه من السلاطين، إذ تلقّى بعض التدريب على الأفكار الغربية، كما تلقى تعليمًا خاصًا بالطرق الأوروبية، واطّلع على كتابات المؤلفين الأوروبيين، ويبدو أنه استوعب الحالة المتدنية للدولة بشكل أفضل من أسلافه. وعندما اعتلى هذا السلطان العرش كانت ثروات البلاد قد وصلت إلى حالة متدنية، وكان العثمانيون قد عادوا للحرب مع روسيا والنمسا، ولم يكن باستطاعة أي سلطان أن يقوم بحملة إصلاحات ورحى الحرب دائرة، لكن جاءت عناية القدر، عندما ظهرت الثورة الفرنسية وانشغل الإمبراطور النمساوي بها، وخاف أن تمتد إلى بلاده، فعقد صلحًا مع العثمانيين أعاد إليهم بموجبه بلاد الصرب وبلغراد.

واجهت السلطان سليم الثالث في بداية حياته السياسية، المشكلات التقليدية القديمة: تفوّق الغرب، والاتجاه المحافظ لشعبه، وكان بطبعه ميالاً للإصلاح بحيث لم يتردد في الأخذ ببعض الأنماط الغربية، بعد أن حصل على معلومات عن المؤسسات المدنية والعسكرية لدول أوروبا الغربية وأسباب تفوقها على العثمانيين. فجاء بفكرة الجنود النظامية ليتخلص من الإنكشارية الذين أصبحوا منبعًا للفتن والهزائم، وأصلح الثغور وبنى القلاع الحصينة لحمايتها وجعل إنشاء السفن على الطريقة الفرنسية، واستعان بالسويد في وضع المدافع، وترجم المراجع العلمية في الرياضيات والفن العسكري، كما وضع نظامًا هرميًا للقيادة العسكرية، وأخضع التجنيد لقواعد أكثر صرامة، ووضع نظامًا للجنود المشاة تضمن تعليمات لمساعدة الجنود على التصرف كوحدة، ودُعي هذا النظام "بالنظام الجديد". كان من الطبيعي أن تبرز المعارضة لإصلاحات السلطان سليم الثالث العسكرية من

(1) Amira K. Bennison, "Muslim Universalism and Western Globalization," in Globalization in World History, ed. A. G. Hopkins, p. 89.

جانب المحافظين عند إدراكهم لنتائجها ، فنظر الإنكشارية إلى هذه الإصلاحات نظرة ارتياب خاصة بعد فصل السلطان الأسطول والمدفعية عن فرقتهم، فثاروا ومعهم الجنود غير النظاميين وأجبروا الخليفة على إلغاء النظام العسكري الجديد ، ولم يكتفوا بذلك بل عزلوا السلطان وقاموا بقتله لاحقًا بناءً على أمر خليفته ، ويُعتبر سليم الثالث السلطان العثماني الوحيد الذي قُتل بسلاح أبيض.

وكان من أبرز الأحداث التي حصلت في عهد سليم الثالث قيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت الأول ، فتحول أعداء الأمس إلى حلفاء والعكس صحيح ، حيث انهارت الصداقة العثمانية الفرنسية التي قامت منذ عهد السلطان سليمان القانوني ، وتحالفت روسيا وبريطانيا مع الدولة العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر ، وفي عهده أيضًا تكونت جمهورية مستقلة في اليونان تحت حماية الدولة العثمانية وبعد سليم الثالث تولّى مصطفى الرابع عرش آل عثمان ، ولم يدم ملكه طويلاً قبل أن تثور الإنكشارية عليه ويقوموا بعزله وتنصيب أخيه محمود بدلاً منه. امتلأ عهد محمود الثاني بأحداث مهمة ، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي ، فنتيجة للضعف الشديد الذي دب في أوصال الدولة العثمانية ظهر فيها اتجاهان: الاتجاه الأول: الذي أرجع ما وصلت إليه الدولة العثمانية من ضعف إلى الابتعاد عن الإسلام ، والذي ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة في الأرض إلا بالتمسك به؛ والاتجاه الثاني: الذي يقوم على ضرورة تقليد أوروبا تقليدًا أعمى ، لكي يصل العثمانيون إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار وكان من نتيجة الإيمان بالاتجاه الأول أن قامت الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية واجتذبت إليها الكثير من أهلها ، ودعت إلى تطهير الإسلام من كامل الشوائب التي تعلقت به عبر القرون. ولما رأى السلطان محمود أنه من الضروري قمع هذه الفئة التي يخشى من امتدادها على تفريق كلمة الإسلام ، كلّف محمد علي باشا ، والي مصر ومؤسس أسرتها الخديوية العلوية ، بمحاربتها والقضاء عليها ، ففعل ما طُلب منه وأباد الحركة الوهابية ، ثمّ شرع في إصلاح مصر وتنظيمها وفق النظام الأوروبي.

وفي بداية عهد محمود الثاني استقلّت عدّة دول أوروبية عن الدولة العثمانية ، وكانت بداية انشقاق أوروبا الشرقية عن الدولة العثمانية عندما ثار الصربيون وطالبوا باستقلالهم ، فقمعتهم الدولة العثمانية مرتين ، وتعهدت ألا تتدخل في شؤون الصرب الداخلية ، وأن تكون السيطرة للعثمانيين في الصرب على القلاع فقط سرعان ما أعقب هذه الثورة عصيان "علي باشا" والي مدينة يانية الألبانية ، حيث امتنع عن دفع الخراج واحترام الأوامر التي تُرسل إليه

من الآستانة، فأرسل إليه السلطان جيشًا تمكن قائده من القبض عليه وإعدامه، وما فتئت المشاكل تنهال على الدولة العثمانية، فقد ثار اليونانيون طلبًا للاستقلال وهزموا فرقة عسكرية عثمانية أرسلت لقمعهم، فلم يجد السلطان لإخماد الثورة في اليونان غير محمد علي باشا والي مصر، فاستجاب الأخير لطلبه وأرسل سفنًا حربية محملة بالجنود إلى اليونان استطاعت أن تحقق انتصارات كاسحة على الثوّار. غير أن ثورة اليونانيين نجحت، واستطاع الثائرون أن يستقلوا ببلدهم عن الدولة العثمانية بعد المساعدات التي تلقوها من الدول الأوروبية. كذلك كان الأسطول العثماني قد تحطم في معركة نافارين عام ١٨٢٧م، على يد السفن البريطانية والروسية.

رابعًا: دور الأفول والتنظيمات (١٨٢٨ - ١٩٠٨م)

تتميز هذه المرحلة بانحدار الدولة العثمانية سريعًا وفقدانها لمعظم ممتلكاتها الباقية في أوروبا، وقيام السلطان محمود الثاني بعدد من الإصلاحات الكبيرة الهادفة لجعل الدولة تواكب أوروبا الغربية في التطور والازدهار وأوّل ما قام به السلطان محمود الثاني في هذا المجال كان إلغائه لطائفة الإنكشارية بعد أن أصبحت إحدى عوامل تخلّف وتراجع الدولة يقينًا، فاعترض الإنكشارية على ذلك وحاولوا التمرد وتجمعوا في أحد ميادين الآستانة، فحصدتهم المدفعية العثمانية حصدًا. أعلن السلطان بعد قضائه على الإنكشارية نظامًا جديدًا للجند قلّد فيه الأوروبيين، كذلك قام بعدد من الإصلاحات المدنية مثل إقامة المدارس الحديثة ورفع يد الهيئة الإسلامية عن الإشراف على التعليم، وإرسال بعثات طلابية إلى الخارج، واتجه بالبلاد إلى تقليد أوروبا حتى إنه تزيا بزيهم، واستبدل بالعمامة الطربوش، والعباءة والجلباب بالبذلة الغربية.

أعلنت روسيا الحرب على العثمانيين بعد أن رفضت الدولة العثمانية الاعتراف بقرارات مؤتمر لندن الذي نص على استقلال اليونان، وتمكنت من احتلال البغدان والأفلاق، بل وصلت إلى مدينة أدرنه وهددت الآستانة بالسقوط، فتدخلت بريطانيا وفرنسا لوقف تقدم روسيا خوفًا على مصالحها في الشرق، فعُقدت بين الروس والعثمانيين معاهدة أدرنه التي نصت على عودة المناطق التي احتلها الروس إلى الدولة العثمانية مقابل تمتع روسيا ببعض الامتيازات وتعويضها عن الخسائر التي تكبدتها في الحرب، واستقلال بلاد الصرب وتسليم ما تحتفظ به الدولة من قلاعها وفي أواسط سنة ١٨٣٠م، ساءت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا مجددًا، بعد أن نفذت الأخيرة ما كانت تنويه من مدّة، ألا وهو الاستيلاء على ولاية الجزائر بدعوى منع تعدي القراصنة المسلمين على مراكبها التجارية، وبذلك فقدت

الدولــة العثمانيــة الجزائر إلــى الأبد ، على الرغم من استبســال المقاومة بقيــادة الأمير عبد القادر الجزائري، الذي اضطر للاستسلام بعد أن دافع عن بلاده مدة سبع عشرة سنة.

اســتمرت المشــاكل تنهــال على الدولــة العثمانية بعد ســقوط الجزائر، وذلــك أن والي مصر محمد علي باشــا طمع في توســيع رقعة نفوذه بعد أن غدا أقوى ولاة السلطان العثماني في الشــرق العربي، وكان الســلطان محمود الثاني قد وعد محمد علي بأن يوليه على بلاد الشــام لقاء خدماته الجليلة التي قدمها للدولة، لكنه عاد وأخلف وعده، إذ شــعر أن وجود محمد علي في الشام خطرٌ على كيان السلطنة نفسها. فقرر محمد علي أن يجتاح بلاد الشام بالقوة، فوجه جيشــه إلى فلســطين وأخضعها، ثم زحف على مدن الســاحل اللبناني وفتحها الواحدة تلو الأخرى، وسرعان ما لحقت بها سوريا الوسطى والشمالية، وامتد زحف الجيش المصــري إلــى الأناضول حيث هزم الجيش العثماني حديث النشــأة في قونية، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الآستانة، حتى خُيل للعالم في ذلك الوقت أن نهاية الدولة العثمانية أصبحت قريبة عقب هزيمة قونية، استنجد السلطان محمود الثاني بالدول الأوروبية للوقوف في وجه الخطــر المداهــم، فلم ينجده إلا روســيا، التي أرســلت ١٥ ألف جندي إلى الآســتانة للدفاع عنها، فخشيت بريطانيا وفرنسا من امتداد النفوذ الروسي وتوسطت للصلح مع محمد علي، حيــث أقر له الســلطان بولاية مصر وجزيرة كريت وفلســطين ولبنــان وأضنة، لقاء الأموال نفسها الأموال التي كان يؤديها عن الشام الولاة العثمانيون من قبل.

وفي غضون ذلك توسّع النفوذ الروسي في الدولة خصوصًا بعد أن أبرم السلطان معاهدة مع روسيا تعهدت فيها الأخيرة بالدفاع عن الدولة العثمانية لو هاجمها المصريون أو غيرهم. عمــل الســلطان محمود الثاني فــي أواخر أيامه على اســتعادة الشــام ومصر، فجمع جيشًــا جديدًا، ونشــط عملاؤه في الشــام يحرضون الشعب للثورة على المصريين، ثم سار الجيش وقــام بهجوم عبر الفرات أســفر عن كارثة نزلت به، إذ بــدده الجيش المصري في معركة نصيبين عام ١٨٣٩م. ولم تصل أنباء هذه الهزيمة إلى الســلطان محمود الثاني، إذ توفي قبل ذلك بأيام.

خلف السلطان عبد المجيد الأول أباه السلطان محمود الثاني، وهو صبيّ لم يبلغ الثامنة عشــرة مــن عمــره، وكانــت الدولة العثمانيــة على شــفير الانهيار، إذ أصبحــت بلا جيش، بفعل خســارة الجيوش العثمانية أمام المصريين، وتشــتيت القوى المســلحة، وبلا أسطول، بفعل انضمام الأســطول العثماني طواعية إلى الأســطول المصري في الإسكندرية، فسارع الســلطان الفتــى إلى إجراء مفاوضات مع محمد علي، فاشــترط الأخيــر، لعقد الصلح، أن

يكون الحكم في الشام ومصر حقًا وراثيًا في أسرته، وكاد السلطان عبد المجيد يقبل شروط محمد علي لو لم تصله مذكرة مشتركة من الدول الأوروبية الكبرى، عدا فرنسا، تطلب إليه بألا يتخذ قرارًا يتعلق بمحمد علي إلا بمشورتهم، ووعدوه بالتوسط بينه وبين محمد علي، فوافق على ذلك.

ثم اجتمعت كل من بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا وعقدوا اتفاقية صدق عليها العثمانيون، وعرضوها على محمد علي، وهي تنص على بقاء ولاية مصر وراثية في عائلته، وولاية عكا مدى حياته، فرفض محمد علي ذلك وطرد المندوبين الأوروبيين والمندوب العثماني من مصر، وبناءً على ذلك هاجمت البوارج الحربية البريطانية والنمساوية والعثمانية مدن الساحل الشامي واستطاعت أن تحرز انتصارًا كبيرًا على جيوش محمد علي بقيادة ابنه إبراهيم باشا، وأجبرته على العودة إلى مصر والانكماش فيها، وبذلك عادت الشام إلى ربوع الدولة العثمانية، وأصبحت سيادة الدولة على مصر سيادةً اسميّة. توصلت الدول الأوروبية الكبرى، بعد انتهاء الأزمة العثمانية - المصرية، إلى عقد اتفاقية جماعية مع الدولة العثمانية، أُطلق عليها تسمية "معاهدة المضائق" أو "اتفاقية لندن للمضائق"، وقد أرست هذه الاتفاقية نظامًا للمضائق العثمانية ظل مطبقًا بدون إدخال تعديلات جوهرية عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى. حدث في عهد السلطان عبد المجيد عدد من الفتن الداخلية في الولايات العثمانية، وازدادت الدولة ضعفًا على ضعف، مما زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها، فدُعيت باسم "الرجل المريض"، وأخذ الأوروبيون يخططون لاقتسام تركتها مستقبلاً.

اتخذت المسألة الشرقية في أواخر القرن الثامن عشر، شكلها الحديث، وبرزت مع بداية انحسار المد التوسعي العثماني عن أوروبا، ومع اتجاه العثمانيين المتزايد نحو فقدانهم تفوقهم العسكري أمام الدول الأوروبية، وبخاصة روسيا والنمسا، وقد تحكمت بها ثلاثة عوامل هي: ضعف الدولة العثمانية المتزايد وظهور عدد من القوميات المسيحية الصغيرة في شبه جزيرة البلقان والفتن الداخلية المستمرة في بعض الولايات، وقد سمحت جميع هذه العوامل للدول الأوروبية أن تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة وتسيرها حسب مصالحها.

ومن أبرز الأحداث التي استغلتها أوروبا للتدخل في الشؤون العثمانية كانت الفتن الطائفية التي وقعت في بلاد الشام خلال عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في جبل لبنان، فتدخلت فرنسا بحجة حماية الكاثوليك وبشكل رئيسي الموارنة، وتدخلت بريطانيا لدعم الدروز، وروسيا لدعم الأرثوذكس، فوقعت في البلاد مذابح

عظيمة تخللتها سنوات قليلة من السلام، كما اتجهت الدولة نحو سياسة نقل أمور الولايات إلى سلطة داخلية فأنهوا حكم مماليك العراق في بغداد والبصرة وآل جليلي في الموصل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كما قضوا على الإمارات الكردية شبه المستقلة في حكاري وسوران وبادينان إثر ضغط دولي عقب مجازر بدر خان في الأربعينيات من نفس القرن. تُعدّ حرب القرم التي ابتدأت عام ١٨٥٤م بين روسيا والدولة العثمانية، من أهم مراحل المسألة الشرقية، فقد دفعت هذه الحرب بالعلاقات الدولية نحو التأزم، وغيّرت التحالفات السياسية، فوقفت بريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية للدفاع عن سلامة أراضيها ضد الروس.

وتتلخص هذه الحرب في أن القيصر الروسي نيقولا الأول اعتقد أن بإمكانه أن يطرح قضية إنهاء المسألة الشرقية بشكل جذري، وأبدى نيته في اقتسام أملاك الدولة العثمانية، فعرض على بريطانيا تقسيم الدولة العثمانية بينهما، فرفضت، فحاول إغراء فرنسا بالإغراء نفسه، فرفضت أيضًا، فهددت روسيا باحتلال الأفلاق والبغدان إن لم تعد الدولة العثمانية للإمبراطورية الروسية حق حماية المسيحيين الأرثوذكس الذي فقدته وفق نص معاهدة المضائق، فلم يعرها السلطان أي اهتمام بعد أن وعدته بريطانيا وفرنسا بالدفاع عن الدولة ضد أي هجوم محتمل، فأقدمت روسيا على تنفيذ تهديدها، فتحالف العثمانيون مع بريطانيا وفرنسا والنمسا ومملكة البيدمونت بإيطاليا والسويد، وقصفت أساطيلهم ميناء سيفاستوبول في شبه جزيرة القرم، وضربت الكثير من قلاعه بالإضافة للإغارة على الكثير من موانئ روسيا على البحر الأسود، وتوغلت القوات المتحالفة في أراضي روسيا حتى طلبت الصلح، فعُقدت معاهدة سلام في باريس أنهت الحرب وأنقذت الدولة العثمانية من الخطر الروسي الذي كان يتهددها، وبات من المنتظر أن تغدوا بلدًا متحدًا يأخذ بركب الحياة الدستورية كما عرفها الغرب، وتنضم إلى سائر أعضاء المنظمة الدولة على قدم المساواة.

وفي أواخر عهد السلطان عبد المجيد الأول، نشبت فتنة طائفية كبرى في الشام، وتحديدًا في دمشق وسهل البقاع وجبل لبنان بين المسلمين والمسيحيين عمومًا، والدروز والموارنة خصوصًا فوقعت مذابح مؤلمة وبلغ عدد القتلى اثني عشر ألفًا، وكان ممثلو بريطانيا وفرنسا يشجعون الفريقين على الانتقام ويساعدونهم على الثأر، فخشي السلطان أن تؤدي هذه الفتنة إلى تدخل الدول الأجنبية العسكري، فأوعز إلى المسئولين العثمانيين في بيروت ودمشق بوجوب إخمادها حالاً، وأوفد في الوقت ذاته وزير الخارجية فؤاد باشا الذي عُرف بالدهاء والحزم، وخوله سلطات مطلقة لمعالجة الموقف، فقام

بمهمتـه خير قيام وأعدم معظم الذين تسـببوا بالمذابح وسـجن الباقيـن ونفى بعضهم وأعاد بعض المسـلوبات إلى أصحابها من المنكوبين المسـيحيين، وجمع تبرعات كثيرة أنفقها علـى ترميم القـرى. وكانت الدول الأوروبية قد ضغطت على السـلطان وحملته على القبول بتشـكيل لجنة دولية يوكل إليهـا أمر إعادة الهدوء إلى جبل لبنان ودمشـق، وتصفية ذيول الفتنة. توفي السلطان عبد المجيد يوم ٦ يونيو سنة ١٨٦١م، الموافق فيه ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ، عـن أربعين سـنة، بعد أن قـام ببعض الإصلاحـات الكبيرة في الدولـة، أبرزها فرمانه الشـهير الصادر سـنة ١٨٥٦م، الذي سـاوى فيه بين جميع رعايا الدولة مهما اختلفت عقيدتهـم الدينية، فتحسـن وضع المسـيحيين بشـكل أكبـر، وازدادت نسـبة المتعلمين منهم، الأمر الذي ساهم في إنعاش اقتصاد الدولة لاحقًا.

بويع السـلطان عبد العزيز الأول بالخلافة وعرش آل عثمان بعد وفاة أخيه عبد المجيد، وممـا يذكـر فـي عهده:افتتاح قنـاة السـويس وقيام ثورة فـي جزيرة كريت تـم إخمادها.[١١٥] وكان هـذا السـلطان كثيـر التجوال فـي البـلاد الخارجية، فزار مصروزار فرنسـا، وحـاول تقريب روسـيا إليه حتـى تخافـه دول أوروبـا، لكنـه عُزل بنـاءً على فتوى شـرعية بسـبب تبذيره أمـوال الدولة، كما تنص بعـض المصادر، وعُثر عليه ميتًـا في غرفته فقيل أنه انتحر وقيل أنه قُتل، وتولّى بعده شقيقه مراد، ولم يستمر عهده أكثر من ٣ أشهر، وتم عزله بسبب اختلال عقله.

وبعد مـراد الخامس بويع عبـد الحميـد الثاني بالخلافـة وعـرش السـلطنة، وفـي ذلـك الحيـن كانـت البلاد تمـر في أزمات حـادة ومصاعب مالية كبيرة، وتشـهد ثـورات عاتية في البلقان تقـوم بهـا عناصر قومية تتوثـبّ لتحقيق انفصالها، وتتعرض لمؤامرات سياسـية بهـدف اقتسـام تركة "الرجل المريـض". ومنذ اليوم الأول لارتقائه العرش، واجه السـلطان عبد الحميد موقفًا دقيقًا وعصيبًا، فقد كانت الأزمات تهدد كيان الدولة، وازدادت سرعة انتشـار الأفكار الانفصالية، وأصبح للوطنية معنى جديد أخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات العثمانية، ووجد السـلطان نفسـه مشـبع بالثـورة والاضطراب فقد تجـددت الثورة في إقليميّ البوسـنة والهرسـك، واسـتمرت في بلغاريا، وكان الصرب والجبل الأسـود في حالة حرب مع الدولة. ولهذه الأسباب تدخلت الدول الأوروبية لاستغلال الموقف بغية تحقيق مصالحها بحجة إحلال السـلام. فشـجعت روسيا والنمسا الصرب والجبل الأسود على حرب العثمانيين، حيث رغبت النمسـا بضم البوسنة والهرسـك، بينما رغبت روسيا بضم الأفلاق والبغـدان وبلغاريا، ووعدت روسـيا النمسـا والصرب والجبل الأسـود بالوقـوف بجانبهم إذا

قامت حرب بينهم وبين العثمانيين وبالفعل قامت الحرب بين الدولة العثمانية وتلك الدول، إلا أن الجيوش العثمانية استطاعت الانتصار ووصلت إلى مشارف بلغراد، غير أن تدخل أوروبا أوقف الحرب.

قدّمت الدول الأوروبية الكبرى لائحة للدولة العثمانية تقضي بتحسين الأحوال المعيشية لرعاياها المسيحيين، ومراقبة الدول الأوروبية لتنفيذ إجراءات التحسين، فرفضت الدولة اللائحة؛ لأن هذا يعتبر تدخلاً صريحًا في شؤونها، فاستغلت روسيا الرفض واعتبرته سببًا كافيًا للحرب، وفي هذه المرة أطلقت أوروبا العنان لروسيا لتتصرف كيفما تشاء مع العثمانيين، فاحتلت الأفلاق والبغدان وبلغاريا ووصلت أدرنة وأصبحت على بعد ٥٠ كيلومترًا فقط من الآستانة، كذلك دخلت جيوشها الأناضول، وعادت الصرب والجبل الأسود لتعلن الحرب على الدولة العثمانية، فاضطرت الأخيرة إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة سان ستيفانو مع روسيا، التي اعترفت فيها باستقلال الصرب والجبل الأسود والأفلاق والبغدان وبلغاريا، ثمّ تمّ تعديل هذه المعاهدة في مؤتمر عُقد في برلين تمّ بموجبه سلخ المزيد من الأراضي عن الدولة العثمانية. كشفت قرارات مؤتمر برلين عن ضعف الدولة العثمانية، فاستغلت الكيانات السياسية والقومية هذا الضعف، وقامت بانتفاضات على الحكم المركزي بهدف الحصول على الاستقلال الكامل، ودعمتها أوروبا في سبيل تحقيق ذلك، وهكذا توالت الأزمات السياسية في وجه السلطان عبد الحميد الثاني بعد الحرب العثمانية الروسية ومؤتمر برلين. انضمت تونس إلى قائمة الأقاليم التي فقدتها الدولة العثمانية لصالح أوروبا في عهد عبد الحميد الثاني عندما احتلتها فرنسا، ثم لحقتها قبرص التي احتلتها بريطانيا، وأتبعتها بمصر والسودان، بحجة حماية الدولة العثمانية من أي اعتداء.

لعلّ أهم الأحداث التي جرت في عهد عبد الحميد هي الأزمة الأرمنية وقيام الحركة الصهيونية، ويتفق المؤرخون، المسلمون منهم خاصةً، أن هذين الحدثين هما ما ساهم في تشويه صورة الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني. وتفصيل الأزمة الأرمنية أن الأرمن طالبوا بعد مؤتمر برلين باستقلالهم، خاصة أن السلطان لم يقم بتطوير يُذكر لأوضاعهم، وعملت البعثات التنصيرية الأوروبية والأمريكية على إذكاء الشعور القومي الأرمني، وفي الوقت نفسه اعتقدت الدوائر الحاكمة في الآستانة أن بعض الأرمن يعملون كعملاء لروسيا وبريطانيا، وساورها الشكوك حول ولائهم، ومن ثم نظرت إليهم على أنهم خطر يهدد كيان الدولة ومستقبلها وأمنها. وتصاعد التوتر في بلاد الأرمن، ولم تلبث أن عمّت الاضطرابات، فخرج حوالي ٤٠٠٠ أرمني عن طاعة السلطان في بدليس بعد تأخر

الإصلاحات الموعودة، فقام العثمانيون بالرد على ثورة الأرمن بأن أرسلوا جيشًا مؤلفًا بمعظمه من الأكراد إلى مناطق الثورة حيث دمّروا العديد من القرى الأرمنية وقتلوا كثيرًا من الثوّار ومن ساندهم، فيما أصبح يُعرف باسم "المجازر الحميدية"، وتطور العنف ليشمل المسيحيين بشكل عام كالسريان كما في مجازر ديار بكر. أما الحركة الصهيونية، فنشأت بقيادة ثيودور هرتزل، ودعت إلى إنشاء وطن قومي ليهود العالم في فلسطين الخاضعة للدولة العثمانية وتشجيع اليهود على الهجرة إليها، فأصدر السلطان عبد الحميد فرمانًا يمنع هجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة، لكنه اضطر في نهاية المطاف إلى التهاون معها تحت ضغط الدول الأوروبية، وخاصةً بريطانيا[1].

خامسًا: دور الانحلال وخاتمة الدولة (١٩٠٨ - ١٩٢٢م)

كانت الأفكار القومية قد تغلغلت بشكل كبير في جسم الدولة العثمانية أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وأنشأ الداعون لهذه المفاهيم المؤسسات والجمعيات التي تحمل أفكارهم، وكان من أهم هذه الجمعيات جمعية تركيا الفتاة، التي تأسست في باريس وكان لها فروع أخرى في برلين، وفي أنحاء الدولة العثمانية في سالونيك والآستانة، واستطاعت أن تضع لها قدمًا في الجيش العثماني، وكان لها جناح عسكري عرف بتنظيم الاتحاد العثماني وكان لها جناح مدني هو الانتظام والترقي، واتفق الفريقان أن تكون جمعيتهم باسم "الاتحاد والترقي". وامتد نفوذ الاتحاد والترقي في الدولة، فضم إليه الكثير من ضباط الفيلق الأول المسيطر على الآستانة، وكذلك الفيلقين الثاني والثالث المرابطين في الولايات العثمانية الباقية في أوروبا. وقد حاول السلطان عبد الحميد مقاومة هذه الجمعيات، فنادى وتمسّك بفكرة الجامعة الإسلامية، لكنه فشل أمامهم، خصوصًا بعد أن سيطروا على أكثر الجيش. فرض الاتحاديون على السلطان إعلان دستور جديد للبلاد يخلف الدستور الأول أو "القانون الأساسي" الذي أعلنه سنة ١٨٧٦م، فذعن لمطلبهم

(١) قاوم السلطان عبد الحميد الثاني فكرة اليهود الهادفة إلى إقامة دولة لهم في فلسطين بما أوتي له من قوة، فرفض في عام ١٨٧٦م عروض "حاييم گوديلا" لشراء مساحات من الأراضي في فلسطين، لإسكان المهاجرين اليهود فيها، وقد لجأ اليهود إلى سفراء الدول الأوروبية وروسيا والولايات المتحدة في الآستانة لإقناع السلطان بالسماح لهم بالهجرة. ونتيجة لازدياد شعور السلطان بالتحرك اليهودي، أبلغ المبعوث اليهودي "أوليفانت" أن باستطاعة اليهود العيش بسلام في أية بقعة من أراضي الدولة العثمانية إلا فلسطين، وأن الدولة تُرحب بالمضطهدين، ولكنها لا تُرحب بإقامة دولة دينية يهودية في البلد المذكور. وقد حاول بعض اليهود تحدي قرار الباب العالي بالنزول في يافا، فتصدت لهم السلطات العثمانية ومنعت دخولهم، وبخاصة الروس منهم، إلى مدينة القدس. لكن السلطان عاد وسمح لليهود بسكن القدس لمدة شهر واحد فقط أثناء حجهم إليها، تحت ضغط الدول الأوروبية، ثم عاد وجعل هذه الفترة ٣ أشهر. وقد سافر ثيودور هرتزل إلى الآستانة وحاول الاجتماع بالسلطان، لكن الأخير رفض مقابلته، وحين تمكن هرتزل من الاجتماع به أخيرًا عرض عليه خمسين مليونًا من الجنيهات الذهب لخزانة الدولة، وخمسة ملايين من الجنيهات الذهب لخزانة السلطان الخاصة، بالإضافة إلى مشاريع أخرى كثيرة لدعم الدولة العثمانية اقتصاديًا، مقابل تنازلها عن فلسطين، لكن السلطان رفض رفضًا قاطعًا.

وأعلن الدستور، فسيطر الاتحاديون على معظم مقاعد المجالس النيابية، ووجدوا أن السلطان سيكون عائقًا في تحقيق أهدافهم، فعزلوه وولوا أخاه محمد الخامس مكانه.

تولّى محمد "رشاد" الخامس العرش والدولة في احتضار، ولكنها كانت ما تزال متماسكة، وأصبح الاتحاديون هم الحكام الفعليين للبلاد، أما السلطان فكان مجرّد ألعوبة في أيديهم، وفي ذلك الوقت كانت الدولة قد أضاعت كثيرًا من بلادها في أوروبا، والأفكار القومية تنتشر يومًا بعد يوم، والبلاد في حالة إفلاس بسبب الحروب المتواصلة، والأوروبيون قد تسلطوا على مالية الدولة لاستيفاء ما لهم عليها من ديون وفي نفس السنة لاعتلاء محمد رشاد العرش، سيطرت الإمبراطورية النمساوية المجرية على البوسنة والهرسك، وبعد ثلاث سنوات هاجمت إيطاليا ليبيا، آخر الممتلكات العثمانية الفعلية في شمال أفريقيا، فقاومها العثمانيون بكل طاقتهم، لكنهم لم يستطيعوا شيئًا، فسقطت البلاد بعد سنة من المعارك الشديدة. ثم جاءت حرب البلقان الأولى التي تولّى كبرها كل من مملكة صربيا ومملكة الجبل الأسود ومملكة اليونان ومملكة بلغاريا، وفقدت فيها الدولة العثمانية ما تبقى لها من ممتلكات في البلقان عدا تراقيا الشرقية ومدينة أدرنة، وانسحب حوالي ٤٠٠,٠٠٠ مسلم من سكّان تلك البلاد إلى تركيا خوفًا من ما قد تُقدم عليه جنود العدو وفي تلك الفترة ظهرت النزعة التركية الطورانية بقوة وعنف، وسعى حزب الاتحاد والترقي إلى تتريك الشعوب غير التركية المشتركة مع الأتراك في العيش تحت ظل الدولة العثمانية، مثل العرب والشركس والأكراد والأرمن وفي سنة ١٩١٣م عقد الوطنيون العرب مؤتمرًا في باريس، واتخذوا مقررات أكدوا فيها على رغبة العرب في الاحتفاظ بوحدة الدولة العثمانية بشرط أن تعترف الحكومة بحقوقهم، كون العرب أكبر الشركاء في الدولة، وطالب هؤلاء أن تُحكم الأراضي العربية حكمًا ذاتيًا وفق نظام اللامركزية، وقد وعد الاتحاديون الزعماء العرب الأحرار بقبول مطالبهم، لكن ذلك لم يتحقق بفعل نشوب الحرب العالمية الأولى.

سادسًا: الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)

انطلقت شرارة الحرب الأولى في ٢٨ يونيو عام ١٩١٤م عندما كان الأرشيدوق فرانز فرديناند، وليّ عهد العرش النمساوي المجري يقود سيارته في مدينة سراييفو في البوسنة الخاضعة للنمسا، فاغتاله أحد القوميين الصرب، فاعتبرت الإمبراطورية النمساوية المجرية صربيا مسئولة عن هذا الاغتيال، فتدخلت روسيا لدعم صربيامدعومة من فرنسا وتحركت ألمانيا ضدهما، وما لبث أن دخلت بريطانيا الحرب بعد ذلك بفترة

قليلة، ومن ثم تشكلت الأحلاف، فدخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب معسكر دول المحور، أي ألمانيا والنمسا وبلغاريا، بعد أن فقد العثمانيون الأمل في محاولات التقارب مع بريطانيا وفرنسا، وفشلوا في الحصول على قروض عاجلة منهما لدعم الخزينة، وعُزلت الدولة سياسيًا بعد حروب البلقان وإيطاليا؛ فلم يكن لهم سوى خيار التقارب مع ألمانيا التي رأت مصلحتها في "الانتشار نحو الشرق. وفي ١٠ أغسطس سنة ١٩١٤م، دخلت الدولة العثمانية الحرب بشكل فعليّ، بعد أن سمحت لبارجتين ألمانيتين كانتا تطوفان البحر المتوسط، بعبور مضيق الدردنيل نحو البحر الأسود هربًا من مطاردة السفن البريطانية. وخطا الباب العالي خطوة مهمة باتجاه الاشتراك بالحرب، حيث أعلن الصدر الأعظم إلغاء الامتيازات الأجنبية، ملبيًا بذلك إحدى المطالب الرئيسية للقوميين الأتراك، ثم اتخذ خطوة أخرى في طريق التحدي بإغلاقه المضائق بوجه الملاحة التجارية، كما ألغى مكاتب البريد الأجنبية وجميع السلطات القضائية غير العثمانية بعثت الانتصارات الألمانية الخاطفة على الجبهة الروسية الأمل في نفوس الاتحاديين، بشأن إمكانية استعادة الأراضي العثمانية المفقودة لصالح روسيا المهزومة، فهاجم الأسطول العثماني الموانئ الروسية في البحر الأسود، وقد شكّل ذلك أمرًا واقعًا زج بالدولة العثمانية في الحرب، فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، واقتدت بها كل من بريطانيا وفرنسا، وردّ السلطان محمد الخامس بإعلان الحرب، ودعا المسلمين إلى الجهاد، إلا أن ذلك لم يتحقق، فأغلب مسلمي العالم كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار البريطاني أو الفرنسي، وكانت السلطات الاستعمارية قد جندت بعضًا منهم أيضًا في جيوشها خاضت الجيوش العثمانية الحرب على جبهات متعددة من دون استعداد كامل، فعلى الجبهة الروسية مُنيت الحملة العثمانية بهزيمة فادحة، حيث فتك القتال والصقيع والوباء بتسعين ألف جندي عثماني، وفي الجنوب نزل البريطانيون في الفاو على الخليج العربي واستولوا على العراق، أما عملية قناة السويس فجرت قبل الموعد المحدد، وفيها اتفق العثمانيون مع المصريين على قتال البريطانيين، لكنها أسفرت عن هزيمة العثمانيين وأودت بحياة الكثيرين دون طائل. وقام أسطول الحلفاء بمهاجمة مضيق الدردنيل في خطوة للاستيلاء على الآستانة وإخراج الدولة العثمانية من الحرب، وإمداد الجبهة الروسية، لكن هذا الأسطول الضخم عجز عن اجتياز المضيق وهزم العثمانيون طاقمه هزيمة كبيرة في معركة بريّة، كانت النجاح الوحيد لهم في مقابل سلسلة من الإخفاقات، وبرز في هذه المعركة القائد مصطفى كمال.

وأثيرت أثناء المعارك، التي اندلعت على الجبهة الشرقية وهجوم الحلفاء في الدردنيل

وغاليبولي، قضية الأرمن مرة أخرى، إذ قام الاتحاديون بنقل سكان المناطق الأرمنية في ولايات الشرق وكيليكيا والأناضول الغربية إلى بلاد الشام، بهدف تأمين حياة السكان المدنيين وحماية القوات المسلحة من خيانة محتملة من جانب العناصر الموالية لروسيا وكان بعض الأرمن قد تطوعوا في الجيش الروسي، وقتلوا عددًا من السكان المسلمين في الأناضول الشرقية، ونتيجة لذلك تعرّض المرحلون لعمليات تعذيب وقتل فيما أصبح يُعرف باسم "مذابح الأرمن، بعد فشل الحملة العثمانية على مصر، جرت اتصالات سريّة بين البريطانيين في مصر والشريف حسين بن علي والي الحجاز، وبعض الزعماء العرب، وتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يثور العرب على الأتراك وينضموا إلى الحلفاء مقابل وعد من هؤلاء بمنح العرب الاستقلال وإعادة الخلافة إليهم. وتنفيذًا لهذا الاتفاق أعلن الشريف حسين في يونيو سنة ١٩١٦م الثورة العربية على الأتراك، فأخرجهم من الحجاز وأرسل قوّاته شمالاً بقيادة ولديه فيصل وعبد الله لتشارك القوات البريطانية في السيطرة على بلاد الشام. وفي غضون ذلك سُحقت المقاومة البلغارية في البلقان، مما أرغم حكومة صوفيا على طلب الهدنة، فأدرك الباب العالي خطورة الموقف، لأن الحرب أضحت قريبة من الأراضي التركية، ويمكن للعدو أن يتغلغل بحريّة في تراقيا الشرقية ويزحف حتى أبواب الآستانة، فأبرم العثمانيون معاهدة مودروس مع الحلفاء، خرجوا بموجبها من الحرب.

سابعًا: حرب الاستقلال التركية (١٩١٩ - ١٩٢٢م)

توفي السلطان محمد الخامس قبل أشهر من انتهاء الحرب، وخلفه أخاه محمد "وحيد الدين" السادس. وبعد مرور شهر على توقيع هدنة مودروس، دخلت البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية ثم الأمريكية إلى القرن الذهبي، وأنزلت قواتها في الآستانة التي حوّلتها إلى قاعدة لنشاط الحلفاء في المنطقة كلها. سيطر الحلفاء على موانئ البحر الأسود كلها، واقتسموا الأراضي التركية، فاحتل الفرنسيون مرسين وأضنة، والإيطاليون أنطاكية وكوشا داسي وقونية، واحتل اليونانيون القسم الغربي من الأناضول، بالإضافة إلى تراقيا. كان ردّ الفعل الداخلي لاتفاق الهدنة سلبيًا، فقد رفض الأتراك الخضوع للاحتلال والقبول بمشاريعه، فقامت ثورة وطنية في جميع أنحاء البلاد احتضنتها الحركة الوطنية بزعامة القائد مصطفى كمال، والتي عُرفت باسمه "الحركة الكماليّة"، لتواجه خضوع الحكومة لرغبات الحلفاء وتعاون السلطان محمد السادس مع المحتلين، ومحاولات اليونان توسيع المناطق التي احتلتها، وازدياد الثورات الأرمنية. وعقدت الحركة الكمالية مؤتمرات عديدة في طول البلاد وعرضها لاستنهاض

الوعي القومي وإنقاذ البلاد من التقسيم، وتشكّلت حكومة وطنية برئاسة مصطفى كمال بهدف إقامة دولة تركية مستقلة، ألغت جميع القوانين والتعليمات التي أصدرتها الحكومة السابقة، ووضعت السلطان وحكومته خارج إطار القانون، وقد حاول السلطان القضاء على هذه الحركة فلم يُفلح.

وفي تلك الفترة فُرضت معاهدة سيفر على السلطان، التي مزّقت أوصال الدولة، وقّع عليها مرغمًا، في حين رفضتها الحكومة الكمالية، ووضعت مخططًا لإنقاذ تركيا بمعزل عن السلطان. تمكّن مصطفى كمال بعد جهود مضنية واصطدامات شديدة مع اليونانيين، من الانتصار، فاستعاد كمال الأراضي التي احتلوها، وفرض على الحلفاء توقيع هدنة جديدة اعترفت فيها اليونان بانتصارات تركيا، فأضحى مصطفى كمال بطلاً قوميًا، وبرز في الواجهة السياسية في حين ظل السلطان في الظل، فما كان منه إلا أن تنازل عن العرش واعتزل الحياة السياسية، وغادر البلاد على ظهر بارجة بريطانية نقلته إلى جزيرة مالطة، في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢م، الموافق فيه٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤١هـ.

اعتلى عرش السلطنة العثمانية، بعد تنازل السلطان محمد السادس، وليّ العهد عبد المجيد الثاني، وبعد أن أصبح مصطفى كمال سيد الموقف، وقّع معاهدة لوزان مع الحلفاء التي تنازل بمقتضاها عن باقي الأراضي العثمانية غير التركية، ثم جرّد السلطان من السلطة الزمنية وجعله مجرّد خليفة، أي أشبه بشيخ الإسلام، ولكن من غير سلطة روحيّة أيضًا. ثم ألغى الخلافة سنة ١٩٢٤ وطرد عبد المجيد من البلاد، وبهذا سقطت الدولة العثمانية فعليًا بعد أن استمرت لما يقرب من ٦٠٠ سنة، وانهارت معها الخلافة الإسلامية بعد أن استمرت ما يزيد عن ألف سنة. وقد رثا أمير الشعراء أحمد شوقي الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية بأبيات من الشعر قال فيها:

ضجت عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواح
الهند وآلهة ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحّاح
والشام تسأل والعراق وفارس ... أمحا من الأرض الخلافة ماح؟![1]

واتخذ "مصطفى كمال" عدة خطوات بعد أن صار رئيسًا للجمهورية التركية وعدة إجراءات بكتابة اللغة التركية الأبجدية اللاتينية بدل الأبجدية العربية، وذلك عام ١٩٢٨م، ونبذ الطربوش لباسًا للرأس وإحلال القبعة مكانه، وتتريك الأسماء والألقاب، وصار هو

(١) أحمد شوقي بك: الشوقيات، ج١.

نفسه يعرف من عام ١٩٣٤م باسم "كمال أتاتورك"، أي أبو الأتراك، وصار اسم رفيق كفاحه "عصمت باشا" يعرف "عصمت إينونو" نسبة إلى معركة إينونو المشهورة في هزيمة اليونان بالأناضول خلال حرب التحرير.

وبتولية "مصطفى كمال" أتاتورك رئاسة الجمهورية التركية انتهى عهد الدولة العثمانية الممتد من عام ١٣٠٠ حتى عام ١٩٢٤م، ليبدأ عهد الجمهورية التركية في تاريخها المعاصر الممتد من عام ١٩٢٤م حتى الآن[1].

وهكذا سارت الأمور في الدولة العثمانية منذ تزعمها أرطغرل وابنه الأمير عثمان أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، حتى سقوطها على يد حركة الاتحاد والترقي ومصطفى كمال عقب سنوات الحرب العالمية الأولى والصراع ضد السلاطين، ثم ضد قوات الاحتلال الأوروبية.

كانت ميادين الصراع التى دخلتها الدولة العثمانية باسم الإسلام عديدة ومتنوعة في شبه جزيرة آسيا الصغرى والبلقان وشرق أوروبا حتى وسطها عند أسوار مدينة فينا، وفي بلاد فارس ضد الخطر الشيعي على الدولة العثمانية السنية وغيرها من بلاد الشام والعراق ومصر، وفي شمال أفريقيا العربية الإسلامية ضد الخطر الصليبي البرتغالي الأسباني وفرسان القديس يوحنا.

وقد استأثرت منطقة الخليج العربي باهتمام السلاطين العثمانيين ورجال الدولة رغم هذا الزخم من الميادين، وقد بدأ هذا الاهتمام منذ أوائل القرن السادس عشر لمواجهة الغزو البرتغالي الغاشم في المحيط الهندي والبحر الأحمر على الخليج العربي، ولكن الاهتمام زاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لمواجهة الغزو والاحتلال الأوروبي: الهولندي ثم البريطاني.

ثامنًا: أحوال الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٦١ - ١٨٧٦م:

شهدت الدولة العثمانية منذ عام ١٨٣٩م حركة للإصلاح الإداري بما يحقق حماية لجميع رعايا الدولة بصرف النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية أو الجغرافية ومنحهم حقوقًا متساوية في جميع نواحي الحياة، عرفت هذه الإصلاحيات باسم التنظيمات، وذلك تحت ضغوط أوروبية لتحقيق حماية للأوروبيين في الولايات العثمانية في شرق أوروبا والمسيحيين في البلاد العربية المشمولين بحماية ورعاية الدول الأوروبية.

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص٣٠.

كما أحدثت حركة التنظيمات بعض التغيرات الأساسية في إدارة الدولة، حيث تأسس شكل إداري يحقق السلطة المطلقة لمركز الدولة، كما اهتمت بتأسيس جامعة ومدارس أولية ومتوسطة ورشدية، إلا أنه حدثت مشكلات للدولة من جانب الدول الأوروبية التى تصارعت حول أملاك الدولة العثمانية سواء في أوروبا أو في الوطن العربي: في لبنان وسوريا والعراق ومصر.

وخلال حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦م) مرت الدولة العثمانية بأزمة اقتصادية كبيرة اضطرتها لأول مرة للاستدانة الخارجية، وقد زاد من هذه الأوضاع الاقتصادية والمالية السيئة في الدولة، حالة الإسراف التى انتشرت بين رجال الدولة وبين الرعايا، والابتعاد عن العادات اليومية البسيطة وانتشار أنماط المعيشة ذات التكاليف الباهظة التى اتخذت من أوروبا مثالاً يحتذى به وبصدور فرمان الإصلاحات في لندن وباريس وفرض على الدولة العثمانية وهو لمصلحة الرعايا غير المسلمين الذين يعيشون في أملاك الدولة العثمانية وبالتالي تمزيق أجزاء الدولة، ومن ثم وقع المجتمع المسلم في الدولة العثمانية تحت النفوذ الاقتصادي الأوروبي، وكانت الامتيازات التى انتزعتها الدول الأوروبية في المجالات القضائية والسياسية والتعليمية والدينية من الدولة العثمانية، فاتحة ارتباط المجتمع المسلم بالمجتمعات الأوروبية[1].

وعلى المستوى الداخلي في الدولة العثمانية ظهرت أول محاولة لتأسيس تنظيم سياسي واجتماعي يعمل ضد نظام الدولة الجديد، وذلك عام ١٨٥٩م، وكان هذا التنظيم بزعامة الشيخ أحمد وهو تنظيم سري انضم إليه مجموعة من الضباط العثمانيين الكبار ومن كبار الموظفين وكبار التجار والأعيان ولكن هذا التنظيم فشل في تحقيق أهدافه بالتخلص من السلطان العثماني عبد المجيد صاحب فرماني التنظيمات لعام ١٨٣٩م والإصلاحات عام ١٨٥٦م وقد توفي السلطان عبد المجيد في ٢٥ يونيو ١٨٦١م ليخلفه السلطان عبد العزيز.

وقد حدثت خلال فترة حكم السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) عدة أحداث خطيرة لها انعكاساتها على المجتمع العثماني، كان منها مسألة استمرار الحركات الإصلاحية في الدولة أو عدم استمرارها، وكان منها أيضًا الصراع بين السلطان وإدارة الدولة التى تزعمها الصدر الأعظم، وكان منها كذلك مسألة كيفية تسديد الديون الخارجية التى اقترضتها الدولة سابقًا من البنوك الأوروبية.

---

(١) كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، المبحث الرابع، من كتاب دراسات في التاريخ العثماني، ترجمة وتقديم وتعليق دكتور سيد محمد السعيد، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٥٢ - ٢٦٨.

وكان السلطان عبد العزيز حريصًا على الإمساك بالسلطة المطلقة وعلى منع الصدر الأعظم من الانفراد بالحكم والإدارة، وقد زادت الديون الخارجية للدولة زيادة ملحوظة، بسبب تمسك السلطان عبد العزيز بالمصروفات العسكرية والكبيرة لتقوية الدولة عسكريًا، في الوقت الذي تمكنت فيه الطوائف النصرانية - عدا اليهود - التى تعيش في الدولة العثمانية من تغيير بنائها وتشكيلاتها الداخلية بسرعة، وقد تطور فكر القومية بين رعايا الدولة من غير المسلمين تطورًا معتمدًا على الدين أكثر من اعتماده على عناصر اللغة والجنس[1].

وقد ظهرت في أواخر عهد السلطان عبد العزيز حركة مناهضة لاستبداد السلطان عبد العزيز عرفت باسم "كينج عثمانلير" أي الشبان العثمانيين، وتسعى لإعطاء المسلمين العثمانيين حقوقهم كمواطنين من الدرجة الأولى، ومقاومة التدخل الأوروبي في الشئون الداخلية للدولة، كان من زعماء هذه الحركة كل من: مدحت باشا وعلى سعاوي وإبراهيم شناس وغيرهم، والذين رأوا ضرورة وضع دستور على النسق الأوروبي، والذي عرف بالمشروطية لأنه يقوم على الحد من صلاحيات السلطان ووضع نظام مراقبة جديدة في الدولة، ومحاولة حل مشكلات المجتمع العثماني الذي بدأ في التغيير.

جاء ظهور مدحت باشا إذن مع ظهور جماعة أو تنظيم الشبان العثمانيين والذي شارك في إنزال السلطان عبد العزيز من عرش السلطنة العثمانية ورفع السلطان مراد الخامس الذي ظل في الحكم لمدة ثلاثة شهور ليرتفع السلطان عبد الحميد الثاني إلى عرش السلطنة في سبتمبر ١٨٧٦م، على يد رجال الدولة من أنصار المشروطية لمعرفتهم عنه أنه مجيء للإصلاح، فنشر السلطان عبد الحميد القانون الأساسي الذي أعده مدحت باشا، وأعلن المشروطية "الدستور" أثناء انعقاد المؤتمر الأوروبي في استانبول في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م والذي كان يهدف إلى إعطاء الأقاليم الأوروبية - البوسنة والهرسك والبلغار - حقوقًا تصل بهم إلى الاستقلال، وبهذا نسف إعلان دستور مدحت باشا التآمر الأوروبي، حيث إن الدستور كان يؤكد على مبدأ وحدة أراضي الدولة العثمانية[2].

وإذا كان لمدحت باشا فضل إعداد المشروطية "الدستور" بتأييد من جماعة التنظيم (الشبان العثمانيين)، فإن تنفيذ الدستور بدأ بتشكيل مجلس نيابي مشترك مزدوج من الأعيان ومن المبعوثان في الدولة، وانعقاده الأول في عام ١٨٧٧م، ولكن السلطان عبد

(١) المرجع السابق: ص٢٧٠ - ٢٨٠.
(٢) المرجع السابق: ص٢٨٢ - ٢٨٣.

الحميد الثاني قام في ١٤ فبراير بتعطيل البرلمان لأجل غير مسمى بسبب الانتقادات التى وجهها بعض أعضاء مجلس المبعوثان، وقام بنفي مدحت باشا الذي لم يكن على وفاق معه عقب عزله من مقام الصدارة العظمى[١].

وفي تركية في الفترة من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٦م كانت الحالة السياسية تتابع تدهور نتيجة سفه رجال البلاط والحكام في القسطنطينية وكذلك الحكومة في أقاليم البلقان، وقد ثبت للأتراك أن إقليم الأحساء - الذي ضمه الباب العالي للدولة في العقد الأخير - تصعب السيطرة عليه وإدارته. . إلى جانب أنه لا يفيدهم شيئًا يذكر، فرأت الحكومة التركية - خلاصًا من المشاكل والنفقات التى وجدت نفسها متورطة فيها - أن تعين شيخًا وطنيًا من أهل الإقليم حاكمًا باسم تركيا وأن تسحب معظم حاميتها، وخلال شهور قليلة بعدها قام قريب لأمير الوهابيين بغزو الإقليم وأطاح مؤقتًا بالحكم التركي، كما حاصر الشيخ الذي عينه الأتراك في حصن بعاصمة الإقليم.

لكن موقف تركيا أمكن إنقاذه بوصول ناصر باشا شيخ المنتفق من البصرة ومعه قوات كبيرة. وقد عاد الشيخ إلى البصرة بعد أن سوى الأمور في الإقليم المتمرد "تسوية لا ترحم"، وفي سنة ١٨٧٥م، أنشئت ولاية جديدة باسم ولاية البصرة وذلك باقتطاع بعض الأقاليم من ولاية بغداد، وضم إقليم الأحساء إليها، وأصبح ناصر باشا، رغم أنه عربي المولد والقبيلة، أول حاكم لهذه الولاية[٢].

ولم يحل هذا الفشل بين الحكومة التركية القائمة وقتذاك وسياستها في التوسع الإقليمي، ففي سنة ١٨٧٢ استولوا على منطقة "جوف العامل" على حدود نجد بواسطة قوة صغيرة أرسلت من فلسطين، ولكنهم لم يسيطروا على تلك الواحة سوى سنتين فقط، وبدأ تآمر الأتراك على موقع عديد على حدود قطر في عمان المتصالحة، وخلال هذه الفترة كان العلم التركي يرتفع أحيانًا فوق العديد ويعتقد أيضًا أن أهلها كانوا يدفعون جزية موسمية لتركيا. . وحوالي هذا الوقت فقط بدأت الغيرة تساور الحكومة التركية في نفوذ بريطاني متوهم في قلب الجزيرة العربية[٣].

(١) المرجع السابق، ص٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص٤٢٧.

(٣) موسوعة ويكيبيديا: الدولة العثمانية. http://ar. wikipedia. org.

الفصل الثاني

مشيخات الخليج العربى

مقدمة

مشيخات الخليج العربى

خبرة عرب الخليج فى الملاحة

القواسم والجهاد البحرى

عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى

المغامرات البحرية

مقدمة

الخليج الحائر تعبير جيد ارتبط بأشهر خليج فى قارات الكرة الأرضية، ألا وهو الخليج العربى الذى يمثل الحد الشرقى للوطن العربى، وهو تعبير ابتكره ابننا الرائد فى معالجة الموضوعات المتميزة والتى انفرد بها وارتبطت به هو الدكتور محمود رمضان عبد العزيز خضراوى، وقد ساق هذا التعبير - الخليج الحائر - بسبب اللبس الذى ارتبط باسم الخليج من التاريخ القديم حتى التاريخ المعاصر، خاصة تعبير الخليج الفارسى والخليج العربى. وأيضا تعبير الخليج الثائر الذى أطلقه الزعيم جمال عبد الناصر فى الخمسينيات من القرن العشرين فى إطار حديثه عن وحدة الوطن العربى من المحيط الهادر الأطلسى إلى الخليج الثائر العربى.

وتأتى حيرة تسمية الخليج فى رأس المؤلف الدكتور محمود رمضان - ونحن نتفق معه - من تدخلات لقوى خارجية وقوى أجنبية لها أهدافها الاستغلالية والعنصرية، فبينما نجد إيران كقوة خليجية تطلق على الخليج تعبير الخليج الفارسى وسواحلها على الخليج ٨٦٠ كيلو مترا يسكن هذه السواحل سكان من أصول عربية، فى الوقت الذى تمتد فيه سواحل الأقطار العربية المطلة على الخليج ١٣٥٧ كيلو مترا، نجد بريطانيا منذ القرن التاسع عشر تساير اتجاه إيران فى تسمية الخليج الفارسى، حيث أصبح لها مصالح فى الهند - درة التاج البريطانى - ومصالح فى جنوب إيران حينما تم اكتشاف البترول فى أوائل القرن العشرين وتكوين شركة البترول الأنجلو إيرانية.

وشاعت تسمية الخليج باسم الخليج الفارسى فى الأدبيات الأوروبية كما نقل عنها البعض من علماء الأمة العربية هذه التسمية، لأن أصحاب هذه الأدبيات من الأوروبيين انطلقوا منطلقا سياسيا لا علميا فى التسمية، لتحقيق هدف مزدوج، الأول: تحقيق مصالح اقتصادية وإستراتيجية مع إيران. والثانى: التقليل من مكانة الأقطار العربية الخليجية التى تتطلع إلى الارتباط القوى مع أمتها العربية، وتدرك أن أمن الخليج العربى مرتبط بأمن الأمة العربية كاملة.

ومن المعروف أن قبيلة القواسم فى إمارة رأس الخيمة لها تاريخها النضالى الواضح للدفاع عن عروبة الخليج ومعاداة قوة تستبيح مياهه، حتى ولو كانت هذه القوة هى بريطانيا المسيطرة على شبه القارة الهندية ابتداء من القرن السابع عشر وعمليات القواسم للجهاد البحرى العربى الإسلامى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فى الخليج خير شاهد على المواقف العربية الواضحة للدفاع عن عروبة الخليج، كما أن مواقف القواسم فى

النصف الثانى من القرن العشرين كانت أقوى وأوضح فى الترويج لفكرة القومية العربية.

وخير دليل على ما نقول قيام إمارة الشارقة وحاكمها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمى بجمع كل الوثائق والخرائط والتقارير والرسوم والإحصاءات والدراسات التى تؤكد عروبة الخليج، تلك المصادر التى اعتمد عليها الابن العزيز الدكتور محمود رمضان فى عرض مبادرته القيمة عن الخليج الحائر، واستفاد منها فى كتابة هذا العمل العلمى القيم.

ومن الأمور الجديرة بالتقدير أن الدكتور محمود رمضان ناقش حيرة الخليج بموضوعية ودون انحياز لعروبة الخليج أو تعصب ضد فارسية الخليج لأنه بدأ بمناقشة هذه التسميات منذ التاريخ القديم قبل مجيء الإسكندر الأكبر للمنطقة وأثناء هذا الوجود المقدونى، وبعد الإسكندر الأكبر مرورا بالعصر الإسلامى، ثم العصور الحديثة وحتى التاريخ المعاصر، انطلاقا من أن تسمية الخليج بالخليج العربى حتى وإن كانت بعد تسمية قائد جيوش الإسكندر الأكبر بناركوس عام ٣٢٥/٣٢٦ ق. م الذى أطلق اسم الخليج الفارسى على الخليج لأنه فى طريقه الى الهند اجتاز بلاد فارس وهزم إمبراطورها ولم يزر الساحل العربى الأكثر طولا، بينما جاءت تسمية المؤرخ اليونانى سترابون عام ٥٨ ق. م إلى ٢٣م باسم الخليج العربى، إلا أن تسمية الخليج بالخليج الفارسى لم تنتشر إلا عام ١٤٧٧م. بعد شيوع التسمية العربية بسنوات طويلة.

وهذا يدعونا إلى عرض لأحوال الخليج الجغرافية والتاريخية، إذا كان طول الخليج العربى ابتداء من شماله فى الفاو حتى رأس مستدم على مضيق هرمز نحو ١٣٥٧كم فإن عرضه يتراوح بين ١٨٠ و ٢٨٠كم، وتبلغ مساحته السطحية ٢٥٠ ألف كم٢ أما أعمق قسم منه فإنه يبلغ ١٠٠ متر قرب جزيرة هرمز، والسواحل الشرقية للخليج ضحلة تنحصر عنها المياه سنويا نظرا لترسبات الأنهار التى تصب فيه، وأهمها شط العرب ونهر قارون.

وتتميز مياه سواحله الغربية بكثرة الخلجان والأخوار والجزر العديدة. أما السواحل فتتكون أرضها من تلال رملية وسهول صحراوية تنتشر فيها بعض الواحات الخصبة ذات التربة الطينية الرملية الصالحة لزراعة النخيل والخضراوات والفاكهة، كما توجد الينابيع ذات المياه العذبة فى داخل مياه الخليج وعلى سواحله وخاصة فى جزر البحرين. أما الآبار الإرتوازية والينابيع فإنها تتدفق فى كثير من الإمارات على ساحل عمان وفى قطر. كما تشتهر أعماق الخليج العربى منذ القدم بأنها من أهم مصائد اللؤلؤ الطبيعى الذى ظل عماد ثروة إمارات الخليج وتجارتها حتى ظهور النفط بكميات غزيرة فى البر والبحر [1].

(١) إبراهيم الشريقي: أضواء على الخليج العربي ومسقط وعمان.

ويذكر الدكتور محمد متولى فى كتابة القيم:حوض الخليج العربى أن للخليج العربى شخصية متميزة تتمثل فى الآتى:

١) الشخصية العربية للخليج:

وهذا يعنى أن الخليج عربى فى كل مظاهره وسماته، حقيقة أن فارس أو إيران الحديثة تطل على سواحله الشرقية، ولكن هذه السواحل كانت يوما ما عربية، ومازالت آثار العرب ماثلة فيها سواء فى إقليم عربستان الذى يقع عند رأس الخليج أو فى سكانه من القبائل العربية، من أمثال قبائل بنى كعب وبنى تميم، أو فى الأعلام الجغرافية المختلفة فى منطقة السواحل الجنوبية لإيران من أمثال المحمرة وقارون والشيخ شعيل وقيس وخورموسى، وهى أعلام تطلق على المدن والأنهار وعلى الجزر وأشباه الجزر، وعلى الرؤوس التى تبرز فى مياه الخليج، وعلى الخلجان التى تتوغل فى الأرض اليابسة.

٢) الخليج العربى قديم قدم التاريخ:

شهدت شواطئ الخليج العربى أحداثا بارزة فى تاريخ البشرية، حيث شهدت شواطئه مولد كثير من الحضارات والإمبراطوريات، وظهرت على جوانبه الفلسفات والمذاهب الدينية وبعد أن قامت دول سومر وأكاد وبابل وعيلام عند رأس الخليج ثم زالت، وبعد قيام إمبراطورية الفرس على شواطئه الشرقية كان الخليج منطلق الإسلام فى الشرق، وكان بحيرة داخلية للخلفاء العباسيين، حتى مجىء الأوروبيين إلى الشرق واحتلالهم لبلاد الهند ظل الخليج - كما كان - طريقا طبيعيا للثروات الأسطورية وممرا بحريا لتجارة البخور والتوابل والحرير عندما كانت هذه السلع أندر وأغلى من الذهب.

٣) تاريخ الخليج تاريخ متصل ذو حلقات متتابعة من الازدهار والانحلال:

يحدثنا التاريخ عن الدول القديمة التى قامت عند رأس الخليج مثل بابل وآشور وأكاد وعيلام. والتى دامت وقتا طويلا ازدهرت فيه الحياة، فنشطت التجارة والزراعة وعم الرخاء، وما أن أفلت، ركدت بأفولها الحياة فى أنحاء الخليج عموما. والإمبراطورية الفارسية التى قامت بعد ذلك على الشواطىء الشرقية الشمالية للخليج، والازدهار الذى صحب قيامها والنشاط الاقتصادى الذى عاصر هذا الازدهار، والمدن التى شيدت والموانىء التى أنشئت. ثم زالت الإمبراطورية الفارسية فحلت النكسة أرجاء الخليج من أقصاه إلى أقصاه.

ويحدثنا التاريخ كذلك عن ازدهار الحياة فى عهد الدولة العباسية التى قامت فى بغداد وعن النشاط التجارى الذى صحب اتساع نفوذ كل من البصرة والبحرين وعمان فى منطقة

الخليج، ثم انكماشه بعد أن تقلص هذا النفوذ. ويحدثنا التاريخ أيضا عن الخليج كطريق للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وعن نشاط هذه التجارة حينا وركودها أحيانا، أوعما كان يصحب هذا وذاك من يسر أو عسر فى حياة السكان.

والازدهار البترولى الحالى فى منطقة الخليج، وهو الازدهار الذى لايجاريه أى ازدهار فى الماضى، يرتبط ارتباطا طبيعيا بتلك الفترات الزاهرة التى كان الخليج العربى فيها ملتقى التجارة الدولية، وفى ذلك الوقت - كما هو الشأن فى الوقت الحاضر - قامت مراكز حضارية مهمة، وشيدت مدن كان يؤمها التجار والبحارة من كل أطراف العالم حيث يجد كل منهم بغيته.

يمثل الخليج العربى أقصى امتداد للعالم العربى نحو الشرق، فهو بموقعه إلى الشرق من الجزيرة العربية يمثل الأطراف الشرقية للعالم العربى، ويعتبر بحق نهاية هذا العالم الواسع من ناحية الشرق. ويجمع الجغرافيون وعلماء السلالات البشرية على أن الجزيرة العربية كانت الوطن الأول الذى نشأ فيه العرب واكتسبوا صفاتهم البشرية المميزة، وأنهم انتشروا منه تحت تأثير ظروف جغرافية قاهرة نحو الشمال ونحو الشرق ونحو الغرب فى الشام والعراق وفارس. ومن هنا فإن الجغرافيين يعتبرون منطقة الخليج العربى أقصى امتداد برى للقبائل العربية نحو الشرق، ومن ثم كانت بحق الحد الشرقى للوطن العربى. كما كانت مركزا وسطا بين بلاد العالم الإسلامى، ويعتبر بحق قلبه النابض، وهو على هذا الأساس يعتبر بحيرة عربية إسلامية معا.

٤) الخليج العربى فاصل مذهبى ولغوى:

لايعتبر الخليج العربى مجرد حد فاصل بين العالم العربى والعالم الإيرانى، وإنما ينظر إليه الجغرافيون والمؤرخون كحد فاصل كذلك بين مفهومين إسلاميين متميزين، يتركز أحدهما على ضفافه الشرقية وهو المذهب الشيعى - الذى ظهر بعد قيام الدولة الصفوية، ويتركز الآخر وهو المذهب السنى على ضفافه الغربية. أما عند رأس الخليج فى العراق وفى وسطه فى البحرين فيوجد خليط من الشيعة والسنة. وحتى الماضى القريب كانت الاصطدامات تتعدد بين أنصار هذين المذهبين، خصوصا عندما جعلت إيران قضية المذهب الشيعى قضيتها لأسباب سياسية أكثر منها أسباب دينية، وعمدت بذلك إلى انفصالها واستقلالها عن العالم العربى.

٥) الخليج العربى بلاد الفقر المدقع والثراء العريض:

يعتبر الخليج العربى من أشد جهات العالم جدبا، فسواحله غير مضيافة وهى أرض جيرية

ورملية، وتقسو البيئة الطبيعية قسوة من غير حدود، ومن ثم اتجه الناس إلى البحر للبقاء أحياء، حيث غاصوا للبحث عن اللؤلؤ وتاجروا وصاروا ملاحين وصيادين، ثم جاء القرن العشرين بخيره العارم وفيضه الواسع الذى يتمثل فى أضخم ثروة بترولية عرفها الإنسان تكمن تحت ثرى أرض الخليج المقفرة.

٦) الخليج العربى طريق مهم للتجارة العالمية بين الشرق والغرب:

لموقع الخليج العربى أهمية خاصة، فهو ذراع بحرى للمحيط الهندى يتوغل فى داخل الأرض اليابسة بحيث يقرب المسافة البرية عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط الهندى وبين البحر المتوسط أو بين الشرق والغرب، ويتألف هذا الذراع البحرى من خليجين كبيرين هما:

أ - خليج عمان وهو خليج خارجى.

ب - خليج داخلى وهو الخليج العربى.

إلى جانب مضيق هرمز الذى يصل الخليجين أحدهما بالأخر.

والخليجان يفصلان بين السواحل الإيرانية من جهة والسواحل العربية من جهة أخرى، وهما فى الواقع امتداد لبحر العرب الذى يعد جزءا من المحيط الهندى.

وترجع أهمية الخليج العربى إلى موقعه المتوسط فى قلب العالم القديم بين العالم الأسيوى والأفريقى فى الشرق، وبين العالم الأوروبى فى الغرب. تمر به التجارة وتزخر به الثروة البترولية فى منتصف القرن العشرين، مما جعل الدول الغربية البحرية تعمل جاهدة على الاحتفاظ بنفوذها فى منطقة الخليج العربى.

٧) الخليج العربى مطمع الدول الغربية:

جذب الخليج العربى أنظار الدول الغربية خاصة بعد استعمار شبه القارة الهندية، حيث كان الخليج طريقا للتجارة والمواصلات بين بريطانيا ومستعمرتها فى الهند طوال العصور الحديثة، حتى إذا تفجرت الثروة البترولية زادت الدول الغربية بريطانيا - فى الأساس - ثم الولايات المتحدة الأمريكية من اهتمامها بأقطار الخليج العربية المنتجة للنفط، ومن ثم زادت مطامع تلك الدول فى ثروات أقطار الخليج وتمركزت مصالحها بحماية جيوشها لضمان استمرار تدفق النفط الخليجى لتيسير آلاتها الاقتصادية والحربية، ولإبعاد أى تهديد لهذه المصالح سواء من جانب الاتحاد السوفيتى - قبل تفككه - أو من جانب إيران.

تتميز أقطار الوطن العربى الخليجية بأنها متشابهة تشابها قل أن يوجد مثيله فى العالم،

سـواء فى السطح أو المناخ أو السكان وغيرها من الظواهر الطبيعية ، ومع ذلك فإنه يعيش تجزئة سياسية ناتجة من ميراث تاريخى وسياسى استعمارية للدول الغربية التى سعت لفرض سيطرتها على هذه الأقطار.

وأخيرا نعود إلى اسم الخليج الحائر فقد أطلقت على الخليج أسماء متعددة مثل:

"أرض الله" ، "وأرض البحر" ، "وخليج البصرة" ، كما أطلق عليه اليونانيون والرومان اسم "البحر الأسفل"شـأنهم فى ذلك شـأن الآشـوريين والبابليين الذين أطلقوا عليه ذات التسمية على اعتبار أن البحر المتوسـط هو "البحر الأعلى" ، أما المؤرخ "اسـترابون"فقد أطلق عليه - كما ذكرنا - اسم"الخليج العربى"فى بعض الأحيان.

ولـم يـرد اسـم الخليج فـى الكتابـات الفارسـية القديمة ، إلا أن تسـميته باسـم"الخليج الفارسـى"انتقلت مـن اليونـان والرومان إلـى غيرهم من النـاس ، ومنهم بعـض العرب الذين أطلقوا عليه - جهلا - اسـم "بحر فارس" ، "وخليج فارس""والخليج الفارسـى"وذلك نقلا عن قدماء الجغرافيين الذين نقلوا هذه التسـمية عن اليونانية واللاتينية عندما غزا الإسـكندر الأكبـر بلاد فارس عام٣٣٣ق. م وهزم عاهلها"داريوس"فى معركـة "إبسوس"الشـهيرة. وقد عـزز الاسـتعمار فى العصـور الحديثة إطلاق تسـمية"الخليج الفارسـى"على الخليـج العربى لتحقيق أغراض استعمارية ضد المصلحة العربية.

وقد كشـفت البعثـات الأثرية الأجنبية فى الخليج عن آثار مهمـة تربط الخليج بعروبته ، ومن أشـهر هذه الآثار القصر التاريخى فى جزيرة"أم نار" قرب أبو ظبى ، كما كشـفت بعد ذلـك عـن آثار قصر آخر فى قريـة "الهيلى"فى ذات المنطقة بالإضافة إلـى الآثار والحفريات الكثيرة فى البحرين وقطر وغيرهما من إمارات الخليج العربى.

وقـد ثبت علميا أن الكنعانيين كانوا أول من سـكن سـواحل الخليـج العربى ، وهم قبائل سامية يرجع نسبها إلى كنعان بن سنحاريب بن غزود الأول بن كوس بن سام بن نوح ، ثم رحل الكنعانيون إلى سورية حيث استقر المقام بهم. إلى جانب قبائل عربية عدنانية هى قبائل قضاعة وربيعة وإياد ، كما اسـتقرت فى عمان قبائل الأزد من"كهلان"التى نزحت من اليمن بعد انهيار سـد مأرب عام ١٢٠ق. م ، والنشـاط الذى شـهده ينتسـب للعرب الذين امتهنوا الملاحة وركوب البحر ، أطلق عليهم البعض - أى على قبائل أقطار الخليج العربى - القبائل البرمائية[1].

---

(١) د. محمود رمضان: القصة التاريخية للخليج الحائر (٣٢٦ - ٣٢٥ق. م) ١٩٣١م ، أسماء ومسميات الخليج ، في ضوء مجموعة الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي لخرائط الخليج التاريخية ١٤٩٣ - ١٩٧١م ، تقديم أ. د. رأفت غنيمي الشيخ ، ص٩ - ١٦.

مشيخات الخليج العربى:

تتكون أقطار الخليج العربى من مسقط وعمان، والبحرين، وقطر، ومشيخات الساحل العمانى المتصالح، والكويت، وكانت تسكنها قبائل عربية تعمل بالتجارة والرعى واستخراج اللؤلؤ. وكانت عمان أكثر مناطق الخليج العربى تنظيما سياسيا بسبب وجود الإمامة الأباضية بجبال عمان الداخلية كما كانت أقرب إلى المجتمعات الحضرية. وهذا يشير إلى أن التنظيمات القبلية كانت سمة المجتمعات الخليجية حتى مجىء البرتغاليين والعثمانيين لتظهر قيادات وطنية تواجه الغزو الاستعمارى الأوربى.

فى الصفحات التالية استعراض للدور البحرى لعرب الخليج فى نقل المتاجر بين الهند وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وأقطار الخليج حتى العراق، انطلاقا من خبرتهم فى ركوب البحر ومن ثم سيطرتهم على مياهه والقيام بعمليات جهاد بحرى اسلامى ضد السفن البرتغالية المعادية لهم، ثم ضد جميع السفن الأوربية المارة فى مياه الخليج العربى فى مواجهة مشيخاته وموانيه.

خبرة عرب الخليج فى الملاحة:

قد يعتقد البعض أن قبائل شبه الجزيرة العربية على الإطلاق قبائل ذات صفة بدوية تمارس حياتها اليومية فى الصحراء بما تفرضه طبيعة الصحراء من أسلوب لحياة الناس، وهم فى اعتقادهم هذا لا يكادون يذكرون تأثير الخليج على القبائل العربية التى تعيش على سواحله ومن ثم فنحن مع القائلين بأن حياة القبائل العربية التى تسكن شواطىء الخليج العربى تختلف إلى حد ما عن حياه القبائل العربية الضاربة فى صحراء شبه الجزيرة العربية، كما أننا مع التسمية التى أطلقت على النوع الأول من القبائل وهى" القبائل البرمائية "تمييزا عن النوع الثانى المعروف بالقبائل البدوية أو الصحراوية.

وانطلاقا من التأكيد على دور القبائل البرمائية التى عاشت وتعيش على شواطىء الخليج العربى فى بناء حياتها كان لابد أن نشير إلى خبرة هذه القبائل فى الملاحة، تلك الخبرة التى فاقت فى شهرتها حياة القبائل البدوية، بل وساعدت على الاتصال بالعالم الخارجى بينما بقيت القبائل البدوية محصورة فى حياة البداوة بكل إيجابياتها وسلبياتها المعروفة بل إن القبائل البرمائية الخليجية تحملت الكثير للدفاع عن مياه الخليج ضد الغزاة ومن هنا نراها كما حملت رسالة الخير خارج نطاق الخليج بالعمل فى نقل المتاجر وقيادة السفن على امتدا الخليج من ميناء البصرة بشمال الخليج حتى شرق أفريقيا والهند والصين، رأيناها

تقف بصلابة ضد هجمات الاستعمار على مياه الخليج وأراضيه[1].

امتاز عرب الخليج إذن بالقدرة على ركوب البحر والطواف بسفنهم خارج نطاق الخليج وذلك قبل مجيء الاستعمار البرتغالى كأول قوة أوروبية معتدية على المياه العربية الجنوبية واشتهر من عرب الخليج ملاحون شهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء بالمهارة فى الملاحة وركوب البحر ولعل أشهر هؤلاء الملاحين الملاح العربى الخليجى "شهاب الدين أحمد بن ماجد" الذى ولد "بجلفار" على ساحل عمان والذى قاد سفن "فاسكو دى جاما" الملاح البرتغالى من "مالندى" بشرق أفريقيا إلى الهند ببراعة سجلها له "دى جاما"[2].

وبخبرة أهل الخليج الملاحية شاركوا فى نقل متاجر الهند فى المحيط الهندى والبحر العربى متجنبين القراصنة الهنود الذين اتخذوا من جزر هذا المحيط وذلك البحر مأوى لهم، حتى تصل المتاجر إلى البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا أو تصل إلى الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوروبا أى أن عرب الخليج المهرة فى الملاحة والتجارة ساهموا بدورلا يمكن إنكاره فى رخاء أوروبا وفى تزويدها بمتاجر الشرق بل وفى بناء الحضارة الأوربية الحديثة.

حتى إذا جاء البرتغاليون بقوتهم الصليبية ضد كل ما هو إسلامى سواء فى شمال أفريقيا ثم فى شرق أفريقيا حيث شارك عرب الخليج مع عرب الجنوب فى بناء حضارة عربية أفريقية ذات مدن مزدهرة مثل "مالندى" وسفالة" و "كيلوة" و "ممبسة" و "دار السلام" وغيرها، وقف عرب الخليج العربى ضد التدمير والعدوان البرتغالى وشاركوا فى معركة "ديو" البحرية عام ١٥٠٩م التى لم يكتب النصر فيها للتحالف الإسلامى بسبب قوة الأسلحة النارية للبرتغاليين[3].

وتحمل الخليجيون منذ أوائل القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين دورهم التاريخى فى مواجهة الغزاة المعتدين على الخليج وأهله سواء كان هؤلاء الغزاة برتغاليين أو هولنديين أو بريطانيين، ورغم عدم التكافؤ بين قوة أهل الخليج الحربية وقوة الغزاة الحربية فإن الخليجيين استخدموا ما يمكن أن نسميه حرب العصابات أو عمليات الجهاد البحرى ضد هؤلاء الغزاة أو العمليات التى امتلأت كتب المؤرخين الأوروبيين وصفا لها بالقرصنة، وكأنما من يدافع عن دينه وأرضه وعرضه ضد عدوان غاشم صليبى يتهم بالقرصنة ويطلب من المجتمع الدولى العمل على محاربته.

---

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٢٨٦.

(٢) أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار في معرفة البحار، القاهرة، ١٩٦٩م.

(٣) د. رأفت غنيمي الشيخ: أفريقيا في التاريخ المعاصر، القاهرة، ١٩٨٩م.

وكان البرتغاليون بقوتهم الغاشمة قد نجحوا فى الاستيلاء على جزيرة"هرمز"١٥٠٨م ثم توالى استيلاؤهم على كل من مسقط والبحرين وبقية ساحل عمان ماعدا الأحساء، واستخدموا الوحشية أسلوبا للتعامل مع عرب الخليج ولا عجب فى ذلك فإن البرتغاليين صليبيون متعصبون ضد المسلمين أينما كانوا.

لم يسلّم الخليجيون بالغزو والاستعمار من جانب البرتغال بل وقاوموا ما وسعتهم المقاومة وشهدت الفترة من عام ١٦٤٠م حتى عام١٦٥٠م انحسارا للوجود البرتغالى فى الخليج ساهم فيه الخليجيون بدور أساسى ومارسوا فيه عمليات الجهاد البحرى وشاركهم أيضا مغامرون أتراك مثل"بيرى بك"و"على بك"الذين وقفوا ضد البرتغال فى الخليج والبحر العربى فى المدة من عام١٥٥١م حتى عام١٥٨١م. ومن الإنصاف القول بأن القضاء النهائى على الوجود البرتغالى فى الخليج العربى أسهم فيه بدور كبير الإنجليز والهولنديون عام ١٦٨٩م وإن كان ذلك من أجل مصالح انجلترا وهولندا لا من أجل مصالح عرب الخليج.

تمرس عرب الخليج إذن على عمليات الجهاد البحرى بمقدم الغزاة البرتغاليين، ومن ثم فلم يصعب عليهم بعد جلاء البرتغاليين عن أراضى ومياه الخليج أن يواجهوا القوى الأوروبية التى حاولت أن ترث تركة البرتغال فى الخليج، ومن المؤسف حقا أن يتسبب الاستعمار فى تحويل عرب الخليج من بناة رخاء وحضارة لأوروبا وللعالم بنقلهم المتاجر بين الشرق والغرب ونقلهم الثقافات المختلفة إلى مجاهدين فى البر والبحر دفاعا عن دينهم وأرضهم وعرضهم وحياتهم، ومن ثم يتضاءل دورهم الحضارى العالمى وهو أمر لاشك فى أنه مخطط من جانب الاستعماريين[1].

استمرت علاقة عرب الخليج بالبرتغاليين متوترة حتى بعد إجلاء الآخرين من الخليج، فقد استطاع عرب الخليج بحملة بحرية انتزاع مدينة"ممبسة"الأفريقية العربية من أيدى البرتغاليين عام ١٦٦٠م كما استمرت عمليات الجهاد البحرى للخليجيين ضد سفن البرتغاليين فى الخليج العربى والبحر العربى والمحيط الهندى من عام ١٦٩٣ حتى عام١٧٢٢م وشهدت مياه الخليج سواء قرب الشواطىء الشرقية الإيرانية أو فى المياه الإقليمية العربية من الخليج معارك، وكانت سفن العمانيين فى مقدمة السفن الخليجية العربية فى تلك المعارك سواء أمام ميناء"كنج"الفارسى أو مقابل"مسقط"العربية أو عند ميناء ممبسة الأفريقي أو باتجاه مدينة"سورات"الهندية وإذا لم يكن النصر حليف العرب فى كل تلك المعارك إلا أنهم قاموا بعمليات الجهاد الإسلامى ثأرا من اعتداءات البرتغاليين السابقة على أراضى عرب الخليج.

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، المرجع السابق، ص٢٨٨.

وعندما جاء الهولنديون إلى مياه الخليج اهتموا بالتجارة أكثر من اهتمامهم بالغزو والاستعمار وإن كان هذا لاينفى أنهم اشتركوا مع الإنجليز فى طرد البرتغاليين من الخليج العربى، ولعل هذا من أسباب عدم تطبيق عرب الخليج سياسة الجهاد البحرى ضد سفن الهولنديين، ومن ثم مارست تلك السفن نشاطها فضلا عن سفن الإنجليز وبعض المغامرين العرب الكارهين لكل ما هو أوروبى مسيحى.

وأما بالنسبة للانجليز فقد حرصوا على توفير الأمان لسفنهم العاملة فى الخليج العربى وفى البحر العربى والمحيط الهندى لضمان انتقال المتاجر دون عقبات بين انجلترا والهند عبر مياه الخليج العربى والمحيط الهندى، ثم ضمان المواصلات بين انجلترا ومستعمرتها فى الهند التى تكونت منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية فى عام ١٦٠٠م واتسعت سيطرتها فى القرن الثامن عشر، ومن ثم دخلت انجلترا فى منافسة مع الهولنديين للاستئثار بالنفوذ والعلاقات مع عرب الخليج ولحماية التجارة والمواصلات الإنجليزية[1].

وما دمنا قد وصلنا إلى القرن الثامن عشر وإلى بداية السيطرة البريطانية على مياه الخليج العربى فيجدر بنا أن نشير إلى أن عرب الخليج كانت لهم السيطرة على مختلف ألوان النشاط البحرى فى مياههم خلال القرن الثامن عشر، حيث مارسوا صناعة بناء السفن والغوص على اللؤلؤ، كما أداروا حركة الملاحة التجارية بين موانى الخليج بعضها وبعض، وبينها وبين موانى شرق أفريقيا والهند، ومن ثم صارت لهم السيطرة على جزر الخليج وعلى أجزاء مختلفة من الشاطئ الشرقى للخليج أيضا.

كما يجدر بنا أن نفرق بين نوعين من العمليات البحرية العسكرية التى قامت بها سفن عرب الخليج، النوع الأول موجه ضد سفن الدول الغربية انطلاقا من كراهية العرب لكل ما هو أوروبى بسبب ما لقوه على أيدى البرتغاليين من وحشية وهذا النوع هو ما نسميه بعمليات الجهاد البحرى الإسلامى. والنوع الثانى من تلك العمليات التى تقوم بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى فى الخليج لأسباب عدائية كالتى تحدث فى الصحراء بين القبائل بعضها وبعض أو لمطامع رئيس قبيلة أو تنفيذا لسياسة قوة أخرى أكبر ومن عجب أن يطلق الكتاب الأوروبيون على النوعين من العمليات البحرية اسم القرصنة.

وعلى هذا فإننا عند الحديث عن عمليات الجهاد البحرى نجد أن السفن الإنجليزية العاملة بالخليج العربى لم تسلم من تلك العمليات على يد السفن العربية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فنقرأ قرارا أصدره مجلس مديرى شركة الهند الشرقية البريطانية

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٨٩.

المنعقد فى لندن إلى وكيل الشركة فى الخليج ما نصه : إذا فشلت جميع الجهود المبذولة لقمع اتجاهات القرصنة - يقصد الجهاد البحرى - لدى الإيرانيين والسلطات الأخرى فى الخليج فى تحصيل تعويضات عن الأضرار الناتجة عن القرصنة ، فإن عليكم إبلاغ ذلك إلى الرياسة لتعرض الأمر على قائد الأسطول الملكى فى جزر الهند الشرقية لمحاولة الحصول على المعونة فى الظروف و الأحوال التى تقتضيها كل حالة بمفردها[1].

وكان ذلك نتيجة تأثر حركة التجارة الإنجليزية منذ أوائل القرن الثامن عشر بعمليات الجهاد البحرى التى قام بها عرب الخليج والإيرانيين المسلمين، وكان خط الملاحة الرئيسى فى الخليج يسير بمحاذاة الساحل الشرقى ولم تغامر سفينة أوروبية بالتوجه إلى القسم الغربى من الخليج منذ خروج البرتغاليين، وكانت تتجنب دائما هذا الجانب من الساحل لأن القليل هو ما كان يعرف عنه وكان يعتبر منطقة غير مأمونة.

القواسم والجهاد البحرى:

وفى هذا المقام سوف نناقش دور قبيلة القواسم فى العمليات البحرية ضد السفن الإنجليزية ، ذلك الدور الذى بدأ عام ١٧٧٨م بهجوم قامت به ست سفن تابعة للقواسم على سفينة انجليزية تحمل رسائل رسمية وأسرها واقتيادها إلى رأس الخيمة ، وقيام ثمانى سفن تابعة للقواسم أيضا بمهاجمة السفينة البريطانية "سكسس" وهى فى طريقها من البصرة إلى مسقط شهر يناير ١٧٧٩م ولكن هذه السفينة البريطانية نجحت فى الفرار، كما هاجم أسطول القواسم السفينة "أسستانس" فى فبراير ١٧٧٩م التى لاذت بالفرار والتجأت إلى "بوشهر"

استمرت عمليات أسطول القواسم ضد السفن البريطانية فنجح فى أسر السفينة "بكلريك" المبحرة تحت العلم البريطانى قرب "رأس مسندم" عام ١٧٩٠م وفى عام ١٧٩٧م هاجمت سفن القواسم السفينة البريطانية "باسين" بالقرب من جزيرة "قيس" وأسروها وقادوها إلى رأس الخيمة ، وفى نفس العام هاجم الأسطول القاسمى الطراد البريطانى "فايبر" بينما كان راسيا بالقرب من "بوشهر" وإن كان الطراد قد نجح فى الفرار إلا أنه خسر أكثر من ثلاثين من بحارته.

وخلال تلك العمليات زادت احتجاجات البريطانيين على عمليات القواسم وزادت تهديداتهم ومع ذلك كانوا يلجئون إلى دفع التعويض والفدية المطلوبة أو قبول التبريرات التى يذكرها زعيم القواسم بأنهم مثلا كانوا فى حالة دفاع عن النفس أو أنهم أخطئوا الهدف وأنهم

---

(١) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ط١.

يقصدون سفن العمانيين وغير ذلك من التبريرات، وفى كل الأحوال لجأت السلطات البريطانية إلى حماية السفن التجارية التى ترفع العلم البريطانى بسفن حربية مسلحة.

وعندما صار القواسم حلفاء للدولة السعودية الأولى واعتنقوا عقيدة التوحيد التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وجدوا فى تلك العقيدة ما يوافق عملياتهم البحرية بمهاجمة السفن الأوروبية المسيحية، حيث استندوا إلى مبدأ الجهاد فى الدعوة الوهابية فباشروا عمليات الجهاد البحرى فى الخليج باسم الدولة السعودية وصارت هذه العمليات جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب. كما أن هذه العمليات من الجهاد صارت أمرا لازما ضد منكرى تعاليم الوهابية.

ونتيجة لتأييد أمراء الدولة السعودية للقواسم، مد هؤلاء نشاطهم البحرى إلى المحيط الهندى حيث ظهرت سفنهم أمام ساحل "الملبار "شمال" بومباى"عام١٨٠٨م وتعرضوا للسفن الأوربية وغيرها فى إطار الجهاد الدينى حتى وصفهم الأوروبيون بأنهم يعطون مبررات دينية لكل عمل حربى يقومون به ضد السفن المعادية، وكان القواسم يرسلون خمس الغنائم التى يحصلون عليها من عملياتهم البحرية إلى السعوديين تأكيدًا لإيمانهم بدعوة التوحيد ودليلا على تبعيتهم لآل سعود.

ورغم عقد معاهدة بين بريطانيا والقواسم عام ١٨٠٦م إلا أن الخليج شهد منذ عام١٨٠٨م نشاطا بحريا للقواسم بتولية زعيمهم الجديد"حسين بن على"امتد حتى هدد سواحل الهند نفسها، بل وأخذ القواسم بقيادة زعيمهم يطوفون فى المياه العربية بأعداد من سفنهم تراوحت بين خمسة وعشرين سفينة يقود كل منها قائد مسئول أمام زعيمهم، وقد أقلقلت هذه العمليات انجلترا المرة بعد المرة حتى بدأت تفكر فى اتخاذ إجراءات لوقف القواسم عن مهاجمة السفن البريطانية.

فقد عززت بريطانيا حراسة مصالحها فى الخليج العربى بعدة سفن حربية وطرادات تحمل مدافع متعددة، ومع ذلك تمكنت سفن القواسم من أسر عشرين سفينة تجارية هندية ترفع العلم البريطانى أواخر عام ١٨٠٨م وأوائل عام ١٨٠٩م فى البحر العربى والمحيط الهندى، وقد أدى هذا النجاح إلى مزيد من الجهاد البحرى قامت به سفن القواسم فى الخليج العربى والمحيط الهندى فهاجمت ٥٥ سفينة للقواسم بالقرب من رأس مسندم سفينة تجارية ضخمة انجليزية تدعى "منيرفا"فى مارس ١٨٠٨م حيث تم أسرها ومن عليها وضمها إلى أسطول القواسم، ثم أطلق القواسم أسر البحارة لقاء جزية.

وقد بلغت جرأة القواسم حدا جعلهم يهاجمون سفينة البحرية الملكية البريطانية الضخمة ذات الخمسين مدفعا خلال عام١٨٠٩م وكانت عملياتهم تقوم على محاولة الأسر بواسطة الاقتحام، فتحاول سفنهم المناورة من أجل الاقتراب من الهدف لتلتصق به وعندها يندفع مقاتلوهم إلى سطح السفينة المعادية مرددين عبارة الله أكبر، وكانت قوة القواسم قد وصلت إلى ٦٣٠ سفينة كبيرة و٨١٠ سفينة أصغر حجما، وعدد الرجال العاملين على هذه السفن ٨,٧٠٠ رجل، استند عليهم زعيم القواسم فى مطالبة حكومة بومباى بدفع إتاوة من أجل السماح للسفن البريطانية بالمرور فى الخليج بحرية.

قررت بريطانيا التدخل ضد نشاط القواسم البحرى فجهزت ١٣ سفينة حربية محملة بالمدافع والمعدات العسكرية وعددا من الجنود والضباط يقدر بحوالى ألف وخمسمائة رجل حملتهم ٤ سفن حاملة جنود وأعطى قائد الحملة التعليمات اللازمة من أجل تدمير القوة البحرية للقواسم وبعدها عليه عقد معاهدة مع القواسم لفرض الشروط البريطانية على أن يتجنب الصدام مع الدولة السعودية حليفة القواسم.

وفى ١٢ نوفمبر ١٨٠٩م بدأت عمليات الإنجليز ضد مدينة رأس الخيمة حيث مكث ضرب المدينة ثم الاستيلاء عليها والجلاء عنها بعد يومين أمام مقاومة القواسم، وبعد ذلك توجه الإنجليز فاستولوا على "لنجة" و"لافت" التابعين للقواسم ثم عادت الحملة البريطانية إلى مسقط وسجل قادتها ما يعتبر أحسن شهادة على بطولة القواسم وما يؤكد أن القواسم وإن خسروا معارك حربية فإنهم لم يخسروا روحهم المعنوية ولن يتوقفوا عن سياسة الجهاد البحرى، حيث سلمت من التدمير معظم سفنهم التى اختبأت فى الأخوار والخلجان العميقة فى الجانب الغربى من شبه جزيرة مسندم.

ومع ذلك ما كاد عام ١٨١٢م يبدأ حتى عادت السفن القاسمية إلى مهاجمة السفن الإنجليزية أو تلك التى ترفع العلم البريطانى حيث أصبح القواسم من جديد أقوى قوة على طول خطوط الملاحة فى الخليج العربى. كما ظهرت سفن القواسم مرة أخرى أمام شواطىء الهند أواخر عام ١٨١٣ وأوائل عام ١٨١٤م حيث تم أسر عدة سفن ترفع العلم البريطانى، وعندما احتج المقيم العام البريطانى فى "بوشهر" رد زعيم القواسم "حسن بن رحمة" فى مايو ١٨١٤م بأنهم لم يأسروا أية سفينة تحمل ترخيصا بريطانيا، وأنه فى حالة وقوع مثل ذلك فإنهم على استعداد لإعادة البضائع وانه قد أصدر تعليماته إلى رجال قبيلته بعدم التحرش أو الإقتراب من أية سفينة تبخر تحت العلم البريطانى[1].

(١) لوريمر: المرجع السابق.

وفى أكتوبر ١٨١٤م عقد القواسم مع المقيم العام البريطانى فى الخليج معاهدة نصت على تناسى أحداث الماضى بين الطرفين و أن يحترم القواسم العلم البريطانى فلا يهاجموا السفن التى تحمله، وأن يسمح القواسم للرعايا البريطانيين بالنزول والتجارة فى موانيهم وأيضا للسفن البريطانية، وأن ترفع سفن القواسم أعلاما مكتوب على كل منها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأن يعيد القواسم ما يغتنموه من السفن الأخرى ويخص الرعايا البريطانيين إلى أصحابها.

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية لمدة عام حيث لم يقم القواسم بمهاجمه السفن التى تحمل العلم البريطانى، ولكن ما كاد عام ١٨١٥م ينتصف حتى عادت سفن القواسم إلى سابق نشاطها ضد السفن الأجنبية حتى ولو رفعت العلم البريطانى، كما شهد العام التالى ١٨١٦م نشاطا متزايدا ضد السفن الأجنبية وامتد نشاطهم حتى المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب الخليج العربى، وشملت السفن التى هاجمتها سفن القواسم سفن أمريكية وفرنسية فى المحيط الهندى، وثلاث سفن هندية ترفع العلم البريطانى عند مدخل البحر الأحمر فى مارس ١٨١٦م.

حاول الإنجليز الرد على عمليات القواسم البحرية بمظاهرة بحرية لكنهم فشلوا، حيث أكد زعيم القواسم أنهم لم يهاجموا أيه سفينة انجليزية، ولم يستولوا إلا على ممتلكات تعود للهندوس ووثنيين آخرين من الهند وأنهم يحترمون اتفاقهم مع الإنجليز. وقد زاد فشل المظاهرة البحرية البريطانية أمام جرأة القواسم وازدياد نشاطهم مما دفع الإنجليز إلى مهاجمة مدينة رأس الخيمة فى عام ١٨١٩م وعندما نجحوا فى النزول إلى البر بعد تدمير المدينة فرضوا على زعماء القواسم معاهدة صارت أساسا لمعاهدات أخرى وقعها مشايخ الخليج. ثم وفد على معسكر الحملة زعماء الشارقة سلطان بن صقر، ووالد شيخ أبو ظبى المعروف طحنون شخبوط الفلاحى، وشيخ دبى القاصر محمد بن هزاع، وشيوخ عجمان وأم القيوين وجزيرة الحمراء وبحث معهم قائد الحملة عقد معاهدة لإنهاء نشاط الجهاد البحرى، ومن عجب أن هذه المعاهدات التى وقعها هؤلاء الزعماء جميعا فى شهر يناير ١٨٢٠م صارت الأساس الذى ارتكزت عليه الهيمنة السياسية والاقتصادية البريطانية على أقطار الخليج العربى، وتحددت علاقات بريطانيا بهذه المعاهدات باعتبارها جزءا لا يمكن الاستغناء عنه من إمبراطوريتها فى الهند[1].

عرب الخليج الآخرون والجهاد البحرى:

فإذا كان شهر فبراير ١٨٢٠م قد شهد انتهاء العمليات العسكرية البريطانية ضد

---

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث، ص٢٩٣.

القواسم وبقية موانى الساحل العمانى التى تنطلق منها سفن الجهاد البحرى، فقد اتجهت الحملة البريطانية إلى بقية موانى الخليج التى شاركت سفنها فى مهاجمة السفن الإنجليزية ولم يكن عسيرا عليها إتمام هذه المهمة لكن رغم المعاهدات التى كبلت زعماء القبائل العربية فإن النشاط البحرى لم يتوقف تماما.

ومما تجدر ملاحظته أن البريطانيين حين اصطدموا بالقواسم ادعوا أن ذلك من أجل القضاء على عملياتهم البحرية (القرصنة) ضد الملاحة فى الخليج العربى ولكن الدافع الحقيقى للموقف البريطانى يظهر من خلال شكاوى ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية فى الخليج التى أنصبت على استيائهم من منافسة التجار العرب لهم، ومن ثم استندت السلطة البريطانية على الادعاءات المتمثلة فى محاربة القراصنة ومحاربة تجارة الرقيق وهى تهدف فى الأصل إلى القضاء على التجارة والملاحة العربية لأن معاهدات سنة ١٨٢٠م بين بريطانيا ومشايخ ساحل عمان كانت تمنع اشتباك سفن العرب بالسفن البريطانية أو تلك التى تحمل أعلاما بريطانية وأن المعاهدات لم تقتصد منع الاشتباكات بين سفن المشيخات العربية المختلفة فيما بينها.

ورغم معاهدات ١٨٢٠م بين بريطانيا من ناحية ومشيخات الساحل العمانى من جهة أخرى فقد حدثت عمليات جهاد بحرى قامت بها سفن عربية ضد السفن الإنجليزية كتلك التى حدثت للسفينة البريطانية المسماة "سنبرى" فى ميناء الشارقة عام ١٨٢٩م استولى العرب على حمولة هذه السفينة وإن كان شيخ الإمارة قد اقتص من المشاركين فى هذه العملية بحرق أحد قواربهم المشترك فى الحادث وجلد صاحبه.

كما حدثت عملية جهاد بحرى أخرى فى إبريل ١٨٣٥م بين ست سفن تابعة لعرب "بنى ياس" وسفينة حربية بريطانية تدعى "الفينسون" لم يكن النصر النهائى فيها للسفن العربية مما أجبرهم على قبول الشروط البريطانية المجحفة والتى تمثلت فى التعهد بتسليم ١٥ سفينة كانوا قد استولوا عليها وما بقى من حمولتها، وأن يدفعوا مبلغ ١٠ آلاف دولار كتعويض نقدى والتعهد بدفع مبلغ إضافى قدره ١٦٠٠ دولار وإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا قد أسروهم وتسليم رجلين من رجال القبيلة تزعما العملية البحرية[1].

أخذت السلطات البريطانية تستعرض قوتها البحرية فى الخليج بظهور السفن الحربية فى دوريات مستمرة وزيارة موانى الخليج. وفرض ما عرف بنظام الهدنة البحرية والتى تحظر على سائر مشايخ الساحل العمانى ورعاياهم القيام بعمليات جهاد بحرى أو مغامرات بحرية

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق.

وتعاقب من يقوم بها وقد اقتصرت تلك المعاهدات فى أول الأمر على موسم الغوص على اللؤلؤ ثم زادت لتظل سارية لمدة سنة تتجدد، وأخيرا وفى عام ١٨٤٣ تجددت لمدة عشر سنوات مرة واحدة.

ورغم أن نظام التهدئة أصبح سارى المفعول منذ عام ١٨٣٥م إلا أنه لم يشمل كل سواحل الخليج، ومن ثم وجدنا عمليات الجهاد البحرى تستمر فى المشيخات التى لم تدخل فى ذلك النظام مما دفع أسطول البحرية البريطانى إلى ضرب مدن الدوحة والوكرة والعديد عام١٨٣٦م بسبب قيام سفن عربية من تلك الموانى بعمليات جهاد بحرى ضد السفن البريطانية والهندية التى ترفع العلم البريطانى وتجددت اعتداءات البحرية الإنجليزية ضد الدوحة عام ١٨٤١م.

وعندما صار نظام الهدنة البحرية دائما بمعاهدة جديدة وقعها مشايخ الساحل العمانى وضمنتها السلطات البريطانية قلت إلى حد كبير عمليات الجهاد البحرى ولم نسمع عن عمليات كبيرة كالتى كانت تحدث قبلا. بل وجدنا فى الوثائق البريطانية تعبير الاضطرابات البحرية بدل تعبير "القرصنة" ومع ذلك حدثت عمليات فردية معظمها ضد السفن الهندية كتلك التى حدثت أمام ساحل الأحساء أواخر عام ١٨٥٤م كانت نتيجتها تدمير السفن العربية المشتركة فى هذه العملية، وتلك التى حدثت عام١٨٥٥م فى الشارقة ضد سفينة من بومباى وأيضا فى عام ١٨٥٦م وعام ١٨٦٠م فى أبو ظبى. وفى كل تلك الحالات حصلت السلطات البريطانية على تعويض لمستحقى السفن التى هوجمت كما تم توقيع العقاب على العرب المشاركين فى تلك العمليات.

ومنذ معاهدات عام ١٨٢٠م بين السلطات البريطانية ومشايخ الساحل العمانى، جعلت تلك السلطات من نفسها رجل بوليس فى الخليج يستخدم القوة لحماية مصالحه هو ويدعى أنه فى خدمة أهل الخليج والملاحة بل والمثل الإنسانية عامة. فنجد هذا الوصف للسلطات البريطانية يتجلى بوضوح فى مشروع "الكولونيل بيلى" المقيم السياسى البريطانى فى الخليج الذى قدمه لحكومة بومباى البريطانية عام ١٨٦٣م بهدف تثبيت النفوذ البريطانى وانفراده فى الخليج العربى[1].

وجاء فى هذا المشروع أن هدف التواجد البريطانى - من خلال مقيمية سياسية - فى الخليج هو مكافحة "القرصنة" ومحاربة تجارة الرقيق وتنمية التجارة "البريطانية" وأن عملية "القرصنة" قد تم كبح جماحها إلى حد كبير وإن كان الأمر يتطلب استمرار المراقبة

(١) لوريمر: المرجع السابق.

من جانب الأسطول البريطانى أما تجارة الرقيق فمازالت قائمة ومن ثم فهو يطلب جعل مقر المقيمية البريطانية فى"رأس مسندم"بدل"بوشهر"حتى يمكن السيطرة على مدخل الخليج فيمكن منع السفن المحملة بالرقيق من دخول الخليج، وكذلك السيطرة على عمليات الجهاد البحرى للعرب الخليجيين، وبالتالى مد النفوذ البريطانى فى شبه جزيرة العرب من ناحية وفى إيران من ناحية أخرى.

وثمة عمليات جهاد بحرى قامت رغم مظاهر القوة البريطانية فى الخليج من أمثال تلك العمليات هجوم سفن عربية على سفينة البريد التجارية البريطانية المسماة"كشمير"أثناء إلقاء مراسيها فى البصرة عام ١٨٧٢م وسلب ما عليها وقتل بعض رجالها وإن كانت السلطات البريطانية قد تمكنت من استعادة أغلب ما سلب على يد المهاجمين وكانوا من عربستان وإعدام سبعة من هؤلاء المهاجمين.

كما شهدت مياه إقليم الأحساء عمليات جهاد بحرى خلال أعوام ١٨٧٨م إلى ١٨٧٩م ولم تستطع السفن البريطانية العمل فى تلك المياه لأن هذا الإقليم كان بصفة رسمية خاضعا للسيادة العثمانية وإن كانت سفينة بريطانية قد استطاعت أسر سفينة عربية خارج ميناء القطيف عام ١٨٧٩م. كما شهدت مياه شط العرب عام ١٨٨٠ م عملية ضد البريطانيين كان من ضحاياها المشرف على محطة البرق البريطانية فى"الفاو"وقد تمكنت السلطات البريطانية من تحصيل التعويضات اللازمة وحملت شيخ المحمرة - على الساحل الإيرانى على توقيع عقوبات شديدة ضد بعض أهله المسئولين عن مثل تلك العمليات.

وحينما استمرت عمليات الجهاد البحرى فى مياه الأحساء أصدرت السلطات البريطانية أمرا عام ١٨٨١م لقائد بحريتها فى الخليج بدخول تلك المياه وتعقب السفن العربية وعدم الالتفات بمسألة السيادة العثمانية ومن ثم ظلت هذه المنطقة هادئة حتى عام ١٨٩٩م حينما قامت عملية بحرية عربية كبيرة قادها أحد أعضاء الأسرة الحاكمة فى البحرين والذى أفلت من المطاردة البريطانية واستمرت تلك العمليات بدرجات متفاوتة حتى عام ١٩٠٥م سواء أمام ساحل الأحساء أو على سواحل قطر.

وفى عام ١٩٠٠م شهد شط العرب نشاطا بحريا كبيرا كان موجها بالدرجة الأولى ضد السفن الإنجليزية والهندية إلى جانب إغارات متفرقة ضد سفن إيران والبحرين ولما كان شط العرب تحت سيطرة كل من إيران وتركيا - كل على جانب - فقد حاولت السلطات البريطانية مع هاتين الدولتين لكى تضمن تعاونهما ضد من يقوم بتلك العمليات البحرية كما قامت السفن البريطانية نفسها بعمليات حربية ضد السفن العربية فى تلك المياه

وحصلت السلطات البريطانية من شيخ المحمرة على وعد بإيقاف القائمين بتلك العمليات من بين عشيرته.

وشهدت سواحل قطر عمليات جهاد بحرى استاءت لها السلطات البريطانية وحاولت أكثر من مرة ضرب مدن قطر، كما هددت بالضرب وقامت بمظاهرات بحرية لإرغام الشيخ جاسم بن محمد آل ثانى ومنذ عام ١٩٠٠م على التعاون معها للقضاء على القائمين بتلك العمليات البحرية من السواحل القطرية، ومع ذلك لم تستطع السلطات البريطانية السيطرة على الساحل إلا بعد فرض الحماية على قطر عام ١٩١٦م وذلك بسبب عدم تعاون شيوخ قطر تعاونا كاملا مع السلطات البريطانية فى فرض السيطرة على القبائل التى تعيش على الأرض القطرية.

المغامرات البحرية:

إن موضوعنا يستلزم الإشارة إلى تلك العمليات التى قامت بها سفن عربية ضد سفن عربية أخرى، تلك العمليات التى أطلقنا عليها اسم الحروب البحرية بين القبائل العربية أو المغامرات البحرية للعرب.

ذلك أنه حدثت بين القبائل العربية الخليجية حروب شهدتها مياه الخليج كما شهدتها صحاريه، أى أن هذه الحروب امتدت من الداخل إلى الساحل ومن الأرض إلى البحر فهى إذن حروب لها أسبابها التى أهمها الصراع حول الامتلاك سواء للأرض أو للمياه خاصة لأماكن الغوص على اللؤلؤ. ومن هنا لايمكن أن نطلق على تلك العمليات اسم"قرصنة"لأن"للقرصنة"مفهوم آخر وليس لها من أسباب سوى الرغبة فى السلب والنهب وتتجه فى الغالب نحو السفن الأجنبية كما رأينا.

ولعل قائل يقول بان السفن العربية التى كانت تغير على بعضها البعض كانت تخرج من هذه الإغارات بمغانم وأسلاب فهى لا تفترق عن عملية القرصنة إذن. ولكننا نرد عليه بالقول أن الحروب المعلنة تعطى للمنتصر حق الحصول على مغانم من العدو بل وأسرى، وهى حروب رسمية بين طرفين يختار أحدهما أو كليهما مكانها ويحدد زمانها. بينما عمليات القرصنة غير ذلك فإنها عدوان لا مبرر له وهى سرقة فى الظلام[1].

وفى هذا المجال سوف نسوق عدة أمثلة على صحة ما ذهبنا إليه وهو أن العمليات البحرية التى قامت بها سفن عربية فى الخليج ضد أخرى عربية أيضا كانت حربا أو مغامرات فى

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص٢٩٧.

أقل القليل منها ولم تكن أبدا قرصنة لندرك ما رمى إليه المغرضون حين ساووا فى الوصف بين تلك العمليات، وبين العمليات الموجهة ضد السفن الأجنبية المعادية.

يمكن التأريخ لتلك الحروب البحرية بين السفن العربية بعضها وبعض بدخول القواسم فى دائرة النفوذ السعودى واعتناقهم لمبدأ التوحيد الذى دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ذلك أن القواسم اعترفوا بسيادة الدولة السعودية على ساحل عمان أواخر القرن الثامن عشر وصاروا أتباعا لتلك الدولة يطبقون مبادئها، ومن ثم اعتبر القواسم عملياتهم البحرية ضد السفن العربية الخارجة على الوهابية جزءا من حركة الجهاد وبالتالى فإن الأسلاب تعد غنائم حرب وعليها تأدية خمسها إلى الحاكم الشرعى أى رئيس الدولة السعودية. وقد كانت معظم تلك العمليات موجهة ضد سفن سلطنة مسقط وعمان منذ أوائل القرن التاسع عشر.

كما حدثت تلك العمليات بين القواسم وبنى ياس منذ عام ١٨١٢م وعندما استطاع الإنجليز القضاء على قوة القواسم البحرية وفرضوا عليهم معاهدة عام ١٨٢٠م انضم مشايخ الساحل العمانى للمعاهدة التى فرضت عليهم عدم القيام بعمليات بحرية ضد أى سفينة بالخليج، وأن تسوى القبائل المتعاهدة الخلافات الداخلية فيما بينها، وأن تخضع السفن العربية لتفتيش السفن البريطانية، وأن تتعاون القبائل فى محاربة القبيلة التى تخرج على هذه الشروط.

كما نصت اتفاقات الهدنة التى صارت دائمة منذ عام ١٨٥٣م على أن يتعهد مشايخ القبائل العربية الخليجية باحترام أمن الملاحة فى الخليج ويقدم هذا التعهد للمقيم العام البريطانى فى الخليج وأن يقبل الرؤساء العرب بمقتضى هذا النظام الأحكام التى تصدرها بريطانيا فى حالة نقض الهدنة. ثم صارت بريطانيا حكما مستديما تفرض الغرامات على القبائل العربية التى تهاجم سفنها سفنا أخرى ومع أن هذا لا يعطى لبريطانيا حق التدخل إلا فى الاشتباكات البحرية فإنها كانت تتجاوز اختصاصها فى كثير من الأحيان وتفرض وساطتها فى مشكلات تتعلق بالمناطق الداخلية[1].

ولقد نشطت عمليات الحرب البحرية بين سفن البحر الحربية العربية بعضها وبعض خاصة فى منطقة الأحساء والبحرين وباتجاه سواحل قطر، لأن تلك المياه لم تشملها اتفاقات الهدنة وقادت قبائل بنى هاجر والعجمان وبنى مرة والمناصير وغيرهم تلك العمليات، ونجد فى كتاب دليل الخليج شكاوى من بعض الملاحين المسلمين مقدمة للمقيم السياسى البريطانى بالخليج ضد سفن قبائل عربية خليجية؛ لأنها هاجمت سفنهم واستولت على ما

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: نفس المرجع السابق، ص٢٩٨.

فيها ، وقد كثرت هذه الشكاوى خلال أعوام ١٨٦٥ - ١٨٧٠م بصفة خاصة[1].

كما انتقلت الحرب البرية بين قطر والبحرين وبين قطر وأبو ظبى إلى الميدان البحرى وصارت عملية مهاجمة سفن أى من الطرفين لسفن الطرف الآخر أمرا عاديا بحكم الحرب والعداء بين هذه الأطراف، وشهدت السنوات الباقية من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى عمليات حربية فى البحر بين سفن عربية تابعة لمشيخة أو قبيلة وسفن عربية أخرى تابعة لمشيخة أو قبيلة أخرى.

ومما شجع على استمرار هذه العمليات وانتقالها من البر إلى البحر ضعف الحكم التركى فى الأحساء وقطر، وقيام النزاعات القبلية ودخول القبائل فى عمليات ثأرية، كالنزاع بين"بنى على" وقبيلة "العمامرة" وكانت نتائج تلك العمليات الأخلال بالأمن وإشاعة الفزع فى مغاصى اللؤلؤ؛ مما كان له أكبر الأثر على حركة التجارة العربية فى الخليج وقد فرضت انجلترا نفوذها بالقوة فى الخليج لم تعد فى وسع السفن الشراعية العربية منافسة السفن الأوروبية، ثم صارت مشيخات الخليج فى حاجة دائمة للمساعدة الخارجية وقد ضمنت انجلترا هذه الحاجة لكى تحكم قبضتها على مشيخات الخليج.

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل الخليجية لم تكرس نشاطها للعمليات الحربية البرية والبحرية، بل أنها ساهمت بدور فعّال سواء كانت قبائل الساحل العمانى أو قبائل قطر والبحرين والكويت، وعرب سلطنة مسقط وعمان، فى أعمال الغوص على اللؤلؤ وفى نقل التجارة بين الهند والخليج وشرق أفريقيا.

ولا يمكن استكمال الموضوع دون ذكر بعض الحقائق عن نشاط غير العرب أوروبيين وهنود فى عملية القرصنة فى المياه الهندية والعربية والأفريقية؛ لتتضح لنا الصورة كاملة بين ما يدعيه المؤرخون المغرضون عن"القرصنة" العربية وبين حقيقة القرصنة الأوروبية التى اتخذت لها نشاطا فى مياه المحيط الأطلنطى، نسوق الآن فصلا عن عملياتها فى المياه الهندية والعربية.

يروى لوريمر فى كتابة دليل الخليج عن حدوث نزاع بين الإنجليز والمغول فى الهند نتيجة أعمال القراصنة الأوروبيين وغيرهم خلال الأعوام من ١٦٩١ - ١٧٠٥م فيذكر أنه فى عام١٦٩١م قامت سفينة انجليزية بعملية قرصنة ضد السفن الهندية مما دفع بسلطات المغول إلى فرض حظر على كل السفن الأوروبية فى"سورات"وأنه وجد قرصانا دانيمركيا

(١) لوريمر: المرجع السابق.

يعمل فى المياه الهندية.

وتعـددت عمليات القرصنة الأوروبية سـواء فى المياه الهنديـة أو فى مياه الخليج العربى، ومن عجب أن نجد معظم القائمين بها انجليز يسـتخدمون سـفنا تحمل العلم الإنجليزى حتى اتفقـت الـدول الأوروبية فيمـا بينها عام ١٦٩٨م على أن تضمن انجلتـرا تطهير المياه الهندية من القراصنة وتتحمل مسـئولية حماية الملاحة فى الخليج العربى من القراصنة، كما تقوم هولندا بمتابعة القراصنة فى البحر الأحمر.

ولـم تذكـر المصادر أن الأوروبيين أبريـاء من هذه العمليات، بـل أن المصادر الأوروبية تذكر أن المغامرين الأوربيين هم الذين شـجعوا بعض المغامرين العرب من مسـقط وبعض الهنـود علـى القيـام بتلـك العمليـات، بـل إن المصـادر نفسـها تذكر أن سـفنا تحمـل العلم البريطانى تهاجم سـفنا تحمـل هى الأخرى العلم البريطانى حتى صـار الإنجليز مكروهين فى تلك المياه كراهية البرتغاليين فى الهند.

ورغـم محاولات الحكومـة الإنجليزية المسـاهمة فى القضاء علـى القراصنة فى المياه الهندية والعربية، كما حدث عام ١٧٠٠م حين أعدمت تسعة من القراصنة الإنجليز ورئيسهم فإن التجارة قد تأثرت بتلك العمليات حتى أن تقارير المسئولين الإنجليز فى الخليج ذكرت أن ظهور قرصان انجليزى واحد فى مياه الخليج قد أضر بالتجارة الإنجليزية إضرارا بالغا.

الفصل الثالث

الغزو البرتغالى الهولندى الفرنسى البريطانى لمنطقة الخليج

الغزو البرتغالى للخليج العربى

ازدياد نفوذ الهولنديين فى الخليج

أعمال الفرنسيين فى الخليج

مملكة هرمز والصراع الصفوي العثمانى فى الخليج

الإستراتيجية العثمانية فى مواجهة التواجد الأوربى فى منطقة الخليج

أولا: الغزو البرتغالى للخليج العربى:

بدأ الوجود البرتغالى فى المحيط الهندى منذ عام ١٤٩٨م عندما جاء الملاح البرتغالى فاسكو دي جاما برحلته البحرية إلى مدن شرق أفريقيا واصطحب الملاح العمانى شهاب الدين أحمد بن ماجد ليوصله إلى الهند حيث منبع التجارة الشرقية التى كان العرب والمسلمون يحتكرون نقلها إلى أوروبا عبر الخليج العربى فالعراق فالشام فالبحر المتوسط إلى أوربا، أو عبر البحر الأحمر فمصر فالبحر المتوسط فأوروبا، وقد أرخ أحمد بن ماجد مجيء البرتغاليين إلى "قاليقوط" بساحل الهند الغربى فى "أراجيزه".

وجاء لكاليكوت خذ ذى الفايدة	**لعام تسعمائة وست زايدة**
وباع فيها واشترى وحكما	**والسامرى برطله وظلما**
وسار فيها مبغض الإسلام	**والناس فى خوف واهتمام**
وانقطع المكى عن أرض السامرى	**وشد جردفون للمسافرى**
وخبرنى ما حمله الفرنجى	**من جانب السودان شط اللجى**
وهو الذى قد قهر المغاربة	**وأندلس فى حكمه مناسبة**

هنا تصوير لشاهد عيان هو أحمد بن ماجد الذى رافق الملاح البرتغالى فاسكو دى جاما من شرق أفريقيا إلى شاطئ الهند الغربى عند مدينة كاليكوت أو "قاليقوط"، وأرخ ابن ماجد لهذا الحادث بعام ٩٠٦ هجرية وقد وصف ابن ماجد مظالم البرتغاليين وبغضهم للمسلمين الذين انقطع سفرهم إلى الهند، واتجهوا بتجارتهم ورحلاتهم إلى رأس جردافون بالقرن الأفريقى.

ووصف ابن ماجد البرتغاليين بأنهم حاربوا المغاربة والأندلسيين المسلمين وجاءوا إلى أفريقيا والبحر العربى والمحيط الهندى كأعداء للمسلمين.

ولكن الملاح ألفنسو ألبوكيرك هو الذى اتبع سياسة السيطرة على الخليج العربى والبحر الأحمر، ومن ثم سارت القوة البحرية البرتغالية تحرق الموانى العربية وتغرق أساطيل العرب

التجارية تمهيدا لإقامة امبراطورية برتغالية فى الشرق، ولذلك أكثر من إقامة الحصون فى المراكز التجارية لا لحماية التجارة البرتغالية فقط، بل لفرض سلطانه على تلك البلاد.

وقد هاجم الأسطول البرتغالى فى عام ١٥٠٦م بقيادة "الفونسو البوكيرك" جزيرة هرمز الواقعة فى مضيق هرمز، والتى كانت دويلة ذات مكانة تاريخية، واستولى عليها، وبعد أن ضمن السيطرة على مدخل الخليج العربى اتجه إلى مدينة مسقط وأنزل قواته العسكرية بها بعد قصفها بالمدافع وتدمير تحصيناتها، وقد استطاعت القوات البرتغالية الأكثر قوة واستعدادا من إسكات المقاومة العمانية العنيدة، حيث تحمل أهل مسقط الاضطهاد والقتل وإحراق بيوتهم، ومن ثم أقام البرتغاليون قلاعًا وحصونًا فى المواقع الإستراتيجية فى مسقط وفى مدن وموانى سواحل عمان مثل ميناء "خورفكان" ورأس الخيمة وغيرها.

وواصل البرتغاليون تقدمهم فى الخليج بأسلوبهم التدميرى، فهاجموا جزر البحرين عام ١٥١٥م واستولوا عليها وبنوا فيها قلعة ضخمة لا تزال أثرها باقية حتى الآن فى مدينة المنامة، وبذلك سيطروا على ساحل الخليج العربى حتى البحرين ولم يتمكنوا من الاستيلاء على الأحساء وفى كل موقع دخله البرتغاليون اتبعوا أساليب البطش والتنكيل والقتل مع الأهالى، وبهذا الأسلوب الوحشى قضى البرتغاليون على تجارة العرب والمسلمين فى هذه المنطقة التى ازدهرت منذ عصور مضت، وإن كان ذلك ولّد لدى العرب المرارة والرغبة في الانتقام من البرتغاليين وهنا ظهرت حركة الجهاد البحرى الإسلامى ضد السفن والوجود البرتغالى فى الخليج العربى[1].

وعندما تأسست شركة الهند الشرقية البريطانية فى الهند عام ١٦٠٠م وعملت على نقل متاجرها عبر مياه الخليج العربى اصطدمت بالوجود البرتغالى، ومن ثم تحالفت قوتها الحامية لتجارتها مع المناضلين العرب بقيادة ناصر بن مرشد اليعربى حاكم مسقط، ونجح هذا التحالف فى النهاية من طرد البرتغاليين من كل أقطار الخليج العربى، وكان للفرس دور فى هذا العمل نتيجة تشجيع رجال شركة الهند الشرقية البريطانية، حيث ظهر الأسطول البريطانى فى الخليج العربى واستولى على حصن "قشم" البرتغالى، وفى النهاية نجح العمانيون فى تطهير بلادهم من الاحتلال البرتغالى عام ١٦٨٩م[2].

وكان من نتائج زوال الوجود البرتغالى من أقطار ومياه الخليج العربى اشتداد حدة الصراع على النفوذ فى المنطقة بين هولندا وبريطانيا، حيث أصبح حلفاء الأمس - فى طرد

(١) خالد العزي: الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢، ص٢٨.
(٢) د. محمود علي الداود: أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، ص٨.

البرتغاليين من الخليج العربى - أعداء اليوم في التنافس على التجارة الهندية وطرق عبورها في مياه الخليج العربي وقد حدث أول اشتباك بين البريطانيين والهولنديين فى "شتورا" بالهند، مما أدى إلى استسلام الهولنديين دون قيد أو شرط، وأخذت مراكزهم تتساقط فى أيدى البريطانيين الواحد بعد الآخر فى الهند وفى الخليج العربى، حيث استعملت بريطانيا نفوذها السياسى لدى كل من الدولة العثمانية والدولة الفارسية للحد من نشاط التجارة الهولندية فى الخليج العربى، حتى اضطر الهولنديون إلى الانسحاب من "بندر عباس" عام ١٧٢٠م ومن البصرة عام ١٧٥٢م ومن جزيرة "خرج" وبقية أرجاء الخليج العربى وفارس عام ١٧٦٥م، وبذلك خلا الجو للنفوذ البريطانى[١].

وقد حاولت فرنسا مد نفوذها إلى منطقة الخليج العربى عن طريق إقامة علاقات تجارية مع العمانيين، وتمكنت من عقد معاهدة صداقة وتجارة مع "سلطان بن أحمد" سلطان مسقط، حيث كانت الاتصالات الرسمية بين سلطان مسقط وعمان والحكومة الفرنسية تجرى بواسطة "روسو" القنصل الفرنسى فى بغداد فى ذلك الوقت. وقد اعتبر البريطانيون الاتصالات بين فرنسا وسلطنة مسقط وعمان خطرا يهدد مصالحهم بصورة مباشرة، ومن ثم اشتد الصراع البريطانى الفرنسى بشأن الهند والطريق إليها، ومن ثم عقدت بريطانيا معاهدة مع "سلطان بن أحمد" فى ١٢ أكتوبر ١٧٩٨م أنهت العلاقات مع فرنسا وانفردت بريطانيا بهذه العلاقات بتواجد سياسى وعسكرى[٢].

وهكذا لم يبدأ القرن التاسع عشر الميلادى إلا وكان النفوذ البريطانى بل والوجود البريطانى فى أقطار الخليج، وإن شئنا الدقة فى بعض موانى أقطار الخليج مثل هرمز ومسقط، وفى مياه الخليج حتى البصرة شمالا قد انفرد ولم يعدله منافس، وهنا جاءت عمليات الجهاد البحرى الإسلامى من أقطار الخليج العربى ضد جميع السفن الأجنبية المارة فى مياه الخليج العربى تلك العمليات التى جاءت ردا على ما فعله البرتغاليون ضد سكان أقطار الخليج العربى، ثم انسحبت ضد الهولنديين فالبريطانيين طوال القرن التاسع عشر.

كان البرتغاليون أول قوة أوروبية تدخل إلى منطقة الخليج العربى أوائل القرن السادس عشر بعد نجاحهم فى الدوران حول أفريقيا والوصول إلى شبه القارة الهندية عام ١٤١٨م - كما سبق أن ذكرنا - وجاء ظهور البرتغاليين فى الخليج فى عام ١٥٠٧م على يد "الفونسو ألبوكيرك" الذى نجح فى الاستيلاء على كل من "قلهات" و"قريات" و"مسقط" و"صحار" و"خورفكان" و"هرمز"

---

(١) خالد العزي: مرجع السابق، ص٣١.

(٢) محمود علي الداود: مرجع السابق، ص٢٠.

وقد استخدم البرتغاليون أفظع وسائل التعامل مع سكان هذه المدن الذين لم يستسلموا بسهولة للعدوان البرتغالى، واستمرت ثورات الأهالى فى هرمز ومسقط وقلهات والبحرين.

بدأ الصراع السافر بين البرتغاليين والأتراك فى الخليج العربى حوالى عام ١٥٥٠م حين أعلن أهالى "القطيف" أنهم يضعون أنفسهم تحت حماية الأتراك الذين كانوا قد احتلوا البصرة منذ عهد قريب، ومن ثم بدأ الصراع بين الأتراك والبرتغاليين فى منطقة الخليج العربى، واشتد الصراع حول البصرة والبحرين ومسقط، بين كروفر بين الطرفين، وقد نجح البرتغاليون فى بناء قلعة كبرى فى مسقط عام ١٥٨٦م وقد اضمحلت قوى البرتغاليين فى الخليج فى الفترة من عام١٦٢٨م إلى عام ١٦٥٣م رغم محاولتهم الاستيلاء على ميناء البصرة أو على الأقل تأكيد نشاطهم التجارى هناك فى الفترة من ١٦٢٥م إلى عام ١٦٤٠م، وقد نجح العمانيون من طرد البرتغاليين من عمان فى الفترة من عام ١٦٤٠م إلى عام ١٦٥٠م.

لعل أهم أسباب انهيار نفوذ البرتغاليين فى منطقة الخليج العربى العنف وسوء النية فى التعامل مع جيرانهم من أهل الشرق، إلى جانب مشاعر الحسد والشقاق التى كانت فاشية بينهم - خاصة قياداتهم - على الدوام. فقد ذكر الرحالة الإيطالى "بيترو ديلافالى" فى عام ١٦٢٤م إلى عام ١٦٢٥م أن دمار أحوالنا نابع من احتكار كبرائنا لصغارنا، ومن طمع صغارنا طمعا أعماهم عن دعوة الوطن والشرق، إن البرتغاليين قادرون على استرداد ما يخسرون، ولكنهم عاجزون عن استبقائه[1].

وكان البرتغاليون ما يزالون فى الفترة من عام١٦٥٣م إلى عام١٧٢٢م يتشبثون ببقايا مصالحهم فى الخليج باستغلال وكالتهم فى "كنج" حيث كانوا منذ سنة ١٦٢٥م ينالون نصف العوائد، كما هى الحال مع الإنجليز فى "بندر عباس" وكانوا كثيرا ما يشتبكون مع الإيرانيين وفى قتال دائم مع عرب الخليج كما كانت علاقتهم مع الإنجليز علاقة غير ودية[2].

مشاكل البرتغاليين مع الإيرانيين ١٦٥٣ - ١٧٢٢:

ويبدو أن حصول البرتغاليين على نصيبهم من عوائد كنج كانت صعوباته كنفس مصاعب الإنجليز فى تحصيل نصيبهم من عوائد بندر عباس، وفى إحدى المرات قام البرتغاليون بمناورة لإظهار القوة بحرا لتحصيل متأخراتهم من العوائد، ولقد كان فى

(١) آسيا البرتغالية: مجلد ٣، ص٣٨٢ - ٣٨٣ - ترجمة ستيفن لكتاب فرياي سوما.

(٢) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ط١، ص١١٥.

حديث أحد وكلاء الإنجليز فى تقرير له سنة ١٧٦٠ - فى معرض حثه على تطبيق نفس الفكرة لتحصيل العوائد الإنجليزية المتأخرة فى بندر عباس - ما أعان على معرفة تاريخ وقوع تلك المظاهرة. وفى سنة ١٦٨١ أو سنة١٦٨٢ كرر البرتغاليون المناورة البحرية نفسها، على مستوى أضيق هذه المرة - فاستطاعوا تخويف الشاهبندر وإرغامه على أن يدفع - وهو صاغر - مبلغ تسعة آلاف تومان كانت مستحقة لهم، وقيل أنه بعد سنة ١٧١١م لم يدفع للبرتغاليين شيئا من نصيبهم فى عوائد كنج، وحوالى سنة ١٧٢١م كان حجم التجارة فى كنج ضئيلا، وكان يقوم بها عدد من الهنود - الهندوك والمسلمين - غير أن انتعاش هذا الميناء قل إلى حد بعيد نتيجة أعمال أعراب مسقط، وكان فى كنج عندئذ كنيسة واحدة فيها راهبان يعيشان على الإحسان والمنح[1].

علاقة البرتغاليين بالإنجليز ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

وكان فى جملة الاعتبارات التى تحول دون لجوء شركة الهند الشرقية للقوة البحرية على الساحل الإيرانى هو الخوف من أن يخدم الصدام بين الإنجليز والإيرانيين مصلحة الهولنديين أو البرتغاليين. لهذا لم تلجأ الشركة إلى مثل ما قام به البرتغاليون والهولنديون من قبل. وفى سنة١٦٧٦م حدث استياء شامل بين الإنجليز نتيجة رفض البرتغاليين منح أذونات مرور لسفن الأهالى التابعة لهم والمتوجهة إلى بندر عباس، وفى السنة التالية قرر الإنجليز أنه فى حالة إصرار البرتغاليين على مسلكهم المعادى أن يرفضوا منح السفن الهندية المتجهة إلى كنج أذونات مرور انجليزية. ولا يعرف ما أسفر عنه هذا الخلاف. وفى سنة ١٦٨٩م قامت، كما ذكرنا سابقا، إحدى سفن القراصنة الإنجليز بنهب الوكالة البرتغالية فى كنج وقد ظهرت هذه السفينة فى الخليج ظهورا سريعا وفشلت سفن الشركة الإنجليزية فى مطاردتها. ومنذ سنة١٦٩٥م توقفت زيارات سفن الشركة الإنجليزية لميناء كنج بسبب قلة الأرباح كما يبدو.

وسرى فى الفترة التالية أن البرتغاليين كانوا يميلون للشك بأن غارات القراصنة العرب على سفنهم إنما هى شيء يتعمد الإنجليز تشجيعه والتحريض عليه[2].

علاقة البرتغاليين بعرب عمان ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

لقد كانت العلاقات بين البرتغاليين وعرب عمان عدائية منذ سقوط هرمز، وكانت بينهما حالة حرب قائمة بشكل دائم، وحوالى سنة ١٦٦٠م استطاع عرب مسقط انتزاع

(١) لوريمر: المرجع السابق.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٦.

ممبسة مؤقتا من أيدى البرتغاليين، لكن الصراع بين هذين الجانبين لم يبلغ قمة خطورته إلا فى العقد الأخير من القرن السابع عشر.

وفى سنة ١٦٩٣م استطاع عرب مسقط إلحاق خسائر جسيمة ببعض سفن البرتغاليين، وقاموا فى سنة١٦٩٤ أو١٦٩٥م بغارة بحرية على ميناء كنج موقعين به خسائر قدرت بحوالى ٦٠ألف تومان. وفى حوالى سنة١٦٩٦ وافق البرتغاليون الذين تنقصهم حكمة جيرانهم الإنجليز والهولنديين وقوتهم على مساعدة الإيرانيين ضد قراصنة مسقط. وكانت النتيجة المباشرة لذلك القرار أن قسم عرب مسقط أسطولهم قسمين:

سار أحدهما على طول الساحل الأفريقى حتى دمر المستوطنة البرتغالية فى ممبسة، وانطلق الثاني إلى حيث دمر الوكالة البرتغالية في مانجالور على الساحل الهندى[1] وقد عزا البرتغاليون سنة ١٦٩٧عدوان عرب مسقط عليهم إلى إمدادات وأسلحة تلقوها من الإنجليز فى بومباى، زاعمين أيضا أن السفن العمانية كان يقود معظمها ضباط انجليز وكانت ترفع العلم الإنجليزى. وفى نفس السنة تعرضت سفن البرتغاليين أن شركة الهند الشرقية قد سمحت لهم ولسفنهم بالمرور، لكن الشركة أنكرت أية علاقة لها بهم، وتنصلت من أية مسؤولية عن أعمالهم.

وفى ١٣ مايو ١٦٩٨م هاجم أسطول عمانى مكون من ثمانى سفن فرقاطتين برتغاليتين، وكان والى مطرح يقود الأسطول العمانى. ونشبت معركة استمرت ثلاث ساعات، وانتهت بهزيمة العرب وقتل عدد كبير من رجالهم وبينهم القائد نفسه، فى حين لم يقتل من البرتغاليين سوى خمسة رجال وجرح١١. وحوالى سنة ١٦٩٩م استولى العمانيون على ممباسة، وظلوا فيها حتى استعادها البرتغاليون مؤقتا منهم فى سنة ١٧٢٨م، كما حدثت مجزرة رهيبة للبرتغاليين على طول الساحل الأفريقى.

١٧١٤ - ١٧١٩م:

ساد القتال بين الفريقين فترة سكون دامت حتى ١٩ فبراير سنة ١٧١٤م حين هاجم العرب أسطولا برتغاليا خارج سورات، لكن البرتغاليين استطاعوا صد أعدائهم إلى البحر، بعد أن قتل لهم ٢٨ قتيلا وجرح ٣٤، ويقال أن سفينة القيادة العربية قد غرقت فى طريق عودتها متأثرة بالإصابات التى أصيبت بها فى المعركة. وسرعان ما حاول العرب الانتقام فجاءوا بأسطول إلى كنج وطلبوا إلى الشاهبندر تسليمهم الوكيل البرتغالى

(١) هاملتون: التاريخ الجديد مجلد أول ص٧٥.

هنـاك، غيـر أنهـم هزموا هذه المـرة أيضا ورجعوا بخسـائر كبيرة[1]. وفى فبراير سـنة ١٧١٩ - وكانت الظروف الآن قد أصبحت أكثر ملائمة - أرسـل أسـطول برتغالى إلى الخليج، وفى ٤ أغسـطس اسـتدرج الأسطول البرتغالى أسـطولا عربيا إلى معركة خارج كنـج، وكان اليـوم الأول فـى المعركـة الذى اسـتمر فيه القتـال من التاسـعة صباحا حتـى السـابعة مسـاءا - فـى صالـح البرتغاليين. وفـى اليوم التالى اسـتمروا فـى مطاردة أعدائهـم ولم يرجع أسـطولهم إلـى كنج حتى ٨ أغسـطس. وفى هذه الاشـتباكات قتل من البرتغاليين ١٠ رجال وجرح خمسـة وثلاثون، وفى نفس الوقت تراجع أسـطول العرب عبـر الخليج إلى رأس الخيمـة. وكان البرتغاليون - الذين يظنون العرب يتلقون إمدادات من الإنجليز والهولنديين - ما يزالون يوالون البحث عنهم.

والتقوا بهم مرة أخرى فى ٢٩ أغسـطس، وبعد مزيد من القتال اسـتطاعوا أن يردوا آخر سفن العرب على أعقابها، وكان ثمة أسرى من الجانبين أصبحوا أرقاء...... لكن أسرى العمانيين لقوا معاملة أفضل من أسرى البرتغاليين على ما يقال.

ازدياد نفوذ الهولنديين فى الخليج ١٦٢٨ - ١٦٥٣م:

يجـب أن نلاحـظ أن اختفاء البرتغاليين وبعدهم عـن الميدان لم يؤد إلى خلاص الإنجليز من المنافسـة السياسـية والتجارية، لأنه مع تدهور قوة البرتغاليين - كانت قوة الهولنديين تتزايد تزايدا سريعا أصبح يتهددهم بالخطر. فقد لجأ الهولنديون فى إيران إلى إتباع مختلف أسـاليب الرشـوة ودفع أثمان مرتفعة فى السـلع الإيرانية، وثابروا على بذل المجهود من أجل إزاحة الإنجليز عن المكان الذى احتلوه بالجهد والألم، وفى سنة ١٦٣٨ - السنة التى قام بها مندلسلو بزيارة بندر عباس وكان للهولنديين كما للإنجليز وكالة فيها - كان الهولنديون يحتكـرون كل تجـارة التوابل، كما كانوا قد أظفروا بإعفائهم من ضرائب الاسـتيراد، وفى سنة١٦٣٩ - ١٦٤٠ كانت حركة سفن الهولنديين وتجارتهم مسيطرة فى بندر عباس، لكن القائمين على الوكالات الإنجليزية فى ايران رفضوا أوامر شـركتهم بإغلاق وكالة أصفهـان وأرجـأوا تنفيـذ ذلك حتى لا يتيحوا الفرصة كاملة لمنافسـيهم، وفى سـنة ١٦٤١ عمد الهولنديون لرغبتهم "فى زيادة حجم" تجارتهم من الصادرات الإيرانية أو احتكارها إلى بيع البضائع الأوروبية فى إيران بثمن أقل من ثمن التكلفة.

وفى سـنة ١٦٤٥ أرسـل الهولنديون - وقد أصبح هدفهم الآن هو بسـط نفوذهم فى إيران مسـتخدمين لذلك كل الوسـائل مهما كانت بما فيها القوة العسـكرية - أرسلوا أسطولا

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٨.

ضخما إلى الخليج يقوده القائد بلوك[1] وفى بندر عباس طلبوا إلى الإيرانيين رد مبلغ ٤٩٠٠ تومان كعوائد جمركية سبق أن دفعها الوكيل الهولندى، ومن هذا يتضح لنا أن الهولنديين لم ينجحوا نجاحا تاما فى تلافى دفع العوائد الجمركية، وأصبح التواطؤ بين الهولنديين والمسئولين الإيرانيين خطيرًا لدرجة حتمت نقل ممتلكات شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى بندر عباس إلى البصرة ضمانا لسلامتها، وكان ذلك فى يونيو سنة١٦٤٥.

وبعدها وسع الهولنديون رقعة حربهم التجارية ضد الإنجليز ومدوها إلى العراق فأرسلوا أسطولا من ثمانى سفن إلى البصرة. وأدت هذه الخطوة من جانبهم إلى تدمير مؤقت لأعمال الوكالة التجارية الإنجليزية التى كانت أنشئت هناك مؤخرا. وفى سنة ١٦٤٩، وصل نفوذ الهولنديين فى الخليج إلى قمته، وبدت طوالع لحصولهم على امتيازات أخرى من الحكومة الإيرانية التى أصبحت ترهبهم لكنها لا تحترمهم، وفى سنة ١٦٥٠، زادت كفة الهولنديين فى الخليج رجوحا، وزادها طرد البرتغاليين من مسقط، وفيها وصل أسطول هولندى ضخم مكون من عشر سفن إلى بندر عباس وأنزل حمولة ضخمة. وحوالى هذا الوقت استطاع الهولنديون كما يقول تافرنيير تصريف ١,٥٠٠,٠٠٠ رطل من الفلفل فى إيران[2] دفعوا منها ثمن كل الحرير الإيرانى. وفى العام التالى وصل إلى بندر عباس أسطول هولندى مكون من ١١ سفينة يحمل شاحنة من البضائع قيمتها أكثر من ١٠٠ ألف جنيه انجليزى، وتأثرت التجارة الإنجليزية بهذا تأثرا بالغا، وفى سنة ١٦٥٢ - ١٦٥٣ أرسل الهولنديون ١٥ سفينة إلى بندر عباس تقدر حمولتها بحوالى ١٢٠ ألف جنيه انجليزى، واستطاعوا بهذا أن يكتسحوا التجارة الإنجليزية اكتساحا تاما، لكن الشاه ظل على رفضه لطلبهم التساوى فى المعاملة مع الإنجليز من حيث الامتيازات التجارية، وذلك على أساس أنهم لم يقدموا لإيران من الخدمات مثل ما قدم الإنجليز، على أنه استقبل بعثة هولندية فى أصفهان استقبالا حسنا، غير أنه برغم كل ما كان يفيده من الهولنديين وبرغم التضحيات النقدية الكبيرة من جانبهم، رفض أن يمنع الإنجليز من الحصول على قدر كبير من الحرير بشروط مناسبة[3].

الحرب الإنجليزية الهولندية فى الشرق ١٦٥٣ - ١٦٥٤م:

عقب وصول أنباء إعلان الحرب بين انجلترا وهولندا إلى الهند اقترح الهولنديون فى

(١) جوليات بروس: المجلد الأول، ص٤١٤.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص٧١.

(٣) لوريمر: المرجع السابق.

الشـرق تحالفـا بينهم وبين البرتغالييـن لتحطيم التجارة الإنجليزية. وقـد رفض البرتغاليون قبـول هـذا العـرض، كمـا رفضوا أيضـا قبول عـروض مضادة عرضهـا عليهـم الإنجليز. واسـتطاع الهولنديـون دون معونـة أحـد الاسـتيلاء على سـفن الشـركة"روبك"و "لانيربت" تجاه سـاحل جاشك، وبعدها بقليل استطاعوا أيضا الاسـتيلاء على السفينة"بليسنج" كما اضطـروا السفينة"سـيلاى" للهـروب جهـة السـاحل حيث أصبحت شـبه غارقة. وفـى نهاية يناير ١٦٥٤ اسـتطاعت خمس سـفن هولندية فى معركة خارج بندر عباس إغراق السـفينة الإنجليزية"اندوفـر" والاسـتيلاء علـى السـفينة"فالكون" وأسـر حوالـى ثلاثين أسـيرا فى ظروف ليسـت مشـرفة للانجليز على الإطلاق[1]، والحقيقة أن البحارة من الجانبين جميعا كانـوا فى حالة سـكر شـديد. كذلـك بلغت سـيطرة الهولنديـين على الخليـج من القوة بحيـث صـدرت التعليمات حتى لوكيل الشـركة فى البصرة بالانتقـال إلى مكان أكثر أمنـا، وظـن البعض أنه بات ضروريـا نقل الحرير الإيرانى إلى أوروبـا عن طريق أصفهان، لكـن أخبار حلول السـلام جـاءت فـى نهايـة المطـاف فرجـا مـن ذلـك الموقـف الحـرج.

تفوق التجارة الهولندية على الإنجليزية ١٦٥٤ - ١٦٨٤م:

وخـلال مـا تبقى من هـذه الفترة، فإن مـا ذكرناه سـابقا يظهر أن سـيطرة الهولنديين على الخليج ونشـاطهم الدائب فيه ظلا مصدر قلق لشـركة الهند الشـرقية البريطانية. وما كان اقتراح إقامة محطة انجليزية فى مسـقط سـنة ١٦٥٩ ليهدف إلا إلى القيام بعمل مضاد لهذه السـيطرة. وفى سـنة ١٦٦٤ وضح أن للهولنديين السـيطرة الأولى على التجارة فى بندر عبـاس، وقـد أخذوا يرسـلون ثلاث أو أربع سـفن ضخمة موسـوقة جيـدا بالبضائع فى كل سـنة، حتى"أضحـوا مهميـن تماما لكنهـم محتقرون أيضـا" وحين زار دكتـور جون فراير بندر عباس فى سـنة ١٦٧٧"وجد الهولنديين يسـيطرون سـيطرة مطلقة على تجارة التوابل"، وكان احتكـارهم هذه التجارة قويا ومحكما حتى أنهم ذات مرة أحرقوا حمولة أربع سفن لهـم كـى يرغمون التجـار الإيرانيين على قبول الأسـعار التى يحددونها لحمولة السـفينتين الباقيتين - وكانوا قبل ذلك يتجرون تجارة واسعة فى السـكر والنحاس، وقد قدر دكتور فراير"صادراتهم من المخمل والحرير الخام والمطبوع والسجاد الفارسى الفاخر، إلى جانب أطنان من الذهب والفضة فى كل سنة مما يزيد على خمسين ألف تومان".

وفى سـنة ١٦٨٢م كان الهولنديون ما يزالون يرسـلون سـفينتين كبيرتين كل سنة إلى بندر عباس، وكانت المقارنة بين سـفنهم وسـفن شركة الهند الشـرقية البريطانية ليست

(١) نفس المرجع، ص١١٠.

من صالح هذه الأخيرة بأية حال[1].

استمرار المنافسة بين الإنجليز والهولنديين بمزيد من الخسائر للهولنديين١٦٩٥ - ١٧٠٥م:

وفى ١٦٩٥، ولما زادت حدة المشاكل بين الإيرانيين والعرب فى الخليج بتكرر هجوم العرب على سفن الإيرانيين، خشى الإنجليز أن يسارع الهولنديون إلى نجدة الشاه فيكسبون بذلك حقوق الدولة المفضلة فى المتاجرة مع إيران. لكن هذه المخاوف لم تتحقق، وكان الهولنديون فى ذلك الوقت يتمتعون بحق تصدير ما قيمته ٢٠ ألف تومان من البضائع إلى أصفهان معفاة من الضرائب كل سنة، فى مقابل حق الإنجليز فى تصدير ما قيمته خمسة آلاف تومان فقط. وفى سنة ١٦٩٧ قدمت شركة الهند الشرقية البريطانية سفينتها "شارل الثانى" إلى الشاه كى يقوم بنقل سفيره الخاص إلى بلاط المغول فى الهند، وذلك بهدف كسب نقطة فى صفها ضد الهولنديين. وقد أشرنا من قبل إلى أن الهولنديين قد احتجوا احتجاجا شديدا فى سنة ١٦٩٩ على دفع الإيرانيين جانبا من نصيب الإنجليز من عوائد بندر عباس حريرا؛ لأنهم كانوا يحتكرون تصدير الحرير الإيرانى كله عن طريق البحر. ويبدو أن احتجاجهم هذا لم يثمر شيئا، لكنهم استطاعوا أن يجدوا طريقة يستميلون بها الشاهبندر لصفهم[2]، ويبدو أنهم قد أغروه بأن يؤكد أنه قام بدفع مبلغ ١٣٠٠ تومان زيادة فى حساب الوكيل الإنجليزى عما قرره الوكيل نفسه، غير أن زيارة الشاه للوكالة الإنجليزية بأصفهان فى يونيو سنة ١٦٩٩ كانت ضربة حاسمة للهولنديين لأنها أدت إلى تغيير فورى فى اتجاه الشاهبندر نحوهم، فسرعان ما أمر بإيقاف العمل فى قلعة كان الهولنديون يقيمونها لأنفسهم فى بندر عباس، ورغم أنهم التمسوا شرف زيارة الشاه لوكالتهم أيضا، إلا أنه لم يجبهم إلى ذلك. ويزعم الهولنديون أن الوكيل الإنجليزى قد استطاع إقناع الشاه بأن الهولنديين أمة بلا ملك، وهى لهذا غير جديرة باهتمامه.

وفى سنة ١٧٠٥ كانت مشكلات القراصنة ما تزال قائمة، وخشى الإنجليز أن يبادر الهولنديون إلى العمل على الخلاص منها فيقتربون بذلك إلى الشاه، غير أن مخاوفهم هذه، مرة أخرى، لم تتحقق[3].

---

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١١١.

(٢) المرجع نفسه، ص١١٣.

(٣) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٤.

تآمر الهولنديين ضد الإنجليز ١٦٨٦م:

وفى سنة ١٦٨٦ حاول الهولنديون جهدهم للإيقاع بين البلاط الإيرانى والإنجليزى، غير أن مترجم الشركة الإنجليزية، وهو رجل أرمنى كان يقيم فى أصفهان، استطاع إحباط هذا التآمر.

إقامة دكتور أ. كايمفر فى بندر عباس ١٦٨٦ - ١٦٨٨:

وفى نوفمبر ١٦٨٥ قبل الرحالة دكتور كايمفر وظيفة كبير الجراحين فى شركة الهند الشرقية الهولندية فى الخليج، وهو من مقاطعة وستفاليا، وكان قد جاء لإيران لأول مرة فى سنة ١٦٧٤ كسكرتير لسفير السويد فى البلاط الإيرانى، فترك أصفهان إلى بندر عباس، ورغم أنه كان يعانى من اعتلال صحته، استطاع القيام بدراسة وافية فى التاريخ الطبيعى لإقليم بندر عباس ضمنها رسما تفصيليا لأشجار النخيل.

زيادة التنافس بين الإنجليز والهولنديين١٦٨٨ - ١٦٨٩م:

وحوالى سنة ١٦٨٨ أى من الوقت الذى أصبحت فيه مصالح الهولنديين فى أوروبا خاضعة لمصالح الإنجليز، والدولتان معا فى حلف للحرب ضد فرنسا"بدأ الهولنديون يفقدون أسهمهم فى إيران، وكانوا حتى ذلك الوقت ينافسون الإنجليز فى استرداد المصنوعات الهندية" لكن الإنجليز استطاعوا الحيلولة دون حصولهم على حق احتكار الصوف فى كرمان[1].

أعمال الفرنسيين فى الخليج ١٦٥٣ - ١٧٢٢م:

أسس الفرنسيون الشركة الفرنسية لجزر الهند الشرقية فى سنة ١٦٦٤ وفى سنة ١٦٦٧ - ربما قبل ذلك - كانت لهم وكالة تجارية فى بندر عباس. وفى هذه السنة زار الدكتور فراير بندر عباس وكتب هذه الملاحظات عن التجارة الفرنسية هناك"الفرنسيون فى هذا الميناء، كشأنهم فى كل مكان آخر، ليس لهم كبير عمل يعملونه، ولولا ما يحصل عليه مترجمهم هناك من ربح من تجارة الهند(كان له امتياز التجارة فى النبيذ فى سيراس كما كانت لباقى الدول الأوروبية) لما استطاعوا تدبير قوتهم. ويعيش السيد الفرنسى هناك ناعم البال. بلا عمل سوى أن يزور وزيرا(ويعامل الجميع بود وبشاشة وآداب فرنسية أصيلة سواء كان هؤلاء مسيحيين أو وطنيين) وبهذه الكيفية ينفق أوقاته، وفى سنة ١٦٨٢ كانت للفرنسيين تجارة محدودة فى المنسوجات بالبصرة. . . . . وفى سنة١٦٩٨ - كما رأينا - ثم بين دول أوروبا الرئيسية توقيع اتفاقية اسمية، لم ينتج عنها شيء بالمرة، وبموجبها

---

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١١٢.

تعهد الفرنسيون بحماية منطقة الخليج من القراصنة[1].

مملكة هرمز ضحية الصراع الصفوى العثمانى على الخليج:

مملكـة هرمـز أسسـها أتـراك إيران فى زمن السـلاجقة فـى إحدى الجـزر القريبة من السـاحل الإيرانى أى السـاحل الشـرقى من الخليج، ولكن كما نعلم جميعا أن كل شـيء يخرج من إيران يصبغ بصبغة الفارسـية عند إخواننا العرب، هكذا حال التورك فى إيران، نعم كثيرون فى العالم يظنون أن السلاجقة والصفويين والخوارزميين والغزنويين والغوريين والأتابكـة والجلائرييـن والإيلخانييـن والقرة قوينلوا والآق قوينلوا على أسـاس أنهم فرس، لكـن فـى الوقع أنهم تورك وهكذا حال مملكة الهرمز اعتبرت مملكة فارسـية مع العلم الهرامزة هم إحدى فخذ من أفخاذ التورك الياقوت الذين وصلوا إلى بلاد الرافدين ٤٠٠٠سنة قبل ميلاد المسـيح عليه السـلام وإلى سـواحل الخليج وخاصة السـاحل الشـرقى ما يسـمى إيران حاليا من آسـيا الوسـطى مع العلم أن إيران يتكون خمسين بالمئة من التورك الآذريين والتوركمانسـتانيين، هؤلاء هم من أسسـوا نواة الحضارة السومرية..... بعد هذه المقدمة أود أن انقل لكم جزء بسيط عن تاريخ مملكة هرمز.

حتـى القرن السـادس عشـر الميلادى، لم يكـن الخليج يحظـى باهتمام القـوى الدولية والإقليمية على السواء، فكانت الحياة فى الخليج ساكنة، وكان الخليج بقومياته وبنشاطه التجارى سـاد فى الاسـتقرار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وكان التداخل بين العرب والفرس أمرا شـائعا على سـواحل الخليج وجزره، فثمة قبائل عربية، اسـتقرت على الساحل الشرقى، وفى المقابل ثمة مجاميع بشرية فارسية استقرت على الساحل الجنوبى الغربى.

وحين قدم البرتغاليون إلى سـواحل الخليج عام١٥٠٧م كانت هناك دولة تجارية عظيمة الثـراء، وإن كانت تفتقر إلى القوة العسـكرية والخبـرة القتالية، وهـى مملكة هرمز التى تبعد نحو ١٢ ميلا عن الساحل الفارسى فى مدخل الخليج، وقد بسطت نفوذها على الساحل الغربـى مـن القطيف شـمالا حتـى رأس الحاد جنوبا، ودخلـت فى حوذتها البحرين وقشـم، وممن ممتلكات هرمز أيضا قلهات، قريات، صحار، خورفكان، مسقط، رأس الحاد.... كما شملت الأحساء والقطيف.

وكانـت مملكـة هرمز تمثـل نموذجـا للمجتمع الفسيفسـائى، فإلى جانـب العنصرين العربى والفارسـى، هناك عناصر مـن قوميات أخرى هندية وأفريقيـة متنوعة، وهذا التنوع

---

(١) المرجع نفسه، ص١١٩.

نابع من أهمية الموقع الجغرافى الذى تحظى به هذه المملكة، فقد كانت تعد حتى القرن السادس عشر الميلادى مركزا تجاريا بالغ الأهمية وقد ازدهرت فيها تجارة اللؤلؤ.

وقد أصبحت هرمز تابعة اسميا للدولة الصفوية، وبدأت هذه التبعية فى عهد الشاه إسماعيل الصفوى، ولكن خضعت هذه التبعية للظروف السياسية المحيطة، وميزان القوى الإقليمية والدولية، ففى فترة اشتداد الضغوطات السياسية والتهديدات العسكرية البرتغالية على هرمز كان يلجأ حكامها إلى إعلان الولاء للدولة الصفوية، وفى أحيان أخرى يطلبون النجدة من العثمانيين، وهذا ما دفع البرتغاليون للتفكير فى فرض إدارة مباشرة على الجزيرة عام ١٥١٥م. وقد انصرفت الدولة الصفوية خلال هذه الفترة إلى فتوحات فى الشمال وإلى حروب ضد العثمانيين، ولم تول أمور الخليج اهتماما كبيرا فكان الشاه إسماعيل يترك غالبا المناطق الساحلية الجنوبية لحكام شبه مستقلين.

وقد استغل البرتغاليون انشغال قوات الشاه إسماعيل فى شمال فارس فى الحرب ضد العثمانيين، فوطدوا نفوذهم فى جزيرة هرمز والساحل العمانى، واستولوا على القطيف والبحرين، ونكثوا بذلك عهدهم للشاه إسماعيل بمساعدته فى بسط حكمه عليها، وقد زار ألبوكيرك البحرين عام ١٥١٥م من أجل تعزيز العمل بمقتضى المعاهدات القائمة بين حاكمها المحلى وملك هرمز الخاضع من الآن للسيطرة البرتغالية. وكان الشاه إسماعيل قد حاول فى بدايات التهديدات البرتغالية لمملكة هرمز أن يحث حكامها على الثورة ضد البرتغاليين ووعدهم بالمساعدة، غير أن حاكم هرمز أظهر خطاب الشاه للبرتغاليين، فانقلب الشاه إسماعيل على موقفه سنة ١٥١٠ طالبا التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، ووقع اتفاقية معهم جاء فيها:

١ - أن تساند البحرية البرتغالية القوات الإيرانية فى الاستيلاء على البحرين والقطيف.

٢ - يتعهد البرتغاليون بمساندة الشاه فى القضاء على الحركات الانفصالية التى قامت فى إقليم مكران.

٣ - قيام حلف عسكرى بين الطرفين ضد الدولة العثمانية.

٤ - إعادة توران شاه إلى هرمز نائبا عن الملك البرتغالي عمانوئيل وهذا يعنى اعتراف الشاه بتعبية هرمز للبرتغاليين.

وفى غضون ذلك، استولى حاكم الأحساء "مقرن بن زامل" على البحرين والقطيف، وطرد النفوذ البرتغالي والهرمزى منها، ولكن البرتغاليين عادوا فسيطروا على البحرين بعد

القضاء على حركة مقرن بن زامل، وإثر سقوط البحرين بفترة وجيزة، قاد ملك هرمز عام ١٥٢٢م حركة تغيير شاملة فى كافة ممتلكاته، استهدفت بدرجة أساسية تصفية الوجود البرتغالى، واستجابت لهذه الحركة المناطق الخاضعة لمملكة هرمز، وفى مقدمتها البحرين، فعلى أثر اتجاه البرتغاليين عام ١٥٢٩م على التخلص من الوزير شرف الدين الذى كان يسير أمور هرمز بأسلوب متعارض والمصالح البرتغالية، أعلن سكان البحرين احتجاجهم ضد البرتغاليين وامتنعوا على دفع الجزية المقررة عليهم حيث قاد حسين ابن سعيد شيخ بنى جابر حركة التمرد الشعبى فى البحرين وقتل الحاكم البرتغالى، وكان سىء السيرة والصيت عند السكان البحارنة، ثم طردوا الحامية البرتغالية منها، التى فشلت فى قمع حركة التمرد الشعبى وإرغام السكان على دفع الجزية، بعد انتشار الأمراض فى أفراد الحامية ونقص عتادها، فاضطرت للانسحاب إلى هرمز، وهذا يمثل أول اختبار لقوة البحرين فى ميزان القوى الإقليمية، حيث بات ثابتا فى ظل المعادلة الجيوسياسية الإقليمية أن البحرين شأنها شأن الدول الصغيرة، تظل فى مسيس الحاجة إلى تحالفات إستراتيجية مع دول كبيرة لمواجهة تحديات خارجية كبيرة وخطيرة، وهذا ما أسفرت عنه نتائج الاختبار، وأهمها كما عبر عنها د. عبد العزيز عوض على هذا النحو: "كان حكام البحرين قد اعتادوا على نقل ولاءهم من جار قوى لجار قوى آخر وفقا لمصالحهم السياسية والاقتصادية فأيدوا الصفويين ثم نقلوا تأييدهم إلى العثمانيين فى فترات الخصام بينهما، كما أيدوا البرتغاليين وأية قوة إقليمية كبرى تضمن لهم الحماية وتدرء عنهم الأخطار الخارجية"[1].

وعلى أية حال، وجد حسين بن سعيد بعد أن استقل بالحكم فى البحرين، صعوبة بالغة فى مواجهة القوى الكبرى فى المنطقة، فعاد إلى التحالف مع البرتغاليين الذى ثار عليهم، ومكنهم من توطيد أقدامهم فى البحرين، فقاموا بتنفيذ مخطط سياسى يتسم بالخبث، ويستند على دراسة أحوال المجتمع البحرانى المذهبية، إذا لجأت السلطات البرتغالية إلى خلع حاكم البحرين وولوا بدلا منه حاكما فارسيا سنيا، حتى لا يحظى بتأييد العرب السنة أو العرب الشيعة، وقد أثار هذا المخطط الفرقة والخلاف بين طوائف السكان، ويفسر د. جمال ذكريا قاسم هذا المخطط البرتغالى بما نصه "ولعل البرتغاليين قد اختاروا حاكم البحرين على هذا النحو لانهم كانوا يهدفون بذلك أن يختلف فى جنسه عن سكان البحرين ومعظمهم من العرب، كما يختلف بحكم مذهبه مع عدد كبير من

---

(١) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسى لقطر.

سكانها الشيعة، وبذلك يضمن البرتغاليون عدم انضمام حاكم البحرين إلى أية حركة تقوم ضدهم فضلا عن ضمان عدم ولائه للأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس بحكم كونها للأسرة للشيعية"[1].

على أن الحكم البرتغالى فى البحرين لم يدم طويلا، بفعل رعونة سياسة الحاكم المحلى المعين من قبل البرتغاليين، حيث قام بقتل أحد كبار تجار اللؤلؤ فى البحرين طمعا فى ثروته،

فنهض شقيقه طلبا للانتقام والثأر لأخيه، فاستولى على قلعة البحرين ونصب نفسه حاكما على الجزيرة باسم الأمير ركن الدين مسعود، وقد أثارت هذه الحركة الانقلابية حفيظة حاكم هرمز الذى ظل متمسكا بسيادته على البحرين، باعتبارها جزءا لا ينفصل عن مملكة هرمز، ولذلك شعر الأمير ركن الدين حاكم البحرين المحلى وكان يعمل لحساب البرتغاليين وكان على علاقة خاصة مع حاكم إقليم فارس"وردى خان"، شعر بخطر مملكة هرمز فطلب النجدة من حاكم شيراز، الذى سارع إلى إرسال قوة عسكرية أفلحت فى الاستيلاء على البحرين باسم الشاه عباس الصفوى، وأحبطت مساعى كل من حاكم هرمز والبرتغاليين معا فى استعادة البحرين وقتل ركن الدين مسعود.

ولا ننسى فى هذا السياق، اغتنام الصفويين فرصة موت ملك هرمز"فرخ شاه" عام ١٦٠١م، حيث تولى ولده"فيروز شاه" الحكم واستوزر شرف الدين لطف الله، الذى عين أخاه ركن الدين مسعود حاكما على البحرين، وعندما أظهر مسعود رغبته فى الاستقلال عن هرمز، أغراه حاكم شيراز وعرض مساعدته ثم انقلب عليه وقتله واستولى على البحرين باسم الدولة الصفوية.

الإستراتيجية العثمانية فى مواجهة التواجد الأوربى فى منطقة الخليج

لقد بنيت الإستراتيجية العثمانية فى منطقة الخليج العربى - كما سبق أن ذكرنا، على مبدأين أساسيين هما:

١) مواجهة القوة الاستعمارية الأوروبية الغازية والتى تهدد النفوذ العثمانى والوجود الثابت فى بلاد الرافدين.

٢) مد الوجود العثمانى فى مشيخات الخليج العربية لمساندة الوجود العثمانى فى العراق وتطويق النظام الشيعى الصفوى الإيرانى المعادى للدولة العثمانية السنية المذهب.

---

(١) د. جمال زكريا قاسم: تاريخ الخليج العربي.

وبالنسبة للغزو الاستعمارى الأوروبى، البرتغالى، الهولندى، الفرنسى، وأخيرا البريطانى - فقد شعرت الدولة العثمانية من منطلق إسلامى واستراتيجى أن عليها مسئولية مواجهة هذا الغزو والدفاع عن عروبة وإسلام مشيخات الخليج العربية، وقد تمثل هذا الدفاع فى مواجهات عسكرية وتواجد فعلى فى بعض موانى المنطقة مثل الأحساء بمدنها القطيف والعقير وغيرها إلى جانب الكويت وقطر، وقد ربطت الدولة العثمانية مسئوليتها عن الدفاع عن مشيخات الخليج، وخاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وحتى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م - ربطت المسئولية العثمانية للدفاع عن منطقة الخليج العربى بإعلان مشروع الجامعة الإسلامية التى تتزعمها الدولة العثمانية وتحتوى جميع المسلمين فى تركيا والشعوب العربية والهند وغيرهم.

وقد راقبت الدولة العثمانية من خلال رجالها فى العراق وفى الأحساء والكويت وقطر الصراع الاستعمارى الأوروبى فيما بين دول الاستعمار من ناحية وصراع الأوروبيين مع عرب الخليج فى مشيخاتهم الذين هبوا لمواجهة هذا الغزو الأوروبى، سواء اتخذت هذه المواجهة شكلا قتاليا أو اتخذت شكل عمليات الجهاد البحرى الإسلامى ضد سفن الدول الأوروبية المبحرة فى مياه الخليج العربى.

راقبت الدولة العثمانية هذه التحركات فى منطقة الخليج العربى من خلال باشوية بغداد، ثم باشوية البصرة، وسعت من خلال إستراتيجيتها الأساسية فى مواجهة القوى المعادية سواء تمثلت هذه القوى فى الدول الأوربية بأطماعها أو تمثلت فى نظام الحكم الشيعى فى إيران المعادى للدولة العثمانية سواء فى منطقة الحدود العراقية الإيرانية، أو فى منطقة الخليج والتى تسعى إيران لتحقيق ادعاءات لها فى مشيخات الخليج سواء فى البحرين أو هرمز أو غيرها.

ومما يؤكد اهتمام الدولة العثمانية بمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين، من أن البرتغال والأسبان فى القرن الخامس عشر الميلادى عندما صارت دولا وطنية حديثة، رفعوا شعار الاستعادة أى طرد المسلمين من شبه جزيرة أيبريا وملاحقتهم فى أقطار الوطن العربى والإسلامى، بل ومحاربتهم اقتصاديا عن طريق تحويل التجارة الهندية من البحار الإسلامية (البحر الأحمر والخليج العربى) إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى اكتشفه الملاح البرتغالى "فاسكو دى جاما" عام ١٤٩٨م، وملاحقة المسلمين فى الهند وفى شرق أفريقيا وفى أقطار الخليج العربى.

وقد تحالف البرتغاليون مع الأحباش ضد المسلمين فى شرق أفريقيا والبحر الأحمر،

وحاولوا دخول مياه البحر الأحمر والاستيلاء على مملكة هرمز ومسقط والبحرين وغيرها من أقطار الخليج العربى. وقد تصدى لهم أسطول سلطنة المماليك حكام مصر والشام، ولكنهم فشلوا فى إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين أمام جزيرة "ديو" فى ساحل الهند الغربى عام ١٥٠٩م[١].

وعندما ضمت الدولة العثمانية كلا من الشام ومصر والحجاز كان عليها مواجهة الوجود البرتغالى فى المياه العربية والإسلامية، وظهر قادة بحريون أتراك واجهوا البرتغاليين فى المحيط الهندى كان منهم "الريس بيرى" وظهر الأسطول العثمانى فى موانى البحر الأحمر ونجح هذا الأسطول فى منع البرتغاليين من احتلال ميناءى جدة والسويس وأطلقت الدولة العثمانية إعلانا دوليا، بأن مياه البحر الأحمر مياه مقدسة لأنها تطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز، وكان البرتغاليون هم المعنيون بهذا الإعلان، حيث لم تكن هناك قوة أوروبية أخرى حاولت دخول مياه البحر الأحمر.

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: أفريقيا في العلاقات الدولية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٣٤.

الفصل الرابع

بداية التوجه العثمانى
نحو منطقة الخليج العربى

مقدمة

لماذا التوجه العثمانى من خلال محمد على باشا وأسرته نحو مشيخات الخليج العربى؟

خطوات التوجه العثمانى نحو الخليج:

الأحساء.

البحرين.

الكويت والعراق.

قطر.

سلطنة عمان والساحل العمانى.

مقدمـة:

ترجـع علاقة العثمانيين بالخليج العربى إلى عهد السـلطان سـليمان القانونى "المشـرع" وخاصـة بعـد فتحهـم للعـراق عـام ١٥٣٤م؛ وقد ظهـر هذا التنافـس واضحًـا عندما أنكر العثمانيون على البرتغاليين تدخلهم فى شئون الخليج، ونهضوا لرد عادتيهم، إلا أن الصراع لم يبدأ بين الجانبين إلا بعد أن أستولى العثمانيون على مصر ونزلت سفنهم فى البحر الأحمر وأتجهت إلى الخليج العربى لحماية المصالح الإسلامية من عبث الغزاة. حيث قصدت الباب العالى فى أسـطنبول وفود إسلامية تلتمس الحماية من الاستعمار البرتغالى، وكان حاكم "كوجرات"، وإمبراطور "دلهى" المسـلم، وحاكم "القطيف العربى ممن اسـتجاروا بخليفة المسلمين السلطان "سليمان القانونى"، الذى أمر واليه فى مصر "سليمان باشا" بالتوجه إلى الخليج العربى لطرد البرتغاليين[1].

وصلت حملة بحرية عثمانية بقيادة "محمد فروخ باشـا" على ظهر ٧٠ سـفينة بحرية تحمل على ظهرها ٢٠ ألف جندى، اسـتطاعت أن تحرر سـواحل عدن واليمن ومسـقط، واسـتولى علـى البحرين وقطر والأحسـاء والقطيف عام ٨٥٨هـ - ١٥٥٠م من أيدى البرتغاليين، وعين ذلك القائد حاكما للأحسـاء، فبنى فى عاصمتها مسجدًا عام ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م عرف فيما بعد بمسـجد "الدبس" وتلاه فى حكم الأحسـاء، عدد من حكام الأتراك العثمانيين كان أخرهـم "عمر باشـا" الذى أطاحت به ثورة محلية قادها "بـراك بن غرير" زعيم بنى خالد عام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م، الذى قام بطرد العثمانيين من الأحسـاء، وأسـس أسـرة حكمت البلاد حتى عام ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م، حين تمكن السـعوديون من القضاء عليهم، وإدخال الأحسـاء ضمن أقاليم دولتهم الأولى[2].

وقـد اتخـذ آل سـعود مـن الأحسـاء، قاعدة للتوسـع فـى أقطـار الخليـج العربى وفى جنوبـى العـراق، ممـا أثـار حفيظـة الدولـة العثمانيـة، فحاولت اسـترجاع الأحسـاء من أيـدى السـعوديين أكثر من مرة ولكنها فشـلت فى ذلك، وأخيـرًا لجأت إلى والى مصر العثمانـى فـى ذلـك الوقـت محمد على باشـا الـذى دخل فى صـراع مع السـعوديين حتى سقطت الدرعية عاصمة آل سعود فى يد ابنه إبراهيم باشا، ومن ثم اتجهت أنظار محمد على إلى أقطار الخليج العربية.

---

(١) د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، القاهرة.

(٢) د. أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقى الجزيرة العربية، بيروت ١٩٦٥م ص ٦١.

التوجه العثماني: من خلال محمد على باشا وأسرته نحو الخليج العربى

يرتبط التوجه العثماني من خلال محمد على باشا وأسرته نحو الخليج العربى بالتوجه العثمانى بواسطة حملات محمد على وأبنائه على الحجاز ونجد والتى استغرقت الفترة ١٢٢٦ ، ١٢٣٤هـ الموافقة من ١٨١١ ، ١٨١٨م. وذلك أن الدولة العثمانية ضمت الحجاز إلى ممتلكاتها بعد أن غزت مصر عام ٩٣٢هـ، الموافق لعام ١٥١٧م وإن ظل يخضع لنظام الشراقة القائم هناك منذ القرن الرابع الهجرى، حتى نجح الأمير سعود الكبير فى استخلاصه من سيطرة العثمانين فى عام ١٢١٨هـ، ١٨٠٣م. بالنسبة لمكة المكرمة وفى عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م، بالنسبة للمدينة المنورة.

وأما نجد فلم تدخلها قوات عثمانية حيث لم تكن بها من الاغراءات ما يشجع العثمانيون على اقتحامها، إذ صحراوية نجد وسيطرة النظام القبلى بها بالإضافة إلى كونها منطقة داخلية لا توجد بها تجمعات سكانية إلا حيث توجد المياه والمراعى، وقد ظلت نجد تعيش في ظل نزاعات قبلية وعدم استقرار حتى نجح التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى فى توحيدها تحت حكم آل سعود وفى ظل دعوة التوحيد السلفية.

وبالنسبة للأحساء فقد دخلها جيش عثمانى قادم من البصرة عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م فى عهد السلطان سليمان المشرع ثم استخلصها من العثمانيين براك بن غرير بن عثمان سعود آل حميد من بنى خالد عام ١٠٨١هـ الموافق لعام ١٦٧٠م وطرد الحامية العثمانية منها وظلت السلطة فى أيدى بنى خالد حتى دخلت الأحساء تحت حكم آل سعود فى ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م.

وهكذا نجد أن التوجه العثمانى من خلال محمد على وأسرته نحو الجزيرة العربية والخليج العربى جاء بعد أن انتشرت دعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية فى الأحساء والحجاز، ومن ثم كان على العثمانيين التعامل مع هذه الدعوة ورعاتها آل سعود.

وعندما فشل باشوات بغداد ودمشق فى القضاء على دولة آل سعود الأولى نظرًا لقوتها الروحية لجأ العثمانيون إلى مصر وإلى محمد على باشا، لكى يقوم بهذه المهمة وذلك منذ عام ١٢٢١هـ الموافق لعام ١٨٠٦م، وكان هدف العثمانيين ضرب عصفورين بحجر واحد بالتخلص من محمد على الذى اختاره زعماء الشعب المصرى التقليديين وأعنى رجال الأزهر والأعيان، والتخلص من الدولة السعودية العربية راعية دعوة التوحيد السلفية.

وقد استمرت حملات محمد على باشا وأبناؤه طوسون وإبراهيم على الحجاز ونجد فى

الفتـرة من عـام ١٢٢٦/ عام ١٢٣٤هـ الموافق لعـام ١٨١١، ١٨١٨م كمـا ذكـرنا، وانتهت بسـيطرة محمد على باشـا - باسم السـلطان العثماني، على كل من الحجاز ونجد وسقوط الدرعيـة عاصمـة ملك آل سـعود فى يد إبراهيم باشـا وانتهـاء الدولة السـعودية الأولى التى اسـتمرت قرابة ٧٥عامًا من ١١٥٧هـ الموافق لعام ١٧٤٣م - وهو عام التحالف بين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود - حتى عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م.

كان لنجاح حملات محمد على باشا فى الحجاز ونجد فى تحقيق مطالب السلطان العثماني بإسـقاط دولة آل سـعود فى الجزيرة العربية عدة نتائج منها ما هو خاص بمحمد على نفسـه حيث زادت مكانته واتسعت آماله فى ضم الشام إلى ملكه، ومنها ما هو خاص بمشيخات الخليج العربى حيث تطلع الباشا العثمانى حاكم مصر بأنظاره تجاه هذه المشيخات، وهذا يؤكـد مـا ذهبنـا إليه مـن أن التوجـه العثماني من خلال محمـد على نحو مشـيخات الخليج العربى كان نتيجه منطقية وثمرة من ثمار الوجود العثماني فى الحجاز ونجد.

لماذا التوجه العثمانى نحو الخليج العربى؟ (١)

إن تسـاؤلنا وهـو لماذا حدث التوجـه العثمانى من خلال محمد على نحـو الخيج العربى؟ يتطلـب منا مناقشـة الأهداف الى سـعت إليها الدولـة العثمانية فى هـذا الوقت المبكـر من القرن التاسع عشر الميلادى، وذلك أن الدولة السعودية الأولى نجحت قبل هذه السنوات فى نشر مبادئ دعوة التوحيد السلفية فى أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية.

ولـم تكـن الدولـة العثمانية تهتـم بما حدث داخـل الجزيـرة العربية حيث لـم تكن لها ممتلكات هناك، ولكن عندما امتد النفوذ السـعودى إلى شـواطئ الخليج العربى وجنوب العـراق، بـدأ القلق يحـرك الدولة العثمانيـة نحو طموح الدولة السـعودية فكلفت سـليمان باشـا الكبير (بيوق) والي العراق بمحاربة السـعوديين فأرسل حملتين لمحاربة آل سعود فى الأحساء عام ١٢١٧هـ الموافق ١٨٠٢م، وحملة ثالثة ضدهم فى القصيم.

وعندمـا امتـد نفوذ آل سـعود إلـى الحجاز أوائل القرن التاسـع عشـر - كما سـبق وأن ذكرنـا - فـى عهد الأمير سـعود الكبيـر ازداد قلق الدولـة العثمانية خاصة وأن السـلطان العثمانـي يتخـذ لنفسـه لقـب خليفة المسـلمين وحامـى حمـى الحرمين الشـريفين (بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة).

وإزاء القلق العثماني من الوجود السـعودى بمنطقة الحجاز فقد كلف السلطان العثماني

(١) د. رأفت الشيخ: بحث تمت مناقشته فى مؤتمر رأس الخيمة عام ١٩٨٨م بعنوان العثمانيون والخليج العربى.

والي مصر محمد على باشـا بالتعامل مع السـعوديين لكسر شوكتهم ولاستخلاص منطقة الحجاز منهم وإعادتها مرة أخرى تحت السـيطرة العثمانية. كما أنه إزاء التوسـع السـعودى فـى منطقـة الخليج العربى ما دفع العثمانيون إلى القلق من ناحية السـعوديين. ذلك أن الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود غزا الأحساء فى عام ١١٧٦هـ الموافق لعام ١٧٦٢م حيث حقق من ورائها عدة مكاسب عسكرية ومالية ، ولكن الصراع استمر بين آل سعود وبين بعض زعماء الأحسـاء وجيشًـا من باشـوية بغداد ، كان النصر فى النهاية لصالح آل سـعود الذين أكدوا سيطرتهم على الأحساء حتى مجئ قوات محمد على باشا.

وأما قطر فإن أهلها وخاصة من قبائل آل مسلم وآل حسن والمعاضيد وغيرهم رحبوا بدعوة التوحيد السلفية المعروفة بالدعوة الوهابية. عندما قام القائد السعودى إبراهيم بن عفيصان فى عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م بغزو قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والفرع[1].

كمـا رحب سـكان واحة البريمى فـى عمان بدعوة التوحيد السـلفية ، وقد لقيت قوات آل سـعود المتجهة إلى عمان التأييد من جماعتين: الجماعة الأولى بعض القبائل التى تقبلت تعاليـم المذهـب الوهابي (دعـوة التوحيد السـلفية) والجماعـة الثانية الزعمـاء المعارضون لحكـم دولة البوسـعيد فى عمـان. وقد اعتنق مبـادئ الدعوة الوهابية قبائل القواسـم وبنى النعيم وبني كعب وبني قتب وأن ظلت قبيلة بني ياس متمسكة بمذهبها المالكى.

وعندما وصل إبراهيم بن سليمان بن عفيصان لعام ١٢١٠هـ الموافق عام ١٧٩٥م رسول آل سعود إلى البريمى رحبت به قبائل بنى النعيم حيث اعتبرت البريمي قاعدة ينطلق منها نشاط رسـول آل سعود لنشـر نفوذ الدولة السعودية فى بقية مشـيخات الخليج حتى جزر البحرين ، وإن كان آل سعود قد فشلوا فى إخضاع الكويت لسيادتهم بعد معارك بين الطرفين امتدت من عام ١٢٠٨هـ الموافق لعام ١٧٩٣م إلى عام ١٢١٩هـ الموافق لعام ١٨٠٤م[2].

وبالنسبة لعلاقة آل سعود بآل سعيد فى مسقط، فقد اتسمت بالعداء حيث دارت معارك دامية بين سلطان مسقط (سعيد بن سلطان) وبين قائد آل سعود وممثلهم فى البريمي مطلق المطيرى اسـتغرقت السـنوات من ١٢٢٦ - ١٢٢٨هـ الموافق من ١٨١١ - ١٨١٣م. وإذا كان مطلق المطيرى قد نجح فى غزو سلطنة عمان واكتسح أقاليم مسقط وشرقى صحار وجعلان وضم إلى جانب الدولة السـعودية قبيلتين من القبائل الكبرى فى شـرق عمان هما القواسـم وبنو على بعد أن اعتنقت هاتان القبيلتان دعوة التوحيد السلفية ، فإن هذه الانتصارات انتهت

(١) حسين بن غنام: تاريخ نجد ص ٨٠.
(٢) أرنولد ويلسون: ترجمة عبد القادر يوسف: الخليج العربى ص ٣٣١.

دون عائـد كبيـر، إذ لقى مطلق المطيرى مصرعه نهاية عام ١٢٢٩ هـ الموافق لعام ١٨١٣م. كما توفى أمير الدرعية سـعود الكبير عام ١٢٣٠ هـ الموافق ١٨١٤م الذى كان زعيمًا ذا كفاءات سياسية وإدارية كبيرة [1].

أما البحرين فقد أرسل الأمير سعود الكبير جيشًا بقيادة إبراهيم بن عفيصان لمساعدة آل خليفـة فى تخليص البحرين من صاحب مسـقط، وقد نجحت قوات إبراهيم بن عفيصان فى اسـتردادها من سـعيد بن سـلطان صاحب مسـقط عـام ١٢٢٤هـ الموافق لعـام ١٨٠٨م، ولكن هذا القائد السـعودى لم يسلم زمام أمورها إلى آل خليفة بل أعلن ضمها لسـلطان آل سـعود حتى عام ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١٠م عندما سـاعدت الحكومة الفارسية آل خليفة على اسـترداد الجزر من سـيطرة آل سـعود وعندئذ اضطر الأمير سـعود إلى إطلاق سـراح المعتقليـن مـن آل خليفة فى الدرعية وسـمح لهم بالعودة إلى البحريـن، وبهذا نجد أن الدولة السعودية لم تتمكن من ضم البحرين إلى ممتلكاتها.

وهكذا كان التوسـع السـعودى فى منطقة الأحساء ومشـيخات الخليج العربى وجنوب العراق ومنطقة الحجاز هو السبب فى التوجه العثماني نحو الجزيرة العربية بدءًا من سواحلها علـى البحر الأحمر حتى سـواحلها على الخليج العربـى. وكان الهدف العثماني هو التخلص من هذه القوة العربية التى كان المأمول أن تسـيطر على المنطقة العربية وتسـتخلصها من الحكم العثماني المتهاوى.

ومن ثم جاء تكليف محمد علي باشا بالتعامل مع هذه القوة العربية الفتية، ومن هنا وبهذا التكليف، قام محمد على وأبناؤه طوسون وإبراهيم بما طلب منهم واستخلصوا الحجاز من آل سعود ثم غزوا نجد، ومن هناك جاء التوجه إلى منطقة الخليج العربي.

وممـا يلاحـظ أن التوجـه الذى قـاده محمد على فـى الجزيـرة العربيـة كان عثمانيًا فى التخطيط والتنفيذ والأهداف، ولم يكن لمصر البلد أو الشعب صلة بهذا التوجه سوى خروج الحملات العسكرية - العثمانية الصرفة - من أرض مصر وموانيها باتجاه الحجاز ونجد.

وكانـت قيـادة تلك الحمـلات تركية بل كان الضباط بل والجنود الذين شـاركوا فى هـذه الحمـلات أتـراكًا مـن الأرناؤوط والإنكشـارية ممن تمـردوا على محمـد علي وأراد التخلص منهم.

ويؤيـد ذلك تسـمية هؤلاء الجند فى كتب مؤرخي نجد باسـم التـرك والروم ولم يذكر

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى ص ٨٧ - ٨٨.

اسم المصريين[1]. ويذكر ابن عمر الفاخري فى كتاب الأخبار النجدية فى تاريخه لسنوات ١٢٣١هـ الموافق لعام ١٨١٥م وما بعدها ما نصه:

وفيها سار عسكر الترك الذى فى الحناكية فقدموا (الرس) و(الخبر) واستوطنوهما بموافقة أهلها وملكوا أطرافها وثبتت بقية القصيم.... وفى عام ١٢٣٣هـ الموافق لعام ١٨١٧م فملكها - أى الدرعية - العسكر صبيحه اليوم السابع - من ذى القعدة - وبقي الطريف (مساكن آل سعود فى الدرعية) فيه عبد الله بن سعود فحاربوا يومين ثم صالحوا وسلم عبد الله إلى الباشا "إبراهيم بن محمد علي" وبقى عبد الله بعد ذلك يومين ثم سيره الباشا إلى مصر ثم إلى الروم وقتل هناك رحمه الله تعالى.

كما ذكر صاحب تحفة المستفيد أن الدولة التركية جمعت من آلات الحرب ومن المدافع والقنابل والذخائر والأموال عددًا كبيرًا من الجنود إلى الديار المصرية وأمرت محمد علي باشا والي مصر بحرب الإمام سعود.

ويذكر ابن بشر أنه فى سنه ١٢٢٦هـ الموافق لعام ١٨١١م أجمع أمراء الروم على المسير للحجاز وأعدوا جميع آلات الحرب من السفن والمدافع والقنابل والبنادق وجميع آلاتها وما يحتاجون إليه من الأموال والذخائر من الطعام وغيرها. فأجمع العساكر من اسطنبول ونواحيها وما دونها إلى الشام ومصر والرئيس المقوم بهذا الأمر من جهة الروم صاحب محمد علي باشا، فسير هؤلاء العسكر برًا وبحرًا.

خطوات التوجه العثماني فى الخليج:

على الرغم من سقوط الدرعية وانتهاء الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م، فإن التواجد السعودي ما لبث أن استعاد شيئًا من مكانته في نجد ومنطقة الخليج العربي، فقد قام الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الدخول إلى الدرعية عام ١٢٣٦هـ الموافق لعام ١٨٢٠م، ثم الاستيلاء على الرياض واتخاذها عاصمة للدولة الجديدة، واعترف بسيادة اسمية للدولة العثمانية، وقد ساعد ذلك على السيطرة على نجد وامتداد نفوذه إلى الخليج وفي عام ١٢٤٤هـ الموافق لعام ١٨٢٨م وصل إلى الرياض وفد من أهل عمان يطلب مساعدة عسكرية سعودية مقيمة في عمان وتعيين وال وقاض، وقد استجاب الأمير تركي لهذه المطالب فأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة كافية لينصب عبد الله بن سعود من (القويعية) واليًا على

---

(١) عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، جـ١، ص ١١٧.

الاقليم، على أن يتخذ مركزه في البريمي وعين ذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجي قاضيًا، ولدى وصولهم الظاهرة استقبلتهم وفودها مع عناصر أخرى من (البطينة) الواقعة في المنطقة الساحلية من عمان بمظاهر الترحيب والتكريم.

وعندما قتل الأمير تركي عام ١٢٥٠هـ الموافق لعام ١٨٣٤م تولى زعامة آل سعود ابنه الأمير فيصل الذى ما لبث أن أثار شكوك محمد علي فبدأت الاشتباكات من جديد بين محمد علي وفيصل، وقرر محمد علي إرسال حملة عسكرية عام ١٢٥٢هـ الموافق لعام ١٨٣٦م، بقيادة إسماعيل أغا وأرسل معها الأمير خالد بن سعود الكبير شقيق الإمام عبد الله بن سعود.

كان الأمير خالد بن سعود ضمن آل سعود الذين رحلوا إلى مصر عقب تدمير الدرعية وأمه جارية حبشية فنشأ في كنف محمد علي وجاء يحكم نجد حكمًا عصريًا فنفر منه النجديون، ولكنه حازرضا الأتراك ووالي مصر فاندفع يحاول استعادة نفوذ الدولة السعودية فى الخليج، وأنها لحركة بارعة من محمد علي أن يشرك معه في مشروع الإغارة على نجد والامتداد إلى الخليج شخصًا يعتبره معظم النجديين الوارث الشرعي لأمجاد البيت الحاكم[1].

ونتيجة لفشل حملة إسماعيل أغا ضد الأمير فيصل بن تركي أمر محمد علي واليه على الحجاز خورشيد باشا بأن يتوجه إلى نجد على رأس حملة عسكرية انتهت بقبول خورشيد باشا ما عرضه عليه فيصل بن تركي بأن يستلم نفسه بشرط أن يعفو القائد العثماني - خورشيد باشا - عن الأهالي ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم. وفي ٢٣ رمضان ١٢٥٤هـ الموافق ١٠ ديسمبر ١٨٣٨م سلم فيصل ما كان معه من عتاد الحرب إلى أهل الخرج، ثم سلم نفسه إلى خورشيد باشا الذى بر بوعده إذ عفا عن الأهالي كما أحسن معاملة الأمير فيصل فاستصحبه إلى مصر وولى مكانه خالد بن سعود الذي انفرد بزعامة آل سعود.

وقد أقام خورشيد باشا احتفالاً كبيرًا بتنصيب الأمير خالد بن سعود رئيسًا للدولة السعودية، وخلع عليه ثوب الشرف، وأكد محمد علي للدول الأجنبية أن وجود قواته فى الجزيرة العربية إنما هو بقصد ضمان حقوق الأمير خالد الشرعية فى الحكم، وهذا لا ينفي أن خورشيد باشا تولى بنفسه إدارة شئون نجد وما وصل إليه نفوذ محمد علي في ساحل الخليج.

وعندما عادت الأحساء إلى سلطة الأمير خالد بن سعود ونفوذ محمد علي برحيل فيصل

---

(١) فيلبى (سنت جون) تعريب عمر الديراوى: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، ص ١٩٩.

بن تركي إلى مصر، أرسل خورشيد باشا إليها - إلى الأحساء - محمد أفندى لسن الضرائب وترتيب طرق الجباية التى لم تكن معروفة ولا مألوفة في تلك البلاد، واستمرت الحال على ذلك إلى شهر شعبان عام ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م[1].

ورغم انتشار قوات خورشيد باشا في موانى القطيف وسيهات والعقير بساحل الخليج، فقد ظل الأمير خالد رئيسًا للدولة السعودية حتى قام عبد الله بن الثنيان وهو من أبناء عمومة الأمير خالد بن سعود بثورة ضد الأخير انتهت بالخلاص منه وقد وجد مساعدة من معظم أهالي نجد خاصة أنه أعلن بأن حكمه للبلاد سيكون نيابة عن الإمام فيصل بن تركي. ومن ثم انتهى الأمر بفرار خالد بن سعود من الرياض إلى الأحساء عام ١٢٥٧هـ الموافق لعام ١٨٤١م.

وقد ساعد على نجاح عبد الله بن الثنيان انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية بناء على اتفاقية لندن لعام ١٢٥٦هـ الموافق لعام ١٨٤٠م وفي ذلك يذكر صاحب الأخبار النجدية، وفي سنة ١٢٥٦هـ سارت العساكر المصرية من نجد من (ثرمدا) والقصيم وارتحلوا شيئًا فشيئًا حتى ارتحل كبيرهم خورشيد باشا في ربيع الأول وبقي الأمر لخالد بن سعود. ثم نجاح الأمير فيصل بن تركي من العودة من مصر عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م إلى الرياض واعترافه بالسيادة الاسمية للأتراك.

ويستدعي حديثنا عن التوجه العثماني من خلال محمد علي نحو الخليج العربي أن نتناول هذا التوجه في أجزاء الخليج الطبيعية المعروفة لنقف على المدى الذي وصل إليه هذا التوجه، وموقف عرب الخليج منه.

أولاً: الأحساء:

تطلع إبراهيم باشا بن محمد علي إلى إقليم الأحساء كمنفذ على الخليج العربي لإقليم نجد بعد أن سقطت الدرعية في يد قواته عام ١٢٣٤هـ الموافق لعام ١٨١٨م، ومن ثم اعتمد على عدو سابق لآل سعود هو (رحمة بن جابر) وهو من الجلاهمة العتوب الذى يمارس مغامراته البحرية من خور حسان فى قطر، فى الاستيلاء على القطيف ميناء آل سعود في الأحساء فى نظير مساعدة إبراهيم باشا له لكى يعود إلى الاستقرار في الدمام وفي إعادة بناء حصنه القديم الذى كان آل سعود قد دمروه ولكن تطلعات إبراهيم باشا تقلصت في عنيزة بوسط شبه الجزيرة العربية، مع الاعتماد على شيوخ بنى خالد أعداء آل سعود

---

(١) محمد عبد الله الأنصارى: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد القسم الأول ص ١٥٤.

للحصول على أموال الزكاة من قبائل الأحساء.

وفي عام ١٢٥١هـ لعام ١٨٣٥م عاد التوجه العثماني من خلال محمد علي وأبنائه إلى الأحساء، وتمثلت هذه العودة في وصول (عبد الله بن مشاري) التاجر البحريني إلى المنطقة حاملاً رسائل من أحمد باشا حاكم الحجاز من قبل محمد علي إلى كل من سلطان عمان وشيخ البحرين وأمير الوهابيين(السعوديين). من أجل مساعدته باسم محمد علي على جمع الزكاة، ورغم أن هذا المبعوث لقي الترحيب والمساعدة من سلطان عمان فإنه ما لبث أن اختفى من القطيف أمام تقدم قوات فيصل بن تركي أمير آل سعود الجديد التى وصلت الإقليم[1]. ولكن خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد قرر، بعد أن استقر له الوضع في الخرج واتخذ من (ثرمداء) قاعدة له، أن يبدأ في تحقيق سياسة محمد علي بالسيطرة على مناطق شرقي شبه الجزيرة العربية بدءًا بالأحساء بما في ذلك الكويت والعراق؛ كي تلتحم هذه المناطق ببلاد الشام لتصبح وحدة تحت سيطرة محمد علي. وقد تمكن خورشيد باشا من تنظيم أمور الأحساء الإدارية تحت حماية جانب من قواته عسكرت في كل من الهفوف والقطيف وسيهات والعقير، وهي أهم مدن وموانئ الأحساء وعيّن محمد رفعت أفندي حاكمًا على الأحساء واتخذ من مدينة الهفوف مقرًا ومركزًا يباشر منه حكمه. ومن ذلك أن خورشيد أعطى الأمان لعمر بن عفيصان ورؤساء الأحساء وأمرهم بالقدوم إليه ويحفظون بيت المال وأذن لهم بالرجوع إلى بلادهم وذلك فى شهر شوال ١٢٥٤هـ الموافق لعام ١٨٣٨م وبعد رحيل أهل الأحساء عين خورشيد باشا أحمد بن محمد السديري أميرًا على الأحساء ومعه من العسكر مائة وثلاثون خيالاً رئيسهم رجل من المغاربة يقال له (أبو خزام) ثم أرسل خورشيد بعد ذلك بحوالي شهر إلى الأحساء خمسين رجلاً من العسكر والعرب رئيسهم رجل من المغاربة اسمه (محمد الفاخري).

وأما محمد أفندي رفعت فقد كان مبعوث خورشيد باشا إلى البحرين وفارس، حيث حمل رسائل إلى آل خليفة بالبحرين، ثم انتقل إلى فارس لشراء مواد غذائية (بر وشعير وغير ذلك) إلى القوات المتمركزة بالأحساء، وعند عودته من البحرين - بعد اتفاقه مع آل خليفة عينه خورشيد باشا أميرًا على الأحساء بدلاً من أحمد بن محمد السديري الذي أوكل إليه بيت المال ويعلق عثمان بن بشر على ذلك بقوله (هذه عادة ولاية الترك: أولها مطر وآخرها برد وصواعق)[2].

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٤٣٥.

(٢) عثمان بن بشر: المرجع السابق.

ولكن محمد أفندي رفعت أساء استخدام سلطاته في الأحساء؛ حتى دبروا له مقتلة في غزة شعبان ١٢٥٥هـ الموافق لعام ١٨٣٩م، ولما بلغ الخبر إلى خورشيد باشا جزع عليه جزعًا شديدًا وأمر أفندي عنده اسمه محمد شرمي وجهز معه عسكر وأرسل بدله، ثم جهز بعدهم عسكرًا آخر فجلسوا بعسكرهم في الأحساء.

وقد ظلت الأحساء تحت سيطرة قوات محمد علي بفضل التنظيم الذي وضعه محمد أفندي رفعت للإقليم وخاصة القطيف لقربها من جزر البحرين ولصلاحية ميناها للملاحة، ومن ثم بدأ محمد رفعت وبأوامر من خورشيد باشا يخطط لتنفيذ المرحلة الثانية من سياسته الرامية للتوجه إلى البحرين. ولم يوقف هذا التخطيط سوى انسحاب قوات محمد علي لا من الأحساء فقط بل ومن شبه الجزيرة العربية نتيجة لاتفاقية لندن لعام ١٨٤١م.

وعند انسحاب قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية من الأحساء ونجد خاصة دعمت الأمير السعودى خالد بن سعود - الموالي لمحمد علي - ببعض الضباط الذين أسهموا في تدريب قوة عسكرية منظمة بلغت ٨٠٠ جندى تحت إمرة خالد، ولكن هذا الأمير لم يستطع الصمود طويلاً بعد انسحاب قوات محمد علي حيث فر من الرياض أمام تقدم عبد الله بن ثنيان[1].

ثانيًا: البحرين:

ترتبط البحرين بإقليم الأحساء ارتباطًا وثيقًا، ومن ثم لا نعجب أن يكون من مخطط خورشيد باشا مد نفوذ محمد علي باشا إلى البحرين عبر الأحساء وكان آل خليفة زعماء جزر البحرين، وكان على رأسهم في سنوات تخطيط خورشيد وخاصة بين سنتي ١٢٥٤ - ١٢٥٦هـ / ١٨٣٨ - ١٨٤٠م الشيخ عبد الله آل خليفة.

جاءت علاقات خورشيد باشا مع الشيخ عبد الله آل خليفة عن طريق حاكم الأحساء ووكيل الباشا هناك محمد أفندي رفعت، والذى زار جزر البحرين مبعوثًا من خورشيد باشا فى غرة ذى الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبراير عام ١٨٣٨م، وقدم تقريرًا حمل تاريخ ٨ ذى الحجة عام ١٢٥٤هـ الموافق ٢٢ فبرايرعام ١٨٣٨م أوضح فيه أن البحرين ذات أهمية قصوى لاستقرار الأحوال في الأحساء والقطيف، فميناؤها هو الميناء الوحيد ذو الأهمية في المنطقة ولذلك اعتبرت جزيرة البحرين ميناء للأحساء والقطيف وسببًا في رواج المنطقة اقتصاديًا.

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٤٣٨.

وعندما رأى الشيخ عبد الله نجاح قوات محمد علي في شبه الجزيرة العربية وتوجه خورشيد باشا إلى جعل البحرين منطقة نفوذ لدولة محمد علي، ومحاولة سلطان عمان ضم البحرين إلى سلطنته بطريقة مباشرة أو لحساب محمد علي كأسلوب غير مباشر، لجأ الشيخ عبد الله إلى الإنجليز فى الهند ومقيمهم العام في منطقة الخليج لحمايته من هذه الأطماع.

ولما لم يجد الشيخ عبد الله من حكومة الهند البريطانية وممثلها المقيم العام في الخليج كابتن هينيل أية استجابة عملية حتى شهر المحرم ١٢٥٥هـ الموافق مارس ١٨٣٩م فيما عدا ما يصرح به الإنجليز عن عدم رضاهم عن تطلعات محمد علي في الخليج، اتجه الشيخ عبد الله إلى طلب الحماية من حكومة فارس.

ولما كان للفرس مطامعهم الخاصة في البحرين ومطالبهم المالية نظير وجود مبعوث فارسي هناك، ولما كان الشيخ عبد الله آل خليفه يعاني مصاعب داخلية فإنه استقبل محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا في عام ١٢٥٥هـ الموافق مايو ١٨٣٩م مزودًا بتعليمات من خورشيد وواضعًا قي الاعتبار أهمية البحرين لاستقرار منطقة الأحساء بل ونجد أيضًا إلى جانب رواج الناحية الاقتصادية في هذه المناطق وواضعًا في الاعتبار أيضًا مطامع الإنجليز ومواقعهم المعادية لمشروعات محمد علي وكذلك مطامع حكام فارس وسلطنة عمان.

وبعد مفاوضات بين محمد أفندي رفعت مبعوث خورشيد باشا والشيخ عبد الله حول وضع البحرين وعلاقاتها في المستقبل مع دولة محمد علي، تم الاتفاق بين الطرفين ينص علي تعهد حكومة محمد علي بتأييد ومساندة الشيخ عبد الله آل خليفة فى حكم جزر البحرين مقابل أن يقدم زكاة تقدر بألفي (روبية) سنويًا وبعض السفن لمساعدة قوات محمد علي العسكرية علي الانتقال إلى ساحل عمان إذا احتاج الأمر إلى ذلك، واشترط الشيخ عبد الله أن تبقى السلطة الداخلية في الجزر كلها بين يديه، وألا يرسل خورشيد باشا ممثلاً له يقيم في البحرين.

وقد كتب الشيخ عبد الله آل خليفة رسالة إلى خورشيد باشا عقب توقيعه للاتفاقية مع محمد أفندي رفعت بتاريخ ٢٣ صفر عام ١٢٥٥هـ الموافق ٨ مايو عام ١٨٣٩م يؤكد فيها التزامه بما جاء في نصها بأن (نعادي من عاداكم ونوالي من والاكم وأنتم كذلك، ونؤدي لجنابكم الزكاة...... صار حالنا معكم حال واحد).

ومما يلاحظ أن الاتفاقية بنصها على عدم إرسال مبعوث يمثل محمد علي مقيم في البحرين وترك أمورها الداخلية بيد شيخها، تنفي الاتهامات البريطانية باتجاة تطلعات

محمد علي استعمار البحرين وإرسال قوات عسكرية؛ لاحتلال تلك الجزر لحساب محمد علي، وهو أمر كان بعيد الاحتمال، لأن أي هجوم على الجزر في رأي لوريمر يعتبر خطيرًا في جرأته، وكان احتمال أن تقوم به قوات محمد علي احتمالاً ضئيلاً[1].

وقد تعرض اتفاق الشيخ عبد الله آل خليفة مع خورشيد باشا لانتقادات عنيفة من جانب حكومة الهند البريطانية التى لم تسمح بنجاح أية محاولة عثمانية أو فارسية تهدف إلى فرض السيادة على البحرين محتجة في ذلك بمعاهدة عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م التى جعلت البحرين إمارة مستقلة مرتبطة ببريطانيا بتعهدات.

والتى ما إن أعلن عن الاتفاقية حتى وجهت الإنذارات ومارست الضغوط ضد الشيخ عبد الله الذى حاول تبرير موقفه بأنه لم يتلقى تأكيدات بريطانية عندما طلبها، وبأن هذا الاتفاق مقرر قبل التوقيع بزمن طويل، وبأن هذا الاتفاق ليس موجهًا ضد الحكومة أو المصالح البريطانية[2].

وقد وصل الكابتن (هينيل) المقيم العام البريطاني في الخليج إلى البحرين في ١٥ جمادى آخر ١٢٥٥هـ الموافق ٢٨ يوليو ١٨٣٩م وسلم للشيخ عبد الله آل خليفة احتجاجًا على هذه الاتفاقية، ولم يقبل أبدأ تبريرات الشيخ عبد الله، وكان قد سبق للكابتن هينيل تقديم إنذار إلى خورشيد باشا في أول أبريل يحذره من الامتداد عسكريًا إلى جزر البحرين. ولما لم ينجح هينيل في إقناع الشيخ عبد الله بنقضه اتفاقه مع خورشيد باشا، كما لم ينجح كذلك احتجاجه الذي قدمه لخورشيد باشا في فض عرى هذا الاتفاق، وعندما ظل الشيخ عبد الله صامدًا أمام تهديدات الإنجليز إلى أن انسحبت قوات محمد علي من شبه الجزيرة العربية نتيجه لمعاهدة لندن لعام ١٨٤٠م ففقد بذلك سندًا في مقاومة تهديدات ومؤامرات الإنجليز.

وعندما حدث كل ذلك اجتمعت اللجنة السرية لمديرى شركة الهند الشرقية البريطانية وبحثت إمكانية استبدال الشيخ عبد الله آل خليفة بشيخ آخر أكثر استعدادا للتفاهم مع الإنجليز. ومن ثم لا نعجب أن نسمع اضطرابات وفتن في البحرين منذ عام ١٨٤٠م لا تهدأ إلا بعزل الشيخ عبد الله من حكم البحرين عام ١٢٥٩هـ الموافق لعام ١٨٤٣م، أي بعد أن حققت المؤامرات البريطانية أهدافها.

وفي ذلك يقول عثمان بن بشر: وفي جمادي الأولى ١٢٥٨هـ الموافق ١٨٤٢م وقع بين عبد

---

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٣٠٨.

(٢) د. رأفت الشيخ: العرب، دراسات فى التاريخ الحديث المعاصر ص ٨٧.

الله بن أحمد بن خليفة صاحب البحرين وابن أخيه اختلاف، ثم وقع بينهم الحرب العظيم من قتل الرجال ونهب الأموال وسبي النساء والأطفال، واستلحق عبد الله عربان آل مرة ونهبوا البحرين، ثم هرب محمد بن خليفة من البحرين لما أجهضته الحرب وقتل كثير من رجاله.

ثالثًا الكويت والعراق:

جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي إلى الكويت في إطار نفس التوجه إلى بقية مشيخات الخليج العربي وخاصة البحرين، حيث سعى خورشيد باشا قائد قوات محمد علي في نجد أن يرتبط مع الشيخ جابر آل صباح حاكم الكويت باتفاق يؤمن لقوات خورشيد الحصول علي المؤن والعتاد باستخدام سفن الكويت، وفي الوقت نفسه التطلع من هناك إلى جنوب العراق.

وعلى هذا فقد سجلت المصادر المعاصرة أن خورشيد بعث وكيلاً له يدعي محمد أفندي إلى الشيخ جابر آل صباح توصل إلى اتفاقية شبيهة بالاتفاق الذي عقد بين محمد رفعت والشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين، يقضي هذا الاتفاق بدفع زكاة لخورشيد باشا وتقديم التسهيلات في مياه وموانئ الكويت لقوات خورشيد وخاصة استخدام السفن الكويتية لنقل الأسلحة إلى ميناء القطيف بالأحساء حيث تتواجد قوات خورشيد، وهذا في نظير عدم تدخل خورشيد باشا في الأمور الداخلية بالكويت وعدم وجود مبعوث لخورشيد مقيم بالكويت.

ونتيجة لهذه الاتفاقية استطاع محمد أفندي أثناء وجوده بالكويت أن يرسل من هناك عدة سفن محملة بالأغذية وخاصة الشعير، كما استطاع أن يجمع معلومات عن الكويت والجنوب العراقي المطل على الخليج، كما استطاع هذا المبعوث أن يحصل على تقدير حاكم الكويت حتي أنه كان يأخذ مكان الصدارة في مجالس الشيخ جابر آل صباح. كما استخدمت قوات خورشيد المتواجدة بالأحساء سفن الأسطول الكويتي الكبير والمجهز تجهيزًا جيدًا في نقل شحنة من الأسلحة والأعتدة العسكرية من ميناء الحديدة باليمن إلى ميناء القطيف بالأحساء في نوفمبر ١٨٣٩م[1].

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا التقارب بين الشيخ جابر آل صباح ورجال محمد علي باشا على العلاقة بين الكويت وحكومة الهند البريطانية، فيروي لنا لوريمر أن حاكم الكويت الشيخ جابر استقبل مبعوثًا بريطانيًا في نوفمبر ١٨٣٩م بطريقة غير لائقة وغير متوقعة، ويبرر لوريمر تصرف حاكم الكويت بأنه حدث بسبب فزع الشيخ جابر من نجاح

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق ص ٩٠.

قوات محمد علي في الجزيرة العربية، وقد تناسى لوريمر أن محمد علي كان آنذاك يعيش أزمة دولية ولم يكن في مخططاته القيام بعمليات عسكرية ضد حاكم الكويت أو أية مشيخة في ساحل الخليج[1]. ورغم استياء حكومة الهند البريطانية من استقبال الشيخ جابر آل صباح لمبعوث خورشيد باشا المدعو محمد أفندي منذ عام ١٨٣٨م، وأنه لم يستقبل الملازم (إدموندز) مساعد المقيم العام البريطاني في الخليج الاستقبال الودي المعهود عندما وصل إلى الكويت في نوفمبر عام ١٨٣٩م كما ذكرنا، فإن البريطانيين لم يوجهوا إنذارًا لشيخ الكويت على غرار الإنذارات البريطانية لحاكم الشارقة وشيخ البحرين، بل التمسوا له العذر بأن مسلكه مع (إدموندز) لم يكن صادرًا عن نوايا سيئة نحو البريطانيين لكنه كان يهدف إلى خداع مبعوث خورشيد عن حقيقة العلاقة القائمة بينه وبين السلطات البريطانية.

وقد ظل التعاون بين الشيخ جابر آل صباح ومبعوث خورشيد باشا رغم معارضة السلطات البريطانية في الخليج، بل تروي الوثائق أن الشيخ جابر قدم التسهيلات اللازمة للقوات العثمانية التى هربت من البصرة تحت قيادة (محمود أغا المورة) وأرادت الالتحاق بقوات خورشيد باشا في نجد، حيث أركب هذه القوات سفينة وصلت بها الأحساء ورفض طلب سلطات البصرة في إلقاء القبض علي هؤلاء الهاربين وإعادتهم إليها.

وبالنسبة للعراق فقد جاء التوجه العثماني من خلال محمد علي مختلفًا حيث جاء اتجاه أنظار محمد علي إلي العراق عندما حدث الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية، ومن ثم أراد محمد علي أن يستكمل سيطرته علي منطقة الهلال الخصيب بضم العراق بعد أن نجح في ضم كل بلاد الشام، وبعد أن سيطرت قواته على معظم شبه الجزيرة العربية وامتد نفوذه إلى بعض مشيخات الخليج العربي.

ولذلك عندما كانت قوات محمد علي قد استقرت في بلاد الشام سادت العراق بعض القلاقل والاضطرابات، وانتهز محمد علي فرصة هذه الاضطرابات ومارس ضغوطًا من سوريا للوصول إلى العراق بأن أخذ يساند القبائل العربية الثائرة في جنوب العراق ضد الباشوات العثمانيين من أجل ضم العراق إلى الكتلة العربية التى حرص علي إقامتها في المنطقة[2].

ورغم اهتمام خورشيد باشا بضرورة غزو جنوب العراق والاستيلاء على البصرة لتأمين قواته فى الأحساء ونفوذ محمد علي في البحرين والكويت، والحصول علي المؤن والإمدادات

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٥١٤.

(٢) د. رافت غنيمى الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، ص ٧٠.

اللازمة لقواته، فإن مناداته ليأذن له محمد علي في التقدم بقواته لغزو البصرة جاءت في وقت كان الموقف البريطاني بصفة خاصة والدولى بصفة عامة معاديًا لمشروعات محمد علي التوسعية، وهذ يفسر اهتمام وزارة الخارجية البريطانية التى كان على رأسها اللورد (بلمرستون) الذى ظهرت معارضته لمشروعات محمد علي في الخليج العربي وخاصة في الفترة من عام ١٨٣٨م إلى عام ١٨٤٠م.

رابعًا: قطر:

تقع شبه جزيرة قطر في وسط الخليج العربي، وتسكنها عدة قبائل منها، بني النعيم وقبائل البوكواره، وكانت قبائل بني نعيم تعارض امتداد نفوذ محمد علي وجاءت هذه المعارضة لأن رجال محمد علي اعتمدوا على سعد بن مطلق المطيري في امتداد نفوذ محمد علي، وسعد بن مطلق عدو لقبائل بني النعيم ومقرهم الرئيسي واحة البريمي.

وعندما رفضت بعض عشائر بني النعيم دفع الزكاة التى طلبها منهم الشيخ عبد الله آل خليفة لحساب قوات محمد في الخليج في أوائل عام ١٨٤٠ أرسل محمد أفندي رفعت حاكم الأحساء بعض القوات النظامية يعاونها بدو (المخضبة) من بني هاجر لإحضاع قبائل بني النعيم، ولكن مصرع محمد أفندى رفعت في الأحساء بالقرب من الهفوف قد أوقف هذه الإجراءات[1].

وبالنسبة لقبائل (البوكواره) فقد كانوا يقيمون بمدينة (الفويرط) كغيرهم من القبائل التى تسكن شبه الجزيرة القطرية كانوا يدفعون الزكاة للشيخ عبد الله آل خليفة حاكم البحرين لحساب قوات محمد علي فى المنطقة، ولكن عندما اشتد جباة شيخ البحرين عليهم في جمع الزكاة تحولت قبائل (البوكواره) للبحث عن حماية لهم من هذا العسف المحسوب على محمد علي، وكان طبيعيًا أن يتقدم الإنجليز بهذه الحماية.

وهكذا لم تدخل قوات خورشيد باشا الأرض القطرية، كما لم يكن هناك مبعوث خاص من خورشيد باشا إلى قطر نظرًا؛ لأنه لم تكن قد تكونت بها وحدة وطنية تحت زعامة واحدة، حيث كانت قطر تعيش في ظل انقسامات قبلية، تخضع بعض القبائل القطرية للبحرين، والبعض الآخر يخضع لآل سعود. وغير هؤلاء وهؤلاء قبائل لا تدين بالولاء لأحد.

خامسًا: سلطنة عمان والساحل العماني:

حكم محمد علي مصر اعتبارًا من شهر مايو عام ١٨٠٥م عندما صدر له أول فرمان

(١) لوريمر: المرجع السابق ص ١٢٠٧.

سلطاني، ثم صدر له في عام ١٨٠٦م ما عرف بفرمان التثبيت من سلطان الدولة العثمانية، وفي نفس هذا العام الأخير تولي سعيد بن سلطان البوسعيدي حكم سلطنة عمان مسقط، وفي الوقت الذي أتجه فيه محمد علي بأنظاره إلى مشيخات الخليج العربي أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كان سعيد بن سلطان يتجه لبناء ملك له ولأسرته في ساحل الزنج (زنجبار) بشرق إفريقيا......

ورغم أن المراسلات بين الرجلين محمد علي وسعيد بن سلطان كانت قليلة، ولم يحدث لقاء بينهما، فإنه كان هناك تعاون محدود في عدة مجالات كاستعانة سعيد بن سلطان ببعض الخبرات العسكرية من مصر للخدمة في مسقط وعدم اصطدام مطامع الطرفين بالنسبة للبحرين موضع اهتمام كل منهما، ومهادنة سعيد بن سلطان لآل سعود واستخدام محمد على لبعض أمراء آل سعود وبعض رجالهم لتحقيق مطامحه.

وقد اعتمد خورشيد باشا في تحقيق مطامع محمد علي على رجل السعوديين هناك سعد بن مطلق المطيري والذي يعمل باسم خالد بن سعود أمير الدولة السعودية المشمولة بحماية ونفوذ باشا مصر. وقد حمل سعد بن مطلق رسائل إلى زعماء ساحل عمان وإلى سلطان مسقط بهدف تقديم الزكاة والاعتراف بنفوذ آل سعود بالتعاون مع خورشيد باشا.

ولكن سعيد بن سلطان رغم أنه أظهر رغبة في السيطرة علي البحرين ومال إلى تنسيق سياسته مع سياسة والى مصر محمد علي في الجزيرة العربية إلا أنه تراجع عن ذلك بسبب موقف العداء الذي أظهرته السلطات البريطانية نحو تواجد قوات محمد علي في منطقة الخليج العربي وعندما أيقن من موقف بريطانيا المعادي لنفوذ محمد علي في شرقي الجزيرة العربية أخذ موقفها وبالنسبة للساحل العماني فقد سعى سعد بن مطلق المطيري من مقر أقامته بواحة البريمي أن يمد نفوذ خالد بن سعود المشمول بحماية قوات محمد علي إلى مناطق الساحل العماني خاصة أبو ظبي والشارقة ورأس الخيمة وقد رحبت مشيخات القواسم في الشارقة ورأس الخيمة بسعد بن مطلق كنائب عن والي مصر لأنها كانت تميل منذ عهد الدولة السعودية الأولى إلى الدعوة الوهابية[1].

وتبعًا لذلك فقد سمح الشيخ سلطان بن صقر القاسمى حاكم الشارقة لسعد بن مطلق المطيري أن يقيم في الشارقة بعد وصوله إليها في مارس عام ١٨٣٩م وقد وضع الشيخ سلطان تحت إمرته بيتًا حصينًا وقلعة ليقيم فيها.

---

(١) د. صلاح العقاد: مرجع سابق ص ١٣٨.

ومن الشـارقة أخذ سـعد بن مطلق المطيري يباشر نشاطه لخدمة أهداف محمد علي في منطقة الخليج فاسـتطاع عقد تحالف مع الشـيخ خليفة حاكم أبوظبي الذي رحب بالتعاون مع رجال محمد علي رغم معارضته السابقة لتقدم السعوديين إلى البريمي.

ومن الشـارقة أيضًا حاول سـعد بن مطلق المطيري اسـتخدام وسـاطة حاكم الشـارقة الشـيخ سـلطان لفتح صفحة جديدة مع قبائل (بني النعيم) فـي البريمي لينضموا إلى منطقة نفوذ محمد علي، ولكن بسبب وجود خلافات شخصية بين بني النعيم وبين سعد بن مطلق الذي اتهمهم بقتل والده - مطلق المطيري - لم تنجح الوساطة واستند بني النعيم على تأييد الإنجليز في وقوفهم ضد نفوذ محمد علي الذي يسعي نشره عدوهم سعد بن مطلق[1].

وكان لأسلوب سعد بن مطلق في إنذار القبائل التى ترفض الأنصياع لأوامره نتائج واضحة في فشـل مهمته في منطقة السـاحل العماني ذلك إن الإنجليز تدخلـوا لحماية قبائل بني النعيم وغيرها لحمايتها من تهديدات سعد بن مطلق فقد قام (ميتلاند) قائد عام البحرية البريطانية في الخليج بزيارة للساحل العماني المتصالح في فبراير عام ١٨٣٩م وحصل على تعهدات من شيوخ قبائل الساحل بعدم إقامة أية علاقات ودية مع مبعوث قوات محمد علي (سعد بن مطلق).

كمـا أن المقيـم العام البريطاني في الخليج العربي الكابتن (هينيل) زار سـاحل عمان فـي يوليـو ١٨٣٩م، وأدرك أن شـيوخ أبو ظبي ودبي وأم القوين والشـارقة يميلون إلى التعاون مـع محمـد علي وحصل علـى تعهدات خطية من شـيوخ أبوظبـي ودبي وأم القوين والشـارقة وحاكمها سـلطان بن صقر القاسـمي الذي كان أكبر ميلاً للتعاون مع مصر محمد علي، كمـا حصل على تأييد السياسـة البريطانية الرامية إلى الأنفـراد بالنفوذ في الخليج العربي ومحاربة التوجه العثماني باسم محمد علي.

ونظرًا لتخوف (هينيل) من سـلطان بن صقر القاسـمي من أن ينقلب لمناصرة نفوذ محمد علـي فقد كبله بشـروط أخرى أكثـر صرامة، كعدم إجراء أية علاقات أو مراسـلات أو اتفاقيـات مـع محمد علي باشـا والى مصـر أو أنصاره أو أيـة قوة أجنبية أخـرى قبل موافقة الحكومة البريطانية. كما أظهر استعداد انجلترا لحماية هذه المشيخة وغيرها وإمدادها بالأسـلحة والذخائر بشـرط اسـتخدامها ضد تقدم قوات محمد علي، وكل ذلك دليل على خشية الإنجليز من الخطر المصري المزعوم في الجزيرة العربية.

وقـد نجـح الكابتن(هينيل) في ذو القعدة ١٢٥٥هـ الموافق يناير ١٨٤٠م في إقناع شـيوخ

---

(١) د. رأفت الشيخ: العرب دراسات فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٨٤.

الظواهر بالتجمع في تحالف دفاعي مع الشوامس وآل نعيم وجميع القوى المحلية في المنطقة، كما نجح في تصفية الخلافات فيما بينهما لتتفرغ للوقوف ضد سعد بن مطلق وسادته من آل سعود وباشا مصر، وعندئذ أدرك سعد بن مطلق المطيري أنه لا قبل له على مواجهة الموقف، فأرسل إلى خورشيد يخطره بحقيقة الموقف، ويخطره بأنسحابه إلى الأحساء ولم ينتظر وصول الأمدادت التى طلبها والتى كان خورشيد قد أعدها فعلاً لإرسالها لتحقيق أهدافه في ساحل عمان. وهكذا بدأ التوجه العثماني من خلال محمد علي وأسرته في الجزيرة العربية بناء على طلب الدولة العثمانية خلال عشرين سنه تقريبًا من ١٢٢٦ - ١٢٤٧هـ الموافق لأعوام ١٨١١م - ١٨٣١م، عندما بدأ الصدام بين محمد علي والدولة العثمانية علي أرض الشام، ومن ثم بدأ توجه محمد علي في الجزيرة العربية وفي ساحل الخليج العربي يأخذ اتجاهًا شخصياَ لتحقيق أهداف محمد علي لحساب ملكه هو لا ملك الدولة العثمانية والسلطان العثماني وكان يمكن أن يقدر لتوجه محمد علي في الجزيرة العربية أن يستمر لولا موقف انجلترا بصفة خاصة والتى سعت حتى أنهت على كثير من مناطق سيطرته فانسحبت قواته من الشام ومن كل شبه الجزيرة العربية بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠م.

الفصل الخامس

مدحت باشـــا

نشأته وأفكاره الإصلاحية.

الفكر الاستراتيجى عند مدحت باشا.

مدحت باشا فى العراق:

أعمال مدحت باشا في العراق.

حملة مدحت باشا على الأحساء.

مدحت باشا نشأته وأفكاره الإصلاحية

ولـد مدحت باشـا في اسـطنبول في شـهر صفر سـنة ١٢٣٨هـ الموافـق ١٨٢٢م، والده القاضى الحاج حافظ محمد أشرف، وقد سماه والده اسمًا تغير فيما بعد. كان الاسم الذى سمي به هو أحمد شـفيق، وقد حفظ القرآن الكريم وهو في سـن العاشـرة، فصار اسمه بعـد ذلك حافظ شـفيق، وقد تعلـم مبادئ الإنشـاد، فأدخله عاكف باشـا رئيس الكتاب وناظـر الخارجيـة إلى الديـوان الهمايونى فتعلم الخط الهمايونـى المخصوص بهذا القلم في ستة أشهر. وكيف أصبح اسم أحمد شفيق أو حافظ شفيق إلى اسم مدحت؟

لقـد كانت العادة المتبعة بالنسـبة للذين يتخرجـون من الديوان الهمايونى بتوسـيم المتخرج باسـم خاص، فسـمي حافظ شفيق باسـم مدحت الذي غلب على الاسـم القديم من عام ١٢٥٠هـ الموافق ١٨٣٤م، وقد درس مدحت العلوم العربية والدين الإسلامى واللغة العربية واللغة الفارسية في مسجد الفاتح باسطنبول وغيره من الجوامع، إلى جانب النحو والمنطق والفقه والحكمة[1].

وقـد شـغل مدحـت عدة وظائف فـي الحكومـة، كان منها وظيفة في قلـم مكتوبجى الصدارة، ووظيفة رفيق لكاتب تحريرات الشـام، وفي عام ١٢٦١هـ الموافق ١٨٤٥م، عين كاتبًا لديوان سـامى باشـا بولايـة قونية، وقد حصل في عام ١٢٥٩هــ الموافق ١٨٤٣م على رتبة خوجة وتدرج في الوظائف وترقى بها حتى صار عام ١٢٦٧هـ الموافق لعام ١٨٥٠م رئيسًا للخلفـاء وهـي رتبة التمايز، وقـد عينه الصدر الأعظم في عـام ١٢٦٩م الموافق لعام ١٨٥٢م رئيسًـا لمجلس "الوالا" فأثبت في هذه الوظيفة كفاءته وحبذه رشـيد باشـا، وعالى باشـا، ورشدى باشا، وأمثالهم من أقطاب الدولة ووزرائها.

وقد لاقى مدحت العنف من بعض المسـئولين مثل محمد باشـا القبرصلى الذي تعين في منصـب الصدر الأعظـم عام ١٢٧٠هـ الموافـق ١٨٥٣م، فأبعد مدحت إلـى البلقان لمواجهة عصابـات الأشـقياء التى مـلأت ولايات الروميلـى، ثم عاد إلى اسـطنبول بعد عـزل الصدر الأعظـم محمد باشـا القبرصلى وتعيين رشـيد باشـا ومع ذلـك وجهت إليـه اتهامات كاذبة أثبتت التحقيقات براءته منها.

وبعـد ثبـوت بـراءة مدحت أفنـدى تم تكليفـه بالتحقيـق فـي مخالفات بعـض الولايات العثمانيـة، سـواء في حلـب، والبلغار، ونجح مدحت فـي تحقيق الأمن والاسـتقرار في تلك

(١) يوسف كمال بك حتاتة، ود. صديق الدماوجى: مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٢م، ص ٩ - ١٠.

البلاد بعد إزالة المظالم التى اشتكى منها الأهالى وتحقيق العدالة. وقد لقى التقدير من الوزراء، مما أثار عداء البعض من الوزراء ضد مدحت، مما أثر في نشاط مدحت أفندى وثبط همته، وتوفي رشيد باشا وتأثر مدحت أفندي لوفاته أيضًا وعزم على السياحة في أوربا عام ١٢٧٤هـ الموافق ١٨٥٧م. وقد تعلم اللغة الفرنسية أثناء زيارته لباريس ثم زار لندن وفينا وبلجيكا. ووقف على أسرار ترقى الأوربيين وتقدمهم. ثم عاد إلى اسطنبول وترقى رئيسًا لمجلس "الوالا". وفى عام ١٢٧٧هـ الموافق١٨٦٠م طلب محمد باشا القبرصلى الذي عاد صدرًا أعظم من السلطان عبد المجيد توجيه رتبة الوزارة لمدحت أفندي وعين واليًا لولاية " نيس" وكانت هذه بادرة من الصدر الأعظم طيبة تجاه مدحت، وقد أصدر السلطان القرار المطلوب. وقد نجح مدحت في وظيفته نجاحًا كبيراً حيث أفشل إلى حد كبير دسائس روسيا في بلاد البلغار وغيرها من بلاد البلقان.

وفى عهد السلطان عبد العزيز(سنه ١٨٦١، ١٨٧٦م) توالت على الدولة المشاكل الخارجية والدخلية وقد أستعان السلطان عبد العزيز برجله محمود نديم باشا صدرًا أعظم. وكان الناس يعزون إلى محمود نديم باشا المساوئ والمظالم التى يعيشون فيها، وكان السلطان يؤيده مما دفع الناس إلى المطالبة بخلع السلطان عبد العزيزلإنهاء استبداده وبسبب مساوئ حكم الصدر الأعظم، وفى نفس الوقت اشتعلت الثورات ضد الحكم العثماني في كل من أدرنة والبوسنة والهرسك والبلغار. أين مدحت باشا في خلال هذه الأحداث؟ عندما ثارت ثائرة الناس ضد محمود نديم باشا لجأ إلى الفرار فصدر قرار السلطان عبد العزيز بعزله وتعيين رشدى باشا الكبير صدرًا أعظم وصدرت إرادة سلطانية أيضًا تقضي بإحضار حسين عوني باشا من مدينة "بروسة" وتعينه بوظيفة سر عسكر وتعين مدحت باشا في الوزارة بوظيفة عضو في المجالس العالية ومع ذلك فإن السلطان عبد العزيز في السنين الثلاث الأخيرة لم يسمع نصيحة مخلص ومن هنا انتشرت الشائعات بعزم الأمة على خلع السلطان عبد العزيز فأرسلت والدته "جوهرأغا" إلى مدحت باشا تطلب منه المشورة.

كانت تلك الاستعانه من أم السلطان عبد العزيز دافعًا لمدحت باشا لكي يقدم أفكاره الأصلاحية. فأسرع بكتابة لائحة ضمنها الأسباب التى أوقعت الدولة في مأزق الأزمات، وختمها بوجوب أصدار قانون يكفل للأمة حق المساواة ويجعل النظار مسئولين عن أعمالهم لتلافي وقوع الثورة، ولكن السلطان عبد العزيز رفض هذه الأفكار، مما جعل كلاً من مدحت باشا، وحسين عوني باشا ورشدى باشا وخير الله أفندي على أحضار ولي العهد في التاسع من شهر جمادى الأولى عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م إلى الباب الهمايوني لإجلاسه

على العرش. باسم السلطان مراد، وقد انتحر عبد العزيز في اليوم السادس لخلعه وكانت فرصة مدحت ورفاقه من الاصلاحيين لتخليص الدولة من أزمتها واتخاذ مسلك ثابت للإدارة والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورة بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها أفراد الأمة أحرارًا متساويين. ويذكر مدحت أن هذه المسألة قد ارتسمت في فكرى حين كنت واليًا على "الطونة" فكتبت قانونًا موافقًا لروح العصر، وحان وقت العمل به وقد جلس السلطان على كرسى أجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية فزاد أنتشار فكرة الشورة بين الأحرار، وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب أجراءه لإعلان الشورى.

ويضيف مدحت باشا بأن خطبة السلطان الجديد (مراد) ذكرنا فيها أن الحكومة تفكر في احلال الشوري محل الاستبداد وإن أفراد الدولة العلية سيتساوون في الحكومة الدستورية. والدستور يعلنه الملوك، ولكن السلطان (مراد) قد أصيب بمرض خطير، فلم نتمكن من إعلان الدستور، ورغمًا عن كل هذا فقد اشتغل موظفو الحكومة بالتخلص من الكوارث الداخلية والخارجية، وكنا نعلم أن الخلاص من المشاكل متوقف علي وضع القوانين الدستورية. وقد انتهزت فرصة اجتماعنا في الباب العالي الوزراء وعدد من العلماء فأخرجت من جيبي صورة القانون الأساسي وعرضتها عليهم فقرروا باتفاق الآراء تبديل بعض مواده وجعلهاموافقة لروح العصر وإناطة أمر تبديلها بلجنة تكون تحت رئاستي. وكان بعض أعضاء البيت المالك حاضرين فأعطينا لكل واحد منهم صورة من هذا القانون[1].

وفى يوم الخميس الموافق للحادي عشر من شهر شعبان عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م قرر النظار والعلماء بالاتفاق معًا تولية عبد الحميد عرش الخلافة والسلطنة باعتباره كان وليًا للعهد للسلطان مراد، وقد رحب عبد الحميد الثاني بالقانون الأساسي "الدستور" وأعلن أن تخليص الدولة من مشاكلها يتم من خلال إعلان الدستور وتنفيذه، وكان هناك معارضون لإعلان الدستور. بينما كان الاصلاحيون ومنهم مدحت باشا يسعون لإعلانه خاصة بعد أن تحقق النصر فى الصرب في الخارج ضد الصرب.

وفي ١٩ يناير عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م أصدر السلطان عبد الحميد الثانى قرارا بتعيين مدحت باشا صدرًا أعظم، وتمت مراجعة مواد القانون الأساسى "الدستور" وأرسل المشروع للسلطان عبد الحميد الثانى الذي أصدر الإرادة السنية فصدر الخط الهمايوني القاضي بإعلان الدستور في السابع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م في

(١) المرجع السابق ص ٢٣ - ٣١.

ميدان الباب العالي بحضور الجموع المحتشدة، ووزعت نسخ من الدستور في جميع أنحاء الدولة مما أثار الفرح في نفوس الناس.

وقد بدأت الانتخابات النيابية في الولايات، وقد ابتهج الناس بالانتخابات وتطلعوا إلى مجلس المبعوثان، ولكن حدث في عام ١٢٩٤هـ الموافق٢٤ يناير لعام ١٨٧٧م صدر قرار السلطان بخلع مدحت باشا من منصب الصدارة العظمي وإبعاده إلى أوربا في لندن، باريس فينا حتى صدر عفو سلطاني عن مدحت باشا والسماح له بالإقامة مع عائلته في جزيرة كريت الذي وصلها مع العائلة في غرة من شهر شوال عام ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م. ومن كريت صدر قرار سلطاني بتعيين مدحت باشا واليًا على سوريا لإصلاح الأحوال بها كما سبق وأصلح أحوال ولايات الطونة وبغداد وقد أدى الدور الاصلاحي المنوط به خير أداء، ولكن الوشايات والدسائس سواء في بلاد الشام أو في اسطنبول، فصدر فرمان بنقل مدحت باشا من بلاد الشام إلى أزميرفي أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٧٨م. حتى تم القبض على مدحت باشا في يوم الاثنين ٤ مارس وحوكم في السراى وصدر الحكم عليه بالموت، وصدر قرار بنفيه ورفاقه رشدى باشا ومحمود جلال الدين باشا ونورى باشا إلى سجن مدينة الطائف حيث تم التخلص منهم هناك[1].

هل كان مدحت باشا مصلحا حقًا لأحوال الدولة العثمانية؟

اختلف المؤرخون حول شخصية مدحت باشا وسياسته الإصلاحية سواء في "نيس" بالبلقان أو في العراق والخليج العربي أو حتى في اسطنبول مركز الدولة العثمانية.

فيذكر عباس الغزاوى في كتابه: تاريخ العراق بين احتلالين، وأن مدحت باشا كان توجيهه للإصلاحات كان مرضيًا، ويكفي أنه وجّه وعمل واستخدم المواهب، كما حاسب على الإهمال والتراخي، وتغلب على الأهواء والتيارات المتعارضة فاخذ بناصيتها وعمل بما لم يسبق إليه[2].

ويذكر الدكتور عبد العزيز نوار: إن مدحت باشا أحيا روح الإقبال على العمل في ميادين لم تكن مطروقة من قبل، وأطلق بذلك طاقات كانت مكبوته، وكشف للناس عن أمكانيات كانت واسعة احتاجت إلى الحل وإلى المتابعة، ونتيجة لذلك ظلت ذكراه عطرة إلى أيامنا هذه.

ويضيف الدكتور عبد العزيز نوار بأن مدحت باشا قام بتطبيق النظم الحديثة،

(١) المرجع السابق ص ٣٧ - ٦٢.

(٢)عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين، ص ٧ بغداد ١٩ ص ١٦٦.

وهذه وحدها مشكلة استعصت على معظم الولاة من قبله، ونظم الإدارة، وضرب على يد المرتشين، وعنى بالحياة الاجتماعية والصحية، وكانت من الأمور المهملة، فضرب مثلاً في هذه الناحية بأن الشرقي لا يقل عن الغربي إقبالاً على هذه الأساليب من الحياة المتطورة، وكما قام بواجبه - على قدر استطاعته - نحو أهل العراق وفي حكومته حقها، فقدم لها مبالغ من الأموال لم يقدمها وال من قبل[1].

أما آن وولفرد بلنت An and Wifred Blunt فى كتاب تاريخ الاحتلال الإنجليزى لمصر. فقد وجها نقدًا شديدًا لمدحت باشا حيث أنه وضع من الخطط مالم يكن هو بقادر على تنفيذها... كما أن مدحت باشا في رأى ويلفرد بلنت، لم يكن ممتازًا بأي شئ في مظهره سوي أنه كان فخورًا مختالاً، ولم أجد فى محادثتى معه أثناء لقائنا بدمشق عندما كان واليًا عليها، فى موضوع تجديد تركيا وإصلاحها أى عمق في أفكاره، والواقع أنه كان أكثر من الأتراك في اسطنبول احتقارًا لكل ما هو عربي[2].

ونحن نعتقد أن هجوم آن وولفرد بلنت على مدحت باشا مرجعه أنه كان من أشد أعداء النفوذ الأجنبي في ولايات الدولة العثمانية، بينما دائرة المعارف البريطانية أشادت باصلاحات مدحت باشا، حيث أن إصلاحات مدحت باشا في العراق مثل إصلاحاته في "نيس" كانت ذات نتائج حاسمة، وأنه لقي من المتاعب في العراق ما لقيه فى "نيس"[3].

ويرى الدكتور عبد العزيز نوار: أن النقد الرئيس الذى يوجه إلى مجهودات مدحت هو أنه كان تركيًا في تفكيره، وكانت إصلاحاته تستهدف إنقاذ رعية الدولة العثمانية والحكومة في اسطنبول من الهاوية التى كانوا ينحدرون إليها، ولكن لم يعن باشراك العرب والأكراد إشراكًا فعليًا في توجيه أمور البلاد أو في تدريبهم علي مسئوليات الحكم، فظلت الإدارة تركية، وظلت المدارس تعلم بالتركية، حيث أن بواكير الحركة العربية في العراق أخذت تظهر في البلاد لافي أواخر القرن التاسع عشر - كما هو معروف - ولكن منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر[4].

ومهما يكن فإن لمدحت باشا سمعة كبيرة في العراق، وأهمية لدى مؤرخي تاريخ العراق، فضلاً عن أن مدحت نفسه شخصيته لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الدولة العثمانية أبتداء من النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وقد وصفه البعض بأنه مصلح العراق،

(١) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث ص ٤٤١.

(٢) ولفرد بلنت ترجمة: تاريخ الاحتلال الإنجليزى لمصر، القاهرة ١٩ ص ١٢٢.

(3) The Encyclopedia Brittanica, 14ed, Vol. 51, P. 456.

(٤) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٤٤١.

كما وصفه آخرون بأنه أبو الدستور العثماني[1].

وهذا يسوقنا إلى ذكر حقيقة عن الحكم العثماني عامة وسياسة مدحت باشا للبلاد التى تولي عليها، حيث كان اهتمام الحكم العثماني عسكريًا أكثر منه مدنيًا واقتصرت عناية العثمانيين على بعض المدن الساحلية أو الكبيرة التى تدر دخلاً كبيرًا، ولذلك لم تنتعش الولايات في أيامهم، بل بالعكس تجمدت حيث كانت مما جعلها مسرحًا للفوضي وسوء الحكم، ولما ضعفت الدولة العثمانية إلى حد استئثار الكثيرين في ولايات الدولة العثمانية بالسلطة محليًا قامت الثورات والحركات العصبية والقبلية التى تطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية.

ويذكرأنصار مدحت باشا أنه لو بقى مدحت باشا في خدمة الدولة العثمانية ولم يعزل ولم يحاكم ولم يقتل، لأصبحت تركيا اليوم من أكبر بلاد العالم من حيث العمران والثروة والقوة والمنعة؛ لأن الرجل كان يشبه "اللورد كرومر" و "غمبتا" و "بسمارك" وغيرهم من عظماء الرجال، ولوقسنا أعماله وأعمال غيره من الرجال لرأينا الفرق كبيرًا.

ويضيف هؤلاء المناصرون قولهم: إن مدحت باشا كان إذا فكر في أمر أقدم عليه من أول يوم، وابتدأ بإجرائه بعكس رجال الدولة العثمانية الذين يقضون أوقاتهم بإحضار اللوائح وشرب القهوة والشاي، ولا يعملون عملاً إلا بعد مذكرات طويلة، والقرارات التى تجلب الصداع.

وأضاف هؤلاء المناصرون لمدحت باشا تقريظا في أوصافه ومناقبه، بأنه لم يسمع أحد أن مدحت باشا مكث شهرًا أو شهرين لإحضار لائحة، بل رأى الناس السفن تملأ بالأسلاك بعد توليته مسند الصدارة بأسبوعين، وسألوا عن السبب فقيل لهم أنه عازم على مد خط التلغرافي بين الشام والحجاز، ورأوا بعد ذلك بأسبوع المهندسين يتوجهون إلى طرابلس الشام وإلى بغداد لترسيم خريطة خط بغداد الحديدى.

رأى الناس رجلاً فى يده المسبحة، يقرأ الأوراد، ويصلي الأوقات الخمس، ولم يتعلم اللغة الفرنسية بعد أن جاوز سن الأربعين، وتعلم في أيام صباه في مدارس الفاتح، وقرأ دروسه على المشايخ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء[2].

وجاء مقتل مدحت باشا في سجن الطائف بالحجاز من السلطان العثماني عبد الحميد

---

(١) د. عبد العزيز نوار: نفس المرجع، ص٣٥٣.

(٢) مدحت باشا: حياته / مذكراته/ محاكمته: المرجع السابق ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

الثاني في ليلة الخميس ١٢ رجب ١٣٠١هـ المرافق ٢٠ أبريل ١٨٨٤م[1] وبذلك أسدل الستار على حياة رجل من رجالات الدولة العثمانية الإصلاحيين، بل أظهر هؤلاء الرجال وأقدرهم، ولكن الوشايات والاستبداد كانا من وراء التخلص منه، وبذلك فقدت الدولة العثمانية تنفيذ الاستراتيجية الواضحة التى تبناها مدحت باشا ليس في اسطنبول أو في أوروبا فقط، بل وفي المشرق العربي، الخليج، والجزيرة العربية، والعراق، والشام.

مدحت باشا: حياته – مذكراته – محاكمته

قال نجل المرحوم مدحت باشا علي حيدر بك ما ستأتي ترجمته بالحرف الواحد

"بعض كلمات"

أقدم إلى أبناء وطني في يوم عيدنا الملي أثر والدي وقد ذكروه بعض الذكر أو لم يذكروه ليكون عبرة لهم.

لما تمايل الوطن إلى سقوط في دركات الحضيض لفقدان العدل وسوء الإدارة حاول بتأسيس حكومة الاخوة والمساواة فجاهد ٤٥ سنة إلى أن أفنى حياته وسكن لحده.

هذا الكتاب هو أول خطوة أخطوها لإثبات براءته التى سأسعى لتحقيقها رسميًا.

كتب والدي هذا الأثر في قلعة الطائف أمام مشكل وهو محاط بالجواسيس فكان يكتب السطر أو السطرين ويترك الكتابة إذا سمع وقع قدم أو صوت إنسان.

كتبه وليس معه رفيق يستشيره أو كتاب يلجأ إليه ورغما عن فقدان كل الوسائط اللازمة لكتابة التواريخ خدم به وطنه أيضًا في أواخر أيامه وأودعه وقائع حياته السياسة والإدارية وبرأ نفسه من الحكم الذي ألصقه به الملك المستبد وأعوانه الأراذل الجبناء وكان قد أرسل قسما من هذا الأثر إلى عائلته في أزمير فحفظته عندي كتذكار مقدس واستخرجت منه الكتاب الذي قد نشرته في أوربا وعدد صفحاته (١٤٣) وزدت عليه بعض المواد المأخوذة من غيره.

وكان – رحمة الله – قد صرف النظر عن إرسال متمماته لانقطاع الرسائل المنبئة بوصول ما بعث به من مقدمات ومع كل ذلك فقد رأى وجوب إيجاد نسخ متعددة منه فاستكتب خير الله أفندى نسختين وحفظ النسخة الأصلية في بعض خبايا السجن ولكنه أخرجها قبل قتله بلية لسبب لا أعلمه فأخذها الجلادون ولعلهم أرسلوها إلى عبد الحميد وأرسلت إحدى النسخ المكتوبة بخط خير الله أفندي إلى كمال أفندي شيخ تكية (بلاط) بواسطة

(١) نفس المرجع ص ١٤٩.

طوغلـه جى زاده مصطفى أفندي فلم يسـلمها الأول إلى الثاني لليوم وسـلمت الصورة الثانية إلى وصفي أفندي مدير أوراق الطائف بواسـطة فخري بك فوضعها في صندوق من الحديد ودفنها إلى يوم إعلان الدستور.

أنشر اليوم أثرًا كتب بمهمة عالية وحفظ بشجاعة نادرة. أنشر منه اليوم (تبصرة وعبرة) وأذيله بملحق فمن المحررات المرسـلة إلى عائلته يعلم القارئ ما قاسـاه المرحوم في سجنه وقد أضفنا إلى هذا القسم ما التقطناه من أفواه رفاقه الذين لا يزالون في قيد الحياة.

اعتمدنا في تفصيل مسـألة خنقه على رسـالة لرفيقه في سـجنه خير الله أفندي (شـيخ الإسـلام الـذي اصدر فتوى خلع عبـد العزيز) وعلى أقـوال المابينجي الثاني للسـلطان عبد العزيز الذي قد رافق الفقيد وعايشه في سجنه وخلص من الأسر وعاد بعد إعلان الدستور.

اليوم أنشـر أثر رجل قد خنق بأمر السـلطان عبد الحميد في غيابة سـجن الطائف لأعيد ذكره المنسـي بين محافل سـرور الشـعب. واشـرك روحه فـي فرح الأمة التـى كان يحبها ويفديها بالنفس والنفيس

علي حيدر مدحت باشا

١٠ تموز ١٣٢٥

مقدمة مدحت باشا

قال المرحوم عن نفسه في مقدمة كتابه المكتوب بخط يده. . . . .

طلب الكثيرون من محبي الوقوف على نشأة مدحت باشا ترجمته فنشرها مرارًا باللغتين التركية والعربية ولكنها لم تكن وافيه لأن قسمًا منها كتب عن أحوال سنة ١٢٨٢ والقسم الثاني كتب عن الأحوال سنة ١٢٩٠ على أن خدمات مدحت باشا المشهورة قد ابتدأت بعد ذلك الزمان وخصوصًا سنة ١٢٩٣ أي من خلع السلطان عبد العزيز إلى سنة ١٢٩٩ ففيما بين هذين التاريخين تنحصر أهمية صحائف أحواله ولذلك قد طلب منه العديدون من رفاقه في سجن قلعة الطائف كتابة هذه الأسطر فلبى طلبهم وكتب ترجمته من يوم ولادته سنه ١٢٣٨ إلي سنة ١٣٩٨ ضمن هذه الترجمة وقائع الدولة السياسية وسمي الكتاب المحتوي على التفصيلات الشامل لأعظم الوقائع السياسية تبصره وعبرة.

فالواقع المسطور في هذا الكتاب يعرفها الواقفون على حركاته وأحواله وهم إلى اليوم في قيد الحياة والأوراق الرسمية الموجودة إلى يومنا في سجلات الحكومة تثبت ما له من الأيادى في خدماته المشهورة التى قد خدم بها الحكومة ٤٥ سنة بلا فاصلة فمن اشتبه في بعض محتويات هذا الكتاب فليراجع الأوراق الرسمية ليظهر له الحق.

وهنا مسألة يجب النظر إليها وهي أن ما كتب في السجن لم يحتوى على النمر الرسمية والتواريخ بالضبط لأن الأوراق الرسمية إذ ذاك بعيدة عن الكاتب وليت الخطب قد بقي عند هذا الحد فقد كانت الكتب الدينية وأمثالها ممنوعة عنه وعن رفاقه وكانت مخابرة أولادهم وعائلاتهم ممنوعة أيضًا فضلاً عن التضييق والتعذيب فليعذر القارئ إذا وقف على بعض الخطأ والقصور.

مدحت باشا

الفكر الإستراتيجى عند مدحت باشا:

يتضمن الفكر الاستراتيجى لمدحت باشا ناحيتين، ناحية عسكرية، وناحية إدارية، وكلا الناحيتين متكاملتان، باعتبارهما ناتجتين من فكر واحد هو فكر مدحت باشا رجل الإصلاح في الدولة العثمانية، والذي تولى عدة وظائف قيادية في حكومة الدولة، وفي الولايات العثمانية في البلقان حتى تولى وظيفة ولاية العراق، ومن ثم اتجهت أنظاره نحو منطقة الخليج العربي لتنفيذ فكره الاستراتيجى الذي يخدم الدولة العثمانية في مواجهة النفوذ البريطاني الممتد من شبه القارة الهندية إلي مشيخات الخليج العربية، مستندًا إلى اصلاحات حققها في العراق، سواء في مجال الأراضي الزراعية، أو في مجال التنظيم الإداري، أو في مجال استخدام شط العرب كشريان للنقل البحري من العراق إلى مياه الخليج فالبحر العربي والمحيط الهندي، ثم إلي المحيطات المفتوحة.

قام الفكر الإستراتيجى لمدحت باشا في الناحية العسكرية على إيمانه بأن تنفيذ أية سياسة على الأرض يستلزم احتلالاً عسكريًا لتلك الأرض، ومن ثم وضع مدحت باشا خطته للقيام بحملة عسكرية لاحتلال الأحساء، وإذا تم له احتلال الأحساء ينطلق منها إلى بقية مناطق الخليج وإماراته، تعويضًا عما فقدته الدولة العثمانية في أوروبا من جراء حرب القرم التى انتهت سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م.

قامت خطة مدحت باشا العسكرية بإعداد حملة عسكرية تتوجه من البصرة الميناء العراقي على شط العرب للتوجه نحو الأحساء، وقد حرص مدحت باشا على تحقيق هذا الغرض بعد توفر عدة عوامل هى:

١) إعداد القوة العسكرية من حيث الرجال والعتاد.

٢) اللجوء إلى السرية التامة سواء في مرحلة الإعداد أو مرحلة التنفيذ.

٣) الاستعانة بالكويت، حاكما وموانئ، وسفنًا.

٤) جمع المعلومات عن منطقة الأحساء، شعبًا، وإمكانات اقتصادية.

كان اختيار مدحت باشا للقائد العام للحملة العثمانية إلى الأحساء القائد "نافذ باشا" بما يملكه من قدرات عسكرية وخبرات حربية، في حروب الدولة العثمانية في ميادين كثيرة في أوروبا وفي غيرها دفاعًا عن الدولة ثم جاءت الخطوة الثانية في تكوين الفرق والألوية التى ستشارك في الحملة والتى بلغ عدد أفرادها حوالي أربعة آلاف جندى، مزودين

بأسلحة متنوعة من بنادق ومدفعية، وخيول وغير ذلك من الأسلحة، إلي جانب إعداد البواخر التى ستبحر من البصرة في اتجاه الأحساء مرورًا بميناء الكويت.

الفكر الاستراتيجى لمدحت باشا في الخليج العربي:

إذا كان لمدحت باشا استراتيجية نحو الخليج العربي امتدادا من ولايته على العراق، فإن تلك الإستراتيجية هى إستراتيجية الدولة العثمانية وما هو إلا أداه وصاحب فكر أخذت به الدولة في الآستانة وكلفته بتنفيذه، ومن هنا ارتبط الفكر الاستراتيجى لمدحت باشا في الخليج العربي برغبة الدولة العثمانية لتحقيق طموحاتها في تلك المنطقة خاصة وأن فكرة الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية - السلطان العثماني - التى روج لها السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وانطلقت من مصر في ستينيات القرن التاسع عشر كانت مبررًا لأن يتبنى السلطان العثماني الفكر الإستراتيجي لمدحت باشا في الخليج العربي[1].

ويقوم الفكر الإستراتيجى لمدحت باشا نحو الخليج العربي والجزيرة العربية على الأسس الآتية:

١) تطويق الجزيرة العربية من الجهة الشرقية بعد أن سيطرت على كل من الحجاز وعسير واليمن، لكي تضمن سيطرتها المنفردة على كل شبه جزيرة العرب ولا تترك منه فراغا تتسلل منه قوة أجنبية مثل بريطانيا امتدادا من الهند، التى حاولت منذ أوائل القرن التاسع عشر السيطرة على مشيخات الخليج العربي وإماراته بتوقيع معاهدات الهدنه أو المعاهدات المانعة التى وقعها شيوخ الأمارات الخليجية مع ممثلي بريطانيا في الخليج وقبلوا فيها بشروط بريطانيا في عدم التسلح أو الاتجار بالرقيق أو القيام بعمليات الجهاد البحري الإسلامي ضد السفن الاجنبية، أو التنازل لأية قوة غير بريطانيا عن أرض تمتلكها تلك الأمارات على الساحل العربي للخليج[2].

٢) الاستفادة من افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية العالمية عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، في الربط بين العراق وإمارات الخليج العربية وبين اسطنبول ربطًا بحريًا يسهم في احكام السيطرة العثمانية على بلاد العرب امتدادا من البحر الأحمر إلى الخليج العربي، بما فيها العراق ومصر واليمن وسلطنة مسقط وعمان إن أمكن لإبعاد التنافس الأوربي المتجه لبسط نفوذ الدول الأوربية في المنطقة بكاملها بالاستفادة

---

(١) إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا، القاهرة، ١٩٢٣، ص٢٣٦.

(٢) د. رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة ٢٠٠٠م.

من افتتاح قناة السويس للملاحة[1].

٣) تعيين مدحت باشا، رجل الدولة القوى والطموح واليًا علي العراق العثماني مع إطلاق يده بكل حرية في بسط نفوذ الدولة العليا في الاتجاه الذي يراه مدحت باشا مناسبا لاستراتيجية الدولة في المنطقة[2]، خاصة بعد أن ظهر الصراع واضحًا في الإمارة السعودية بنجد والممتدة إلي الأحساء بين ابناء فيصل بن تركي آل سعود: عبد الله وسعود، ومن ثم يعمل مدحت على أن يحل النفوذ العثماني المباشر محل آل سعود في حكم كل من الأحساء ونجد. حيث تعتبر الدولة العثمانية نجد وملحقاتها جزءًا من الدولة العثمانية المتسعة الأرجاء كالحجاز وعسير واليمن، ومن ثم فعلى مدحت باشا منذ تولى حكم العراق أن يتبنى فكر رجال الإصلاح العثمانيين - وهو منهم - الذين كانوا يدعون إلى التوجه بأنظارهم إلى الأقطار الآسيوية؟ لكي يعوضوا ما خسرته الدولة في البلقان[3].

٤) قامت الإستراتيجية العثمانية في الخليج والجزيرة العربية التى ينفذها مدحت باشا باحتلال الأحساء بمنتهى السرعة، خوفًا من التدخل البريطاني في المنطقة، خاصة بعد أن تقدم البريطانيون من الهند بمساعدة الأميرسعود بن فيصل آل سعود في صراعه مع أخيه عبد الله، عن طريق حاكمي مسقط والبحرين، وأن نجاح البريطانيين في هذا المسعى سيضر بالاستراتيجية العثمانية في الخليج بل وفي العراق، إلى جانب ادعاء مدحت باشا بأن نجد والأحساء تعيش حالة من الفوضي السياسة مما دفع بالأمير سعود بن فيصل إلى الأعتداء على القوافل التجارية العثمانية[4].

كما قامت إستراتيجية مدحت باشا بالاستيلاء على الأحساء وغيرها من إمارات الخليج العربي، بالاعتماد على العيون "الجواسيس" في معرفة أحوال أهل الأحساء، وتحركات الأمير سعود بن فيصل آل سعود في المنطقة ومراكز تجمع قواته وتحصيناتها، حتى يستفيد من هذه المعلومات في اختيار طريق القوة العثمانية البرية المتجهة إلى الأحساء برًا، وتجنب غارات البدو، ومجاهل الصحراء في تلك المنطقة، وكذلك معرفة المواني التى يمكن أن ترسو فيها سفن حملة مدحت باشا.

كما أن مدحت باشا في إستراتيجيته في منطقة الخليج العربي كان يدرك أن

---

(١) محمد عرابي نخلة: تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨/ ١٩١٣م، الكويت ١٩٨٠ ص ١٤٩.

(٢) عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ح٧ بغداد ١٩٤٩م ص ٢٧١.

(٣) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث.

(٤) د. عبد الفتاح أبو علية: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض ١٩٨٦ ص ١١٣.

البريطانيين لهم نفوذ كبير في البحرين وقطر وإمارات الساحل العماني المهادن وسلطنة مسقط وعمان، ذلك النفوذ المعتمد على الاتفاقات مع تلك الإمارات العربية ، ولم يبق من ساحل الخليج العربي إلا سواحل الأحساء بمدنها وإمارة الكويت، حيث كانت هذه غير مرتبطة بالبريطانيين بأية معاهدات، وبالتالى يمكن لمدحت باشا أن ينطلق من الكويت إلى الأحساء لتوسيع نفوذ الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية ، ومن ثم نجده يعلن في أبريل عام ١٨٧١م أن السيادة العثمانية أصبحت ممتدة لتشمل نجد ، وأن حملة عثمانية ستزحف لتثبيت الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود بصفته قائمقام عثماني ، وأعلن مدحت باشا أن الهدف من الحملة ليس الاستيلاء على نجد ، بل لتوثيق الروابط القائمة بينها ، بين نجد ، وبين الدولة العثمانية ، وكبح جماح الأمير سعود بن فيصل آل سعود ، المتحالف مع البريطانيين - وإنهاء أعماله العدائية[١].

٥) تمثلت الإستراتيجية العثمانية نحو الخليج العربي التى ينفذها مدحت باشا أيضًا فى مد نفوذ الدولة من الأحساء إلى قطر التى كان آل ثانى يحكمونها بصفة شبه مستقلة عن أدعاءات البحرين عليها ، بموجب معاهدة عام ١٨٦٨م التى وقعها الشيخ محمد بن ثانى "شيخ الدوحة" مع المقيم البريطاني في الخليج بأن شيوخ القبائل القطرية يتعهدون بدفع ما قيمته ١٥ ألف "قران" للمقيم البريطاني ليقوم بتسليمها لحاكم البحرين حتى يتوقف عن ادعاءاته بالسيادة على قطر ، ومن ثم رأى مدحت باشا أن قطر لم تكن ضمن الإمارات الخليجية التى وقعت على اتفاق السلم الدائم مع البريطانيين عام ١٨٥٣م، ومن ثم أرسل مدحت باشا قوة تركية نزلت إلى شبه جزيرة قطر عام ١٨٧١م واعترفت بالشيخ قاسم "جاسم" بن محمد آل ثانى حاكما لقطر ، وتم تعيين الشيخ قاسم بوظيفة قائمقام عثماني ، مع تعهد العثمانيين بعدم التدخل في الشئون الداخلية في قطر تلك الشئون التى كان يتولاها الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى والاعتراف بآل ثانى حكاما لقطر. [٢]

٦) واجه مدحت باشا المستبدين من الحكام في الأحساء، حيث كان هؤلاء الحكام يحكمون حكمًا استبداديا يتسم بالظلم والجور ، حيث استغل الموظفون العثمانيون السلطة في أيديهم وكبدوا الأهالى دفع ضرائب باهظة ، وكان مدحت باشا - لكي يكسب الأهالي في الخليج - كان يقف في وجه هؤلاء الحكام المستبدين، ويحقق

---

(١) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٦ ص ١٨١.

(٢) د. رأفت غنيمى الشيخ: العرب، دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر القاهرة ١٩٨٤م، والقران عملة فارسية خليجية.

في كل صغيرة وكبيرة، ولذلك استثنى القبائل من دفع الضرائب فيما عدا ضريبة العشور، ولذلك فإنه بعد رحيل مدحت باشا عاد الظلم والاستبداد من قبل الموظفين العثمانيين.

٧) ونتساءل ما هو موقف أهالي الأحساء وبقية إمارات الخليج من الاستراتيجية العثمانية التى رسمتها الدولة العثمانية ونفذها مدحت باشا في منطقة الخليج العربي. الأجابة أن الاستراتيجية العثمانية لم تكن موفقة لسببين رئيسيين هما:

أ) أن الدولة العثمانية لم تفي بوعدها للأهالي في منطقة الخليج العربي، مما أفقد الدولة ثقة الأهالي في سياستها، ومن ثم كان استياء الأهالي كبيرًا وفرحوا كثيرًا بانسحاب العثمانيين من الخليج.

ب) اعتماد الدولة العثمانية على القوة العسكرية، وأهملت تحقيق العدالة الاجتماعية، وتحقيق مطالب الأهالي في توفير التعليم والصحة، أي أن الحكم العثماني اتصف بالعسكرية وليس بالحضارة التى لا توجد في القاموس العثماني آنذاك. مما جعل الأهالي ينفرون من هذه السياسة العثمانية. (١)

٨) جاء تعيين مدحت باشا لتنفيذ الاستراتيجية العثمانية نحو منطقة الخليج والجزيرة العربية بعد أن أدركت الدولة العثمانية أن التوسع غربًا في أوروبا لم يعد ممكنا، وأن السبيل الوحيد أمامها هو تقوية نفوذها في الخليج، خاصة بعد هزيمتها في بلاد البلقان أمام روسيا القيصرية. وهنا تبرز قيمة الدور الذي لعبه مدحت باشا كمنفذ لهذه السياسة العثمانية، خاصة وقد اكتسب خبرة كبيرة من تجربته الإدارية والعسكرية في بلاد " الطونة " إضافة إلى ما اكتسبه العراق في عهد ولاية مدحت باشا من استقرار. ومن المعروف أن العثمانيين كانوا يعتمدون في سيطرتهم علي هذه المناطق على الوجود العسكري فبها، وكان مدحت باشا من مؤيدي ذلك الأسلوب. (٢)

مدحت باشا في العراق:

كان العراق قد سقط في يد الصفويين(٣) عام ١٥٠٨م وهم شيعة، وصادف هذا تطلع

(١) عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعيل: الوجود العثماني في منطقة الأحساء ١٨٧١ - ١٩١٤م، رسالة ماجيستير غير منشورة ص ٢٨٨ كلية الآداب جامعة الزقازيق، عام ١٩٨٨م.

(٢) محمد بن عبد الرحمن عبد المحسن الأحسائي: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ص ١٦٨ الرياض ١٩٨٢.

(٣) ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين صاحب طريقة صوفية في أردبيل بأذربيجان من بين عدة طرق صوفية انتشرت هناك أثناء الاضطراب الذى عم إيران والعراق عقب سقوط دولة المغول الكبرى. وقد أصبح لهذه الحركة قوات عسكرية تتخذ لباسا للرأس عبارة عن تاج أحمر ذا اثنى عشر ذؤابة كناية عن الاثنى عشر إماما، ولهذا أطلق عليهم العثمانيون « قزل باش» أي الرءوس الحمراء د. محمد أنيس. الدولة العثمانية والشرق العربي.

العثمانيين إلى الشرق بعد أن اتسعت فتوحاتهم في الغرب، في أوربا عبر البلقان، ووصلت إلى مداها، ومن هنا حدث الصدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة على أرض العراق عام ١٥١٤م، وكانت العراق بذلك أول قطر عربي تدخله القوات العثمانية غازية.

وكان سقوط العراق في يد الصفويين على يد زعيمهم الشاه إسماعيل الصفوى الذي يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة في إيران والذي استمر في الحكم من ١٥٠٠ إلى ١٥٢٤م. ويذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ البريطانى أرنولد توينبي Toynbee أن الشاه إسماعيل الصفوى مسئول عن تحول العثمانيين في فتوحاتهم نحو الأقطار العربية وهو التحول الذي أدى إلى صدام بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة، وذلك بمحاولات إسماعيل إثارة العثمانيين بشتى الطرق.

ورغم انتصار القوات العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول على القوات الصفوية بقيادة إسماعيل الصفوي في سهل جالديران عام ١٥١٤م ودخول السلطان سليم إلى العاصمة تبريز واستيلائه على أموال وكنوز الشاه ونسائه، فإن هذا الانتصار لم ينه العداء بين الفريقين، بل استمر طويلاً وكان العراق ميدانا للصراع والمعارك بين الطرفين: مما جعل العراق موزعا توزيعًا متوازنا بين السنة والشيعة.

ورغم حملة السلطان سليم الأول لم يخضع العراق كله للحكم العثماني، بل خضع شماله فقط في الموصل ودياربكر، وحتى فى هذه المناطق لم يكن الحكم العثماني مستقرًا كل الاستقرار. أما العراق الأوسط والجنوبى فقط ظل في يد الإيرانيين[1] وكان هذا الانقسام من أسباب استمرار الصراع بين الأتراك العثمانيين والصفويين، واستفاد المغامرون وقبائل الأكراد وحكام الولايات التركية المجاورة للدولتين من هذا الصراع لمصالحهم الشخصية، وفى عام ١٥٢٣م قاد السلطان سليمان القانوني العثماني حملة عسكرية استولى فيها على بغداد وانضمت البصرة آنذاك إلى العثمانيين طواعية حتى عام ١٦٢٣م عندما أعاد الصفويون الكرة واستولوا عليه وبقوا به لمدة خمس سنوات وبذلك أصبح العراق كله تقريبًا خاضعًا للدولة العثمانية إلى أن قام السلطان العثماني مراد حملة عسكرية عام ١٦٣٨م استولى بها على العراق وأعاده إلى حظيرة الدولة العثمانية[2].

ولم تكن حملة مراد على العراق آخر مراحل الصراع بين الايرانيين والعثمانيين حول العراق، إذ أنه بعد سقوط الأسرة الصفوية في إيران علي يد نادر شاه عام ١٧٣٣م حاول هذا

(١) د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨.
(٢) رأفت الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة ١٩٧٥ ص ٦٢.

الشاه الجديد الاستيلاء على العراق ولكنه فشل، ثم أعاد الكرة من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٤٧م عندما توفي نادر شاه، وعقدت بين إيران وتركيا معاهدة حددت الحدود التقليدية بين الدولتين مع دخول العراق في حوزة الدولة العثمانية، وبهذه المعاهدة انتهت فترة الصراع الطويلة بين الإيرانيين والعثمانيين والتى كان العراق ميدانها.

ومما يجب الإشارة إليه أن البصرة كان لها وضع خاص، فقد استولى عليها الفرس، الصفويون، أولاً في سنه ١٦٩٦م ثم تركوها بعد عامين، ثم أغار عليها نادر شاه عام ١٧٤٧م ثم ارتد عنها[1]، وكانت البصرة بحكم موقعها على شط العرب على رأس الخليج مصدر اهتمام الدول الأوروبية، وقد استفادت العشائر العربية هناك من هذا الاهتمام إلى جانب استفادتها من الصراع الإيراني العثماني.

وفي ظل الصراع الإيراني العثماني حول العراق كانت حاجة الدولة العثمانية إلى إقرار الأمورفي العراق دافعا لكي تظهر أسرة حاكمة تحكم العراق منذ أوائل القرن الثامن عشر وتستمر حتى عام ١٨٣١م. هذه الأسرة هى أسرة حسن باشا الذي عين واليًا في عام ١٧٠٤م، وقد نجح حسن " في اخضاع القبائل العربية المتمردة ومن ثم لم يعد في استطاعة الباب العالى أن يستغنى عن خدماته" [2].

ظل حسن باشا في الحكم متخذًا من بغداد مقرًا له ونادرًا ما كانت كل أقاليم العراق تخضع لحكمه، إذ كانت الموصل والبصرة كثيرًا ما يعلن حكامها عدم خضوعهما لباشوية بغداد، وبقى حسن باشا في الحكم حتى عام ١٧٣٤م حيث خلفه ابنه أحمد في الباشوية.

عاش العراق بعد حكم المماليك تابعا تبعية كاملة للدولة العثمانية، وحرص الولاة الذين حكموه باسم السلطان العثماني من عام ١٨٣١ إلى ١٩١٤م على اخضاع العراق للحكومة المركزية باسطنبول والقضاء على أثار استقلال العراق الذي عمل له الباشوات المماليك وقد أدت سياستهم هذه إلى أن تصبح سلطتهم على العراق وهمية وضعيفة عجزت عن القضاء على القبائل العربية المتحاربة فيما بينهم أو المحاربة للباشوات الأتراك، وهذه القبائل ساندت محمد علي والي مصر الذي كان يطمع في ضم العراق إلى الكتلة العربية التى حرص على إقامتها في هذه المنطقة بعد أن ضم بلاد الشام والحجاز والسودان إلى مصر بصفة خاصة.

وكانت سلطة الباشوات الأتراك ضعيفة أيضًا في مواجهة أكراد شمال العراق الذين

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة ص ٢٣٠.

(٢) د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي القاهرة ص ١٥.

يؤيدهم شاهات إيران، وقد استمرت الحرب دائرة بين الباشوات الأتراك وبين الأكراد من عام ١٨٣١ إلى ١٨٤٢م حتى عقدت في مايو عام ١٨٤٢ معاهدة أرضروم الثانية بين تركيا وإيران. حددت الحدود بين الدولتين تنازلت بمقتضاها إيران عن السليمانية ومناطق أخرى مقابل تنازل تركيا لإيران عن الساحل الأيسر لشط العرب ومناطق أخرى، ولكن هذه المعاهدة لم تنه الانتفاضات الكردية ضد الحكم التركى المباشر الذي بقيت سلطته وهمية.

وطبقًا لمنشور التنظيمات الخيرية الذي صدر في يونيه ١٨٥٦م انقسمت العراق إلى ثلاث إيالات: ولاية بغداد وولاية البصرة التى أنشئت عام ١٨٠٤م، وولاية الموصل التى أنشئت عام ١٨٧٩م[1] وأعادت هذه التنظيمات تنظيم جهاز الدولة ولكنها لم تنه إساءات الموظفين وابتزازهم الأموال لمصالحهم الخاصة.

وقد شهدت العراق عهدا من الإصلاح في عهد ولاية مدحت باشا (١٨٦٩، ١٨٧١م)[2] حيث شمل الإصلاح نواحى متعددة كالتعليم ونظام الحجر الصحى، ومع ذلك بقى نظام "الطابو"[3]. أو إدارة تسجيل الأراضي، من أهم الأعمال التى تمت على يد مدحت باشا وهو نظام كان يهدف إلى استقرار القبائل في الأراضي الزراعية هذا إلى جانب اهتمامه بربط العراق بحريًا بكل من اسطنبول ولندن بعد أن فتحت قناة السويس للملاحة العالمية، وغير ذلك من مشروعات المواصلات لربط أجزاء العراق بعضها ببعض وربطها مع سوريا وتركيا، وإدخال الخدمة العسكرية، ولكن هذه المشروعات لم يقدر لها التنفيذ حيث نقل مدحت باشا عام ١٨٧١ إلى أدرنة.

وقد استمر الوضع غير مستقر في العراق بسبب إنقسام العراق إلي سنة وشيعة استغله سلاطين آل عثمان لبقاء نفوذهم فى العراق مع محاباة للسنة العراقيين، وانقسام العراق إلى عرب وأكراد على استعداد للثورة مستمدين التأييد من قوى خارجية، وانقسام العراق إلى حضر وبادية مع اختلاف التكوين الثقافي والاجتماعى بين سكان المدن والقبائل

---

(1) Longrigg. Iraq 1900 - 1950, p. 10

وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث تأليف لونجرج، د. محمد أنيس الشرق العربي ص ١٣.

(٢) كان مدحت باشا في رئاسة شورى الدولة يسن القوانين ويحدث اللوائح، وكان من الواجب على الحكومة إحالة كل شئ على هذا المجلس، ولكنها لم تفعل بل كانت تصدر بعض النظامات قبل عرضها على شورى الدولة، فلم يقبل مدحت باشا أعمالها، وعزم على التوجه إلى إحدى الولايات، وصادف عزل تقي الدين باشا والي بغداد، فأظهر مدحت باشا ميله إلى تلك الولاية، فوجهت إليه وظيفة والي بغداد مع نظاره الفيلق السادس. مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، إعداد يوسف كمال بك حتاته ود. صديق الدملوجي، بيروت ٢٠٠٢م، ص ٢٢٣.

(٣) يعنى الطابو قيام إدارة التسجيلات ببيع أراضى الحكومة بأقساط صغيرة سهلة الدفع ومنح هذا الحق بصفة خاصة لشيوخ القبائل بحيث تسع قطعة الأرض القبيلة التى يتولون رئاستها وقد أدى هذا النظام إلى أن أصبح الكثير من شيوخ القبائل ملاكا زراعيين وإقطاعيين كبارا.

والعشائر العربية المتمسكة بتقاليدها البدوية الراسخة في القدم.

حاول الولاة الأتراك اقتفاء أثر مدحت باشا ولكنهم فشلوا فى تحقيق أية برامج إصلاحية في العراق، وذلك لانشغال الدولة بأحداثها الداخلية المتمثلة في الصراع بين السلاطين وبين العثمانيين الجدد (مكى عثمانلر) وهم جماعة من الضباط الأتراك والموظفين والمثقفين الأحرار، ذلك الصراع الذي انتهى بحدوث انقلاب مايو عام ١٨٧٦ ضد السلطان عبد العزيز، وانقلاب أغسطس من نفس العام ضد مراد الخامس وكانت نتيجته المناداة بعبد الحميد سلطانًا في ظل دستور وضعه مدحت باشا الذي اختاره السلطان وزيرا. ثم انقلاب عبد الحميد عام ١٨٧٧م ضد الدستور ونفي مدحت باشا.

وترك العراق نهبًا لأطماع الدول الأوربية وصراعهًا، فبينما حصل الألمان على مد خط سكة حديد بين برلين إلى بغداد، وقفت انجلترا أمام هذا المشروع؟ لأنه يهدد المصالح البريطانية في العراق والخليج والهند، وحصلت إنجلترا على احتكار التجارة مع العراق، واحتكار نقل البضائع بين العراق وانجلترا.

استمر الوضع فى العراق على هذا النحو في ظل حكم السلطان عبد الحميد الذي حاول التأثير فى الأقطار العربية عن طريق الترويج لفكرة الجامعة الإسلامية التى تعيد له السيطرة الكاملة على تلك الأقطار لتقف ضد النفوذ الأجنبي المتزايد في ولايات الدولة وخاصة الولايات العربية.

استمر هذا الوضع حتى ثورة ١٩٠٨م بقيادة جماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ضد استبداد السلطان عبد الحميد، ورغم فرح العراقيين وبقية العرب بهذه الثورة ومؤازرة العرب للقائمين بها، إلا أن العراقيين شاركوا مع إخوتهم العرب في تشكيل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة التتريك التى اتبعتها حكومة الاتحاديين والمعادية للعروبة. . تلك كانت مقدمات لصدام بين العرب والأتراك في الحرب العالمية الأولى انتهت بانحسار الحكم التركى عن العراق وغيره من أقطار المشرق العربي.

ومما يجب ملاحظته، أنه مع اتساع الدولة العثمانية في شرق أوروبا على حساب الامبراطورية البيزنطية وفى أقطار الوطن العربي، خاصة في القرن السادس عشر فقد وضع السلطان سليمان القانونى١٥٢٢م لحكم الولايات العثمانية، ومنها الأقطار العربية، نظامًا للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى كانت على النحو الآتى:

أولاً: الوالى: ويلقب بالباشا وهو نائب السلطان في حكم الولاية وله سلطة تنفيذ أوامر

السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانين في الولاية وإن كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه في السلطة مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان لمدة سنة قابلة للتجديد.

ثانيًا: رؤساء الجند: وهم قادة الفرق أو الأوجاقات. تلك الفرق الموكول إليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجى وحفظ النظام والأمن الداخلى وخاصة بالتصدي للثورات التى قد يقوم بها أهالى الولاية ضد الحكم العثماني، ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالى المسمى بالديوان الذي له السلطة الكبيرة في إدارة الحكومة حيث لا يستطيع الوالى أن يبرم أمرا إلا بموافقة أعضائه، فهم بمثابة سلطة رقابة وإشراف على السلطة الوالى، وحتى عندما انقسم الديوان إلى ديوان كبير وديوان ضغير ظل لسلطة قادة الجند القوة في مواجهة الوالى.

ثالثًا: العصبية المحلية: خير مثل للعصبية المحلية وسلطتها في حكم الولاية، المماليك في مصر حيث أصبح لهم حكم الإقاليم المختلفة بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها، وفي وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبية المحلية حتى يصير في إمكانهم عزل الوالى أو الاستئثار بالنفوذ دونه. هذا إلى جانب القبائل العربية ذات الشوكة في الأقطار العربية كالعراق والشام.

وكان يساعد هذه القوى الثلاث مجموعة من الموظفين يعينهم السلطان العثماني مثل الكتخدا أى وكيل الوالى والدفتردار المسئول عن الشئون المالية والسلاح دار (السلحدار) المسئول عن أمور التسلح والخازن دار(الخزندار) المكلف بالخزانة العامة للولاية.. إلخ.

وهكذا أصبح العراق ولاية عثمانية يتولاها باشا يتم تعيينه من مركز السلطنة العثمانية في اسطنبول، وكانت بغداد مقر الوالى يدير منه أمور الولاية في النواحى الداخلية، والنواحى الخارجية. وكان مدحت باشا أظهر الولاة في العراق، حيث تمكن من إقرار النظام والأمن والاستقرار، وأجرى بعض الاصلاحات التى لا يزال يذكرها العراقيون[1].

أعمال مدحت باشا في العراق

كان مدحت باشا معنيًا بإصلاح أمور الدولة العثمانية، منذ أن أسندت إليه بعض المهام الرئيسية في الدولة، وكانت أهدافه تتمثل في الآتى:

١ - المساواة بين رعايا السلطان أتراكًا وغير أتراك.

---

(١) عباس الغزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين حـ٧ بغداد ١٩٤٩ ص ٢٧١.

٢ - تركيز السلطة الإدارية والقضائية في يد رجال الحكومة.

٣ - إعداد الموظف الأمين الذي يستطيع أن يلائم بين مصالح حكومته والرعية.

٤ - اشتراك الرعايا مع الإدارات المختلفة في إصلاح أمور البلاد.

٥ - سد الثغرات التى تنفذ منها الدول الأجنبية للتدخل في أمورالولايات العثمانية. [١]

وقد نجحت إصلاحات مدحت باشا في ولاية "الطونة"[٢] بعد أن وضع قانون الولايات عام ١٨٦٤م. وذهب إلى الطونة لتطبيقه في النواحى الإدارية والاقتصادية، زراعية وصناعية، وفي النواحى التعليمية، ثم عاد إلي اسطنبول لتسند إليه منصب رئاسة مجلس الشورى، وعندما اختلف مع الصدر الأعظم نديم باشا عام ١٨٧٨م، أسند السلطان العثماني لمدحت باشا ولاية بغداد لأنه كان على مقدرة كبيرة في التعامل مع الأجانب، خاصة مع البريطانيين الذين كانوا يسيطرون على مقدرات مشيخات الخليج العربي، ولأن مدحت باشا بشخصيته القوية أقدر علي توجيه أمور العراق وفق أهداف الدولة نحو تقوية قبضتها إلى طول السواحل العربية، وفي جعل العراق طريقًا عالميا ينادد قناة السويس المقرر افتتاحها للملاحة العالمية عام ١٨٦٩م [٣].

صدر فرمان تعيين مدحت باشا واليًا على العراق ١٨٦٩م، ونص الفرمان على تكليف مدحت باشا بتطبيق قوانين الأراضى والبلديات والولايات، وتطوير أمور العراق الانتاجية، وتقوية قبضة الحكومة على العشائر ضمانا للاستقرار في الأراضي الزراعية. وقد سعي مدحت باشا بالفعل في العمل على تطبيق تكليفات السلطان العثماني في فرمان التعيين، وكان بما يتحلي به من أدراك لأهمية الاصلاحات الإدارية والقضائية والاقتصادية، عمل على إشراك الأهالى في إدارة أمور البلاد بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الإدارية المختلفة، وربط الإدارات الفرعية في الولاية بمقر الوالي[٤].

ولسنا هنا بصدد تسجيل أعمال مدحت باشا الإصلاحية في العراق في مدة ولايته (١٨٦٩ - ١٨٧١م)، لكننا نكتفي بتلك الاصلاحات المتصلة بتقوية العراق في الداخل لينطلق منها لفتح الأحساء وليحقق فكره الاستراتيجى في منطقة الخليج العربي كاملة.

بالنسبة لتطبيق قانون الولايات في العراق، فقد وضع مدحت باشا تنظيما جديدًا

---

(١) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داوود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) بانضمام إقليم «سلسترة» و «ودين» و «نيش» تكونت ولاية الطونة في البلقان.

(٣) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٣٥٥.

(٤) مدحت باشا، حياته - مذكراته - محاكمته، إعداد يوسف كمال بك حتاته، ود. صديق الدملوجى بيروت ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٣ - ٢٣٨.

للتقسيم الإدارى للعراق، حيث شكل العراق ولايتين هما ولاية بغداد وتضم البصرة، وولاية الموصل، وقسمت هذه الولايات إلى أولوية، كان منها متصرفية البصرة وتتبعها الأقسام الإدارية: البصرة - المنتفق - العمارة - الكويت - نجد، وكانت نجد تضم الكويت والأحساء، عندما أصبحت البصرة ولاية أصبحت نجد والأحساء من سناجقها[1].

وكانت العقبة الكبرى التى تواجه مدحت باشا في تطبيق قانون الولايات فى العراق وجود عشائر عربية قوية تعارض بشدة إدخال هذه النظم الإدارية الجديدة ولكن تطبيق قانون الأراضي (الطابو) كان الأسلوب العلمى لإنفراد العشائر وتوجيهها إلي الإنتاج الزراعي، خاصة بعد الاهتمام بحفر الترع والقنوات وإقامة السدود وربط مدينة بغداد الواقعة على نهر دجلة بنهر الفرات لتكون على صلة مستمرة بخطوط البواخر التى قرر أن يمدها في نهر الفرات.

كما اهتم مدحت باشا بمدينة بغداد بتوفير المواصلات والخدمات الاجتماعية والعمرانية والصحية، كما عني بمدينة البصرة والموصل، واهتم بالثقافة والتعليم بإنشاء مدارس رشدية مدنية وعسكرية، ومدارس إعدادية عسكرية إلى جانب مدرسة الفنون والصنائع، وفي إطار إدراك مدحت باشا بأن القوة العسكرية المسلحة هى آداة الحكومة العثمانية لتقوية قبضتها على أجزاء العراق، ولبسط السيطرة العثمانية خارج العراق، فاهتم بالتجنيد الإجباري لأبناء العراقيين، وبذلك بلغ الجيش في عهده درجة لم يبلغها من قبل من حيث العدد والتجهيز[2].

وقد استخدم مدحت باشا البواخر العديدة لتعمل بين البصرة والسويس والآستانة وأوربا بالمواجهة نحو التجارة المتبادلة بين العراق من جهه وأوروبا والهند من جهه أخرى وعمل على أن يجعل من نهرالفرات طريقًا ينادد طريق قناة السويس، ويربط بين الساحل السورى وبغداد والبصرة [3].

حملة مدحت باشا علي الأحساء وأقطارالخليج

عندما تولى مدحت باشا ولاية بغداد عام ١٨٦٩م، وجه أهتمامه إلى بسط نفوذ الدولة العثمانية على كامل أقطار الخليج العربي بالاستيلاء على الكويت والبحرين وقطر والأحساء، والخطوة التالية هي الاستيلاء على إمارات الشارقة وعجمان ورأس الخيمة وأبو ظبى ودبي ومسقط وعمان، كما أشارت إلى ذلك جريدة "الزوراء" الناطقة

---

(١) عباس الغزاوي: المرجع السابق حـ ٧ ص ١٦٨.

(٢) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٣) عباس الغزاوي: المرجع السابق حـ ٧ ص ٢١٩.

بلسان مدحت باشا[1].

وكان مدحت باشا يرغب في أن يسبق بريطانيا في هذا المضمار، لأن نشر النفوذ البريطاني في إمارات الخليج العربي فيه تهديد للعراق العثماني وفيه انتقاض من المجال الحيوى والاستراتيجى للوجود العثماني في العراق ومن ثم بدأ مدحت باشا بالكويت، إذ أنه عند زيارته لها عام ١٨٧٠م أى في العام التالى لولايته على العراق اتفق مع الشيخ عبد الله الصباح شيخ الكويت على أن تكون الكويت قائمقامية تتبع ولاية البصرة، ويصبح الشيخ عبد الله "قائمقام" يقوم بتنظيم شئون الدولة الداخلية وترفع السفن الكويتية العلم العثماني، وأن تكون الكويت سنجقا مستقلاً استقلالاً ذاتيًا تحت حكم وراثي لآل صباح.

وقد رحب آل صباح بهذا التوجه العثماني من منطلق إسلامي في إطار الجامعة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية، كما كان لشيوخ آل صباح أراضي في البصرة ويرغبون في الحفاظ على ملكيتهم لها في ظل الحكم العثماني للعراق، كما أن مدحت باشا استفاد من تعاون آل صباح في الحملة المزمع إرسالها للاستيلاء على الأحساء نظرًا لما تملكه الكويت من سفن كثيرة ذات إعداد حربي وتجاري واضح، حيث أن الكويت تنعم بالاستقرار ويطبق الشريعة الإسلامية في أحكامه، ومن ثم فإنه ليس بحاجة إلى قوة عسكرية عثمانية [2].

وقد اشترك حاكم الكويت بقوات برية وبحرية في حملة مدحت باشا إلى الأحساء، وقد نجحت الحملة في الاستيلاء على القطيف والأحساء والهفوف التى أصبحت مركز "لواء نجد" الذي يضم إلى جانب الهفوف، قضاء القطيف، وقضاء قطر، وتعين على قضاء قطر الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى برتبة قائمقام يعاونه قائد عثماني يشرف على حامية العثمانيين هناك [3].

وبعد أن تم لمدحت باشا الاستيلاء على الأحساء من يد آل سعود، عين عبد الله الفيصل آل سعود قائمقام على نجد، وعسكرت قوة عثمانية في منطقة الأحساء مما اضطر عبد الله الفيصل إلى الهرب، ومن ثم استقرت القوات العثمانية في الأحساء، وزار مدحت باشا الأحساء في شهر شعبان ١٢٨٨هـ الموافق لعام ١٨٧١م بهدف الاطمئنان على أحوال القوات العثمانية هناك، وينظر في إمكانية إرسال قوة تتجه إلى مدينة الرياض للاستيلاء عليها، وقد غادر مدحت باشا الأحساء بعد أن أقام فيها شهرين، ثم توجه إلى بغداد.

---

(١) خالد العزى: المرجع السابق ص ٤٠.

(٢) د. عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث. ص ٤٣٢، ومذكرات مدحت باشا ص ١٨١.

(٣) د. مصطفى النجار: التاريخ السياسى لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، بغداد ١٩٧٥م ص ٣١٣.

وكان مما ساعد مدحت باشا في نجاح حملته على الأحساء الصراع بين كل من عبد الله بن فيصل بن تركي آل سعود وأخيه سعود، كما أن الأحساء كانت من المناطق التى قاومت حكم آل سعود لأن المؤثرات الشيعية فيها قوية، كما أن بنى خالد - حكام الأحساء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر - كانوا يسعون لدي الدولة العثمانية ولدي حكومة محمد علي في مصر لاستعادة حكم الأحساء بالإضافة إلي موقف قبائل العجمان وبنو مرة من عبد الله بن فيصل، وهو موقف العداء الشديد.

وقد غادر مدحت باشا الأحساء في أوائل عام ١٨٧٢م، وأخذ معه عددًا من الجنود المرضى والجرحى من حامية الأحساء، كما أن عددًا من العشائر التى سبق لها الاشتراك في الحملة عادت أيضًا، فضاعف هذا من تضاؤل القوة العثمانية، ومن تجميد أعمال الحملة ووقوفها عند الحدود التى بلغتها على يد مدحت باشا، الذى غادر العراق إلى الآستانة في ٢٢ مايو ١٨٧٢م، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التى جمدت نشاط الحملة والقوات العثمانية في شبه جزيرة العرب، وقد قدرت قوات الحملة في أغسطس عام ١٨٧١ م بـ ٣٤٠٠ مقاتل في الهفوف والقطيف والعقير، وأن ثلثهم كان مريضًا[١].

وعندما صدر فرمان السلطان العثماني عبد العزيز باستعفاء مدحت باشا الذي سبق أن تقدم به نظرًا لما كان يلقاه من الحكومة العثمانية، ومن الصدر الأعظم خاصة محمود نديم باشا، قبل الصدر الأعظم استعفاء مدحت باشا بلا تردد وعين رءوف باشا واليًا على بغداد ومشيرًا لفيلقها، وحضر على جناح البرق، وفارق مدحت باشا بغداد بعد حضور الوالي الجديد، وكان خروجه منها في شهر مايس (مايو) ١٨٧٢م[٢].

---

(١) د. عبد العزيز نوار: المرجع السابق ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٢) مدحت باشا حياته - مذكراته - محاكمته: المرجه السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

الفصل السادس

الأحساء

كتاب الحملة العثمانية على الأحساء من خلال الوثائق العثمانية "فيصل بن عبد الله الكندري".

كتاب: العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية (إيالة الحسا) عبد الكريم بن عبد الله المنيف الوهبي.

الحكم العثماني للأحساء قبيل ضم ابن سعود لها.

جذور العلاقات العثمانية مع حكام شبه جزيرة العرب.

الإستراتيجية العثمانية نحو إقليم الأحساء.

المتصرفون الأتراك في الأحساء.

مقدمة (كتاب الحملة العثمانية على الأحساء) [1]

منطقة الخليج العربي ذو أهمية إستراتيجية كبرى، فالخليج ملتقى التجارة القادمة من جنوب آسيا أو من شرق أفريقيا أو من البحر المتوسط لذلك شهد الخليج نشاطًا تجاريًا كبيرًا خلال العصور المختلفة، حيث كانت التجارة العالمية تمر عبر الخليج مما أطمع كثير من الدول الأجنبية والغربية على احتلال المنطقة والاستفادة من تلك الأهمية. والمنطقة الشرقية من المملكة والتي تعرف حاليًا بهذا المسمى من أهم مناطق الخليج. فنجد أن البرتغاليين احتلوا المنطقة لأهميتها وتبعتها دول ومنها الدولة العثمانية في فترة احتلال وسيطرتها الأولى على المنطقة، وبعد جلاء العثمانيين عن منطقة القطيف والأحساء ونظرًا لأهميتها عاودوا الكرة مرة أخرى لأهميتها وذلك عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م.

اعتمدت هذه الدراسة بشكل كبير على الوثائق العثمانية التي لم تزل مجهولة، فقد عثر على مجموعة كبيرة من الرسائل والتقارير التي بعث بها كل من والي بغداد مدحت باشا ونافذ باشا القائد العثماني العام للحملة، وبلغت في مجموعها قرابة ٢٥ رسالة وتقرير، وقد نشرت تلك الوثائق مع ترجمة لها في الكتاب.

جاءت هذه الدراسة لتتناول تلك الحملة من خلال الوثائق العثمانية، وتبيّن أوضاع الجزيرة العربية منذ إعلان قيام الدولة السعودية الثانية على يد تركي بن عبدالله حتى حدوث الخلاف بين الأخوين عبدالله وسعود الفيصل، كما تطرقت الدراسة لتوضيح أهم الإصلاحات التي قام بها مدحت باشا لتعزيز الوجود العثماني في المنطقة. وفي الأخير تم مناقشة أهم النتائج التي أسفرت عنها الحملة.

قسم المؤلف الكتاب إلى فصلين ثم تبعهم بملاحق.

الفصل الأول:

- مصادر الدراسة: وهي الوثائق والتقارير العثمانية كما أنه استعان ببعض المصادر العربية.
- أوضاع شبه الجزيرة العربية: سلط المؤلف الأضواء على أوضاع الجزيرة العربية وذلك من خلال التسلسل التاريخي للأحداث في نجد وعلاقتها بمنطقة الدراسة؛

---

(١) نزار العبد الجبار: الحملة العثمانية على الأحساء من خلال الوثائق العثمانية، عرض الكتاب للمؤلف فيصل بن عبد الله الكندري.

الأحساء والقطيف.

- العثمانيون والخليج العربي: سجل المؤلف أهمية الخليج للعثمانيين خلال فترتهم الأولى وأهميتها لهم للرجوع إليها مرة ثانية وهي موضوع الدراسة.

الفصل الثاني:

- الحث على السيطرة على المنطقة وترغيب الدولة العثمانية فيها: حث مدحت باشا الدولة العثمانية لاحتلال المنطقة وذلك من خلال بعثه ببعض التقارير إلى السلطات العثمانية يخبرهم عن الخيرات الموجودة في منطقتي الأحساء والقطيف، ومما جاء في بعض تقاريره "بأن الضرائب التي تم تحصيلها من بستان واحد في القطيف والذي يحتوي على مليون ونصف نخلة قدرت بثلاثمائة ألف قرش، ويضيف بأنه يوجد في الأحساء بساتين تبلغ مساحتها أضعاف هذا البستان، وهذا يشير بأن العائدات المالية المتوقعة ستكون كبيرة جدًا. والدولة العثمانية بحاجة ماسة لتلك العائدات الكبيرة.

- أوامر الحملة: وهي ترتيبات الحملة لخضوع المنطقة لهم من الدولة السعودية الثانية "سعود الفيصل" مع ترتيب الفرق العسكرية وكيفية سير وتنظيم الحملة، مع استعداد عبدالله الفيصل مع عشائر الرياض وحاكم الكويت للمساعدة في تلك الحملة. وتعيين عبدالله الفيصل قائمقام على القطيف والأحساء وقطر. وتقديم عبد الله الفيصل مساعدات مالية من أمواله الخاصة لتغطية بعض النفقات المادية للحملة العسكرية. وغير ذلك من الأوامر التي صيغت.

- استعداد مدحت باشا للحملة :قام مدحت باشا قبل الحملة بدراسة قوة خصمه قبل أن يجازف بالجيش، فتم التعرف على المنطقة وخاصة إنهم يجهلون منطقة نجد حيث من ضمن مخططهم مهاجمة نجد. فجاءت التقارير بالنسبة لمهاجمة القطيف بأن أنسب مكان تستطيع السفن أن تقوم بعملية إنزال بها هي رأس تنورة، فأراد مدحت باشا من ذلك تجنب الطريق الصحراوي.

- سير الحملة: بدأت استعداد الحملة من الفاو والبصرة وخرجت للكويت وبقوة عسكرية منها ثم اتجهت إلى رأس تنورة ثم للقطيف وذلك عن طريق مدينة صفوى متجهة نحو القطيف ومناطقها وتتبعت الحملة نحو الدمام وقلعتها وبعد ذلك اتجهت الحملة نحو الأحساء.

- أعمال مدحت باشا بعد الحملة: بعد انتهاء الحملة وسيطرة العثمانيين على المنطقة قام مدحت باشا بعدة أعمال منها:

١) تحويل الأحساء والقطيف إلى متصرفيات، وتعيين قائمقامين ومديرين في المنطقة، ووضع فيلق عسكري نظامي وغيرهم من الموظفين في قلعتي الأحساء والقطيف.

٢) مكافأة حاكم الكويت عبدالله الصباح وإسهاماته في الحملة حيث شارك بأكثر من مائة سفينة، طلب إعطاءه قائم مقام الكويت.

٣) الشروع في تحصيل الإيرادات من مزارع النخيل والعنب في القطيف والأحساء بمعرفة المجالس المؤقتة، وكذلك رسوم الجمارك والضرائب في ميناءي العقير والقطيف.

٤) أخذ مدحت باشا يتحدث عن الإيرادات التي تصب في خزينة الدولة بعد الإصلاحات التي تمت في الأحساء والقطيف بعد نجاح الحملة فأخذ يصف الأحوال الجغرافية والاقتصادية للجزيرة العربية، ومثال ذلك فقد أورد وصفًا جيدًا عن الأوضاع الاقتصادية في المنطقة ومما قاله عن الأحساء بأنها تحتوي على ما بين ٣٠ - ٤٠ ألف مزرعة نخيل ومزارع النخيل تسمى بستان، وتبلغ مساحة كل بستان دونمين، وعلاوة على النخيل هناك أيضًا مزارع الأرز، وأمّا في القطيف فإن مزارع النخيل تقدر ما بين ٨ - ١٠ آلاف مزرعة.

وتحدث عن نجد ومناطقها كالرياض وعنيزة وبريدة وجبل شمر ومزارعهم القليلة، وحاجتهم الماسة لمحاصيل مزارع الأحساء والقطيف. وغيرهم من الأعمال.

أثر الحملة على بلدان المنطقة "نجد، والبحرين، قطر:

الملاحق: وهي ترجمة عربية كاملة للرسائل والتقارير العثمانية المتعلقة بالحملة وهي أساس معلومات الكتاب مع صور من الوثائق العثمانية الأصلية وهي على ستة ملاحق. وأخذت حيز كبير من الكتاب.

صدر مؤخرًا كتاب مهم يتحدث عن المنطقة الشرقية وقراها في فترة تاريخية مهمة وحرجة في تاريخ الأحساء والقطيف واسم الكتاب "العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية، إيالة الحسا ٩٥٤ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٧ - ١٦٧١م) للمؤلف الدكتور عبدالكريم بن عبدالله المنيف الوهبي ويقع في (٥٦٤ص) ط١ ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، والناشر المؤلف نفسه[1].

---

(١) د. عبد الكريم بن عبد المنيف الوهبي: العثمانيون وشرق شبه الجزيرة العربية، (إيالة الحسا ١٩٥٤ - ١٠٨٢هـ - ١٥٤٧ - ١٦٧١م).

والكتاب في الأصل أطروحة دكتوراة حيث تم تسجيل الأطروحة في البداية بعنوان "الحكم العثماني في الحسا ٩٥٤ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٧ - ١٦٧١م "ثم عدل العنوان باسم الكتاب ذلك لتغير مفهوم مصطلح الحسا في الوقت الحاضر لاسيما من حيث المساحة والحدود الإدارية.

وتعود أهمية الكتاب إلى بداية الفترات الحرجة بالنسبة للمشرق العربي حيث كان المد البرتغالي في أوج قوته وخاصةً في غربي الخليج العربي وسيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي بما فيه الأماكن المقدسة وأصبحت القوة الرئيسية في العالم الإسلامي مما حملها التصدي للبرتغاليين حيث قام البرتغاليون بالتحالف مع الصفويين خصوم العثمانيين.

وتبرز أهمية هذه الدراسة في إيضاح نظرة العثمانيين للأحساء والدور المنوط بها في إستراتيجتهم لمواجهة الخطر البرتغالي الذي يهدد شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق. وإلقاء الضوء على حقيقة الحكم للأحساء والخصائص والمرتكزات التي قام عليها وإيضاح الهيكل الإداري الذي تمت بواسطته إدارة العثمانيين للأحساء والتعرف على موارد المنطقة الاقتصادية وأهم الضرائب والرسوم التي فرضتها الدولة العثمانية على الأهالي لصالحهم، وبيان أهم مظاهر ذلك الحكم وتنظيماته المالية والعسكرية وتقسيماته الإدارية وبيان كيفية نهايته وصلته بالقوى المحلية وأثر تلك الصلة على مستقبل المنطقة لاسيما من الناحية السياسية وسوف أقوم بالتعريف بشكل مختصر قدر الإمكان بمحتوى الكتاب.

ينقسم الكتاب إلى عشرة فصول تناول:

الفصل الأول: نشأة الدولة العثمانية والأوضاع السياسية في غربي الخليج العربي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري من حيث أهم القوى المحلية في المنطقة....

الفصل الثاني: صلة العثمانيين بالحساء في النصف الأول من القرن العاشر الهجري من خلال علاقتهم بالحسا في عهد الإمارة الجبرية وموقفهم المساند لتلك الإمارة في صراعها مع البرتغاليين، وعلاقة العثمانيين بالحسا أثناء فترة حكم آل مغامس للمنطقة ودور العثمانيين في الصراع على السيادة على القطيف بين آل مغامس والبرتغاليين، ودوافع العثمانيين لضم الحسا لحكمهم المباشر.

الفصل الثالث: عالج المؤلف مسألة ضم الحسا للحكم العثماني ودور ضم البصرة للحكم العثماني المباشر في سيطرة العثمانيين على الحسا والكيفية التي تمت بها والمراحل التي مرت بها تلك العملية حتى استكمالها بضم القطيف سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م على أثر انتزاعها من البرتغاليين وبيان دور الأهالي في عملية ضم الحسا بما فيها القطيف، ثم استعراض سريع للمواجهات البحرية العثمانية البرتغالية في الخليج العربي ما بين سنة ٩٥٩ - ٩٦٢هـ / ١٥٥٢ - ١٥٥٥م وإيضاح أثر تلك المواجهات على الوجود العثماني في الحسا.

الفصل الرابع: يتناول هذا الفصل قيام إيالة الحسا وتعريف مفهوم التسمية وتنظيماتها الإدارية فقد قدم المؤلف لمحة عامة عن التنظيمات العثمانية ما بين سنة ٩٥٠ - ١٠٨٢هـ / ١٥٤٤ - ١٦٧١م كمدخل لتناول الإدارة العثمانية في الحسا ومعرفة مدى العلاقة بين التنظيمات العثمانية عامة وما تم تطبيقه من تنظيمات في الحسا ثم تطرقت الدراسة إلى المراحل التي مر بها التشكيل الإداري للحسا حتى قيام إيالة الحسا سنة ٩٦١هـ /١٥٥٤م وإلى حدود إيالة الحسا وأهم مظاهرها الجغرافية وتأثير ذلك على مرتكزاتها الاقتصادية كما تناول الجهاز الإداري الذي كانت الحكومة المركزية تديره بواسطة إيالة الحسا وأهم مناصب ذلك الجهاز، ومهام وصلاحيات كل منصب وأسماء بعض من عينوا في ذلك المنصب وتاريخ وفترة كل منهم.

الفصل الخامس: تحدث في هذا الفصل عن منصب أمير الأمراء وأهميته واعتباره الممثل للسلطان العثماني في الإيالة ودوره كحاكم عام للإيالة والغموض الذي يحيط بشاغلي ذلك المنصب في إيالة الحسا، وتم تخصيص هذا الفصل لاستعراض الأمراء الذين تولوا منصب أمير الأمراء في الإيالة أو ما يماثل ذلك المنصب.

الفصل السادس: يتناول التقسيمات الإدارية لإيالة الحسا مع استعراض ألوية الإيالة وبقية الوحدات الإدارية فيها. التي منها لواء الحسا ولواء القطيف ولواء صفوى ولواء الظهران وغيرهم.

يبرز النشاط السكاني في الإيالة وأهميته بالنسبة لموارد خزينة الإيالة ويتناول الإنتاج

الزراعـي وأهم الضرائب التي يتم تحصيلها لحسـاب السـلطة العثمانية والفئات السـكانية التي تشملها تلك الضرائب والرسوم.

الفصل الثامن: يتعلق بالتنظيمات المالية ويعالج مسألة تطبيق النظام الإقطاعي في إيالة الحسا...

الفصل التاسع: يختص بالتنظيمات العسكرية في الإيالة من حيث التشكيلات العسكرية التي تكونت منها قوات إيالة الحسـا ، والتعريف بأسـطول الحسـا ودرجة قوته ونوع المهام الموكلة إليه وصلته بأسطول إيالة البصرة.

الفصل العاشر: اختـص بتنامـي دور الإدارة المحليـة في إيالة الحسـاء من حيـث عوامله ونتائجه وصلته بالتطـورات التي حدثت في الإيالات العثمانية المجاورة، ومـن ثم تنـاول نهاية الحكم إيالة الحسـا والتداعيات التي سـاهمت في ذلـك، وصلة السـلطة المركزية العثمانية بالقوى المحلية التي اسـتولت على السلطة في الحسا.

وانتهت الدراسة بخاتمة توضح أبرز النتائج التي توصلت إليها وبعدد من الملاحق المتعلقة ببعض الوثائق التي اعتمد عليها المؤلف في دراسـته. وفي نهاية الكتاب وضع المؤلف ثبت بالمصـادر والمراجع التي اعتمد عليها وهي متنوعة من وثائق عثمانية ووثائق محلية ولوحات تأسيسـية ووثائـق برتغاليـة في الأرشـيف الوطنـي البرتغالي بلشـبونة. ومخطوطـات عربية وعثمانية ، وكتب ومراجع عربية وعثمانية وأجنبية ودوريات وبحوث غير منشورة. والكتاب جيد جدير بالاقتناء.

الدولة العثمانية وإقليم الأحساء:

ترجع علاقة الدولة العثمانية بالأحساء إلى عام ٩٦٣هـ الموافق لعام ١٥٥٥م عندما دخلها جيش عثماني قادم من البصرة ، في عهد السـلطان العثماني سـليمان القانوني (المشرع). ثم اسـتخلصها مـن العثمانيين عـام ١٠٨١هـ الموافق لعـام ١٦٧٠م براك بن غريـر بن عثمان بن سعود آل حميد من بني خالد ، الذي طرد الحامية العثمانية من الأحساء ، وظلت السلطة في أيدي بني خالد ، حتى دخلت الأحساء تحت حكم آل سعود في ظل دعوة التوحيد الإصلاحية عام ١٢٠٧هـ الموافق لعام ١٧٩٢م،

وظل الوجود السـعودي في الأحسـاء حتى سقطت الدولة السعودية الثانية بعد وفاة الأمير

عبـد الله بن فيصل بن تركي آل سـعود ، ومن ثم سـادت الفوضى فـي المنطقة ، حتى تطلع أهل الأحسـاء إلى من يحقق لهم الأمن والاسـتقرار، ويرفع عن كاهلهم تجاوزات الحكام المحليين في المنطقة ، وتعنتهم في فرض الضرائب وجبايتها ، وهنا وجد مدحت باشا الذي تعيـن واليًـا على العراق عام ١٢٨٦هـ الموافق لعام ١٨٦٩ الفرصة المواتية لإقناع الباب العالي بتسـيير حملة عسـكرية لاحتلال الأحسـاء ، وبالفعل سـارت الحملة صوب الأحساء يقودها "نافـذ باشـا" وكان الهـدف منها هو تمكيـن الوجود العثماني العسـكري في الأحسـاء ، والانطلاق منها إلى مناطق الخليج الأخرى.

كانت إسـتراتيجية مدحت باشـا إقامة سـيطرة عثمانية في منطقة الأحسـاء يشـرف منهـا علـى بقيـة مشـيخات الخليج ويحقـق بها وجـود عثمانيًا فـي منطقة الخليـج العربي ينطلـق منـه إلـى البحـار المفتوحـة ، وخاصة وأنـه واكب وجود مدحـت باشـا واليًا في العـراق افتتـاح قناة السـويس للملاحة العالميـة ، ومن ثم تطلع إلى تسـيير خطوط ملاحة بحرية بين شـط العرب في العراق والبحر الأحمر والبحر المتوسط وأوروبا إلى استانبول مركز الدولة العثمانية وعاصمتها.

فهل تحققت إسـتراتيجية مدحت باشا هذه، وما هي الصعوبات التى واجهت خطته سواء بالنسـبة لمنطقة الأحسـاء ولمنطقة الخليج العربي؛ بل ولمشروع الخطوط البحرية بين شط العـرب والعالم، هذا ما سـوف نسـتجليه في الصفحات التالية ، خاصـة بعد أن غادر مدحت باشا الأحساء في عام ١٢٨٩هـ / أوائل عام ١٨٧٢م.

الحكم العثماني للأحساء قبيل ضم ابن سعود لها [١]:

ما أن عبر أهالي الأحسـاء عن اسـتيائهم من الفوضى التى سادت المنطقة وأبدوا تطلعهم إلـى من يحقق الأمن لهم والاسـتقرار، ويرفع عن كاهلهم تجـاوزات الحكام المحليين في المنطقـة ، وتعنتهـم فـي فرض الضرائـب وجبايتها حتـى وجدها مدحت باشـا فرصة مواتية لإقناع الباب العالي بتسـيير حملته العسـكرية إلى الأحسـاء[٢] وبالفعل سارت الحملة صوب

(١) عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل: ميناء العقير في عهد الملك عبد العزيز، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق.

(٢) توجهت الحملة من العراق إلى الأحساء في غضون شهرين ووصلت رأس تنورة في ٢٥ مايو ١٨٧١م ومنها إلى القطيف التى سقطت دون مقاومة ثم اتجهت إلى المبرز والهفوف وكذلك الدمام وقلعة عنك وقد قام نافذ باشا بإجراء تنظيمات إدارية وعسكرية في الأحساء، إلا أن ظروف الحملة لم تساعد على استمرار الدور السياسي العثماني جيدًا في الأحساء مما جعل مدحت باشا يقرر الذهاب بنفسه للأحساء. وقد استمر حكم العثمانيين للأحساء مضطربًا حتى استطاع ابن سعود ضمها لنجد عام ١٩١٤م أنظر. عبد العزيز الشعيل الوجود العثماني في الأحساء، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨، ص.ص ١٠٨ - ١٢٧.

الأحساء يقودها نافذ باشا وكان الهدف منها هو تمكين الوجود العثماني العسكري في الأحساء والانطلاق منها إلى مناطق الخليج الأخرى - كما ذكرنا.

وبدأت القيادة العسكرية للحملة في تنفيذ خطتها منذ أن وطئت أقدامها المنطقة، وكانت الظروف السياسية للمنطقة مهيأة ليحقق الوجود العسكري العثماني أهدافه دونما عناء، لولا إصابة عدد كبير من جنود الحملة بالأمراض التى كانت تنتشر في المنطقة، الأمر الذي جعل مهمة الحملة تزداد صعوبة وتعقيدًا وتلافيًا لتدهور محتمل قام نافذ باشا بتوجيه من مدحت باشا باتخاذ عدد من الإجراءات الوقائية ساعدت على تلاشي الفشل، وساهمت في تأمين قاعدة عسكرية عثمانية وزعت فيها القوات حسب أهمية المناطق[1] حيث أصدر أمرًا لكافة جنوده بعدم مبارحة القلاع والحصون تحسبًا للمقاومات، كما استعان بجنود من أهالي المنطقة مقابل راتب شهري قدره ست روبيات، مستثمرًا بذلك فرصة العوز والحاجة التى كان الأهالي يعانون منها[2].

إلا أن هذه الإجراءات التى لجأ إليها مدحت باشا لم تكن مجدية إلى حد ما ولم تقض على المشاكل التى كان قائد الحملة "نافذ باشا" يعاني منها، فضلاً عما كان لها من تأثير كبير على موقف الأهالي من الوجود العثماني ممثلاً في الحملة التى ظنوا أنها السبيل إلى الخلاص من مشاكلهم ومعاناتهم.

وإزاء هذا الموقف الحرج لجأ مدحت باشا إلى زيادة الأسطول العثماني في الخليج، متعللاً بأن حماية قناة السويس تستلزم زيادة القطع البحرية العثمانية في الخليج الأمر الذي دفع بريطانيا إلى الاحتجاج لدى الباب العالي، الذي أكد في رده على الاحتجاج بأن ارتباط الأحساء بولاية العراق هو الدافع من وراء ذلك[3].

ولكن الأمر ما لبث إن ازداد تعقيدًا بعد أن اتصل "سعود بن فيصل بن تركي ببريطانيا مستعينًا بها ضد أخيه عبد الله ولكن بريطانيا لم تكن ترغب في الدخول في صراع داخلي بري وسط الجزيرة في المنطقة مما حدا بسعود إلى الاستجابة للمبادرة التى قام بها أخوه

---

(١) قدر بلى عدد القوات العثمانية الموجودة في الأحساء على النحو التالي: حامية القطيف (٥٠٠) جندي منهم (١٥٠ جنديًا) مريضًا العقير = ١٥٠ جنديًا قوات مساندة في الطريق = ٢٢٥ جنديًا الأحساء وما حولها (٢٥٠٠) جندي منهم ١٠٠٠ مريض المجموع ٣٣٧٥ - مجموع المرضى (١١٥٠) انظر. عبد العزيز الشعيل الوجود العثماني في الأحساء، سبق ذكره، ص١٢٥.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار «تاريخ العرب الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ص٤٣٢.

(٣) حسين محمد القهواني: دور البصرة التجاري، ص١١٦.

عبد الله بعد أن فقد الأمل في الدولة العثمانية التى لم تحقق رغبته وطموحه[1].

وإزاء هذه الأحداث المتلاحقة بدت السلطة العسكرية في الأحساء أعجز عن أن تحقق أهدافها أو تنقذ الوضع الآخذ في التردي، مما حدا بمدحت باشا إلى دعم القوة العسكرية في الأحساء، فقام في ١٢٨٨هـ / ٢١ نوفمبر ١٨٧١م بقيادة كتيبة قوامها ٣٠٠ جندي نزلت ميناء العقير بعد أن فقدت الحاميات العسكرية في القطيف. . . وقد سلك مدحت باشا في وصوله العقير طريق البحر مخالفا بذلك الطريق الذي سلكه "نافذ باشا" مع جنوده، وذلك خشية أن يكون الطريق غير آمن وما أن وطأ مدحت باشا "ميناء العقير" حتى قام بإجراء التعديلات اللازمة لتقوية قوته البحرية، فضم بعض السفن التجارية إلى ترسانته، كما استعان ببعض القوارب الصالحة للعمل في المياه الضحلة التى يتميز بها ميناء العقير. وكانت تلك الإجراءات بمثابة مؤشر أكيد على أن "مدحت باشا" يرمى إلى القيام بعمل عسكري بحرى ينطلق من ميناء العقير كقاعدة بحرية فى مقابل استخدام بريطانيا للبحرين[٢].

كما قام "مدحت باشا" بإلغاء السلطة الشرعية الممثلة فى حكم "عبد الله بن فيصل بن تركى" عندما حدد له خمسة عشر يوما كحد أقصى - يتوجه خلالها على الأحساء، وإلا اعتبره متنازلا عن الحكم بعد تلك المدة[٣].

أما الوضع الإدارى فى المنطقة فقد ارتبط بالاستقرار السياسى المباشر الذى حكمت المنطقة بموجبه عسكريا، وهنا الوضع لم يألفه الأهالى، وقد أدرك "مدحت باشا"، فأوكل بعض الأمور الإدارية إلى بعض الأفراد فى مناطقهم لتتفرغ الحملة لاستكمال خطتها. إلا أن ذلك لم يكن ليجد من ردود فعل السكان الذين أظهروا امتعاضهم فى شكل انتفاضات وتمرد داخل المدن وخارجها، وقد استغل "ابن سعود" ذلك الشعور وراح يحث القبائل على المقاومة والتمرد وانضم له العجمان وآل مرة، ووصل الأمر إلى تجمع أكثر من سبعة آلاف من الأهالى فى المدن ليعلنوا تحديهم للسلطة العثمانية فى المنطقة الأمر الذى دفع القائد العثمانى "رءوف باشا" إلى الاتصال بسعود بن فيصل بن تركى، خشية أن يقوم هو وأخوه - أو منفردا - بهجوم على المنطقة، خاصة بعد أن أدى رحيل مدحت باشا إلى العراق تاركا منطقة الأحساء، إلى فشل مشاريع التوسع التى كان مدحت باشا يهدف إلى تنفيذها، سواء فى الخليج أو فى اتجاه الرياض.

---

(1) (I. O. R.) L/P 85/20C238. P. 35.

(٢) عبد العزيز الشعيل: الوجود العثماني في الأحساء.

(٣) مذكرات مدحت باشا: ص٧.

ولكن التقارب السعودى العثمانى ما لبث أن تأزم عندما أرسل سعود أخاه عبد الله إلى بغداد فاحتجز كرهينة ثم أطلق سراحه ١٣٠٢ هجرية/١٨٧٤ميلادية، حيث لم يكد يصل إلى الأحساء حتى تزعم الثورة ضد العثمانيين.

ومع تطور الأحداث الداخلية وزيادة الثورات فى منطقة الأحساء لجأ العثمانيون إلى إسناد مهمة إخماد هذه الثورات إلى رؤساء القبائل والقيادات المحلية، وكان العثمانيون يهدفون من وراء ذلك إلى تحقيق غايتين: الأولى إخماد الثورات بما تسببه من إزعاج واضطراب للسلطة العسكرية فى المنطقة، الثانية: القضاء على نفوذ القبائل بإضعافها عن طريق تنافر بعضها مع البعض الآخر دون التورط فى مواجهتها أو تكبد أية خسائر فى سبيل القضاء على نفوذها وقوتها، وقد أكد ذلك قيام السلطات العثمانية بسحب أغلب قواتها من المنطقة، حيث لم تبق فيها سوى فرقتين وذلك طبقا للتغيرات السياسية فى العراق ومتغيرات الخطط العامة للدولة العثمانية.

ويمكننا تقسيم فترة الحكم العثمانى لمنطقة الأحساء إلى مرحلتين متميزتين:

المرحلة الأولى:

وهى مرحلة القوة السياسية والتى وضع أسسها "مدحت باشا" منذ أن وصل إلى الأحساء وقد اشتملت على إيجاد تغيير فى التقسيم الإداري.

لولاية العراق والتى من ضمنها الأحساء[1] وقد امتد العمل بهذا التقسيم الجديد إلى بداية تولى "ناصر باشا السعدون" متصرفية الأحساء، وتميزت تلك الفترة بإعطاء أهمية للتنظيمات الإدارية وذلك بربط الأوامر والقرارات بالسلطة العليا فى الولاية، وذلك لتحقيق أمنيات الأهالى ووضعها موضع التنفيذ لتأكيد إقناعهم بالحكم الجديد، وربطت السلطة المدنية العسكرية فى هذه المرحلة بيد المتصرف وقبل الأهالى بذلك أملا فى الاستقرار الذى لم يتحقق، مما أدى إلى نفورهم من الحكم خلال الأسابيع وقد أدى الخلاف مع عبد الله بن فيصل على السلطة - إلى تخوف الأهالى من السلطة الجديدة، وانعكس ذلك على أفراد الحملة وأضعف من قدرة القيادة على تطبيق النظم الجديدة مما قلل من رغبة الأهالى فيها.

المرحلة الثانية:

وهى مرحلة الضعف الإدارى، وقد بدأت هذه المرحلة بأسلوب إدارى جديد يتمثل فى

(١) مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٧٠، ص١٩٢.

الاستفادة من الأهالى فى الحكم، إلا أن تلك الخطة الجديدة لم تحقق الرضا لدى الأهالى مما دفعهم إلى تغيير تلك الخطة وجاء التغيير موافقا لرغبة الدولة العثمانية فى حفظ الاتفاق الذى دفع الولاة إلى العمل لمصالحهم الشخصية، إضافة إلى أن الدولة العثمانية أخذت تفقد قوتها وسيطرتها على أطراف الإمبراطورية ولعل أبرز مظاهر هذه المرحلة هو كثرة التعيينات للولاة لفترات قصيرة ومحدودة وغير مقيدة بتعليمات سياسية إصلاحية، فضلا عن تعيين ولاة تنقصهم الخبرة والدراية بأساليب الحكم والإدارة فى المنطقة، إضافة إلى الاستعانة ببعض القبائل لمواجهة البعض الآخر، مما عمق الفرقة وضاعف المشاكل[1] ودفع الأهالى إلى القيام بثورات واضطرابات ضد الحكم بل والاعتداء فى بعض الأحيان على القوات الحكومية كما أظهر الأهالى عزوفهم عن الحكم العثمانى وذلك بدعوتهم للإمام عبد الله بن فيصل بن تركى إلى المنطقة.

ومن الملامح البارزة للحكم فى تلك الفترة أنه أوكل إلى الأهالى بعض الوظائف الرسمية وذلك لكسب الود وتكوين الولاء للدولة وتأتى الضرائب وكثرتها كملمح أخير متميز من ملامح هذه الفترة حيث بلغ عدد الضرائب إلى أكثر من ثمانين ضريبة وذلك لتتمكن الحكومة من حفظ الاتفاق مع الولاة الأمر الذى لم يطق الأهالى تحمله وواجهوه بالإضراب عن الدفع احتجاجا على كثرة الضرائب وزيادتها وتكرارها[2].

وهناك مظهرا آخر من مظاهر تأثر الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمتغيرات السياسية فى المنطقة نلمسه فى شيوع استخدام أكثر من نوع من النقود فى المنطقة، حيث التعامل بالنقود لا عثمانية مقتصرا على التعامل الرسمى فقط، أما التعامل فيما بين الأهالى فكان يتم بعملات أخرى كما شاع التعامل بنظام المقايضة خاصة بين البدو وعلى الرغم من أن الدولة لم تطبق نظام الأراضى فى المنطقة، فإنها استطاعت أن تحقق زيادة فى الموارد الاقتصادية عن طريق تشجيع الزراعة وزيادة الموارد المحلية الزراعية، إلى الدرجة التى حققت فيها المنطقة اكتفاء ذاتيا فى الموارد الزراعية فى المرحلة الأولى من مرحلتى الحكم العثمانى سالفتى الذكر وقد ظلت المنطقة تستخدم عددا من الأساليب التقليدية فى تعاملها التجارى، وذلك طبقا لنظام المقايضة المنتشر قبل تواجد العثمانيين فى الأحساء.

ولسنا فى حاجة بعد هذا الطرح إلى إعادة التأكيد على أن التواجد العثمانى فى الأحساء جاء مخيبا لطموحات الأهالى التى كانت تأمل فى أن يأتى معه بالأمن والاستقرار المفتقدين

---

(١) عبد العزيز الشعيل: المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) نفسه: ص١٦٥.

بل إن التواجد العثماني في الأحساء لم يحقق طموحات وأهداف أنفسهم كما تبين لنا من العرض السابق بذلك.

جذور العلاقات بين العثمانيين وأقطار الخليج العربية:

لم تكن الاتصالات السعودية العثمانية في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود هي الأولى في تاريخ الدولة السعودية، وإنما جرت اتصالات، وقامت علاقات سلمية وأخرى حربية في عهد الدولتين السعوديتين: الأولى والثانية. وظلت طبيعة هذه العلاقة قائمة على مبدأ عدم الانسجام والتوافق والمصالحة، وظل قوامها الشك وعدم التقابل، ممّا ساهم إلى حد كبير في قيام حروب مريرة بين الطرفين، تمثلت في حروب الدولة العثمانية مع كل من الدولة السعودية الأولى والدولة السعودية الثانية والدولة السعودية الحديثة.

وليس غريبًا أن يقوى موقف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية من خلال سيطرة آل رشيد على نجد في أواخر عهد الدولة السعودية الثانية، وبعد سقوطها عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م؛ لأن آل رشيد ظلوا على ولاء للدولة العثمانية حتى هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تؤيد آل رشيد وتدعمهم بالسلاح والقوات النظامية والأموال، وظلت تمنحهم المناصب العليا وترفع من شأنهم.

ولا أحد ينكر أن الدولة العثمانية أصيبت بخيبة أمل ومرارة وضعف من جراء انحسار تأثيرها على شيخ الكويت بعد أن أصبحت الكويت تحت الحماية البريطانية عام ١٣١٨هـ/١٨٩٩م، مما أفقد الدولة العثمانية مراقبة آل سعود المقيمين في الكويت من جهة، وضعف مركزها الإستراتيجي في الخليج من جهة أخرى. ولا يغيب عن بالنا الخطة الإستراتيجية البريطانية المنظمة في إحكام القبضة البريطانية على ساحل الخليج العربي والأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، وقد سبب هذا المخطط البريطاني حرجًا للنفوذ العثماني في المنطقة، وكان سببًا في ضعف قبضة الدولة العثمانية على سنجق الأحساء، لانقطاع صلة الربط بين هذا السنجق وولاية البصرة العثمانية من جراء انسلاخ الكويت من المنظومة السياسية العثمانية وتأثيرها.

وعلى الرغم من حرج موقف الدولة العثمانية في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، إلا أنها ظلت مطمئنة على الأوضاع في نجد خاصة بعد تزايد قوة آل رشيد فيها، وولائهم المطلق لها. واعتمادًا على مبدأ ولاء آل رشيد للدولة العثمانية ظلت الدولة العثمانية تعد وجودها المؤثر في نجد قائمًا من خلال الوجود السياسي لآل رشيد، وهو ما جعل العثمانيون يحاولون تركيز

نفوذهـم في سـاحل الخليج، وخاصة في الأحسـاء وقطر، تاركين شـؤون الداخـل لإدارة آل رشـيد، موفرين على أنفسـهم عناء جهد عسـكري شـاق وطويل ومجرب، وعناء وجود إداري مكلف ومرير. وقد أيد العثمانيون آل رشيد لكونهم قوة حديثة معادية لآل سعود.

الاتصالات السعودية العثمانية قبل استرداد الملك عبدالعزيز الأحساء:

نشـطت الاتصالات السـعودية العثمانية في مطلع القرن العشرين الميلادي بعد أن استرد الملك عبدالعزيز آل سـعود الرياض عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م، وبعد إخراج آل رشـيد من منطقة العـارض والمناطق الجنوبية من نجد. فقد تبنى الملك عبدالعزيز وقتذاك موقفًا تجاه الدولة العثمانيـة اتسـم بأسـلوب الموازنة، فهو يركـز تمامًا على مبدأ الاسـتقلال التام لكنه في الوقت نفسـه مازال في بداية الطريق بالنسـبة لمشروعه الكبير الرامي إلى توحيد المناطق التي كانت أصلاً تابعة للدولتين السعوديتين المتعاقبتين الأولى والثانية. كما أنه ظل يقدر مدى نفوذ الدولة وطاقاتها في الولايات العثمانية المحيطة، ولهذا حاول في البداية أن تكون صلتـه بالدولـة العثمانية واتصالاته معها قائمة على أسـاس يجمع بين الولاء الرمزي لها وبين المطلـب الاسـتقلالي الذي يعمل من أجله. وكان غرض الملك عبـد العزيز آنذاك هو تقليل الضغـط العثماني عليـه من خلال محاولة تحييد الموقف العثماني فـي نزاعه الحاد وحروبه المريرة مع آل رشيد.

والواقع أن الملك عبدالعزيز آل سـعود لم يكن وقتها في موقف يسـمح له بمعاداة الدولة العثمانية بشـكل علني وصريح لأن موقفه السياسـي والحربي مـا زالا في بدايتهما وخاصة بعد وقعة البكيرية عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، التي اشترك فيها جيش عثماني قوامه أحد عشر طابورًا يحارب إلى جانب آل رشيد الملك عبدالعزيز آل سعود، بالإضافة إلى الدعم العثماني المادي والمعنوي لآل رشيد بهدف القضاء على القوة السعودية الحديثة والنشطة.

وقد بان الموقف العثماني من الملك عبدالعزيز آل سعود بعد وقعة البكيرية من خلال ما ورد في رسـالة الأميرالاي حسن شـكري أميرالاي الجيش العثماني الذي وصل إلى القصيم لمسـاعدة الأمير الرشـيدي عبدالعزيز بن متعب آل رشـيد بعد انتهاء وقعـة البكيرية، جاء فيهـا: "... أن الخليفـة الأعظم بلغه اضطراب الفتنـة في بلاد نجد، وأن يدًا أجنبية محركة لهـا... فأنـا أنـذرك إذا لـم تأتنا وتبين الأسـباب التي حملتـك على إضرام هـذه الفتنة بدون مراجعة أي ولاية من ولايات الدولة، واقتصارك على مراجعة صاحب الكويت، وأخذ المدد منه، وأنت تعلم علم اليقين أنه خارج عن طاعة الدولة، وما كان منك الالتئام معه... فها أنا مقيم بأطرافكم إما أن تقدموا إليّ وإما أن تستقدموني وتعرضوا عليّ ما عندكم لأنظر فيه

مع أمراء عساكري، وأسير في الحكم طبق إرادة مولانا الخليفة. . . فإياكم والمخالفة. . . وأعطيك مدة عشرة أيام تشاور بها القريب والبعيد، وتختار لنفسك ما يصلح لها.

وجاء جواب الملك عبدالعزيز عن رسالة الأميرالاي حسن شكري قويًا جدًا، فيقول: "... أما قولك إن أمير المؤمنين بلغه خبر أمر هذه الفتنة في البلاد العربية وما هان عليه إلا إصلاحها، فسبحان الله! هل تخفى عليه حقيقة الأحوال؟ إنه هو المضرم لها، وهي غاية مقاصده. وما الحامل لمبارك الصباح على التحيز إلى دولة أجنبية إلا سوء أفعال محسن باشا والي البصرة، فهو الذي نفره وأضرم هذه الفتنة، ولذلك لم تبق لي ثقة بوال أو مبعوث تركي. وإنني مختار لنفسي ما اختاره مبارك الصباح، والأحسن رجوعك من هذا المكان... وأما قولك إن الخليفة المعظم بعثك لتنظر الخلاف بيني وبين آل رشيد، فليس إلا لأنكم تريدون غدر إمارتي. ولو كان الأمر كما زعمت لكنت نظرت في بادئ الأمر لمن تكون بلاد نجد، ولمن كان الأمر عليها من قديم، ومتى كان ابن رشيد أميرًا فيها، وكيف دخل هذه الإمارة؟ وأحواله لا تخفى عليكم، وليس له حق في المنازعة.

ويبين الملك عبدالعزيز في رسالته الجوابية إلى الأميرالاي حسن شكري أنه لا يثق بالدولة العثمانية، ويحمل ولاتها مسؤولية خروج الكثير من الجهات والولايات العربية عن الدولة العثمانية، فيقول في رسالته: ". . . وأما الآن فلا نقبل لكم نصيحة، ولا نعترف لكم بسيادة، والأحسن أنك ترجع من هذا المكان إذا كنت لا تود سفك الدماء. . . فلا شك أننا نعاملك معاملة المعتدين علينا. . . وأن سبب عدم طاعتي هو عدم ثقتي بكم. انظر إلى ولاية البصرة كيف فرطت في الكويت؟ وإلى والي اليمن كيف سلوكه في اليمن فإنه أضرم فيها الفتنة، وانظر إلى الحجاز وأهله التعساء وما يلاقونه هم وحجاج بيت الله الحرام من السلب والنهب. . . ". ويخلص الملك عبدالعزيز إلى القول: ". . . إن كل العمال الذين رأينا، إنهم خائنون منافقون. فلا طاعة لكم علينا، بل نراكم كسائر الدول الأجنبية".

وبناءً على مبدأ عدم استقرار الوضع العسكري في القصيم وتأرجحه، فإنه لا يستبعد أن يهتم الملك عبدالعزيز آل سعود بفكرة التقارب مع الدولة العثمانية لتكون خطوة مرحلية من مراحل الحل الشامل للتدخل العثماني في شؤون نجد. كما أن الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، والد الملك عبدالعزيز كان يرى ضرورة الاتصال بالدولة العثمانية ومراسلتها لتكون خطة سياسية الهدف منها إشغال الدولة العثمانية بالمفاوضات، وإقناعها بأن آل سعود يودون الصلح والتقارب معها، مما يخفف ضغطها على الجانب السعودي في حروب القصيم، ومن ثم تضعف قوة آل رشيد ويتهيأ تفوق عسكري لآل سعود عليهم. والواقع

أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم تكن لديه خطة لمعاداة الدولة العثمانية في مثل هذه الظروف الصعبة، وظل هذا خيارًا إستراتيجيًا للملك عبدالعزيز ووالده الإمام عبدالرحمن قبل استرداد الأحساء عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م.

وحدث عامل قوي مسألة الاتصالات والمفاوضات بين الملك عبدالعزيز والدولة العثمانية، وهو انتصار الملك عبدالعزيز في موقعة الشنانة في القصيم في ١٨ رجب ١٣٢٢هـ/٢٩ سبتمبر ١٩٠٤م، تلك الوقعة التي كانت جوابًا سريعًا لما حدث في وقعة البكيرية. فرأت الدولة العثمانية أن لا فائدة ترجى من حملاتها المتكررة على الملك عبدالعزيز وقواته ومناطقه بالتعاون مع آل رشيد. فحاولت أن تأخذ بأسلوب المفاوضات والاتصالات السلمية بعدما وجدت أن الأسلوب العسكري غير مجدٍ، فقررت إتباع سياسة إقناع الملك عبدالعزيز بالمناصب العثمانية التي تضمن ارتباطه بها، خاصة وأن بوادر الحرب العالمية الأولى قد لاحت في الأفق، والدولة الآن في أمس الحاجة إلى الأعوان والأتباع والمؤيدين، ليتفرغ جيشها لقضايا أكثر اهتمامًا. وهنا تلتقي الرغبتان العثمانية والسعودية على الرغم من أن الملك عبدالعزيز لا يثق بالدولة العثمانية ونواياها، كما أن الدولة العثمانية هي الأخرى لا تثق به.

وفي اعتقادي أن محاولة التقارب هذه تدخل في باب المجاملات السياسية؛ لأن الدولة العثمانية نفسها غير صادقة في نواياها تجاه الملك عبدالعزيز؛ لأنه يطلب الاستقلال التام، وهو أمر لا تقره الدولة. وبالمقابل فإن الملك عبدالعزيز يرى أن عامل الزمن لصالحه من خلال قراءته لأوضاع الدولة العثمانية من جهة، والأوضاع السياسية والعالمية من جهة أخرى، وظل يعتقد أن الدولة العثمانية دولة متهاوية، وأن قوة اتباعها آل رشيد أيضًا في تناقص. كما أن اهتمامها بشؤون نجد يأتي في الدرجة الثانية في جدول المناطق التي تركز الدولة عليها وتهتم بها. وهذه الظروف مجتمعة حدت بالملك عبدالعزيز إلى صياغة قراره السياسي المصيري تجاه الدولة العثمانية.

وبعد موقعة الشنانة جاءت مبادرة المفاوضات من الدولة العثمانية قبل أن تكون من جانب الملك عبدالعزيز، وفي اعتقادي أن الثقل العسكري الذي وضعته الدولة العثمانية في القصيم إلى جانب آل رشيد ضد آل سعود كان من أجل تقوية موقفها في تلك المفاوضات؛ لأنه من الصعب على الدولة العثمانية أن تخوض حروبًا واسعة في أراضي الجزيرة العربية الداخلية، فرأت أن توسط الشيخ مبارك الصباح في مسألة المفاوضات مع الملك عبدالعزيز، فطلبت من الشيخ مبارك أن يبلغ الملك عبدالعزيز أن الدولة العثمانية

تنوي التفاوض السلمي مع والده الإمام عبدالرحمن، على أن يلتقي الإمام عبدالرحمن مع والي البصرة في بلدة الزبير جنوب العراق. وقد قبل الملك عبدالعزيز الدعوة، وسافر والده إلى الكويت ومنها إلى الزبير يرافقه الشيخ مبارك الصباح. واجتمع الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت مع أحد المسؤولين العثمانيين في سفوان، جنوب العراق عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م لمناقشة عدد من المسائل المعلقة بين الطرفين. وقد تمخضت المحادثات عن اعتراف الدولة بعبدالعزيز آل سعود قائمًا على منطقة العارض والقسم الجنوبي من نجد، على أن يكون تابعًا لها. واعترفت لابن رشيد بمنطقة جبل شمر على أن يلزم حدوده فيها، وألا يتدخل في شؤون عبدالعزيز آل سعود ومناطقه. وأن تكون منطقة القصيم منطقة محايدة بين عبدالعزيز آل سعود وابن رشيد، ويكون فيها للدولة العثمانية مركز عسكري ومستشارون عثمانيون.

ويذكر الريحاني أن الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود لم يقبل بهذه الإجراءات، لكنه قبل إكرامًا للشيخ مبارك أن يعرضها على أهل نجد، لكن أهل نجد لم يقبلوا ألبتة أن تكون منطقة القصيم على الحياد، ولا أن يكون فيها حامية للدولة العثمانية. وأكد الريحاني ذلك فأورد أن أهالي بريدة وعنيزة وتوابعهما من القرى والبلدان لم يقبلوا بالسيادة العثمانية أو بشبه السيادة العثمانية عليهم عندما وصل بلادهم المشير العثماني أحمد فيضي باشا قادمًا من بغداد ومعه ثلاثة طوابير من الجند العثماني النظامي وخمسة مدافع، وكذلك وصول الفريق صدقي باشا قادمًا من المدينة بطابورين من الجند العثماني. وعلى أي حال فإن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة، وظلت بعيدة عن القبول والتنفيذ.

أرسل فيضي باشا رسولاً إلى الرياض يخبر الملك عبدالعزيز آل سعود أن الدولة العثمانية لا تريد محاربة أهل نجد، وأنه جاء مسالمًا "إنني لا أريد إلا السلم، ولست محققًا مقاصد ابن رشيد". وطلب فيضي باشا أن يأتي الإمام عبدالرحمن إلى عنيزة لمفاوضته، فوافق الملك عبدالعزيز على إجراء المفاوضات، وفتح باب الاتصالات من جديد مع مسؤولي الدولة العثمانية. ونلحظ هنا أن الدولة العثمانية هي البادئة في طلب المفاوضات بعد الخسائر الكبيرة التي منيت بها في تجربتها العسكرية في حروب القصيم ضد الملك عبدالعزيز وقواته.

وهكذا حدث لقاء سعودي عثماني جديد بين الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود والمشير العثماني فيضي باشا في عنيزة، في شأن إيجاد نوع من المصالحة والتفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود من جهة؛ وبين الملك عبدالعزيز وابن رشيد من

جهة أخرى. وكان هدف الدولة العثمانية من وراء ذلك إيجاد نوع من التوازن السياسي في إستراتيجيتها في البلاد النجدية تجاه كل من الملك عبدالعزيز وابن رشيد، بقصد ضمان طاعتهما للدولة، خاصة وأن الدولة العثمانية وقتذاك كانت تواجه ثورة عنيفة في اليمن قادها الإمام يحيى حميد الدين، وظلت الدولة تهتم بأن تبقى نجد مستقرة الأوضاع في ظل سيادتها الاسمية على الأقل.

اجتمع الإمام عبدالرحمن مع أحمد فيضي باشا في مدينة عنيزة، وطلب المشير من الإمام أن يكون للدولة العثمانية مركزان عسكريان أحدهما في بريدة والثاني في عنيزة، إجراءً مؤقتًا إلى أن يتم التفاهم والصلح بين الطرفين المتقاتلين في نجد، آل سعود وآل رشيد. وفي خضم هذه الأحداث أمرت الدولة العثمانية المشير أحمد فيضي بالتوجه إلى اليمن لحل مسألتها المستعصية. وناب عنه صدقي باشا الذي اتبع أسلوب سياسة لا حرب ولا سلم ولا مفاوضات. وظل أمر نجد على حاله ممّا أزعج الدولة العثمانية، فأرسلت سامي باشا الفاروقي إلى نجد، وعزلت صدقي باشا. فأرسل سامي باشا الفاروقي إلى الملك عبدالعزيز يطلب مقابلته في البكيرية، فقابله الملك، ولم يتوصل الطرفان إلى تفاهم، بل تنافرا. وزادت حدة المواجهة عندما قال الفاروقي لعبدالعزيز آل سعود: "إن أهل القصيم يريدون أن تكون السيادة في بلادهم للدولة". فأجابه عبدالعزيز آل سعود: "ليس لأهل القصيم رأي في الأمر، فهم من أتباعي". فأجابه الفاروقي قائلاً: "التابعية تقتضي الحماية، وأنت لا تستطيع أن تحميهم، ولا ابن رشيد يستطيع ذلك". فرد عبدالعزيز آل سعود: "هل حمتهم الدولة؟ ومع ذلك فها زعماء القصيم في مجلسك، اسألهم يجيبوك. وتكلم أحد زعماء القصيم قائلاً: "إن صالح الحسن افترى عليهم (على أهل القصيم)، وأنه لا يمثلهم بشيء، وأنهم لا يرضون عن ابن سعود بديلاً". وقد لجأ الفاروقي إلى أسلوب التهديد والوعيد قائلاً: "إنكم يا أهل القصيم تجهلون صالحكم وتتوهمون حقوقًا ليست حقوقكم... ما جئنا نسترضيكم ولا نستغويكم. جئنا نعلمكم الإخلاص والطاعة للدولة العلية. ولا معلم اليوم غير السيف". فتكلم الملك عبدالعزيز قائلاً: "إني آسف على ما بدا منك، بل آسف؛ لأن الدولة تكل أمورها إلى أمثالك. ما كان العرب يا سامي ليطيعون صاغرين، لا والله، ولولا أنك ضيف عندنا لما تركناك تقوم من مكانك".

ويبدو أن الفاروقي فهم أن أسلوب القوة والعنف والتهديد لا ينفع، فأرسل رسولاً إلى الملك عبدالعزيز اسمه دياب أبو بكر يقول له: "يسلم عليك الباشا، ويقول إن الدولة تدفع لك عشرين ألف ليرة ومخصصات سنوية إذا اعترفت بسيادتها على القصيم". فأجاب الملك

عبدالعزيز آل سعود: "أتتجاسر يا خبيث أن تحمل إلينا مثل هذه الرسالة؟ ألم يردعك شيم العرب؟ ومتى كان ابن سعود يقبل الرشوة، فيبيع بلاده ورعيته لمن يريدون استرقاقها...".

وقد تطورت الأمور إلى الأفضل بالنسبة للملك عبدالعزيز عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، فأخذ يضغط على القوات العثمانية في القصيم ضغطًا نفسيًا، خاصة وأن القوات العثمانية ملت من الحروب والانتظار، وملت من حالة لا حرب ولا سلم، في ظل أجواء مملوءة بالخوف، وعدم الاستقرار، وسوء الأحوال الجغرافية، والبعد عن مراكزهم. فقرر الملك عبدالعزيز أن يتخلص من القيادة العثمانية والجند العثماني وتدخلاته، وقرر أن يضرب ضربته الأخيرة، فأرسل إلى الفاروقي يخبره بأمرين: إما أن يرحل بجيشه خلال خمسة أيام إلى منطقة السّر ليكون بعيدًا عن مراكز قوة ابن رشيد، وإما أن يتولى الملك عبدالعزيز نفسه ترحيل الجيش العثماني، فيعاد من جاء منهم مع المشير أحمد فيضي إلى العراق، الذين جاءوا مع صدقي باشا إلى المدينة، وإلا الحرب. وافق الفاروقي على الأمر الثاني، فأرسل الملك عبدالعزيز الجند العثماني إلى العراق وإلى المدينة كما هي الخطة المرسومة.

ويذكر الريحاني أن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني شكر للملك عبدالعزيز معاملته الطيبة للجند العثماني، وسأله إن هو يرغب في إرسال أحد رجاله لمقابلته، فلبى الملك عبدالعزيز الدعوة، وأرسل صالح العذل ومعه اثنين آخرين إلى الآستانة، فنزلوا ضيوفًا على الحضرة الشاهانية، ومنحوا الألقاب والنياشين.

ونتوصل إلى قناعة تامة أن المفاوضات والاتصالات السعودية العثمانية في حقبة ما قبل استرداد الأحساء، كانت قد اتسمت بالآتي:

١ - لم تكن المحادثات بين الطرفين جادة، بل هي محادثات واتصالات يغلب عليها مبدأ رفع العتب.

٢ - لم يكن الطرفان المتحادثان يتوقعان نتائج ترضيهما، فالدولة العثمانية تريد طاعة الملك عبدالعزيز وبلاده لها. وبالمقابل كان الملك عبدالعزيز آل سعود يخطط لإنجاز مشروع عريض يرمي إلى توحيد مناطق الجزيرة العربية التي كانت تابعة لحكم أجداده، وبشكل مستقل استقلالاً تامًا.

٣ - لم يكن الملك عبدالعزيز مقتنعًا من حياد الدولة العثمانية في نزاعه مع آل رشيد، وهو أمر يشككه في موقفها تجاهه.

٤ - ظلت الدولة العثمانية وكذلك الملك عبدالعزيز يريان في اتصالاتهما ومحادثاتهما وسيلة

مؤقتة أشبه بهدنة بين الطرفين، لا بد من انفجار الموقف بينهما برمته مع الزمن.

٥ - كان الملك عبدالعزيز يعرف مدى ضعف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، حتى إن تأثيرها أخذ يضعف في المنطقة، وبخاصة في المناطق الشرقية من الجزيرة العربية تحت تأثير الضغط السعودي من جهة، وتدخلات بريطانيا وموقفها المؤثر من جهة أخرى.

٦ - يغلب على المحادثات والمفاوضات بين الطرفين أنها اتسمت بطابع الند للند، لا وسيط مباشر بينهما.

الاتصالات السعودية العثمانية بعد استعادة الأحساء:

تميزت مرحلة الاتصالات والمفاوضات السعودية العثمانية بعد استعادة الأحساء عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م عن المرحلة التي سبقتها، بأن الاتصالات السعودية العثمانية في هذه المرحلة كانت استجابة لرغبة الدولة العثمانية الملحة في جعل الباب مفتوحًا بينها وبين الملك عبدالعزيز آل سعود، في ظل فقدانها منطقتين مهمتين من الجزيرة العربية هما: نجد وسنجق الأحساء، الذي يتمتع بمركز إستراتيجي سياسي واقتصادي. فهي الآن تفتح باب المفاوضات وقواتها مهزومة عسكريًا أمام القوة السعودية الناشئة، على حين كانت الدولة العثمانية تفاوض في المرحلة السابقة وهي قوية نسبيًا، ولها قوات نظامية في منطقة القصيم، وتناصرها قوة آل رشيد.

وقد تميزت هذه المرحلة من الاتصالات والمفاوضات، بأن قوة الملك عبدالعزيز أصبحت أقوى بكثير مما كانت عليه في مرحلة المفاوضات السابقة. فهو الآن يمد نفوذه على مناطق واسعة، منها منطقة الأحساء التي قوت مركزه السياسي بفضل إطلالها على الخليج، فأصبح للملك عبدالعزيز قوة مؤثرة في الساحل الشرقي للجزيرة العربية يحسب حسابها في مسألة التوازن السياسي في الساحل، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي الفاعل في تقوية الدولة السعودية الحديثة النامية والمتطورة.

وتميزت هذه المرحلة كذلك بأن الاتصالات والمفاوضات السعودية العثمانية لم تبق محصورة في نطاق الطرفين السعودي والعثماني، وإنما لعبت قوى سياسية أخرى دورًا في هذه الاتصالات، وتأتي بريطانيا على رأس ذلك، بالإضافة إلى شيخ الكويت وشيخ المحمرة والسيد طالب النقيب، وقد شكل هؤلاء حلقة وصل رئيسة في تلك الاتصالات، وما دار من مفاوضات بين الطرفين الرئيسين السعودي والعثماني. وكان لهذه التدخلات

أهميتها وتأثيرها على سير المفاوضات ونتائجها. كما تميزت هذه المرحلة بأنها جاءت في وقت أصبحت فيه الحرب العالمية الأولى وشيكة الوقوع، وأن بوادرها تلوح في الأفق السياسي. وأن مركز الدولة العثمانية قد ضعف في المنطقة العربية وخاصة في العراق، من خلال جهود بريطانيا الرامية إلى تقليص النفوذ العثمانية في المنطقة العربية، خاصة وأن الدولة العثمانية اتجهت صوب ألمانيا أهم دول المحور المعادية لبريطانيا والحلفاء.

ولا أحد ينكر أن مركز الدولة العثمانية في سنجق الأحساء كان قد ضعف كثيرًا من جراء ظهور القوة السعودية الحديثة، وتطور نفوذها في وسط الجزيرة العربية. فتشير الوثائق العثمانية إلى حالة الفوضى والاضطراب التي سادت السنجق من جراء تمادي الموظفين العثمانيين المتأخرين في زيادة الضرائب غير المشروعة على الأهالي في السنجق، ومن جراء سوء الإدارة العثمانية والخلافات التي دبت في صفوف المسؤولين رأس الإدارة في السنجق، مما أدى إلى تململ السكان وتحركهم ضد السيادة العثمانية، واتصال بعضهم بالملك عبدالعزيز آل سعود لتخليصهم من الحكم العثماني، مما ساعد على تقوية مركز الملك عبدالعزيز، ومن ثم ساعد على نجاحه في طرد القوات العثمانية من المنطقة برمتها دون عناء، وبأقل تكلفة.

الوساطة البريطانية:

حاولت بريطانيا جس نبض كل من الدولة العثمانية والملك عبد العزيز آل سعود بخصوص مسألة إقامة مصالحة، ومن ثم عقد صلح بينهما. وقد أسندت الدولة البريطانية إلى موظفها السير برسي كوكس القيام بمهمة فتح الباب "وليعطي الدولة البريطانية فكرة ما عن الخطوة التي ستكون الحكومة التركية ميالة إلى اتباعها إذا رغبت في مصالحة مع ابن سعود إذا ما طلب الأخير مساعينا الحميدة أو رحب بها".

ويتبادر إلى الذهن سؤال لماذا تقوم بريطانيا بدور الوساطة هذه؟ والجواب عنه، أن بريطانيا والدولة العثمانية تسيران باتجاه طريق التفاهم بينهما بخصوص المسألة الخليجية، وخاصة مسألة الحدود، وقد تمثل هذا الاتجاه بتوقيع الاتفاقية الإنجليزية التركية عام ١٣٣١هـ/٢٩ يوليو ١٩١٣م. ومن جهة أخرى فإن بريطانيا والدولة العثمانية حريصتان كل الحرص في هذا الوقت بالذات على تطبيق مبدأ الوضع الراهن، خاصة وأن بريطانيا ترى في هذا المبدأ فائدة كبيرة لها؛ لأنها تحافظ على قاعدة التوازن الإستراتيجي في الخليج، ولهذا فهي تحاول جاهدة على بقاء الوضع الراهن على حاله؛ حتى لا يحدث خلل في سياسة التوازن هذه، وهي من ثم لا ترغب أن تقوم الدولة العثمانية بهجوم بحري على قوات الملك

عبدالعزيز آل سعود في الأحساء؛ لأن هذا في تقديرها يخل بسياستها الخليجية.

وبالمقابل أخذت بريطانيا تشجع الملك عبدالعزيز على فتح باب المفاوضات مع الدولة العثمانية حتى لا يتخلخل مبدأ الوضع الراهن. وكان الملك عبدالعزيز آل سعود يرى أن فتح باب الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية فرصة له لإبقاء الأمور على حالها، وهو الآن يتمتع بمركز خليجي عال، ويكون بذلك قد أوقف خطة الدولة العثمانية الرامية إلى استرجاع الأحساء عن طريق هجوم بحري كبير ومركز قد يؤثر على مركزه العسكري والسياسي. فرأى أن من المفيد دبلماسيًا أن يقبل بالوساطة البريطانية في ظل المحافظة على الوضع الراهن، وهو أمر يخدم مصالحه ومواقفه السياسية والإستراتيجية.

وقد نالت مسألة الوساطة البريطانية في موضوع المصالحة بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود قبول الدولة العثمانية ورضاها معربة عن "شكر الباب العالي للعرض الودي من جانب حكومة صاحب الجلالة بهذا الشأن". وقد بين الباب العالي أنه يجري اتصالات ومفاوضات مع الملك عبدالعزيز آل سعود "وأنه إذا دعت الضرورة إلى اللجوء إلى المساعي الحميدة لحكومة صاحب الجلالة فإن الباب العالي لن يتأخر في التماسها".

وكان التوسط البريطاني يقوم على أساس تشجيع الطرفين على إيجاد تسوية مرضية بينهما. وتشير الوثائق البريطانية أن بريطانيا لا تشجع أي منفعة سياسية ضد الدولة العثمانية، وأن كل ما تريده بريطانيا هو الحيلولة دون حدوث اضطرابات وسفك دماء؛ لأن هذا يؤثر بصورة خطيرة على السلام في منطقة الساحل العربي الخليجي، ويخل بسياسة الوضع الراهن، وسياسة التوازن التي تنشدها بريطانيا في منطقة الخليج التي تتمتع بنفوذ كبير فيها. وترى الحكومة البريطانية أنه إذا أقدمت الدولة العثمانية على عمل عسكري ضد الملك عبدالعزيز في منطقة الأحساء فستقع قلاقل واسعة في مناطق شرقي الجزيرة العربية، ومن ثم هذا يؤثر على مركزها في تلك المنطقة. وقدمت الاستخبارات العسكرية البريطانية معلومات تفيد أن لنشات ذات محركات قد شُحِنت إلى البصرة. وأن المقيم السياسي في الكويت قد أُبلغ أن قوات عثمانية عددها ٨٠٠ جندي وصلت إلى البصرة لتوها على ظهر الباخرة "ساراتوف"..

أطراف أخرى في الوساطة:

رأت بريطانيا أن تشرك في الوساطة بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود من أجل تسوية ودية بينهما كلاً من الشيخ خزعل شيخ المحمرة، والشيخ مبارك

الصباح شيخ الكويت والسيد طالب النقيب، نقيب البصرة. ووافق جميعهم على الطلب البريطاني. وكان السيد طالب النقيب من أنشطهم في هذا المجال، وكان له أثر بارز في الوساطة، وله مكانة مرموقة لدى المسؤولين العثمانيين في ولاية البصرة، وكان المسؤولون البريطانيون يقدرون مكانته، ويحترمون شخصيته.

وتشير الوثائق البريطانية أن الملك عبدالعزيز قدر للسيد طالب النقيب في نهاية الأمر وساطته هذه، فكافأه على هذا الموقف بأن قدم له مبلغًا قدره عشرون ألف روبية تثمينًا لوساطته وتقديرًا لجهده. وكان المسؤولون العثمانيون ممثلين في ولاية البصرة مهتمين بأمر الوساطة والتسوية السلمية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فذكر طلعت باشا ناظر الداخلية أن الدولة العثمانية مهتمة بإيجاد تسوية ودية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، وأن والي البصرة يرتب هذا الأمر مع شيخي الكويت والمحمرة وكذلك مع السيد طالب النقيب ليقوموا بدور الوساطة في المساعدة في التوصل إلى صلح وسلام مع الملك عبدالعزيز آل سعود.

وأكد طالب النقيب على قبوله لتلك المهمة التي أسندت إليه، فيقول: "إنه والشيخ مبارك شيخ الكويت يسعيان إلى إيجاد نوع من التسوية بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود الذي يريد نوعًا من الزعامة المستقلة، لكنه يرفض وجود قوات عثمانية في بلاده، ومن المتوقع التوصل إلى حل سلمي". وتشير الوثائق البريطانية إلى أن ناظر الحربية العثمانية أنور باشا أرسل هدايا إلى كل من الملك عبدالعزيز آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت، لتكون دلالة واضحة على رغبة الدولة الأكيدة في معالجة الموقف بطرق سلمية وودية قدر الاستطاعة.

والواقع الماثل أمام الملك عبدالعزيز أن الدولة العثمانية عازمة على الصلح معه مهما كان الثمن، وهي في الوقت نفسه لم تعر أي اهتمام متزايد في سبيل استرجاع منطقة الأحساء إلى سيادتها الحقيقية، كما كان الحال عليه قبل أن يستعيدها الملك عبدالعزيز، وهو أمر شجع كثيرًا الملك عبدالعزيز آل سعود في السير على النهج السلمي والودي تجاه الدولة العثمانية ممثلة بوالي البصرة، عادًا الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية إنما هي إجراءات عادية، وأن الوقت لصالحه. ومع أن الملك عبدالعزيز يريد التفاوض والحل السلمي مع الدولة العثمانية، إلا أنه في الوقت نفسه ظل مقتنعًا بقدرته على الاحتفاظ بمنطقة الأحساء تحت سيادته.

وبالمقابل كانت بريطانيا ترى في الدولة العثمانية بعد أن توصلت معها إلى اتفاقية بشأن الخليج عام ١٣٣١هـ/٢٩ يوليو ١٩١٣م، أو ما تعرف بالاتفاقية الإنجليزية التركية، وسيلة

ممتازة لمنع الدول الغربية من التدخل في شؤون الشرق، وهذا يؤمن منطقة الهند البريطانية من التدخل الغربي، ولهذا فإن بريطانيا ستكسب كثيرًا من جراء علاقاتها الودية مع الدولة العثمانية. ويمكن الأخذ بهذه الإستراتيجية البريطانية في الوقت الراهن، حيث إن الوضع العالمي متأزم، وأن كلا من الدولتين البريطانية والعثمانية مشغولتان بقضايا عالمية أكثر اهتمامًا وأشد إلحاحًا من قضايا فُرغ من تسويتها بين الدولتين.

وتأسيسًا على الإستراتيجية البريطانية القائمة في الشرق على نظرية المحافظة على المواصلات الإمبراطورية، فإن بريطانيا ترى أن من واجبها القيام بكل مجهود لتجنب أية أعمال قد تؤدي إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا، وعلى بريطانيا أن تعمل بكل طاقاتها للمحافظة على الوضع الراهن بالنسبة للدولة العثمانية.

وتفيد الوثائق البريطانية أن السيد محمد عارف بن يوسف مارديني والي البصرة العثماني السابق ووالي سورية آنذاك، كان على اتصال بالشيخ مبارك الصباح، وهو يعرف عائلته حق المعرفة، وقد أدى هذا إلى قيام علاقة وطيدة بين الشيخ مبارك والبكباشي العثماني عمر فوزي بن محمد عارف. وجرت محادثات في الكويت بين الشيخ مبارك والسيد عمر فوزي مارديني بشأن التوسط في مفاوضات السلام بين العثمانيين والملك عبدالعزيز آل سعود. وكانت ولاية البصرة قد انتدبت البكباشي عمر فوزي لإجراء اتصالات مع الملك عبدالعزيز عن طريق الشيخ مبارك. وتشير الوثائق البريطانية إلى أن الشيخ مبارك وقتذاك لم يكن متحمسًا للوساطة التي يطلبها منه العثمانيون، "ولا يرى أن يساعد أيًا من الطرفين، ويرفض أن يساق إلى تلك القضية أو يعطي أية نصيحة، مع أنه يتعاطف مع الطرفين في رغبتهما في تجنب سفك الدماء أو كل ما من شأنه أن يخلف العداوة بين المسلمين، وعليه أن يبقى مخلصًا لصداقته لابن سعود".

وكان أنور باشا ناظر الحربية العثمانية قد كلف السيد محمد عارف بن يوسف مارديني والي البصرة بإرسال ابنه البكباشي عمر فوزي إلى الشيخ مبارك الصباح لكي يمكنه بوسائله الخاصة وتوصياته من الاتصال بالملك عبدالعزيز آل سعود. وتطلب رسالة محمد عارف الموجهة إلى الشيخ مبارك أن يعطي ابنه رسالة توصية إلى الملك عبدالعزيز آل سعود "وعليه نأمل أن تزود ابننا بنصيحتكم، وتعطوه رسالة إلى عبدالعزيز بن سعود، ذاكرًا لكم أن عمر فوزي ابني، وممثل الوزير أنور باشا، وإليه يرجع في بحث كافة المسائل المتعلقة بهذه المناطق (نجد)، وكذلك فالاجتماع معه هو كالاجتماع معي، والوثوق به كالوثوق بالحكومة وبالوزير أنور باشا، وسوف تكسبون مكافأة طيبة في المستقبل

على هذا العمل، وكذلك الثناء الشامل ورضاء السلطان".

ويشير عمر فوزي مارديني في رسالة وجهها إلى الشيخ مبارك أن مهمته الأساس هي مقابلة عبدالعزيز آل سعود، والبحث معه بشكل ودي الإجراءات والترتيبات اللازمة لإنهاء الصعوبات الراهنة بين الدولة العثمانية وعبدالعزيز آل سعود. ويطلب عمر فوزي من الشيخ مبارك أن يخبر عبدالعزيز آل سعود بأن يتوجه إلى مكان مناسب قريب من الكويت، لكي يجتمع به البكباشي عمر فوزي. ويرى عمر فوزي أن يكون المكان قريبًا من الكويت حتى يتمكن من الاتصال تلغرافيًا بأنور باشا ناظر الحربية العثمانية.

ولما عرفت بريطانيا أن العثمانيين يقومون بمبادرات تجاه الملك عبدالعزيز آل سعود عن طريق مبارك الصباح شيخ الكويت والشيخ خزعل شيخ المحمرة، قررت الاتصال بالملك عبدالعزيز وإبلاغه بأنها سعت لدى الباب العالي أن يقوم بمبادرات سلمية ودية تجاهه، وهو الآن حُر في التفاوض المباشر مع العثمانيين. وقد عللت بريطانيا ذلك حتى تأخذ الحكومة العثمانية انطباعًا أن الحكومة البريطانية يهمها أن تبدأ المفاوضات بين الطرفين بصورة مباشرة، وتريد أيضًا أن لا يدخل في ذهن الدولة العثمانية أن بريطانيا ترغب في الاطلاع على شروط الصلح، وأن يكون لها رأي فيه، وإنما تفضل أن تبقى الأمور بين الطرفين المتفاوضين. وأعتقد أن بريطانيا تقصد من وراء ذلك أن يتجنب كل من الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز آل سعود الوساطة التي يمارسها كل من الشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل وتأثيرهما في هذا المجال.

وقد حدث اتصال عن طريق الرسائل بين الملك عبدالعزيز آل سعود والوسيط السيد طالب النقيب، فبين الملك للنقيب أنه يرجو كل الخير للدولة العثمانية المسلمة، ويرجوه كذلك أن يقدم تحياته وتمنياته لأنور باشا ناظر الحربية العثمانية الذي كلف البكباشي عمر فوزي مارديني بالاتصال به من أجل إقامة علاقات ودية، وعلى الهدية التي أرسلها إليه وهي القرآن الكريم. ويقدم الملك تحياته للبكباشي عمر فوزي، وصداقته واحترامه إلى جميع المسؤولين العثمانيين. كما أنه قبل هدية أنور باشا بكل احترام وسرور، وأن غايته هي وحدة الإسلام، وجمع شمل القلوب المتفرقة من أبنائه. وفي رسالة الملك عبارات المجاملة للباب العالي كولائه للدولة العثمانية ورجائه الخير لها ولبلادها، لكنه أشار في رسالته إلى وجود أمور لا يستطيع أن يقوم بها تجاه الدولة العثمانية. ويقصد بذلك مطالبها التي تتركز على تبعيته للدولة العثمانية، وأن يكون لها جند عثماني في بلاده دلالة على الولاء والطاعة.

وهكـذا فـإن الدولة العثمانيـة وكذا الدولة البريطانية وسـطتا كلاً من الشـيخ مبارك والشـيخ خزعل والسـيد طالب النقيب لبذل جهودهما في مسألة التوسـط واتخاذ الترتيبات اللازمـة لإيجاد حل سـلمي ترضى به الدولة العثمانية، ويرضى بـه الملك عبدالعزيز، كما أن الواضـح من موقف الدولة العثمانية أنها لا ترغب إطلاقًا في اسـتعمال القوة العسـكرية العثمانيـة ضـد الملـك عبدالعزيـز، مقتنعة أن الحل في النهاية سـيكون حلاً سـلميًا ووديًا. كمـا أن السـيد طالب النقيب بحكم صلته القوية مـع العثمانيين يتوقع أن يكون الحل في النهاية حلاً سـلميًا، على الرغم من أن الملك عبدالعزيز يشـترط في المقام الأول أن يكون حاكمًا مستقلاً، ويرفض قبول قوات عثمانية في بلاده.

الاتصالات السعودية العثمانية لتحديد مكان الاجتماع:

جـاءت المبـادرة من الدولة العثمانية يوم أن وافق أنور باشـا ناظـر الحربية العثمانية على اقتـراح قـدم مـن السـيد طالب النقيب بشـأن قيـام الدولـة العثمانيـة بفتح بـاب الاتصالات والمفاوضات السـلمية والودية مع الملك عبدالعزيز آل سـعود، فقبل أنور باشا اقتراح السيد طالب النقيب، وفوض السـيد البكباشـي عمر فوزي مارديني أحد مرافقي السلطان محمد رشـاد بإجراء المفاوضات، كما أمره بالتوجه إلى البصرة، وأرسـل معه رسـالة إلى واليها - وكان وقتها سـليمان شـفيق كمالي باشـا - تتضمن توجيه مسألة الأحساء إليه للبت في أمرها سريعًا، ولتفادي الإطالة من جراء المراسلات مع الآستانة مما يتطلب وقتًا طويلاً في الأخذ والرد. وقد زار عمر فوزي مارديني الشـيخ مبارك الصباح في الكويت بأمر من والي البصـرة، وبيـن له ما تنـوي الدولة العثمانية عمله تجاه مسـألة الاتصـالات والمفاوضات مع الملك عبدالعزيز آل سعود من أجل إيجاد تفاهم معه.

وزيادة في حرص الدولة العثمانية على المفاوضات وإيجاد الحل، رأت أن تفيد من وساطة الشيخ مبارك الصباح بصورة خاصة لعلاقته القوية والحميمة مع الملك عبدالعزيز، وكذلك وساطة الشيخ خزعل شيخ المحمرة. فقررت الدولة العثمانية منح كل منهما وسام العثمانية مـن الدرجـة الأولى مكافأة لهما على قيامهما بالوسـاطة المطلوبـة. ويبدو أن والي البصرة العثماني وبأمر من المسـؤولين العثمانيين رأى أن يكون السـيد طالب النقيب هو المسؤول عـن المفاوضات مع الملك عبدالعزيز، لعل ذلك يقرب مسـألة التفاهـم بين الدولة العثمانية والملـك عبدالعزيـز. وأصبح بمقدور السـيد طالـب النقيب ومعه البكباشـي عمر فوزي بك مارديني أن يتوجها إلى الكويت ليلتقيا في مكان قريب منها الملك عبدالعزيز آل سـعود، وقـد وعد الشـيخ مبارك السـيد النقيـب بإعلامه عـن موعد وصـول الملـك عبدالعزيز إلى

الصبيحية التي تبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من الكويت، ويتوقع الشيخ مبارك أن يبقى الملك عبدالعزيز فيها مدة عشرة أيام.

وكانت الدولة العثمانية قد ألحت على شيخ الكويت أن يقدم النصيحة للملك عبدالعزيز بشأن المحادثات والمفاوضات، لكن شيخ الكويت ظل لا يريد إقحام نفسه في هذه المسألة، خاصة وأنه الآن بعيدٌ كل البعد عن النفوذ العثماني بعد توقيع معاهدة الحماية مع بريطانيا وظلت علاقته مع الدولة العثمانية ذات طابع يتصف بالمجاملة. فقد أصبح شيخ الكويت محميًا من بريطانيا، وهي التي تدير شؤونه الخارجية.

ومن الواضح أن الملك عبدالعزيز آل سعود استجاب للدعوة العثمانية والوساطة العربية، وقرر التوجه إلى الصبيحية القريبة من الكويت وهي الخطوة الأولى من خطوات الاجتماع بالمسؤولين العثمانيين. وتجدر الإشارة هنا أن السيد طالب النقيب ووفد المحادثات العثماني كانوا في البصرة ينتظرون باخرة الشيخ مبارك لتنقلهم إلى الكويت. وقد وصل الملك عبدالعزيز الصبيحية في ٢٧ أبريل ١٩١٤م. وكان السيد طالب النقيب ومعه الوفد العثماني قد غادروا البصرة بباخرة شيخ الكويت في ٢٨ أبريل ١٩١٤م.

اجتماع الصبيحية ومردوده:

تألف الوفد العثماني من السيد طالب بك النقيب رئيسًا والبكباشي بهاء الدين بك رئيس الأركان في بغداد والبكباشي عمر فوزي بك وسامي أفندي متصرف الأحساء ويرافقه عمر بك ومحام من مدينة البصرة ومحمد النعمة من أعيان العرب ومن ذوي الأملاك وعبدالوهاب المنديل وعبداللطيف المنديل وكلاهما من ذوي الأملاك ومن الأعيان ويمثلان الملك عبدالعزيز وبصفتهما وكيلين له في البصرة.

ويبدو أن منهجية الاجتماع والمفاوضات بدأت تأخذ طابعًا مباشرًا بين المسؤولين العثمانيين والملك عبدالعزيز، وأخذ الوسطاء ينحون جانبًا. فأعلن الشيخ خزعل أنه رجل فارسي ولا يهمه مثل هذه المسألة. وأما الشيخ مبارك الصباح فقرر أن لا يدخل نفسه في المحادثات، علمًا بأن بريطانيا كانت ترى أنه لا مانع لديها من أن يعرض الشيخ مبارك الصباح مساعدته وتعاونه في سير المفاوضات.

وأمر مهم جدًا وهو أن الدولة العثمانية كانت تفضل أن يتدخل الشيخ مبارك في سير المفاوضات، إلا أنها ظلت لا تفضل ولا تريد وساطة بريطانية بهذا الشأن. وهذا يفسره لنا تأخر الرد العثماني على عرض الوساطة البريطانية، وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تسعى

لإتمام الجهود والمساعي العربية المحلية في إيجاد تسوية ودية بينها وبين الملك عبدالعزيز. ولم يكن شك الدولة العثمانية تجاه نوايا بريطانيا آتيًا من فراغ، فقد تأكدت الدولة العثمانية أن هناك مطالب وشروط بريطانية تجاه التسوية، منها أن بريطانيا لا تريد أن تمس المفاوضات مراكز نفوذها في الخليج، وأن يكون لتجارها حرية الحركة التجارية في الساحل الخليجي العربي، بالإضافة إلى منع عمليات بيع الأسلحة، والعمل معًا على منع حالات القرصنة في الخليج بالمفهوم الذي تراه بريطانيا.

وعندما وصل الوفد العثماني إلى الكويت مكث فيها مدة يومين يناقش المقترحات التي يمكن طرحها على الملك عبدالعزيز بناءً على مجموعة التعليمات والترتيبات الصادرة لوالي البصرة والسيد طالب النقيب من الباب العالي. وقد وصل الوفد العثماني إلى الصبيحية في ٢ مايو ١٩١٤م أي بعد وصول الملك عبدالعزيز آل سعود إليها بخمسة أيام. وفي الصبيحية تقابل الوفدان ودارت المفاوضات بينهما. وقد أصر الملك عبدالعزيز على نقطة مهمة جدًا وهي الاستقلال، وهو أمر ظلت الدولة العثمانية ترفضه. كما أن الملك عبدالعزيز ظل يرفض وبشكل مطلق إعادة تمحور القوات العثمانية وتمركزها في بلاده.

ويشير الريحاني إلى أن الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت رفض التوجه إلى الصبيحية مقر المفاوضات السعودية العثمانية، ويبدو أنه ينقم على الدولة العثمانية وعلى وفدها المفاوض؛ لأنه لم يعين على رئاسته، بل أخذ يحذر الملك عبدالعزيز من أن الدولة العثمانية ووفدها كذابين وماكرين خداعين، وعليه أن يكون صلبًا معهم ولا يمكنهم من شيء ولا يصدق ما يقولونه. وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تطالب بالاحتفاظ بقوات عثمانية في موانئ الأحساء كالقطيف والعقير والجبيل، وأن تكون المسؤولة الأولى عن عقد المعاهدات الدولية وتنظيمها. في حين أصر الملك عبدالعزيز على أن تكون علاقته بالدولة العثمانية علاقة ذات طابع اسمي، مقابل أن تقدم له الدولة العثمانية الأسلحة والذخيرة وبعض المال.

وأمر بدهي أن يكون موقف الملك عبدالعزيز آل سعود في مفاوضاته مع الوفد فيه نوع من الملاينة؛ لأنه مقتنع تمامًا أن مسألة المفاوضات مسألة تكتيكية ذات طابع سياسي وإستراتيجي. وأن كل ما سيتفق عليه سيظل حبرًا على ورق، ولن يخرج إلى حيز العمل والتنفيذ ليس من جانبه فقط، وإنما أيضًا من الجانب العثماني.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن الدولة العثمانية كانت دائمًا تنظر إلى اتفاقياتها مع آل سعود على أنها اتفاقيات مؤقتة تفرضها ظروف ومصالح معينة. فعلى الرغم من أن الدولة

العثمانية تفاوض الملك عبدالعزيز، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تجري اتصالات مع آل رشيد في جبل شمر عن طريق واليها في البصرة سليمان شفيق كمالي باشا المشرف العثماني المباشر على المفاوضات العثمانية الجارية مع الملك عبدالعزيز، ليظلوا في حال عداء مع الملك عبدالعزيز، وهي تساعدهم بالمال والسلاح والعتاد. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان الدولة العثمانية الحرب على دول الوفاق أوقف كل المشروعات العثمانية العسكرية في الجزيرة العربية. وبالمقابل فإن الملك عبدالعزيز لا يثق بالدولة العثمانية واتفاقياتها.

وبناءً على ما سبق قرر الطرفان العثماني والسعودي التوصل إلى اتفاق بعد كثير من المداولات والاتصالات والمفاوضات. واتفق الطرفان على أن يظل هذا الاتفاق في سرية تامة وكتمان شديد إلى أن يقره الباب العالي وتصل موافقته. ويبدو أن الوفد العثماني أثناء عودته من الصبيحية إلى الكويت، لم يذكر شيئًا عن هذا الاتفاق للشيخ مبارك الصباح، مع العلم أن الشيخ مبارك سأل الوفد عن نتيجة مفاوضاته، ويبدو أن الوفد العثماني كان متأكدًا من غضب الشيخ مبارك لعدم تعيينه رئيسًا للوفد، ولهذا ظل الشيخ مبارك يتمنى عدم نجاح المفاوضات. ويذكر الريحاني أن الشيخ مبارك الصباح صدم عندما وصلته أخبار تفيد أن برقية من الباب العالي وصلت إلى والي البصرة سليمان شفيق كمالي باشا تبين أن الباب العالي وافق على الاتفاق وصدق عليه، مقرونًا ذلك بالشكر وبالوسام العثماني الأول للملك عبدالعزيز آل سعود بعد أسبوع واحد فقط من اجتماع الصبيحية.

ومن الملحوظ أن شروط الاتفاق العثماني السعودي جاءت تجمع بين مطالب الملك عبدالعزيز ومطالب الدولة العثمانية. فقد أفاد الشيخ مقبل الذكير أن اتفاقًا حدث بين الطرفين لكنه لم يطلع على نصه، غير أنه فهم من الأخبار الواردة إلى الكويت، وكان الذكير وقت المفاوضات فيها، أن الاتفاقية تسمح بوجود ما لا يزيد عن خمسة جنود من العسكر العثماني في كل من العقير والقطيف والجبيل رمزًا للمحافظة على العلم العثماني مرفوعًا، ولن تكون حاميات عثمانية أخرى في الأحساء أو في نجد. وأن يقوم الملك عبدالعزيز بتحصيل الرسوم الجمركية في الموانئ، وأن تمنحه الدولة العثمانية مخصصات شهرية تصل إلى ٢٥٠ ليرة عثمانية. بالإضافة إلى تحديد الحدود بين الملك عبدالعزيز وابن رشيد.

وثمة ملحوظة مهمة وهي أنني حاولت العثور على النص التركي للاتفاقية من خلال وثائق الباب العالي، الأرشيف العثماني، فرع رئاسة الوزراء بإستانبول، ولكني لم أعثر عليه،

وأرجو أن يعثر عليه باحثون غيري. ولكن المسؤولين البريطانيين وعلى رأسهم السفير البريطاني في إستانبول ظلوا يبحثون بطرقهم الخاصة عن أصل الاتفاقية التي وقعها كل من الملك عبدالعزيز آل سعود وسليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة وقتذاك، وقد توصل البريطانيون إلى معرفة بنود الاتفاقية، ونحن نستقي من النص الإنجليزي بنودها وأهمها:

١ - تعترف الدولة العثمانية بسيادة الملك عبدالعزيز على ولاية نجد طيلة حياته باستثناء جبل شمر، بما في ذلك منطقة الأحساء (تعني ولاية نجد في المصطلح الإداري العثماني إقليم نجد وإقليم الأحساء معًا) على أن تكون ولاية نجد لخلفائه من بعده إذا ظلوا مطيعين للدولة العثمانية.

٢ - أن تتمركز بعض القوات العثمانية في الموانئ مثل القطيف والجبيل والعقير، ويمكن زيادة عددها طبقًا لطلب من الملك عبدالعزيز.

٣ - أن تتم كل إجراءات الجمارك والضرائب في الموانئ التابعة للملك عبدالعزيز طبقًا لأنظمة الدولة العثمانية، على أن يرسل عشرها إلى الآستانة مثل أي والٍ عثماني.

٤ - تعتمد ولاية نجد في أمورها المالية على عائدات الجمارك والبريد والبرق إلى أن تحقق الولاية كفاية ذاتية، وما يفيض عن حاجتها يرسل إلى الباب العالي مرفقًا بتقرير رسمي.

٥ - يرفع العلم العثماني على كل المباني الحكومية والمباني المهمة وعلى السفن التجارية في الولاية.

٦ - لا يحق لوالي نجد أن يتدخل في الشؤون الخارجية أو أن يمنح امتيازات لأطراف أجنبية.

٧ - يزود والي نجد الحكومة العثمانية بقدر كاف من القوات مع مؤنها وذخيرتها حين يطلب منه ذلك في حال نشوب حرب بين الدولة العثمانية وأي قوى أجنبية.

٨ - يجب أن تمر مكاتبات والي نجد مع الدول الأجنبية عن طريق الآستانة. كما أن مكاتباته مع الدولة العثمانية بشأن الأمور الداخلية تكون مباشرة عن طريق نظارة الداخلية والشؤون الحربية عن طريق نظارة الحربية دون المرور بوالي البصرة.

٩ - يحق لوالي نجد أن يشكل قوة محلية لحفظ النظام والأمن في نجد والمحافظة على سلامتها.

١٠ - على والي نجد أن يحترم جميع الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية

مع الدول الأخرى.

١١ - يحق لوالي نجد أن يتلقى طلبات التجار الأجانب فيما يتعلق بممارسة أعمالهم طبقًا لشروط الاتفاقية.

وقد صدر فرمان إمبراطوري (سلطاني) سمى عبدالعزيز آل سعود واليًا عامًا على ولاية نجد وقائدًا لقواتها، وله سلطات الوالي الكاملة، ويحق له أن يشكل وحدات عسكرية لحفظ الأمن العام والنظام في ربوع ولاية نجد، الجزء الذي أقر تحت سيادته، بالإضافة إلى سنجق الأحساء أو ما يعرف اليوم بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

وقد هنأ أنور باشا وزير الحربية في الدولة العثمانية عبدالعزيز آل سعود حاكم نجد والقائد العام، قائلاً: "يسعدني أن أبارك لكم وأهنئكم، وأدعو الله أن يتوج كافة أعمالكم بالنجاح لتعزيز الدين الإسلامي، وأن يقويكم في خدمة الدولة العثمانية المجيدة، كما أرجو لكم السعادة والنجاح في كل أموركم، ولكم أن تأمروني في كل شيء".

ويذكر سليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة ورئيس الجانب العثماني المفاوض أن الدولة العثمانية عينت عبدالعزيز آل سعود برتبة الوزارة السامية بفرمان سلطاني عال وولاية نجد وقيادتها وإمارتها على أن تنقل بالإرث إلى أولاده. ويقول عن الاتفاقية: "إنها الخطوة الأولى لطريقة الحكم اللامركزي التي كان يجب أن تقرر في بلاد العرب...". وكان سليمان شفيق كمالي باشا قد تلقى برقية من الباب العالي تتضمن موافقة الدولة العثمانية على الاتفاقية، وتقدم الشكر إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود، وتمنحه الوسام العثماني الأول.

وعلى الرغم من أن الاتفاقية برمتها لم تطبق وظلت بنودها حبرًا على ورق، إلا أنها في الوقت نفسه رفعت الملك عبدالعزيز وقتذاك إلى مصاف الولاة العثمانيين المهمين ليس في الجزيرة العربية فحسب، وإنما في الولايات العربية الأخرى، وهي أيضًا بمثابة اعتراف عثماني رسمي بالسلفية في الجزيرة العربية. كما أن هذه الاتفاقية أعطت الملك عبدالعزيز آل سعود وقتًا لدعم السيادة السعودية على منطقة الأحساء، وقد تلاشت فكرة الهجوم البحري العثماني على تلك المنطقة لاستعادتها إلى السيادة العثمانية. وبفضل هذه الاتفاقية الاسمية تفرغ الملك عبدالعزيز آل سعود إلى مسألة آل رشيد في جبل شمر، وتفرغ أيضًا إلى المسائل الدبلوماسية مع القوى المهمة في منطقة الخليج، من أجل تقوية مركزه ومكانته في الساحل الخليجي.

وتشير المصادر إلى أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم يكتف بإخراج القوات العثمانية من

منطقة الأحساء، وإنما أخذ يقنع شيخ قطر بالتخلص من الوجود العثماني في بلاده، لتنتهي السيادة العثمانية من على جميع الساحل الخليجي العربي، وليريح نفسه من عناء تحرشات العثمانيين ومؤامراتهم ضده، وهو أسلوب يركز عليه الملك عبدالعزيز آل سعود، ويهتم به ليبعد نفسه ودولته عن التأثير العثماني الذي ما انفك يخلق الصعوبات له على الرغم من الاتفاقية الموقعة.

وكان دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى، واحتلال بريطانيا للعراق قد أضاع على العثمانيين كل فرصهم في الجزيرة العربية ومنطقة الخليج. ومن الأدلة على أن الملك عبدالعزيز آل سعود لم يطبق بنود الاتفاقية أنه لم يلب طلب الدولة العثمانية منه أن يدخل الحرب إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى على الرغم من إلحاحها عليه؛ لأنها كانت تقدر أهميته بالنسبة لموقعها في العراق، محاولة بذلك المحافظة على مركزها في العراق من خلال حماية حدوده الجنوبية، وإعاقة المشروعات البريطانية الرامية إلى احتلال العراق والضغط على القوات العثمانية لإجبارها على الانسحاب شمالاً باتجاه آسيا الصغرى.

وحاولت الدولة العثمانية أن تجند الملك عبدالعزيز ضد الشريف حسين بن علي الذي ثار عليها عام ١٩١٦م، ولكن الملك عبدالعزيز لم يستجب لمحاولتها، وإنما بقي مهتمًا بأمور دولته مبتعدًا عن المشكلات والصعوبات التي من شأنها أن تجلب له المتاعب وتشتت الهدف. وظلت الدولة العثمانية خلال مدة الحرب العالمية الأولى تحاول الاتصال بالملك عبدالعزيز، فعندما دخلت قوات الإخوان بلدة الخرمة عام ١٩١٩م التي كانت آنذاك تتبع الشريف حسين بن علي، أرسل القائد العثماني فخري باشا رسالة إلى الملك عبدالعزيز آل سعود جاء فيها "لقد استبشرنا بأن المطاوعين (المطاوعة) الساكنين في وادي الخورما (الخرمة) أخذلوا (خذلوا) عونه (أعوان) العاصي حسين، وبأن حضرتكم تعملون لأجل فتح طريق مكة للإسلام وأداء فريضة الحج. وقد وصلتم إلى بريدة فأبارك لكم عن صميم الفؤاد باسم الإسلامية تجاه هذه الحركة الجليلة الواقعة على العاصي حسين... إنني أبين لجنابكم أنكم قبلتم معاونتنا بالأسلحة والجبخانة والمدافع والرشاشات والمصارف (النفقات) اللازمة فإننا حاضرون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

ويذكر فلبي أنه رأى بأم عينه ثلاث رسائل مرسلة من فخري باشا إلى الملك عبد العزيز يطلب فيها منه مساعدة الدولة العثمانية بالجمال اللازمة للنقل في بلاد اليمن، لكن الملك عبد العزيز لم يرد على هذه الرسائل. والثابت أن الملك عبدالعزيز آل سعود انقطعت صلته بالدولة العثمانية، ومن ثم انقطعت المراسلات بينهما في وقت الحرب العالمية الأولى، إلا

ما كان عن طريق مكاتبات فخري باشا التي لم تلق ردًا من الملك عبدالعزيز. وظل الأمر كذلك حتى اعترفت الجمهورية التركية بالمملكة الحجازية النجدية على أساس من الصداقة وحسن التفاهم بينهما.

ويمكن تتابع الأحداث في الأحساء من خلال الإستراتيجية العثمانية هناك، وذلك في النقاط الآتية:

(١) حين اتجه آل سعود نحو الأحساء، أواخر القرن الثامن عشر، وبالذات عام ١٧٩٥م كان شيوخ قبيلة بني خالد حكام الأحساء، وكانوا يمثلون إدارة وحكمًا منظمًا فيها قبل مجيء آل سعود، الذين نجحوا في القضاء على حكم بني خالد واحتلال جزء من الأحساء وجعلها قاعدة يمتدون منها نحو الكويت والبحرين وقطر وعمان، ثم استولى آل سعود عام ١٨٠٠م على مدينة القطيف، ولكن تقدم قوات محمد علي باشا الوالي العثماني من مصر إلى الحجاز عام ١٨١١م، أرغمت حكام الدولة السعودية على سحب قواتهم العسكرية من الهفوف والقطيف، ومع ذلك ظل نفوذ السعوديين عام ١٨١٤م مايزال سائدًا في الأحساء، وقد امتدت نفوذ حملة إبراهيم باشا من الدرعية إلى الأحساء ليظل عامي ١٨١٨ و ١٨١٩م، لتنسحب تاركة "مشرف" ابن شقيق الشيخ محمد بن خالد ليحكم الأحساء، ودخلوا في صراع مع آل سعود حتى نجح الأخيرون في السيطرة على الأحساء عام ١٨٣٠م(١).

(٢) نجحت قوات محمد علي باشا الوالي العثماني من العودة للسيطرة على الأحساء في نهاية عام ١٨٣٨، وأمر خورشيد باشا القائد العام لقوات محمد علي في جزيرة العرب بوضع حامية من ٣٠٠ رجل غير نظامي في الهفوف، كما وضعت حاميات أخرى صغيرة في القطيف وسيهات والعقير على ساحل الأحساء، لكن اغتيال محمد أفندي حاكم الأحساء من قبل خورشيد باشا على يد بعض الأعراب في الهفوف، مما استدعى جلاء قوات محمد علي من الأحساء في مايو ١٨٤٠م، وكانت الأحساء بذلك أول الأقاليم التى تم جلاء القوات من جزيرة العرب.

(٣) بعد انسحاب قوات محمد علي من الأحساء، ظلت الأمور مضطربة سواء في عهد الأمير السعودي خالد ١٨٤٠ - ١٨٤٢، أو في عهد الأمير عبد الله ٤٢ - ١٨٤٣م، أو في عهد الأمير فيصل ١٨٤٣ - ١٨٦٣م وحتى ذلك اليوم مايزال يقال أن الأمير فيصل بن تركي آل سعود هو الحاكم الوحيد من نجد الذي استطاع أن يحقق بعض

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١٤٢٤ - ١٨٤٨م.

النجاح في إخضاع آل مرة المتمردين الأقوياء.

المتصرفون فى الأحساء ١٨٧٦ - ١٨٧٧:

عين سعيدبك فى سنة ١٨٧٦ ، وظل متصرفا طوال السنة التالية ثم استدعى إلى العاصمة بعد أن ذاع صيته كإدارى ناجح.

١٨٧٧ - ١٨٧٩:

وكان سعيد باشا الذى خلفه مواطنا من بغداد وليس تركيا بحكم الميلاد. وكان رجلا على شىء من الذكاء والنشاط، وخلال فترة حكمه للمرة الأولى اكتسب سمعة طيبة حببت فيه أهل الأحساء وأكسبته رضاهم فاستطاع أن يحكم الإقليم بكفاءة. وكان عزله فى سنة ١٨٧٩ نتيجة الفضيحة ثم الطرد الذين حصلا لولى نعمته عبد الله باشا وإلى البصرة ، الذى قد عينه متصرفا فى الأحساء.

١٨٨٠ - ١٨٨١:

وفى ديسمبر ١٨٧٩ أعد تعيين سعيد بك متصرفا فى الأحساء، وواصل سعيد سيرته الطيبة حتى عزل نهائيا سنة ١٨٨٠. وفى نفس السنة تقرر ضم إقليم الأحساء وغيره من الأقاليم التابعة للبصرة إلى ولاية بغداد مرة أخرى.

وأرسل عبد الغنى باشا من القسطنطينية خلفا لسعيد بك، وقيل إنه متعصب دينى وقليل الذكاء وقد أدت ثورة قبيلة عجمان فى سنة ١٨٨٠ إلى إيقاف هذا الوالى وتعزيمه من قبل قائد القوات العسكرية ، ورغم أن اللجنة التى أرسلت لتحقيق الأمر جاء تقريرها فى صف عبد الغنى باشا إلا أنه عزل فى العام التالى.

١٨٨١ - ١٨٨٥:

وعين سعيد باشا بعده متصرفا للمرة الثانية ، وظل قائما على أداء واجبات منصبه بكفاءة وروح ودية من ١٨٨١ إلى ١٨٨٥. وفى سنة١٨٨٤ فصلت أقاليم البصرة بما فيها الأحساء فصلا نهائيا عن بغداد وأصبحت ولاية مستقلة.

١٨٨٥ - ١٨٨٦:

وجاء نظيف باشا خلفا لسعيد باشا فى نوفمبر ١٨٨٥ ، لكن المدة التى قضاها متصرفا كانت مدة قصيرة انتهت فى سنة ١٨٨٦.

١٨٨٧ - ١٨٩٠:

وظل خلفه محمد صالح باشا متصرفا خلال المدة من مارس ١٨٨٦ إلى أوائل ١٨٨٧. ومن ١٨٨٧ إلى يناير ١٨٩٠ كان يحكم الأحساء رفعت بك، وخلال مدة حكمه قام نافذ باشا والى البصرة بزيارة القطيف والعقير. ويرجع عزله فى الأحساء حسب احدى الروايات إلى خلاف بينه وبين السلطات العسكرية فيها، لكن الأكثر احتمالا هو أن عزله جاء نتيجة تغيير والى البصرة. ففى ذلك الوقت ترك نافذ باشا الولاية لهداية باشا. ويبدو أن رفعت بك كان رجلا إداريا ناجحا.

١٨٩٠ - ١٨٩١:

أما المدة من ١٨٩٠ إلى ١٨٩١ فقد قضاها عاكف بك متصرفا للأحساء، وكان ضابطا عسكريا لديه برامج مستفيضه للإصلاح السياسى والتوسع، لكنه كان عاجزا عن تنفيذ معظمها، وقد ترك عاكف بك متصرفية الأحساء نتيجة اعتلال صحته فى أوائل ١٨٩١ وقيل إنه مات فى الطريق قبل أن يصل إلى منزله.

١٨٩١ - ١٨٩٤:

وسنشير إليها تفصيلا فيما بعد، وقد بذلت بعض الجهود - فيما يبدو - لتحسين الإدارة، ونقل قائمقام فى يوليو ١٨٩٣ وعين بدله رءوف أفندى فى يناير ١٨٩٤.

١٨٩٤ - ١٨٩٦:

وكان الحاكم التالى هو إبراهيم باشا - الذى كان مسئولا من قبل عن الحديدة - وظل فى عمله حتى سنة ١٨٩٦.

١٨٩٦ - ١٩٠٠:

ثم عين سعيد باشا فى الأحساء للمرة الرابعة. واستدعى نهائيا فى ١٩٠٠. وفى محادثة مع الوكيل السياسى البريطانى المساعد فى البحرين - أثناء رحلته الأخيرة من العراق فى يناير ١٩٠١ - أرجع سعيد باشا عزله إلى مؤامرات القائد العسكرى فى الأحساء الذى وصفه بأنه "تركى جاهل" ويبدو أن سياسة سعيد باشا الأخيرة فى الأحساء كانت تعتمد على تكوين قوة عسكرية محلية من أهل البلاد، فى مواجهة قوة الاحتلال التركية الموجودة بقيادة القائد العسكرى، ويبدو أن هذا القائد قد استطاع إقناع السلطات العليا بأن نتيجة سياسة سعيد باشا المتسامحة مع أهل البلاد هى تصدير السلاح بكميات كبيرة إليهم مما أصبح يهدد أمن جيش الاحتلال التركى. وقد مات سعيد باشا متقاعدا فى بغداد سنة ١٩٠٥.

وخلف القائد العسكرى فى الحساء سعيد باشا كمتصرف للإقليم ويبدو أن مبالغة

أعدائه فى وصف خلقه وشخصيته كانت تقوم على أساس أنه لم يبق فى وظيفته إلا لسبتمبر ١٩٠١ حين استبعد أن ساد السخط الشامل من أعماله الاستبدادية.

١٩٠٠ - ١٩٠١:

وخلفه قائد عسكرى آخر هو توفيق بك متصرفا للأحساء.

١٩٠٢ - ١٩٠٥:

وفى عام ١٩٠٢ عين مسئول مدنى متصرفا للأحساء هو السيد طالب باشا ابن نقيب البصرة الذى وصل الأحساء فى يونيو من هذه السنة ، وأبدى السيد طالب نشاطا كبيرا فى تسوية المشاكل القبلية. لكن تصرفاته غير المشروعة كانت بلا حدود ، وقد بلغت قمتها فى أوائل سنة ١٩٠٣ حين نهب بيت حاجى منصور باشا وهو رجل من البهرة فى القطيف كان مدير أملاك الدائرة السنية فى الأحساء وأغنى تاجر فى الإقليم كله. وقد اتهمه السيد طالب بعدم الولاء للحكومة التركية كما أمر بسجن شقيقه أحمد بن جمعة. وبلغت الغنائم التى نهبت من بيت حاجى منصور حمولة ثلاث سفن ورد ذكر رحيلها فى تقرير ممثل بريطانيا فى البحرين، وأشار القنصل البريطانى فى البصرة إلى ما يؤكد وصول السفن وحمولتها إلى مقر السيد طالب فى صبيحات على شط العرب. واستدعى طالب باشا مؤقتا فى أكتوبر ١٩٠٣ وعين فائق باشا القائد العسكرى متصرفا خلال فترة غيابه؟، لكنه لم ينتقل نهائيا من عمله إلا فى فبراير سنة ١٩٠٥ ، ويبدوا أن معاملته السيئة لحاجى منصور كانت هى السبب الرئيسى فى عزله.

وكان الحاكم التالى هو نجيب باشا ، وفى عهده ظلت المشاكل قائم بين حاجى منصور باشا جامعى العوائد فى الإقليم، وقد وقف إلى جانب هؤلاء - الذين كانوا تحت حماية طالب باشا - المسئولون عن السلطة العسكرية بشكل عام وبعض المسئولين المدنيين، وكان نجيب باشا لايزال فى الحكم فى أوائل سنة ١٩٠٧.

الفصل السابع

الكويت والإستراتيجية العثمانية

أولاً: التطور السياسي في الكويت:

- أصل الكويت وتأسيسها.
- عوامل نمو الكويت وتطورها.
- عوامل خليجية وإقليمية.
- حكام الكويت آل صباح.

ثانيًا: تطور العلاقة بين الكويت والدولة العثمانية.

ثالثها: نهاية الوجود العثماني على سواحل الخليج العربي.

أولاً: التطور السياسي في الكويت

(١) أصل تسمية الكويت:

تعنى كلمة الكويت تصغير (الكوت) وهى تسمية منتشرة فى سواحل الخليج العربى الغربية وإقليم العراق، (الكوت) تطلق على المنزل المربع المبنى كالحصن والقلعة وغيرها وتبنى حوله منازل صغيرة، ويكون هذا المنزل المربع الشكل ميناء للسفن والبوارج وترسو عنده للتزود منه بما ينقصها من الفحم والزاد وما أشبه ذلك من حاجات السفر، ولا تطلق إلا على ما يبنى قريبًا من الماء سواء كان من البحر أو النهر أو البحيرة، وقد يطلق على النهر الصغير ويسمى به بعض القرى توسعًا[1]. سميت بذلك الاسم نسبة إلى حصن صغير كان موجودًا فى أقصى الشمال الشرقى من الجزيرة العربية. قيل بناه «محمدبن نفله بن عريعر» فى نهاية القرن السابع عشر[2]. وقد أقام فيه أحد أتباعه واتخذه مستودعًا للزاد والذخيرة وما يحتاجه فى رحلاته للغزو أو الصيد، ومن ذلك الحصن يتزود بما يريد[3]. يقال أيضًا أن موضعه فى النفوذ الصغير الذى أسس فى أعلاه المستشفى الأمريكانى. وأنها كانت قبل نزول العتوب فيها أرضًا فقيرة لا يسكنها إلا لفيف من الأفراد أو العشائر من أتباع بنى خالد، وأول من بنى البيوت الحجرية فيها هم العتوب حينما سمح لهم بنو خالد بالاستقرار فيها ووهبوها لهم وسمحوا لهم أن يقيموا حكمهم تحت ظل وفى حماية بنو خالد[4].

(٢) ذكر الكويت فى تقرير الشركات الأجنبية قديمًا:

جاء ذكر الكويت وميناءها فى العديد من تقارير وكلاء الشركات الأوروبية الرسميين والتى تعمل شركاتهم فى الخليج فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك فى كتب الرحالة الأوروبيين، وكانت أول المصادر الأوروبية التى تتحدث عن الكويت كمركز تجارى هى المصادر الهولندية فى عام ١٧٥٠م وذلك فى رسالة فرانس كانتر (FRANS CANTER) وهو رومانى كان مسئولاً عن شركة الهند الشرقية الهولندية فى البصرة عام ١٧٤٧م وهذه الرسالة كتبها وهو فى "القرين"أو الكويت، وكذلك فى خطاب (بولار) المؤرخ فى الأول من يونيو ١٧٥٠م الذى يذكر فيه أن "القرين "فى عام ١٧٥٠م كانت تسير

---

(١) يعقوب الغنيم: الكويت عبر القرون، مكتبة الأمل، الكويت، ٢٠٠١، ص٢٤.

(٢) شريف شرف الدين: الكويت بين الأمس واليوم - بيروت، ١٩٥٩، ص١٣.

(٣) عبد العزيز الصرعاوي: الدستور الكويتي مع تمهيد نشأة الكويت، مكتبة الربيعان، الطبعة الأولى الكويت، ١٩٩٨، ص١٢.

(٤) محمد حسن العيدروس: تاريخ الكويت الحديث والمعاصر، ص١١.

قوافل مباشرة إلى سوريا دون أن تمر بطريق البصرة، وهذا يعنى أن ميناء "القرين" كان من قبل ذا 'أهمية جعلت القبائل والبضائع تمر منه[1]، ثم جاء بعده (كنيب هاوزن)مسئول وكالة شركة الهند الشرقية الهولندية خلفًا فى سنة ١٧٥٤م'. حيث ذكر فى تقريره لعام ١٧٥٦ م تفصيلاً لتاريخ الكويت القديم إذ يقول : «تقع القرين فى المقابل من جهة البر، وتسكن فيها قبيلة عربية تدعى العتوب يعتمد أفرادها على شيخ الصحراء حيث يدفعون له ضريبة صغيرة، ولديه ثلاثمائة مركب صغير جداً'، فهم يستخدمونها فقط فى صيد اللؤلؤ وهى تجارتهم الوحيدة بالإضافة إلى صيد السمك، ويبلغ عددهم أربعة آلاف رجل[2]، وفى ذلك الوقت كان الاقتصاد الكويتى كذلك يتجه وجهه أخرى، فقد أصبحت الكويت مركزا لرحلات القوافل التى تتجه من الخليج إلى البحر المتوسط[3].

(٣) تأسيس الكويت :

نزل العتوب بالأحساء قبل نزولهم فى قطر، وكانت هذه بداية العلاقة الطيبة بين العتوب وبنى خالد، ثم توجه العتوب من الإحساء إلى قطر واستقروا فى قرية الفريحة قرب (الزبارة) وكانت قطر تخضع لنفوذ بنى خالد فى ذلك الوقت مما مكنهم من الاستقرار بها لبعض الوقت فاستوطنها تحت إمرة حاكمها آنذاك (آل مسلم)وبعد مضى فترة على استقرار العتوب فى قطر[4].

قتل احدهم رجلاً من أهلها، مما أثار حكامها الذين أوجسوا خيفة من العتوب فأمروهم بمغادرة البلاد، وقد لبى العتوب وهاجروا من قطر بواسطة البحر، إلا أن آل مسلم جهزوا بعد ذلك سفنًا وساروا خلفهم ودار قتال شديد فى (رأس تنورة) كان النصر فيه حليف العتوب إلا أن هذا النصر لم يحملهم على العودة إلى قطر للاستقرار فيها، بل واصلوا مسيرتهم البحرية وتوجهوا إلى (المنحراق) بالقرب من (الفاو، ولم يطيب لهم المقام فتحولوا إلى الصبية شمال شرق الكويت[5]، غير أن السلطة العثمانية لم تسمح لهم بالإقامة فى تلك المنطقة وذلك نتيجة لحدوث اعتداءات على بعض القوافل المارة هناك وخشية قيام القلاقل والاضطرابات[6]،

---

(١) سلوت ب.ج.: نشأة الكويت - مركز البحوث والدراسات الكويتية - الكويت - ٢٠٠٣ - ص١٢٤-١٢٥.

(٢) سلوت ب.ج: عرب الخليج - ص٣٤٠.

(3) B.J.Solt. Mubarak Al-Sabah-Founder of Modern Kuwait, 1896-1915, P. 11.

(٤) د/ أحمد الرشيدي وآخرون: الكويت من الإمارة إلى الدولة - مركز البحوث والدراسات الكويتية - الكويت - ١٩٩٣ - ص١٢١.

(٥) د/ عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨-١٩١٦ - الطبعة الأولى - الكويت - ١٩٧٥ - ص١٥٨-١٥٩.

(٦) غانم يوسف الشاهين الغانم: كويتنا جوهرتنا، ص٩.

لاسيما عندما علمت تلك السلطات باعتزام أفراد من قبائل عديدة شن هجمات على العتوب مما اضطرت جماعات العتوب إلى ترك الصبية والاتجاه جنوب (الكويت).

بسبب الفوضى والقلاقل نزل العتوب الكويت بحثًا عن مكان أمين لإقامة مركز استقرار من العدم وإدارة شئونه[1]. بنى خالد الذين رحبوا بهم وسمحوا لهم بالاستقرار هناك ومنحوهم تلك المنطقة[2].

عوامل نمو الكويت وتطورها :

(١) القوة البحرية الكويتية :

أن البحرية التى أسسها العتوب للنقل والغوص والتجارة كانت مزودة بأدوات عسكرية كالمدافع والبنادق وغيرها ، مما جعلها قوة بحرية كان لها أثرها على مياه الخليج وسواحله في ذلك الوقت ولاسيما وأنهم وصلوا الكويت وهم محافظون على قوتهم البحرية لأنهم من أهم العشائر التى أبدعت في ركوب البحر ، وتعززت تلك القوة في الربع الأخير للقرن الثامن عشر حين تأسست البحرية الكويتية. فنتيجته نمو تجارة الكويت وزيادة عدد السفن التجارية وكبر حجمها مما أدى إلى تشكيل الأسطول التجاري وحمايته وأصبحت الكويت ذات قوة عسكرية بحرية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر [3].

(٢) حماية بنى خالد:

نشأت الكويت فى أول عهدها فى ظل حكم بنى خالد وتحت حمايتهم مما أعطاها الفرصة للنمو والازدهار دون خشية الهجمات والغارات والاعتداءات الخارجية ، مما أدى إلى استتباب الأمن فى ديارهم حتى تكون الطرق الأمنية أمنة ، أدى سيطرة العتوب تدريجيًا على الكويت بعد ضعف بنى خالد أوائل العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادى[4].

(٣) نظام الحكم فى الكويت :

تميز نظام الحكم فى الكويت بكونه نظامًا أبويًا ، يعتمد على التشاور والتراحم والتعاون فى كافة صوره ، فلم تشهد الكويت منذ تأسيسها تعقيدًا فى أنظمة الحكم فيها. وذلك نتيجة الظروف التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانت البساطة هى الطابع المميز للنظام فى الكويت. فإذا أخذنا فى الاعتبار حجم السكان

---

(١) يوسف جعفر: الكويت قرنان ونصف من الاستقلال - مطبعة الدار الشرقية - ص٣٣.

(٢) محمد حسن العيدروس: مصدر سابق، ص١١.

(٣) ميمونة الصباح: الكويت حضارة وتاريخ، ص١٠٣.

(٤) أحمد الرشيدي وآخرون: مصدر سابق، ص٢٨.

للكويت، والظروف التى نعيشها فأننا نستطيع القول بأن نظام الحكم كان أقرب إلى نظام الشورى فى الإسلام[1].

عوامل خليجية وإقليمية :

(١) ضعف بلاد فارس :

ساعد اضطراب أحوال بلاد فارس وعدم استقرارها الكويت الناشئة على النمو والتطور أن تتعرض لخطر جشع حكام فارس واعتداءاتهم ودون أن تقع تحت تأثيرهم أو سيطرتهم، فحين استقرار العتوب فى الكويت فى مطلع القرن الثامن عشر كانت الإمبراطورية الصفوية قد دب فيها الهرم نتيجة الفوضى والاضطراب التى سادتها. مما دفع الشعوب الواقعة تحت نفوذها إلى محاولة الاستقلال، فقامت بحركات عسكرية للتخلص من سيطرة الفرس، ثم تعرضت بلاد فارس للغزو الأفغانى ثم العثمانى والروسى على التوالى مما أتاح الفرصة للدول الناشئة فى الخليج العربى ومنها الكويت إلى التحرر من أى نفوذ فارسى قد يحاول حكام إيران فرضه عليهم[2]، وعندما آل الحكم إلى نادر شاه عام ١٧٢٦ سيطر على فارس وامتدت أطماعه إلى الخليج العربى وتبنى سياسته البحرية فى الشمال والجنوب أى بحر قزوين والخليج العربى، إلا أن هذه السياسة باءت بالفشل لعدم توفر البحارة الفرس اللازمين لمواكبة الطموح السياسى[3].

(٢) أوضاع العراق العثمانى :

عملت الأوضاع السياسة المهلهلة السائدة فى العراق العثمانى على أن تحتل الكويت مكانة مرموقة فى الخليج العربى، فقد شهدت البصرة من أواخر القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر فترة اضطراب وانتشار وباء الطاعون الذى أفنى البصرة وخربها خرابا أدى إلى هجرة بعض أهاليها إلى الكويت والزيارة من علمائها وتجارها ؛ وأن البصرة خلت من السكان بسبب الطاعون والمجاعة واضطهاد حكامها العثمانيين وتسلطهم[4].

وكانت النتيجة المباشرة لهذا الطاعون تدمير تجارة البصرة تدميرا يكاد أن يكون كاملاً، وقد أفادت من ذلك الموانيء الناشئة على شاطىء الخليج العربى وثم أدى إلى انتقال الوكالة الانجليزية إلى الكويت مؤقتا عام ١٧٧٠[5].

---

(١) ميمونة الصباح: مصدر سابق - ص١٠٣-١٠٦.

(٢) أحمد الرشيدي وآخرون: مصدر سابق - ص٢٩.

(٣) ميمونة الصباح: مصدر سابق - ص١٠٧-١٠٨.

(٤) أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية ١٧٥٠-١٨٠٠- دار مكتبة الحياة - ص١١٨-١١٩.

(٥) أحمد مصطفى أبو حاكمة: تاريخ الكويت الحديث، ص٧٤.

احتلال الفرس للبصرة (١٧٧٦ -١٧٧٩م):

كان لاحتلال الفرس للبصرة تأثير سياسي واقتصادى، أما بالنسبة للتأثير السياسى نجد أن احتلال الفرس للبصرة دفع بكثير من أهلها ولاسيما من كان من أصول نجدية وعربية إلى الكويت فزاد ذلك من سكان الكويت بشكل ملحوظ، مما زاد من مسئولياتها السياسية تجاه القادمين الجدد وترتيب أمورهم واستقرارهم، واتخاذ ترتيبات أمنية لمواجهة أى محاولة فارسية للهجوم على الكويت، ومن ناحية أخرى فإن الاحتلال الفارسى للبصرة حول الأنظار إلى الكويت مما دعم مركزها السياسى لدى القوة المحلية (العربية) والقوى الأجنبية المتمثلة بالشركات التجارية مثل (شركة الهند الشرقية الهولندية) و (شركة الهند الشرقية الانجليزية) فقد اتبعت الكويت سياسة ذات حدين فى إرضاء الطرفين، فساعدوا (كريم خان) أرسلوا إليه مائتى رجل لمساعدته وحيث استقبلوا السفن العثمانية فى ميناء الكويت، قامت العلاقات المباشرة بين ممثلى شركة الهند الشرقية الانجليزية فى الخليج والكويت، ثم أصبحت الكويت كذلك محطة رئيسية للقوافل الناقلة للبضائع من البصرة إلى حلب طوال فترة الحصار والاحتلال ما بين عام ١٧٧٥م إلى ١٧٧٩ مما أدى إلى تكّون ثروات طائلة فى الكويت والزبارة. ونظرا لهذه الظروف الجديدة تقرر جعل الكويت نقطة انطلاق البريد الهندى للخليج العربى وبالفعل بدأ «البريد الهندى «اعتبارا من سنة ١٧٧٥م ينقل من الكويت على الجمال السريعة إلى حلب بمرافقة حراسة كبيرة من رجال الشيخ عبد الله الصباح، الأمر الذى حقق للإمارة فوائد اقتصادية وسياسية ضخمة[١].

حكام الكويت:

الحاكم صباح الأول:

هو أول حاكم فى الكويت وزعيم أسرة الصباح التى تنسب إليه، وفى عهده تأسست الكويت ولما تكاثر الناس فكروا فى اختيار أمير عليهم، فوقع الاختيار على صباح الأول لما يتمتع به من صفات الأمير وحسن السيرة والطباع الحميدة[٢].

عهد (عبد الله بن صباح الأول):

بعد وفاة الحاكم الأول الشيخ صباح الأول تولى ابنه عبد الله الأول وكان شجاعا وحكيما، وقد استمر فى الأمارة قرابة سبعين عاما، وقد نشطت تجارة الكويت فى عهده

(١) ميمونة الصباح: مصدر سابق، ص١٠٩.
(٢) أحمد الشرياصي: أيام الكويت، ص١١.

مـع العـراق والهند واليمن[1]، وفى عهده حدثت نشـوب أول معركة فـى تاريخ الكويت عام ١٧٨٣م وهـى المعركـة التى دارت رحاها بيـن الكويتيين وبنى كعب وهـم عرب الجزيرة العربيـة وتعـود أصولهـا إلى نجـد، وكانت هجرتهم للسـاحل الشـرقى للخليـج العربى أثر الازدهـار التجـارى الذى شـهدته الكويت حينئـذ حفيظة بنو كعب عندمـا قامت بريطانيا بنقـل البريـد البريطانـى إلى الكويت عـام ١٧٧٥م أثنـاء حصار الفرس للبصـرة فأصبحت الكويـت بذلك مركـزًا لتصريف المنتجات البريطانية فى الخليج العربى وحلب[2]، وكان هذا اهتمام وطمع من بنى كعب باتجاه الكويت متعللين بخطبة مريم بنت الشـيخ عبد الله بن صباح الأول، وكان الشيخ عبد الله استشار أهل الكويت الذين رفضوا الطلب مما دفع بنـى كعـب إلى إعداد العدة لاحتلال الكويت. ثـم أدت معركة الرقة إلى انتصار الكويت على بنى كعب[3].

علاقة الكويت بالحركة الوهابية فى نجد:

فـى عهـد عبـد الله بن صبـاح الأول تعرضت الكويت إلـى خطر الحركـة الوهابية عام ١٧٩٣م مـرات كثيـرة والتـى كانت الكويت قـد عانت من الغـارات الوهابيـة ولم تخضع الكويت إلى الحكم الوهابى[4]، وقد تصادفت وقوع هذه الغارات على الكويت بعد انتقال الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت، وقد اتخذت الوكالة البريطانية موقف الحياد فـى صراع الكويت مع الوهابيين خوفا علـى البريد البريطانى الذى يصل إلى الكويت عن طريق الصحراء وصادقت بريطانيا آل سعود[5] ثم ساعد الشيخ عبدالله بن صباح الأول الدولة العثمانيـة على القضاء على الدولة السـعودية، حيث قام والي بغداد سـليمان باشـا بإرسـال الحملـة إلـى نجد والقضـاء عليها، فقد سـاعدت الكويـت الدولة العثمانية فـى نقل المؤن والأسلحة ونقل الجنود[6].

الشيخ جابر الأول بن عبد الله الأول (١٨١٣-١٨٥٩) علاقته مع بريطانيا :

بعـد وفـاة حاكـم الكويت عبد اللـه بن صبـاح، كان نجلـه جابر متواجـد آنذاك فى البحريـن، ولكـى لا يحدث فراغًا فى السـلطة وكان من الأهمية بمـكان العمل على ملء

(١) زيد الدبي: إنجازات حكام الكويت، ص٢٦.
(٢) صبري فالح الحمدي: الكويت، نشأتها وتطورها، ص٥٦.
(٣) عبد الله الهاجري ومحمد نايف العنزي: مدخل إلى تاريخ الكويت الحديث والمعاصر، ص٥١-٩٠.
(٤) نجاة الحاسم: قضايا التطور السياسي والاجتماعي لدولة الكويت، ص١٥.
(٥) نورية محمد الصالح: علاقات الكويت السياسية بشرق الجزيرة العربية والعراق العثماني، ص١٢٧-١٢٨.
(٦) ميمونة الصباح: مصدر سابق، ص١٤٢-١٤٣.

هـذا الفـراغ بالسـرعة الممكنة، تم اختيار على محمد السلمان ليكـون حاكما عليهم، راعيا لشئونهم ريثمـا عودة نجل جابر الذى فى البحرين، الذى عـاد وتولى الحكم[1]، وقد عـرف عـن جابر الأول بـن عبد الله امتلاكه لزمـام الحكمة والأريحيـة، فضلا عن كرم مشـهود وجد صداه فى نفوس وقلوب أهل الكويت الذين لقبوه جابر العيش بجوده وكرمه وقد خصص محلا فى منزله ليرتاده الفقراء والمساكين[2].

حـاول البريطانيـون التقرب من الشـيخ جابر الأول لإقناعه فى رفـع العلم البريطانى على سـاريات قصـره ثـم رفض[3] الطلـب البريطانـى، وفى عهده تـم انتقال الوكالـة الانجليزية بكاملهـا مـن البصـرة وإقامتها فـى الكويت فى الفتـرة ١٨٢١-١٨٢٢م، أدى إلى تحسـين العلاقة مع بريطانيا مما أثبت استقلال الكويت عن الدولة العثمانية[4].

ومن الأمثلة على اسـتقلال الكويت عن الدولة العثمانية لجوء كلا من الشـيخ ثوينى (شيخ قبيلة المنتفق) ومصطفى أغا (متسلم البصرة) إلى شيخ الكويت على أثر تمردهم ضد سليمان باشـا والـى بغـداد وهروبهم إلى الكويت، وقد حاول سـليمان باشـا طلب من السـيد صموئيل مانيسـتى المسـئول عن الوكالـة التجارية البريطانية فى البصرة المسـاعدة فـى الهجوم على الكويت، لكنه رفض بسبب العلاقة الودية بين شيخ الكويت والمسئولين فى وكالة البصرة، ولكن شيخ الكويت رفض تسليم الهاربين وأوعز إليهم مغادرة الكويت إلى نجد[5].

حاكم الكويت الشيخ صباح الثانى بن جابر الأول ١٨٥٩-١٨٦٦م :

ازدهرت فى عهده التجارة فحاول أن يفرض رسـومًا على البضائع الواردة إلى الكويت، ولكن رفض التجار هذه الزيادة وتم إلغائها وهذه دلالة تماسـك الحاكم والرعية عن طريق الشـورى بينهـم[6]، دون الحاجة إلى مجالس الشـورى أو التشـريع فى بدأ النشـأة، بل كان مجلس الحاكم بمثابة البرلمان الذى يلتقى فيه أفراد الشعب.

عندمـا قدم الوكيل السياسـى البريطانى لويس بيلى إلى الكويت عام ١٨٦٣م اسـتقبل الشـيخ صباح الثانى ضيفه البريطانى اسـتقبالاً حميمًا، وأشـاد الوكيل السياسـى بالتطور الاقتصادى والسياسـى للكويت، وحسـن علاقته بالشـيخ صباح الثانى وفى إدارته وأسلوب

---

(١) أحمد الرشيدي وآخرون: مرجع سابق، ص٣٣-٣٤.
(٢) شريف شرف الدين: مرجع سابق، ص٩١.
(٣) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص٥٦.
(٤) فتوح الخترش: التاريخ السياسي للكويت في عهد مبارك، ١٩٩١م، ص١٠.
(٥) عبد الله يوسف الغنيم وآخرون: الكويت وجودًا وحدودًا، القاهرة، ١٩٩١م، ص٥٣-٥٤.
(٦) محمد حسن العيدروسي: المرجع السابق، ص٥٧-٥٨.

حكمه للإمارة[1].

حاكم الكويت عبد الله بن صباح الثانى (١٨٦٦-١٨٩٢م) :

كان الشيخ عبد الله واسع الحكم محبا للإصلاح مكرها لسفك الدماء ميالا للجد والإخلاص غير مخادع ولا موارى ومن دهائه أنه إذا ما وقع فى مأزق حرج لا يلبث أن يتخلص منه تخلصا حسنا مما يثير إعجاب الناس به[2]، وحدث فى عهده مجاعة سميت عام (البؤس والجوع) على الكويت عام ١٨٦٧م، قام الشيخ عبد الله بفتح خزائنه أمام الكويتيين ليرفع عنهم الضائقة ولم يترك وسيلة ولا طريقة للتخفيف عن سكانه فى هذه الأزمة من إطعام الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاجين[3]. وكانت علاقة الشيخ عبد الله الثانى بالدولة العثمانية عندما اشتدت الخلافات بين الأخوين الأمير سعود وعبد الله آل سعود، مما اضطر الأمير عبد الله وكثير من رجاله إلى النزوح إلى الكويت ثم طلب الأمير عبد الله آل سعود من الدولة العثمانية لمساعدته على أخيه، وأرسلت الدولة العثمانية حملة على الإحساء عام ١٨٧١ م، وقدم الشيخ عبد الله حاكم الكويت فى تلك الحملة دعمًا مباشرًا للدولة العثمانية عبر قوة بحرية بقيادة الحاكم نفسه وقوة برية بقيادة شقيق الحاكم الشيخ مبارك الصباح وقد نال الدعم الكويتى ثناء الحكومة العثمانية[4]، وعلى الصعيد المحلى للكويت فى عهده غرقت السفن الكويتية بسبب الأحوال الجوية السيئة وسميت سنه (الطبعة) [5].

الشيخ محمد بن صباح (١٨٩٢-١٨٩٦):

عندما تولى الحكم بعد وفاة شقيقه الشيخ عبدالله كان الشيخ محمد بن صباح ضعيفًا ومسالمًا فى إدارة الحكم، وكانت أول عقبة له تجدد اضطراب الأحوال فى الإحساء ١٨٩٢ م، وكلف أخوه الشيخ مبارك بن صباح بالتوجه إلى الإحساء، فسار على رأس قوة كبيرة من عربان بادية الكويت زاحفًا بالطريق البرى[6]، واصل دعم العثمانيين فى حملاتهم المتكررة على الإحساء ١٨٩٢-١٨٩٣-١٨٩٤ م وضد الشيخ قاسم آل ثانى حاكم قطر وتم فى عهده فرض ضريبة عرفت بضريبة (الوادى) على البضائع الواردة إلى الكويت والمصدرة خارجها يدفعها البدو القادمون إلى المدينة وحدد نسبتها ١٠٪[7]. وقد شاركه فى الحكم شقيقاه

(١) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص٥٨-٥٩.
(٢) فاضل سعيد عقل: معلومات ومشاهدة الكويت الحديثة، ١٩٥٢، ص١٤.
(٣) محمد حسن العيدروسي: المرجع السابق، ص٦٠-٦١.
(٤) خالد عبد المنعم العاني: الكويت والصراع العثماني البريطاني (١٨٩٦-١٩١٥)، ص٣٠-٣١.
(٥) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: المرجع السابق، ص٦١-٦٢.
(٦) أحمد مصطفى أبو حاكمة: مرجع سابق، ص١٦٢.
(٧) عبد الله الهاجري ومحمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص٦١-٦٣.

جـراح ومبـارك ممـا أدى إلى قيام الشـيخ محمـد بإبعاد الشـيخ مبارك عن الحكم بإرسـاله إلى البادية لحل مشـاكلها، غير أن محصلة تصرفات الشـيخ محمد، وبالتضامن مع الشـيخ جراح، قد أوقعت القطيعة بينهما وبين أخيهما الشيخ مبارك[1]، وفى نهاية ١٨٩٦م قام الشيخ مبارك الصباح بقتل أخويه واستلام الحكم والسيطرة على الكويت[2].

مبارك الصباح (الكبير) ١٨٩٦-١٩١٥م :

ولـد الشـيخ مبارك فى الكويت عام ١٨٤٤م وتعلم وتـأدب ببعض علوم الدين وكما تعلم فـن الفروسـية، ثم تمـرن على الحكم في حيـاة جده ووالـده وأخيه، وكان صلـب الأراده طموحًا إلى نشـر سـلطانه ونفوذه على المناطق المجاورة، وتولى الحكم بعد أن قتل أخوية محمـد وجـراح عـام ١٨٩٦م وهو يعتبر سـابع حكام الكويت. وقد أرسـى فـى عهده العدل وسـعيه فـى الإصلاح، وطبقًا لرؤية الكثير من المؤرخيـن كان مبارك الصباح الذى عرف أيضا باسـم (مبارك الكبير) يعد مؤسـس الكويـت الحديثة[3]، وفى عهـد مبارك الصباح تعرضت الكويت للخطر العثمانى بعد أن قام يوسف الإبراهيم وأولاد محمد وجراح الصباح بطلب المساعدة من والى البصرة حمدى باشا الذى كان ألد أعداء الشيخ مبارك لتحريض الدولة العثمانية والقضاء على حكم الشـيخ مبارك[4]، ولكن الشـيخ مبارك له علاقة طيبة مع والى بغداد رجب باشـا فقد أرسـل الهدايا والأموال إلى الوالى لكى يقف إلى جانبه ضد والـى البصـرة. وقد اسـتطاع والى بغداد رجب باشـا إقناع الدولـة العثمانية بـأن الأمور التى حدثـت فـى الكويـت[5]. والمتمثلة فـى الحادثة التى جرت بين الشـيخ مبارك مـع أخويه من الحوادث المألوفة والتى مازالت تقع بين الأعراب أنها من الأمور العامة، ومن الجدير بالدولة العثمانية أن تعير هذه المسـألة الأهمية والانتباه الزائد.ونشـر نفوذها على الإمارات العربية فى الخليج، وقد أصدرت الدولة العثمانية قرارًا إلى والى البصرة حمدى باشـا بعدم التدخل فى شئون الكويت[6].

وفى بداية عهد الشيخ مبارك تعرض إلى الكثير من المشاكل الخارجية فقد نشب صراع مرير بين الكويتيين من جهة وابن رشيد من جهة أخرى أدى إلى وقوع معركة الصريف ١٩٠١م انهـزم فيهـا الكويتيين، أما بريطانيا فقد نجحت فـى توقيع اتفاقية حماية مع الكويت فى

(1) Dickson HRM: The Arab of Desert, P. 266.

(٢) راشد عبد الله الفرحان مختصر تاريخ الكويت وعلاقتها بالحكومة البريطانية والدولة العربية، ص٦٨.

(٣) زيد الدبي، مرجع سابق، ص٤٤-٤٦.

(٤) نفسه.

(٥) فؤاد سعيد العابد: سياسة بريطانيا في الخليج العربي، جـ٢، الكويت، ص١٦٦.

(٦) محمد حسن العيدروسي: المرجع السابق، ص١١٧-١١٨.

٢٣ يناير ١٨٩٩م، وقد أحيطت هذه الاتفاقية بالسرية من الطرفين فى البداية ثم انكشفت هـذه الاتفاقية وأعلنت بريطانيا الحماية على الكويت ويعتبر الشيخ مبارك عمليا مؤسس العلاقات الكويتية البريطانية[١]، وكانت الكويت فى عهد مبارك الصباح قد تعرضت إلى التنافس الألمانى والروسى والبريطانى للسيطرة، وهو صراع سياسى واقتصادى وكان فـى أوجه التنافس الاقتصادى هو بناء سكك حديد بغداد ومنافسة الشركات الألمانية لتجارة الشحن البريطانية على الموانىء فى الخليج العربى وخاصة الكويت[٢].

شهدت الكويت فى عهد مبارك بداية الخدمات البريدية العصرية، وكذلك التلغراف اللاسلكى، وأيضا فى عهده تم أنشاء المدرسة المباركية حيث سارت فيها الدراسة علـى طريقة عصرية حديثة فى عام ١٩١١م[٣]، وشهد عام ١٩٠٩م إنشاء فرع فى الكويت للإرسالية الأمريكية العربية التابعة للكنيسة الهولندية الإصلاحية، هدف إنشاء هذه الإرسالية هو إنشاء مستشفى ومدرسة، وكان يمارس الدكتور «هاريسون» والدكتور «كالفرلى» عملهم فى المستشفى، ولكن فى النهاية أغلقت هذه الإرسالية بسبب معارضة الأهالى لهذه الإرسالية خوفا من حركة التبشير المسيحى[٤].

وشهد عهد الشيخ مبارك زيارة بعض العلماء والأدباء إلى الكويت، واستفادة الكويت من هؤلاء العلماء والأدباء فى تطور الثقافة والنهضة الفكرية فى الكويت[٥]. وكان الشيخ مبارك قد أولى عناية خاصة لخلق علاقات مباشرة مع الصحافة العربية وتشجيع الكويتيين للكتابة فيها، كما دفع الاشتراكات المجزية للصحف العربية التى تناصره حتى لو كانت ممنوعة من جانب السلطات العثمانية[٦].

الشيخ جابر مبارك الصباح :

تولـى الشيخ جابر مبارك الصباح الحكم فى عام ١٩١٥-١٩١٧م وقد عرف عنه دماثة خلقه وتواضعه وسعة صدره فضلا عن سماحته وعفوه وعدله، وكانت فترة حكمة صغيرة لم تتجاوز العامين، وقد حضر مؤتمرا لدعم بريطانيا ضد الدولة العثمانية ١٩١٦م وقد دعم المدرسة المباركية دعما ماديا[٧]، فقد تم إلغاء ضرائب أبيه المتعددة المتعلقة بالأملاك

(١) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) نجاة عبد القادر الجاسم: التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين ١٩١٤-١٩٣٩م، ص٢٤.

(3) Peter Lienhardt: Dispensation a society in flux - Kuwait.

(4) Dickson HPR: Kuwait and her neighbors8

(٥) أحمد أبو حاكمة: المرجع السابق، ص٣٣٥.

(٦) عبد العزيز المنصور: الكويت وعلاقاته بعربستان والبصرة (١٨٩٦-١٩١٥)، ص٥٨.

(٧) عبد الله الهاجري - محمد نايف العنزي: المرجع السابق، ص٧٠-٧١.

والعقـار، وكـان مبـارك فرض ضريبتين علـى كل عقار يباع أو يأجر[1]، وقد انتعشـت فى عهده التجارة بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى[2].

الشيخ سالم بن مبارك الصباح ١٩١٧-١٩٢١ :

تولى الحكم بعد وفاة أخيه الشـيخ جابر، وقد عرف عن الشـيخ سالم بن مبارك الصباح بالتدين وشغفه بمطالعة المصنفات الدينية ومحبا للقراءات الأدبية، حفيا بأهل الأدب والشعر وقد قرب منه شاعر الكويت المعروف صقر بن سالم الشبيب واتخاذه من خاصته(٣)، وقد تعرضت الكويت للهجوم من قبل المحاربين الأخوان الذى أرسـل منهم عبدالعزيز آل سـعود قوة قوامها حوالى ٥٠٠٠من المقاتلين، لمهاجمة الكويت مما دفع الشـيخ سـالم ليسـتغيث ببريطانيا، وقامت بريطانيا بإرسـال سـفينة حربية نحو ميناء الكويت[4]، وقد اعتبر مستر «مور « أن قصف جموع الأخوان بقنابل الطائرات سـيزيد من هيبة البريطانيين فى الكويت بدرجة كبيرة للغاية، وسـيزيد الشـعور بالمرارة السـائدة فى الكويت تجـاه البريطانيين، ولكن المندوب السـامى فـى العراق رفض هذه الفكرة، وقد قامـت الطائرات البريطانية بإلقاء منشـورات فوق معسـكر الأخوان تحذرهم من الهجوم على الكويت، وقد انتصرت الكويت فى معركة الجهراء على الأخوان فى القصر الأحمر مما أدى إلى انسـحاب قوات الأخوان إلى نجد.

الشيخ أحمد الجابر الصباح ١٩٢١-١٩٥٠ م :

يعتبر الشـيخ أحمد الجابر الصباح هو مؤسـس النهضة العلمية والفكرية فى الكويت. وكان محبا للعلم والأدب، وكان مبادرا إلى الاشتراك فى الصحف والمجلات لحبه وشوقه إلى العلم والأدب والمعرفة وتتبع أحوال العصر، وفى عهده أصبح الجهل هو العيب وهو المعرقل لمسيرة التقدم، وقد تأسست فى عهده المدرسة الأحمدية ١٩٢١م التى استطاعت أن تخرج رجـالاً كان لهم دورا فى بناء الكويـت الحديثة وجيل متعلم ومثقف[5]، وفرض ضريبة على التجار للإنفاق على التعليم، وفى عهده تم تأليف أول مجلس للمعارف ١٩٣٦م[6]، وتأسـيس أول مجلس الشورى وتأسيس المجلس التشريعى الأول ١٩٣٨م، وتم استقدام أول بعثة عربية

---

(١) أمين الريحاني: ملوك العرب جـ١، بيروت، ص٦٦٣.

(٢) بدر خالد البدر: معركة الجهراء وما قبلها وما بعدها، ص٣٤.

(٣) عبد العزيز الرشيد: تاريخ الكويت، ١٩٢٦م، ص١٦٠-١٦١.

(٤) بدر الدين الخصوصي: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر.

(٥) محمد الفرحاني: الكويت بين الأمس واليوم، مرفق ص٤٨.

(٦) عبد الرحمن أحمد الأحمد - على عبد الله الشملان: تطوير نظام التعليم في دولة الكويت، ١٩٨٦، ص٢٦.

للتعليم من فلسطين، وتأسست مدرسة السعادة لتعليم اليتامى أبناء الفقراء فى عام ١٩٢٤ م، وتم إيفاد أول بعثة للدراسة إلى بغداد من الطلاب الكويتيين لكى يتعلموا العلوم الحديثة، ومن ثم التوسع فى المدراس فى الكويت فى ازدياد عامًا بعد عام وكان عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح ملتقى زوار الكويت متمثلين فى عدد من المفكرين والشخصيات المرموقة فى العالم العربى من أمثال رشيد رضا والشيخ عبدالعزيز الثعالبى وحافظ وهبة وغيرهم من المثقفين العرب، وقد استفاد الكويتيون من خبرات هؤلاء العلماء العرب استفادة كاملة، وتم إنشاء المكتبة الأهلية فى عهده والنادى الأدبى وتم إرسال البعثات إلى مصر، وفى عهده تم اكتشاف البترول عام ١٩٣٩م فى الكويت، وفى عام ١٩٤٦م صدرت أول شحنة نفطية إلى الخارج فى احتفال مهيب.

الشيخ عبدالله السالم الصباح ١٩٥٠ -١٩٦٥ م :

تولى الشيخ عبدالله السالم الحكم بعد وفاة الشيخ أحمد الجابر الصباح فى سنة ١٩٥٠ م وكان الشيخ عبدالله السالم يلقب أبو الاستقلال الذى كان فى عهده الاستقلال عن بريطانيا ١٩٦١م، بعد إلغاء اتفاقية الحماية المعقودة بين الكويت وبريطانيا فى عام ١٨٩٩م وذلك فى عام ١٩٦١م، وكان محبا للديمقراطية وداعما لها فى الكويت ومؤمنا بها، وكان الشيخ عبدالله السالم محبا للتعليم والثقافة وقد أنشئ فى عهده النادى الثقافى القومى، وتأسيس المدارس فى الكويت فى عهده وشجع الكويتيين على الدراسة فى التعليم الذى تطور فى عهده كثيرا وخاصة بعد الاستفادة من عائدات النفط فى تطوير التعليم وأساليبه، وفى عهده أعلن الدستور وتم وضع مادة فى الدستور بأن التعليم إجبارى للشعب، وكان محبا للشعر فحفظ الكثير من الشعر العربى، وكان الشيخ عبدالله أمر بإنشاء مدرستين لتعليم اللغة العربية للأبناء العرب المقيمين فى الهند وباكستان وأهل البلاد المذكورة فى تعلم اللغة العربية وأدابها فى مدينتى بومبى وكراتشى، وإنشاء الأندية الثقافية والرياضية والسياسية مثل نادى المعلمين ١٩٥١م، والنادى الأهلى ١٩٥٢م وجمعية الإرشاد الإسلامية عام ١٩٥٢م وظهور المجلات مثلا الرائد والايمان والإرشاد، وكان الهدف من إنشاء هذه الأندية والمجلات يتمثل فى السعى للنهوض بالوعى الاجتماعى والثقافى فى المقام الأول وكذلك الوعى السياسى.

ثانيًا: تطور العلاقة بين الكويت والدولة العثمانية:

كانت أهم العلاقات بين إمارة الكويت والدولة العثمانية طوال القرن التاسع عشر، وخاصة بعد رحيل قوات محمد علي باشا الوالي العثماني على مصر، كانت أهم تلك

العلاقات السياسية بين الكويت هي تلك القائمة بين الكويت والعراق التركي، الخاضع للدولة العثمانية بوجود باشا في بغداد، وحتى مع وجود باشوية في البصرة، صارت أمور مشيخات الخليج العربية من اختصاص باشا بغداد.

وكانت علاقة الكويت الودية قائمة مع وسط جزيرة العرب، إلى جانب علاقة الكويتيين الودية بأقربائهم في البحرين، وكان حاكم الكويت خلال الجزء الأكبر من هذه الفترة -النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي -هو الشيخ جابر الصباح إلى أن مات في سنة ١٨٥٩م، وخلفه ابن الشيخ صباح الذي كان يحكم الكويت كأب ينظر في شئون أبنائه، ولم يكن المسئولون في الكويت يتدخلون كثيرًا في شئون رعاياهم، ونادرًا ما كانت توقع عقوبات بأحد، وكان الشيخ يحتفظ بالسلطة السياسية لكن السلطة القضائية كانت في يد القاضي وحده، وكان التسامح الديني من جانب الشيخ الحاكم يمتد ليشمل حتى اليهود، وحين مات الشيخ صباح في سنة ١٨٦٦م خلفه أكبر أبنائه الشيخ عبد الله[1].

وفي عهد الشيخ عبد الله بدأت بواخر شركة الهند البريطانية للملاحة التجارية تتردد على الكويت، نتيجة لزيارة الكولونيل بيللي المقيم العام البريطاني في الخليج، وفي إطار العلاقة الطيبة التى حرص عليها حكام الكويت في مواجهة بعض المشكلات التى تثار من جانب الولاة العثمانيين في العراق، وفي مواجهة الاضطرابات بين بعض مشيخات الخليج العربية والصراع بين آل سعود وآل رشيد في نجد.

وكانت الكويت تعترف للدولة العثمانية بمكانة خاصة باعتبارها دولة إسلامية وفي إطار الجامعة الإسلامية التى تتزعمها الدولة العثمانية في مواجهة العدوان الاستعماري الأوروبي، وجاء هذا الاعتراف متمثلاً في رفع العلم العثماني على قصر الحكم، وعلى السفن الكويتية المبحرة في مياه الخليج العربي حتى مياه المحيط الهندي، ويتمثل هذا الاعتراف كذلك في وضع الكويت تحت الحماية العثمانية وفي دفع أموال الزكاة للدولة العثمانية.وعندما أراد نامق باشا الوالي العثماني للعراق في عام ١٨٦٦م أن يحول تبعية الكويت الاسمية للدولة العثمانية إلى تبعية فعلية، وطلب إرسال سفينتين مسلحتين من استانبول، تشاور الشيخ عبد الله الصباح مع المقيم البريطاني في بغداد الكولونيل «كيمبول» الذي أكد للشيخ أن حرية الكويت المكتسبة منذ زمن بعيد ستصبح بهذه الخطوة العثمانية مجرد أثرًا من آثار الماضي، ومن ثم التمس الشيخ عبد الله من السلطات البريطانية ألا تقف السفن البريطانية بميناء الكويت حتى لا يكون هذا التوقف للسفن

(١) لويمر (ج.ج): دليل الخليج، القسم التاريخ، جـ٣، ص١٥١٦م.

البريطانية ذريعة عند نامق باشا، الذي كان ينظر بحسد وغيرة من زيارة السفن البريطانية لميناء الكويت، خاصة أن رخاء الكويت التجاري أمر يضر بمصالح البصرة العراقي.

ومع ذلك فإن الشيخ عبد الله بن صباح ظل على علاقة وثيقة بالحكومة العثمانية في استانبول طوال مدة حكمه (١٨٦٦-١٨٩٢م)، وليس أدل على ذلك من قيامه بدور الوسيط عند الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود وعونه لحملة مدحت باشا على الإحساء، كما قدم الشيخ عبد الله الصباح نفسه عام ١٨٧٠م وسائل النقل البحري المؤلفة من ٣٠٠ سفينة أهلية لنقل القوات التركية المتجهة لفتح الإحساء، وقد صحب الحملة بنفسه، وعن طريقه تم إقناع شيخ الدوحة في قطر الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني برفع العلم التركي، وكانت مكافأة العثمانيين في المقابل تعيين الشيخ عبد الله الصباح في منصب قائمقام تركي في الكويت، والشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في منصب قام مقام تركي في الدوحة[1].

ولم تكن بريطانيا في ذلك الوقت على استعداد لمنافسة الدولة العثمانية في الكويت نظرًا لقرب الكويت من الولاية العثمانية في العراق، ولأن بريطانيا كانوا يهتمون فقط بالبحرين والساحل العربي جنوبي القطيف حتى عمان ومدخل الخليج العربي عند هرمز، وأنهم - أي البريطانيين - على استعداد للاعتراف بتبعية الكويت وساحل الإحساء وخاصة موانى القطيف والعقير للدولة العثمانية، في مقابل ألا يتقدم الأتراك جنوب القطيف استمرت العلاقات طيبة حتى عندما طلب الأتراك من الشيخ محمد الصباح مساعدة القوات العثمانية فى القضاء على الاضطرابات فى إقليم الاحساء العثمانى بادر الشيخ محمد(١٨٩٢-١٨٩٦م) بقيادة حملة عسكرية كبيرة من البدو فى مارس١٨٩٣م سارت عن طريق البر إلى الاحساء، حتى نجحت هذه القوات مع القوات التركية فى إخماد الاضطرابات بالاحساء.

وعندما أصبح الشيخ مبارك الصباح حاكما للكويت عام ١٨٩٦م، أرسل حمدى باشا والى البصرة آنذاك إلى الآستانة يصف حكم الشيخ مبارك بأنه فرصة لإقامة علاقات تركية وثيقة بالكويت خاصة أن الشيخ مبارك اعترف بولائه للباب العالى، ورفع العلم التركى على قصر الحكم، بل وعدم الاحتجاج فى عام ١٨٩٧م على وصول مسئول تركى عن الحجر الصحى وأقام فى الكويت، وفى ديسمبر من ذلك العام قام محسن باشا والى البصرة- الذى خلف حمدى باشا- بإبلاغ الشيخ مبارك الصباح بأن إرادة سلطانية صدرت بتعيين الشيخ مبارك قائمقام للكويت بمرتب ٣٠٠ جنيه سنويا[2].

---

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) لوريمر: المرجع السابق، ص١٥٢٧.

كان الاعتقاد السائد عند البريطانيين أنه رغم منصب القائمقام التركى للشيخ مبارك، ورفع العلم التركى على قصر الحكم فى الكويت، واعتراف الشيخ مبارك الصباح بسيادة الباب العالى، فإنه- أى الشيخ مبارك- حاكم مستقل فى الحقيقة ولا يخضع للسلطات إلا خضوعا اسميا فقط، وأن الكويت- فى رأى البريطانيين- تعترف بالنفوذ التركى فيها منذ تولى الشيخ مبارك الحكم، ومن ثم رحب البريطانيون بطلب الشيخ مبارك فى فبراير ١٨٩٧م مقابلة الرائد ويلسون المقيم السياسى فى الخليج أو وكيلا عنه، وكان الهدف كما كشفته المصادر البريطانية من هذه المقابلة طلب الشيخ مبارك الحماية البريطانية، الذى أبدى قلقه من تصرف الأتراك بإيفاد مسئول صحى إلى الكويت دون استشارة الشيخ، وكان الطلب بوضع الكويت تحت الحماية البريطانية أسوة بشيخ البحرين وشيوخ الساحل العمانى المتصالح.

وقد ظهرت عوامل جعلت تحقيق طلب الشيخ مبارك بالحماية البريطانية على الكويت، من هذه العوامل ما أشيع من رغبة الحكومة الروسية فى إقامة مستودع للفحم بالكويت، وكانت هناك جهود للحصول على امتياز من الباب العالى لمواطن روسي لمد خط حديدى من البحر المتوسط إلى الخليج، مما يهدد المصالح البريطانية فى الخليج، وأيضا ما أشيع عن احتمال إرسال قوات تركية من البصرة إلى الكويت.

عقدت اتفاقية الحماية البريطانية على الكويت بمدينة الكويت فى ٢٣ يناير ١٨٩٩م وقع عليها الرائد المقيم السياسى فى الخليج العربى، والشيخ مبارك الصباح الذى يتعهد هو وخلفاؤه وأبناؤه بعدم السماح لممثلى أية دولة أو حكومة أجنبية بالإقامة فى الكويت أو سواها من الأرض التابعة له دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية، وألا يبيع أو يرهن أو يعطى أو يتنازل- بغرض الاحتلال أو أى غرض آخر- عن أى جزء من أرضه لدولة أجنبية أو رعايا دولة أجنبية دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية، وبعد التوقيع سلم الرائد ويلسون للشيخ مبارك الصباح خطا يؤكد له فيه باسم الحكومة البريطانية نواياها الطيبة نحوه ونحو ورثته وخلفائه ما ظلوا على التزامهم بنصوص هذه الاتفاقية[1].

وقد ظلت هذه الاتفاقية سارية حتى تم إلغاؤها فى عام ١٩٦١م بإعلان استقلال الكويت، ورغم هذه الاتفاقية فإن علاقات الشيخ مبارك بالدولة العثمانية استمرت ودية فى أغلب الأوقات رغم احتجاج السلطات العثمانية على الاتفاقية، ومحاولات باشا البصرة العثمانى التدخل فى شئون الكويت، وبعض المشكلات الأخرى التى هدف منها العثمانيون إثبات

---

(١) لوريمر: المرجع السابق، ص١٥٣٢.

سيادتهم على الكويت، مما جعل البريطانيين يعلنون صراحة حمايتهم للكويت ضد أية محاولات للتدخل فى شئون الكويت عام ١٩٠٢م وتعيين وكيل سياسى بريطانى فى الكويت عام ١٩٠٤م.

ومع ذلك فهناك محاولات من الشيخ مبارك الصباح لتأكيد مودته للدولة العثمانية من بينها وساطته بين السلطات التركية فى المنطقة وعبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود فى فبراير ١٩٠٥م ومنها مساهمة الشيخ بمبلغ ٤٥٠ ليرة عثمانية لبناء ثكنات تركية جديدة فى البصرة، وحين قبلت هذه العطية من جانبه أعلن الشيخ مبارك ولاءه للسلطان العثمانى، ووعد بدفع مبلغ ٢٠٠ ليرة عثمانية أخرى، ومنها مساعدة الجنود الأتراك المنسحبين من نجد بالغذاء والرعاية حتى سفرهم إلى البصرة، ومنها السماح للبريد التركى الرسمى بين العراق والاحساء بالانتقال عن طريق البر عبر الكويت بدلا من نقله بواسطة سفينة بريطانية عبر البحرين، ومنها تبرع الشيخ مبارك بمبلغ ٥٠٠ ليرة عثمانية لميزانية سكة حديد الحجاز، كما كان قد تسلم فى يناير ١٩٠٤م الوسام الذى يمنحه السلطان العثمانى لكبار المتبرعين للمشروع.

ثالثًا: نهاية الوجود العثماني على سواحل الخليج العربي

كان قدر الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ مبارك الصباح يقضي على كليهما التعاون الوثيق مع الآخر مهما بلغ التنافر بينهما. رغب مبارك في أن يدحض عنه عبد العزيز خطر آل رشيد حين أقحمت تلك الأسرة نفسها في النزاع الحادث في أسرة آل صباح حيث ناصرت تلك الأسرة الأطراف المناوئة لمبارك. وكان لابن سعود مع ابن رشيد حق يطلبه، ولهذا التقت المصالح السعودية المباركية. ودفع القدر بالرجلين ابن سعود وابن الصباح لدفع دورة التاريخ في المنطقة، يدعم عبد العزيز في ذلك تاريخ حافل لأسرته ثمّ نضاله وكفاحه ومقدرته في المجال العسكري والدبلوماسي. وكان مبارك طموحه الكبير يعمل على مد تأثيره ونفوذه داخل الجزيرة العربية فيعين عبد العزيز بن سعود بالمال والسلاح. وحين أصاب الضعف أسرة آل رشيد تحقّق لعبد العزيز بعض ما كان يصبو إليه وتحقّق لمبارك الكثير ممّا كان يصبو إليه.

وبالرغم من اختلاف الظروف التي أدّت إلى توثيق التعاون بين الرجلين إلاّ أن القدر أيضًا كان يدفعهما دفعًا في اتجاه التعاون. لم يكن لابن سعود وأرضه التي حازها منفذًا للعالم الخارجي يمكن أن يخدم كل أغراضه سوى الكويت. وعلى هذا كان على ابن سعود أن يحقّق علاقات طيّبة أو رديئة مع الكويت ليحتفظ باتّصاله مع العالم الخارجي عن طريق

ميناء الكويت المنفتح على ذلك العالم، وأن يحافظ على الكويت بعيدة عن كل تأثير لأيّة قوة قبلية مناهضة له، وأن يبعد عن أطراف الكويت كل خطر يقطع خطوط إمدادات نجد. أمّا مبارك فقد وجد نفسه متّصلاً بالعالم الخارجي الذي انفتحت مساراته كلّها أمام الكويت بفضل علاقته بالبريطانيين المسيطرين على الدروب البحرية في هذه الفترة على امتداد الشرق. كان العالم الخارجي للخليج العربي في تلك الايام ضيقًا، على اتّساعه، بالنسبة إلى القوى المحلية حيث جهد البريطانيون في شبه القارة الهندية على قصره على الهند والمصالح البريطانية فيها وفي مساراتها. ولم يكن ابن سعود بمستطيع أن يتّصل بالهند، ذلك العالم الخارجي، إلاّ من خلال مبارك وكويته.

انفتح مبارك على العالم الخارجي وأُرتجت دونه دروب "العالم المحلي" بحكم الوجود العثماني الذي بات لا يثق في مبارك، وبحكم بداية الاستقرار السعودي في المنطقة، سيطرت قوة آل سعود، سلمًا وحربًا على القبائل النازلة على تخوم الكويت. وكان على هذه القوة الناشئة أن تتعامل بوضوح في مسالة السيادة على تلك القبائل التي أراد مبارك أن يساوم فيها ليمدّ في حدود الكويت ونفوذ شيخها. وقد حاولت سلطات الهند البريطانية في الخليج أن تقصر نفوذ شيخ الكويت إلى الداخل على المدى الذي يمكن أن تصل إليه حدود مدافع الأسطول البريطاني. والتقت المصالح البريطانية والعثمانية والسعودية في تحجيم نفوذ مبارك. وبالرغم من هذا قضى ارتباط مبارك الحيوي "بالداخل"، وارتباط ابن سعود الحيوي بالخارج، أن تُكمّل القوتان السعودية والكويتية بعضهما بعضًا. وزاد هذا التكامل الواجب في حدّة التناقض القائم.

لم يكن مبارك يريد لعبد العزيز أن يتّصل بالعثمانيين أو البريطانيين ليفاوضهم إلاّ عن طريقه لأنه يخشى أن يضعف وضع الكويت أو يزداد ضعفها في الظهير إذا انحاز عبد العزيز إلى العثمانيين أو ارتبط بالبريطانيين. فإذا لم يكن هناك بدّ من تعامل عبد العزيز مع هاتين القوتين أو إحداهما فليس أقل من أن يتولى الوصاية على السعوديين الذين انطلقوا من أرضه وبدعمه لتحقيق أهدافهم. ولم يكن عبد العزيز، مع اعترافه بالدعم الكويتي، يرضى الوصاية في مسألة حيوية كهذه ولهذا اشتدّ التناقض. أراد مبارك أن يكسب القصيم لنفسه ليحقّق بها التوازن الذي يريده وليشكّل كتلة ثالثة تحكم المقدّرات السياسية في المنطقة تنحاز لإحدى القوتين السعودية أو الرشيدية حين يحقّق الانحياز لمبارك هدفًا. وكانت هذه رغبة مستحيلة لا يرجى أن يحقّقها له العثمانيون حتى على حساب ابن سعود المناوئ لهم في هذه الجماعة في صفوف الحملة التي جُهّزت للسير إلى السعدون.

بالرغم من أن الحملة كما قيل كانت موجّهة ضدّهم في الأصل، وإلى شيوخ الظفير الذين كانوا يناصرون المنتفق على الكويت في الاضطرابات التي أحدثها السعدون سالفًا في المنطقة. وحين تقوّت الكويت بهذه المجموعة بالإضافة إلى الجماعة التي كانت مع ابن سعود، رأى الشيخ مبارك أن يوجّه هذه الحملة إلى السعدون رأسًا. يشير الوكيل البريطاني في الكويت في خطابه بتاريخ ٩ مارس بأن هناك إشاعات تشير إلى أن هذه الحملة قد تمّت بإيعاز من والي البصرة الذي التقى بالشيخ مبارك في الفاو أخيرًا. وعبّر المقيم البريطاني عن شكّه في هذه الإشاعة الرائجة التي ربّما أُحدثت لتغطية أمرًا ما. اشتركت في هذه الحملة إلى جانب ابن سعود ومبارك قبائل. عجمان، ومطير، والعوازم، وبني هاجر، وبني خالد، وآل مرة، وعتيبة، وقحطان، وسبيع الطواطة، وعريبدار الكويت. تراوح عدد فرسان الحملة في تقدير الوكيل البريطاني في الكويت بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠. أمّا راكبو الهجن "فعددهم كذرّات الرمل "حيث يتراوح بين ٨٠٠٠ و ٩٠٠٠ رجل. وأحدثت الحملة في الكويت أثرًا كبيرًا حيث زاد سعر الذلول ٢٥٪، وارتفعت أسعار السلع بنسب متفاوتة خاصة ما يتصل منها بالهجن وتهيئتها للحرب، بالإضافة إلى أسعار الأرز والبن. وتدفّقت القبائل من شمال الأحساء لتشارك في الحملة.

ويقول الوكيل البريطاني إن الكويت لم تشهد تجمّعًا كهذا منذ عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م على أيام حملة الصريف، أصبح عبد العزيز القائد الأعلى لهذه القوة و"بما أن الظروف قد هيّأت له هذه القوة الضاربة فإنّه لن يتهاون في انتزاع النصر انتزاعًا". ونعتقد من جانبنا أن تعيين عبد العزيز قائدًا أعلى لهذه القوة لم يجئ اعتباطًا إذ إنّ أغلب القبائل التي ستسير إلى الحرب هي قبائل نجدية، وعليه فلا يعقل أن تناط قيادة قوة كهذه برجل غيره. ويشير تقرير الوكيل البريطاني بأن عبد العزيز قد ثَبّط هِمة مبارك عن الخروج بنفسه مع الحملة مراعاة لسنّه، وحرصًا على صحّته. وأن مبارك قد استجاب لذلك تقديرًا منه لعبد العزيز، وثقة منه في حنكته، ومقدرته العسكرية. ويضيف الوكيل البريطاني بأن مبارك لم تكن له مثل هذه الثقة في ابنه جابر الذي خرج أيضًا مع الحملة.

ولربّما تذرّع عبد العزيز بهذه الحجج حتى لا يخرج مبارك مع الحملة هذه الفترة لأنهم يخشون من امتداد النفوذ البريطاني إلى داخل شبه الجزيرة العربية، ولن يحقّقها له البريطانيون الذين اقتصرت مصالحهم بصفة عامة على السواحل وبصفة خاصة في هذه الفترة وفي هذه المنطقة على الكويت، النهاية المقترحة لخط حديد برلين بغداد. ولم يسع البريطانيون في هذه الفترة للتدخّل في السياسة القبلية وتعقيداتها في منطقة لن تخدم لهم

مصالـح اسـتراتيجية ولا اقتصاديـة. ولن يحقّق عبد العزيز بن سـعود بالطبع، لمبارك رغبته هـذه لأنّه حمل رأسـه على كفّه وخرج ليـرد المنطقة لطاعة السـعوديين، ولم يكن مبارك سـعوديًا. ولـن يحقّقها له ابن رشـيد الذي خرجت القصيم من يده لعبـد العزيز ولكنه كان يتطلّع إليها مرة أخرى. ولن تحقّقها له القبائل التي ما كانت تعرف لذلك الشيخ حقًّا تاريخيًا علـى أراضيها، ولهذا كان التناقض الكبيـر. ولعلّه من أجل هذا كانت أنظار عبد العزيز تتّجه إلى الأحساء حتى يستغني بها عن الكويت ويجد منفذًا لا ينازعه فيه أحد.

كان الخليج في تلك الأيام يعيش السـلام البريطاني، وينوء باستعمار السفن البريطانية لمياهه. ولم يكن ظهور القوة السعودية الناشئة على سواحل الخليج ممكنًا إلاّ بالتفاهم مع الحكومة البريطانية في الهند، وكانت علاقة الشـيخ مبارك بالهند وثيقة. وعلى هذا تبدأ دورة أخرى في سلسلة التطابق والتنافر بين السياستين السعودية والكويتية. أراد مبارك أن يحقّـق أمن الكويت في ظهيرها ضد القوة القبلية الأخرى في العراق العثماني، وكان أمن الكويـت لازمًـا لاسـتراتيجية عبد العزيز الذي لم يضم الأحسـاء بعد، وعلـى ذلك قام عبد العزيز لمناصرة الشيخ مبارك ضد المنتفق في عام ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م.

التعاون القلق.

زار عبـد العزيـز الكويت في ١٦ صفر ١٣٢٨هـ ٢٦ فبرايـر ١٩١٠م في وقت تزايدت فيه الخلافات بين سعدون المنصور شيخ المنتفق، وبين شيخ الكويت. وكانت خلافاتهما حول مسـائل ماليـة وتجارية. وقدّمت جماعة من العجمان فـي فترة وجود عبد العزيز في الكويت اعتذارهـا لمـا سـبق أن قامت به من إغارات علـى الكويت كان مبارك يُحمّـل وزرها لعبد العزيز، وعفا مبارك عنها. وانتظمت هذه ويدخل في حرج تولي القيادة في حملة يكون فيها مبارك الذي رغم كل ما يمكن أن يقال عنه له فضل لا يمكن جحوده، وله في نفس عبد العزيز التقدير والعرفان.

تكاملـت هـذه القوات في الجهـرة وخرجت الجموع في ٢ ربيـع الأول ١٣٢٨هـ ١٣ مارس ١٩١٠م تزحـف إلـى أرض المنتفق، والتقت بقوات سـعدون في يوم ١٦ مـارس بين الرحيمية والوقبـا والضريبيات في منطقة تسـمّى جريبيعات الطوال. هاجمت القوات المشـتركة قوة سـعدون عند الفجـر، وتراجعت المنتفق دون خسـارة تذكر واسـتجمعت قواهـا، وأغارت فجأة على الجناح الأيمن المشـكّل من عربيـدار الكويت وبدو مطير. ولم يكن أمام جابر بـن مبارك إلاّ أن ينسـحب مـن أرض المعركة تاركًا ابن سـعود وجماعاتـه تناوش جاعات السـعدون. وقام عبد العزيز وأخوته ومن معهم من العجمان خاصة بمحاولات يائسـة حتى لا

تكون الهزيمة ساحقة. تقول المصادر البريطانية أن عبد العزيز قد تراجع بجماعاته تراجعًا تكتيكيًا مدروسًا، وقاوم بثبات ولكنه لم يستطع أن يستخلص النصر من براثن الهزيمة، فقد فرّت جماعات الكويت ومجموعات أخرى من البدو. ولم تكن قوة السعدون ضعيفة أو قليلة العدد فقد كانت المنتفق كلّها وراء السعدون، كما شاركته جماعات من الظفير، وعاضدته شمّر حيث اشترك ٥٠٠ من فرسانها في المعمعة. كما اشترك معه الكثير من القبائل والعشائر مثل زايد، وسميت، والصفا، والمجاريد، وبني مالك والشريفات، وبني حسين، والفضول، والخزاعل، وبني يهشم، وبني لامي، وبني خاقان وبني سعيد، وكثير غير هؤلاء من عشائر العراق العثماني. ويقول الوكيل البريطاني نقلاً عن أحد شيوخ العجمان الذين فرّوا من المعركة طلبًا للنجاة بأنّه كان للسعدون ٤٠٠٠ فارس كانوا أكبر أثرًا وأكثر قوة ونفرًا من فوارس ابن الصباح وابن سعود. وشهد العجمي بأن هذه الحملة الكويتية السعودية كان يمكن أن تصل إلى دمار شامل لولا وجود عبد العزيز وتمرّسه في الحرب، وتهاون السعدون في قتل الأسرى، فقد طلب أن يجرّدوا من السلاح ويتركوا إلى حال سبيلهم.

لم ترض الحكومة البريطانية قيام هذه الحملة وطلبت في ٢٠ مارس إلى وكيلها في الكويت أن يحذر مبارك من التدخّل في "شؤون نجد" وذلك حتى لا يعطي للدولة العثمانية الذريعة للتدخّل بشكل فعّال في السياسة الكويتية لأن هذه الأمور "ستجعله يصطدم بالدولة التركية وسيحتج مبارك بأن حملته ضد المنتفق هذه تظفر برضاء الأتراك، ولكن يجب عليه أن يفهم بوضوح أن سياسة المغامرات في الداخل هو أمر لا تستسيغه هذه الحكومة". ولم يصل التحذير لمبارك في وقته حيث كانت الحملة قد حاربت معركتها في هذه الأثناء، وانتهى أمرها بالتراجع إلى الجهراء.

سار ابن سعود إلى الحالية (Haleeba) على مسيرة يوم غرب الجفر يسعى وراء مطير لتأديبها. ويبدو أن لحملة ابن سعود على مطير هذه سببًا يتّصل بالحملة على المنتفق التي كانت مطير أول المنسحبين منها، ولا يخفي ما يعنيه انسحاب البدو من فوضى ونهب وسلب. نستطيع أن نقول بهذا اعتمادًا على أن ابن سعود قد قام بحملته هذه على مطير في الفترة الواقعة بين ٢٠ مارس، حين وصلت القوة المنسحبة إلى الجهراء، وبين ٢٤ مارس، حيث تفيد التقارير رجوع ابن سعود إلى الجهراء مرة أخرى. كما قام السبهان وابن رشيد بعد هذا بهجوم على مطير في ٢٧ ربيع الأول / ٧ أبريل عقابًا لها فيما يبدو على انخراطها في صف ابن سعود ومبارك في الحملة المذكورة وارتدّ ابن رشيد عنها بعد أن خسر ٩٠ حصانًا.

لم يقنع مبارك بالهزيمة حين انكسرت قواته والقوات السعودية المشتركة أمام سعدون، وراح يجهّز للحرب، ويطلب إلى أهل مدينة الكويت أن يزيدوا في مساهمتهم المادية والعينية استعدادًا "لجولة أخرى" واشتركت كل الفئات في المجهود الحربي بالرجال وبالجمال وبالمال، . أعدّ مبارك لحملة خطط أن تكون قوّتها ١٥٠٠٠ رجل. وكرّر المقيم البريطاني للشيخ مبارك تحذير الحكومة البريطانية بعدم التدخل في هذه المسائل، إلاّ أن مباركًا ثبت على رأيه من أنه يجب أن يؤكّد سلطته في المنطقة ويعمل على حماية أتباعه، وأكّد مبارك للوكيل السياسي البريطاني شكسبير بأن الحكومة العثمانية لن تعترض على أعماله هذه، وأن الوالي العثماني في البصرة قد سبق أن تمنّى له النجاح في مهمته حين التقى به في الفاو. تطلّع مبارك إلى تحييد ابن السبهان وابن رشيد من ورائه فأرسل إليهما ليتحالفا معه إلا أنهما اعتذرا، حيث إن منطق الأحداث يضع آل رشيد في ركاب السعدون. وجاءت الأخبار بعد هذا بأن الحملة المزمعة قد أرجئت لعدة أشهر.

ويعبّر شكسبير بأنه قد استخلص من الإشاعات أن الحملة ربّما تكون قد ألغيت تمامًا. قال الشيخ إنّه أرجأ الحملة حتى حلول الصيف حيث ستنشغل المنتفق عن سعدون بجني التمر في موسمه. كما أشار مبارك إلى أن رجال سعدون يحاربون فرسانًا على الخيل وبينما ستقوم حملة مبارك على الهجن، ولن تصبر الخيل صبر الإبل على عطش الصيف وستنهك. ويفيد تقرير شكسبير هذا بأن الشيخ مبارك طلب إلى عبد العزيز أن يرجع إلى الرياض حيث إن غيابه قد أحدث مشاكل في المناطق الخاضعة له، وأن عبد العزيز لا يريد أن يغادر حتى يدرك ثأر هزيمته من السعدون. طلب شكسبير إلى الشيخ مبارك أن يُسرّح تلك القوة التي كلّفت أهل الكويت الكثير من الجهد والمال، وتعنّت الشيخ وقال بأن أمن الكويت يقضي باستمرار التعبئة وذلك للحفاظ على الكويت من إغارات البدو.

وأشار الشيخ محتجًا بأن نغمات السلام التي ترسلها المنتفق والظفير خادعة لا يوثق بها، وأنّه قد أصمّ أذنيه عنها، ولن يصغي إليها ما لم ترد له الأسلاب التي غنموها. ونلاحظ هنا خروجًا عن المألوف عند شيخ الكويت في عدم تنفيذه الفوري لأوامر الحكومة البريطانية، وربّما يعود السبب في هذا إلى تحسّن علاقته بالعثمانيين إلى الحد الذي أثار الشائعات بأن والي البصرة سيرسل فيلقًا من الجنود العثمانيين ليعسكروا في الكويت مع ضبّاط ثلاثة وأنه قد وعده بأن يحصل له على فرمان بتعيينه حاكمًا على نجد والإحساء والقطيف وقطر.

تقرير معشوق باشا متصرف البصرة عام ١٨٦٦م[1]:

بدءا من منتصف القرن التاسع عشر أخذ العثمانيون يبدون اهتماما، وإن كان سطحيا، بشئون الخليج العربى، ويرقبون تطورات الأحداث فيه، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والأجنبية الموجودة فى هذه المنطقة الحساسة من العالم فى القرن التاسع عشر، فشرعوا فى إرسال المبعوثين إلى مشايخ العشائر العربية المتنفذة لجس نبضهم، ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم، ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو اسميا، أو التعاون مع الدولة العثمانية، على أقل تقدير بصفتها دولة إسلامية، وانطلاقا من هذا الملف الجديد فى السياسة العثمانية كلف الباب العالى متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة، فبادر الأخير إلى إرسال عدة أشخاص ألى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط، واتصل بعدد من التجار وذوى المصالح مع البلدان المذكورة، بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الأمراء والمشايخ العرب. فورد فى تقرير معشوق باشا، المرفوع إلى الصدارة فى أواخر عام ١٨٥٠م، معلومات مبتسرة عن كيفية نشأة إمارة الكويت، حيث يشير إلى أن بعض عربان نجد كانوا يأتون إلى الكويت لأجل صيد الأسماك، وأثناء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة، شيدوا لهم بيوتا صغيرة من القصب، تحولت بمرور الزمن إلى بيوت مبنية باللبن، وكان منشأ هذه الإمارة فى أواخر القرن الثامن عشر، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد أصبحت ملجأ ومسكنا آمنا للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت، وكان أهالى الإمارة غير مكلفين بدفع أى نوع من الضرائب، عدا الجمرك المفروض على الأمتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر، وبمعدل ريالين عن كل نوع، وبلغ وارد الجمرك منه ألف ريال سنويا، ونظرا لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة فى ميناء الكويت تعد خفيفة نسبيا، لذا كان أغلب التجار يفضلون إنزال تجارتهم فى الميناء المذكور، ونقلها برا إلى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها، «الشيخ جابر» يبادر إلى تقديم الإمدادات والمساعدات إلى أهالى البصرة، برا وبحرا، عندما يحل الخطب بهم وتتعرض مدينتهم لحصار العمانيين أو تسلط الكعبيين، ومقابل هذه الخدمة كان أمير الكويت يحصل على مئة و أربعين كارة من التمور سنويا من حكومة البصرة. وذكر معشوق باشا أن مسألة ربط الكويت بإدارة البصرة، واستثمار موارده الاقتصادية لحساب مدينة البصرة،

---

(١) مصطفى زهران: مقال بعنوان: البصرة والخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مجلة المؤرخ العربي، يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد ١٩- أكتوبر ٢٠١١م.

وقطع عطية التمور السنوية، رهين بتقوية أسطول البصرة، وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على أقل تقدير، وأضاف أن أهالى الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة، إلا أن موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع إلى مشايخه، الذين لا يراجعون إدارة البصرة فى أى موضوع أو مادة، وإذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية- على الرغم من إظهارهم الميل إلى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافى والدينى لكون السلطان العثمانى خليفة المسلمين وحامى حمى الحرمين- فى واقع الحال يقتضى إظهار سطوة السلطة السنية وجانب من قدراتها العسكرية لكى لا يعطوا أذنا صاغية لدسائس بعض الأطراف الدولية والمحلية. وبخصوص مقاطعتى الحسا والقطيف، اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود، تشير معلومات معشوق باشا إلى أن الأمير السعودى يستوفى منها سنويا مائة ألف ريال(أربعة آلاف) باسم بدل جمرك وميرى، قابل مبلغ زهيد يدفعه إلى خزينة جدة، وأنه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمئتى عسكرى فى كل منهم، واستنادًا إلى إفادة عدد من أبناء الحسا والقطيف القادمين إلى البصرة، فإن الأهالى هناك مستاءون ومتنفرون، وراغبون فى الانضواء تحت الحكم العثمانى، ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على أهمية وضرورة بناء الأسطول، وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة، حتى يتسنى لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات[1].

الكويت واتفاقية عام ١٩١٣م بين الدولة العثمانية وبريطانيا

نتيجة تعرض تركيا لمتاعب فى البلقان ومع روسيا، رأى حكام الدولة ضرورة تسوية المشكلات المثارة مع بريطانيا فى منطقة الخليج العربى على أمل أن تحصل تركيا على تأييد الحكومة البريطانية إزاء ما تواجهه الدولة العثمانية من مشكلات ومن ثم دارت مفاوضات بين المسئولين الأتراك والمسئولين البريطانيين والتى استمرت سنتين١٩١١- ١٩١٣م، حيث تساهل العثمانيون فى التنازل عن قطر وعن البحرين، ووافقت بريطانيا على بقاء الكويت تحت السيادة العثمانية التى تمتد حتى ميناء العقير بالاحساء ولا تمتد أبعد منه.

وقد شهد شهرى أبريل ومايو عام ١٩١٣م مواقف حاسمة فى المفاوضات التركية البريطانية بشان تقسيم مناطق النفوذ بين الجانبين فى منطقة الخليج العربى وتم التوقيع على اتفاقية عام ١٩١٣م فى آخر شهر مايو، واحتوت الاتفاقية على عدة مبادىء تتعلق بخط حديدى فى آسيا الصغرى، ومشروع اتفاق يتعلق بمشيخات الخليج العربية: الكويت، قطر، البحرين، كما احتوى على أربعة ملاحق تتصل باتفاقات بريطانيا مع الكويت

(١) المرجع السابق، ص٤٠٦.

أعوام:١٨٩٩م، ١٩٠٠م، ١٩٠٤م[1].

وقد اعترفت بريطانيا فى هذه الاتفاقية - فى المادة الأولى منها - بأن الأراضى الكويتية، طبقا للمواد أرقام٥و٧ من هذه الاتفاقية، تخضع للسيادة العثمانية، على أن تعترف الحكومة العثمانية - كما جاء فى المادة الثالثة من هذه الاتفاقية - بالاتفاقيات الموقعة بين بريطانيا وشيخ الكويت فى أعوام ١٨٩٩م - ١٩٠٠م - ١٩٠٤م: وعدم الانتقاص من أراضى الكويت والاعتراف بالوضع القائم فى الكويت دون تغيير.

وتتالت المواد ٤ و٥ و٦ و٧ و٨ و٩ من الاتفاقية لتعالج قضايا حدود الكويت البرية والبحرية - حيث يستقر شيخ الكويت بمدينة الكويت ولكن سلطانه تمتد إلى خور الزبير، وجزر، وربة، وفيلكة، وأمنها، وكوبرا، وكارو، وماكتا، وأم الماردينى، إلى جانب أم قصر، وصفوان، وجبيل[2].

---

(1) F.O. Enclosure in no. 144: Draft convention Respecting the Persian Gulf.

(2) op.cit.

الفصل الثامن

قطر والإستراتيجية العثمانية

- كتاب قطر فى العصر العثماني للمؤلف التركى زكريا قورشون.
- الوحدة الوطنية القطرية.
- قطر قبيل الحرب العالمية الأولى.

زكريا قورشون باحث من تركيا ومن المهتمين بتاريخ تركيا في منطقة الخليج العربي أستاذا بجامعة الأستانة، له العديد من المؤلفات أبرزها : الحكم العثماني في نجد والأحساء، والحركة الوهابية وظهور الدولة السعودية، والعثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثماني(١٧٤٥- ١٨٢٤)، وتاريخ قبيلة العجمان، وسواحل نجد (الأحساء) في الأرشيف العثماني. ويطرح المؤلف من خلال هذا الكتاب الأبعاد الجديدة للصراع العثماني - الإنجليزي على قطر والبحرين. مع بداية عام ١٨٧٢م صارت ساحات النفوذ ما بين القوتين الكبيرتين بالمنطقة محل نزاع بمختلف الوسائل مع عدم التوصل إلى نتيجة حاسمة.

يستعرض كتاب "قطر تحت الحكم العثماني" لمؤلفه زكريا قورشون مسألة الحكم التركي لمنطقة خليج البصرة حيث تقع قطر في موقع إستراتيجي مهم، وهو الأمر الذي جذب اهتمام كل من البرتغاليين في القرن السادس عشر والهولنديين في القرن السابع عشر والإنجليز في القرن الثامن عشر لوجودها على الطريق الذي يربط أوروبا بالمياه الدافئة، وامتداد طرق تجارة الهند إلي تلك الأماكن. طريق الحرير. يستهل قورشون الكتاب بتمهيد تاريخي للتوسع العثماني إلى ساحل الخليج في عصر السلطان سليم الأول(١٥١٢-١٥٢٠م)، لكن الحكم الفعلى تأسس في عهد السلطان سليمان القانوني حسب قوله وذلك في إطار السعي لتأمين حكمه لبغداد والبصرة حيث وقفت الدولة العثمانية في وجه البرتغاليين الذين شكلوا خطرًا كبيرًا على العالم الإسلامي، وعلى طريق الحرير. ويذكر المؤلف أن مدحت باشا والي بغداد قرر الذهاب إلى الأحساء، ومر في طريقه بموانئ الكويت ورأس التنورة والقطيف وقطر ونجد، حيث ضمها تحت اسم "متصرفية نجد" (لواء نجد) واعتبر كل من القطيف وقطر ساحات النفوذ. يشير المؤلف إلى الأبعاد الجديدة للصراع العثماني- والإنجليز على قطر والبحرين. مع بداية عام ١٨٧٢ صارت ساحات النفوذ ما بين القوتين الكبيرتين في المنطقة محل نزاع بمختلف الوسائل مع عدم التوصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الصدد، لأن الدولة العثمانية جعلت من قطر قضاءً تابعًا للأحساء وأظهرت حكمها الفعلي فيها [1].

كما بذل الإنجليز في المقابل جهودًا كبيرة لإثبات النفوذ في البحرين لمنع جهود الدولة العثمانية من بسط نفوذها على البحرين، حتى لا ينسحب هذا الإجراء على مناطق أخرى

(١) زكريا قورشون: قطر في العصر العثماني.

بالخليج. فى الوقت نفسه سعي الإنجليز إلى الحصول على نتائج سياسية بحجة الاضطرابات الموجـودة بالمنطقـة والقرصنـة البحرية، لاسـيما بعد حادث سـرقة بعض البضائـع التابعة لرعايا من الإنجليز عام ١٨٨٧م الأمر الذى على إثره أرسلت البحرية البريطانية بعض القطع الحربيـة للمنطقة، في اسـتعراض للقوة، لاسـترجاع تلـك البضائع. كما رفضـت بريطانيا معاملـة موظفـي الدولة العثمانية لأهالي البحرين على أنهـم من المواطنين العثمانيين مثل ما هـو متبع في نجد والبصرة وباقـي الولايات العثمانية. رد الفعل كما كانت الدولة العثمانية ترفـض وسـاطة القناصـل الإنجليـز فـي أى دعاوي تنشـأ مـا بيـن البحرينييـن والمواطنين العثمانييـن الآخريـن، على اعتبار أن الطرفيـن من رعايا الدولة العثمانيـة، وهو الأمر الذي كان دائمًـا مـا يرفـع من مسـتوي رد الفعل البريطانـي. ويذكر المؤلف أنه فـي ٢٠ فبراير ١٨٨٨ قرر مجلس الوزراء العثماني ضرورة بحث الطريقة المثلي لإدارة منطقة نجد والأحساء (بمـا فيهـا قضاء قطر) بشـكل يمنع التدخل الأجنبى. إن الدولـة العثمانية التى أرادت وضع سـواحل البحرين وقطر تحت سـيطرتها سـعت إلى إعداد البنية السياسـية والإدارية اللازمة لذلك وتجنب الأحداث التى من الممكن أن تعيق ذلك بقدر المسـتطاع. وبالتالي وقفت ضد المسـاعي الإنجليزية لتوسـيع النفوذ، ومنعت علـى أي من الموظفيـن الإداريين أو الحكام المحليين القيام بأي عمل يعطي الفرصة للتدخل الإنجليزي. كما يستعرض الكتاب علاقة قضـاء قطـر بالمشـايخ الأخرى المجاورة له حيـث يرى أن التقاليد وصراعـات فرض النفوذ على القبائل والعلاقات الاقتصادية بين القبائل والمناطق، كانت هي العوامل الواضحة في العلاقات الموجودة بالمناطق ذات الثقافة القبلية مثل قطر.

التوازن الحسـاس رفضت بريطانيا معاملة موظفـي الدولة العثمانية لأهالي البحرين على أنهـم مـن المواطنيـن العثمانيين مثلما هو متبع فـي نجد والبصرة وباقي الولايـات العثمانية. كمـا كانـت الدولـة العثمانية ترفـض وسـاطة القناصل الإنجليـز في أي دعاوى تنشـأ ما بيـن البحرينيين والمواطنيـن العثمانيين الآخرين، على اعتبـار أن الطرفين من رعايا الدولة العثمانية، وهو الأمر الذي كان دائمًا ما يرفع من مستوى رد الفعل البريطاني.

مقدمة الكتاب: قطر في العهد العثماني.

بدأت قطر كإمارة ذات كيان سياسي يحكمها أمراء (شيوخ) من آل ثاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت هناك أرتباطات سياسية واقتصادية بين حكام قطر وكل من حكام نجد آل سعود، وحكام البحرين آل خليفة، بحكم ارتباط شبه جزيرة قطر بريًا بأرض الجزيرة العربية حيث يحكم آل سعود، وارتباطها بحريًا بمواجهة جزر البحرين، إلى جانب ترحيب القطريين، وفي مقدمتهم آل ثاني، بدعوة التوحيد السلفية (الوهابية) بالإضافة إلى الارتباط بين القبائل العربية، في شبه الجزيرة القطرية وفي جزر البحرين ارتباط قربى وتعاون في مجالات صيد اللؤلؤ والتجارة فيه وفي غيره من السلع.

ظهرت قطر كوحدة وطنية سياسية في عهد الشيخ محمد آل ثانى حيث نقلت من النظام القبلي إلي نظام الدولة ذات المفهوم الجغرافي والسيادة على أرض معينة ويمكن اعتبار ظهور قطر كوحدة سياسية في الستينات من القرن التاسع عشر بداية لتاريخ قطر الحديث، فقد كانت شبه الجزيرة القطرية قبل هذا الزمن تعيش كغيرها من أجزاء ومناطق في شبه جزيرة العرب، سواء على سواحل الخليج أو في الداخل في ظل، تنظيمات قبلية تتخذ لها مضارب في مواطن متفرقة من شبه جزيرة العرب.

وهذا يعني أن شبه جزيرة قطر لم يكن لها كيان سياسي ذاتي قبل الشيخ محمد آل ثانى، وليس هذا بغريب أو بشي غير منطقي، فإقليم نجد على سبيل المثال لم يعش وحدة سياسية ولم يظهر بشكل كيان سياسي مستقل قبل آل سعود، وإن كان يجب أن ندرك أن وحدة قطر السياسية في عهد الشيخ محمد بن ثانى لم تكن كاملة أي اننا لا نستطيع أن نقارنها بالوحدات السياسية التى تقوم في زمننا المعاصر كقيام دولة قطر المستقلة ذاتها في أول السبعينات من القرن العشرين وغيرها أمثلة كثيرة.

إذا نظرنا إلى الشيخ محمد بن ثانى باعتباره صاحب الأساس في ظهور قطر كوحدة سياسية. فإننا نجد ابنه الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى قد حقق الوحدة الوطنية في شبه الجزيرة قطر، بعد أن عاشت قطر في ظل انقسامات قبلية تخضع بعض القبائل القطرية للبحرين، والبعض الآخر يخضع لآل سعود، وغير هؤلاء وهؤلاء القبائل لا تدين بالولاء لأحد[1].

ولرب قائل أن الوحدة الوطنية التى عمل على تحقيقها الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى

---

(١) د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي صفحة ١٥٥.

لم تكن شاملة وان بعض القبائل القطرية خرجت عن الوحدة الوطنية وهذا حقيقي ولكنه في نظرنا لا يقلل من جهود الشيخ قاسم في سبيل إرساء قواعد الوحدة الوطنية وتدعيمها والمحافظة على بقائها واستمرارها ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار الظروف غير العادية التى تحيط بقطر سواء في الداخل أو في الخارج.

ويمكن للباحث ملاحظة أنه في الوقت الذي لم يكن من السهل فيه انضواء جميع قبائل قطر في ظل وحدة وطنية وتحت راية كيان سياسي ذاتي واحد - ونحن نعلم أن القبائل لم تتعود مثل هذه التنظيمات ولا ترضى بغير التحرر من أية سلطة بديلا-كانت قطر هدفا لمؤامرات وتدخلات خارجية ، أي من خارج شبه جزيرة قطر، سواء كانت من البحرين أو من الساحل العماني أو من الإنجليز أو من الأتراك.

ومهما يكن من شيء فإن الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر قد تحققت إلى حد كبير على يد الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى، ويجب أن ننتبه إلى أن كل شيء في أوله يبدأ صغيرا ، وكما يذكر المؤرخون بأن لكل حدث تاريخي بداية وذروة ونهاية ، وأن نهاية الحدث بداية لحدث تاريخي آخر وهكذا ، فإن الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى كان بداية لا بأس بها على طريق تحقيق وحدة وطنية شاملة وقوية في شبه جزيرة قطر، وليس هذا مما يقلل من جهد الشيخ قاسم في هذا السبيل بقدر ما يعطيه حقه من التقدير في ظل الظروف التى تحيط بشبه جزيرة قطر والتى ذكرناها.

صروح الوحدة الوطنية

تسليم قبائل قطر بزعامة آل ثانى:

لعل أول صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر والتى جاهد الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى من أجل تحقيقها ، هو تسليم قبائل قطر بزعامة الشيخ قاسم وبالتالى بزعامة قبيلة آل ثانى على شبه جزيرة قطر. وهذا التسليم يثير تساؤلات عن أسبابه وطبيعته، ولعلنا لا نجافي الصواب إذا ذكرنا أن سبب تسليم القبائل العربية القطرية بزعامة آل ثانى كان بسبب حاجة هذه القبائل إلى من يجمع شملهم وينهي خلافاتهم مع بعضهم البعض، بل وإلى من يقودهم في الدفاع عن أراضيهم وأموالهم وأرواحهم ضد اعتداءات المغيرين على شبه جزيرة قطر.

وكان آل ثانى هم الذين تتحقق فيهم هذه المواصفات رغم عدم كونهم أكبر القبائل القطرية عددا ، إذ ليست العبرة بكثرة أفراد القبيلة وإنما العبرة بما تمتاز به القبيلة من

سـرعة الحركـة والوحـدة الداخلية والزعامة الواعيـة والثروة حتى ولو كانـت القبيلة التى تمتـاز بـكل ذلك أقل في عـدد أفرادها من غيرها من القبائل، ويجـب أن نلاحظ أن الثروة التـى تمتـع بها آل ثانى منذ عهد الشـيخ محمد بن ثانى قد أوصلت الشـيخ محمد نفسـه إلى مركـز الزعامـة علـى شـبه جزيرة قطـر كما عُرف لـدى المؤرخين الأجانب باسـم شـيخ الدوحـة[1] كمـا أن تلك الثـروة مكنت آل ثانى من تأليف القبائـل القطرية معهم، ومنحتهم مركزا مميزا بالنسبة للقبائل الأخرى. كما يجب أن ندرك أن قبيلة المعاضيد التى ينتسب لها آل ثانى من القبائل المتحضرة في منطقة شـرق الجزيرة العربية[2] وهذا سـبب آخر يدعو القبائل القطرية إلى التسـليم بزعامة آل ثاني على شـبه جزيرة قطر ويمكن أن نضيف سببا آخر لتسـليم القبائل القطرية بزعامة آل ثانى على شـبه الجزيرة القطرية، هذا السبب يتمثل في أن آل ثانى راعوا كيانات القبائل الأخرى في شبه الجزيرة[3].

وأمـا عن طبيعة تسـليم قبائل قطر بزعامة آل ثانى على شـبه الجزيـرة القطرية فأنه وأن لـم يكـن قد نضج بعد بين هـذه القبائل الوعى السياسـي وتقدير أهمية الوحدة السياسـية لشـبه جزيرة قطر ذات الوحدة الطبيعية، إلا أن إحساسـهم بها سوف تحققه الوحدة الوطنية مـن خير لهم دفعهم إلى الانتظام في الإطار الوطنى لشـبه جزيـرة قطر كاملة بعد أن كان مفهومهم عن الوطن لا يتعدى حدود مضارب القبيلة من الأرض. ومن ثم فأنه ما أن عاد الشيخ قاسـم بن محمد آل ثانى إلى قطر ضمن التسـويات التى تمت في نهاية عام ١٨٦٨م بين قطر والبحرين وبريطانيا كان أول عمل أقدم عليه أن أمسك بزمام السلطة في شبه جزيرة قطر وقام يدعو العشـائر كلها إلى الاسـتقلال فلبت دعوته[4]، من خلال إحساسـها - أي القبائل القطرية- بما سيتحقق لهم في ظل الوحدة الوطنية.

إحساس القبائل القطرية بالانتماء

للعروبة والإسلام

وثانــى صـروح الوحـدة الوطنية في شـبه جزيرة قطر يتمثل في إحسـاس أهلهـا بالانتماء للعروبة والإسـلام، فإن العروبة في قطر قديمة قدم وجود الإنسـان بشبه الجزيرة القطرية، والإسـلام دخلها على يد الصحابي " العلاء بن الحضرمى" في العام السادس للهجرة المحمدية

(١) عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر (١٨٦٨- ١٩١٦) صفحة ٢٣.
(٢) نفس المصدر : صفحة ٢٤.
(٣) د. صلاح العقاد : المرجع السابق صفحة ١٥٦.
(٤) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي (١٨٤٠- ١٩١٤) صفحة ٢٣٥.

ومن ثم كان أثر العروبة والإسلام عند قبائل قطر دافعا إلى الانضواء في إطار وحدة وطنية هويتها العروبة وعقيدتها الإسلام، وبالتالى وجدنا معظم هذه القبائل وعلى رأسهم الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى يرحب بدعوة التوحيد التى انبعثت في نجد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحملها إلى قطر آل سعود، لأن هذه الدعوة جددت في نفوس قبائل قطر- كما جددت في نفوس كل العرب والمسلمين أينما كانوا - الانتماء العربي الإسلامي في إطاره الصحيح.

ويمكن أن نحدد بدء دخول الدعوة الوهابية إلى شبه جزيرة قطر حين سار "إبراهيم بن عفيصان" القائد السعودى في عام ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م) إلى قطر ومعه جماعة من أهل الخرج والفرع[١]، فيما عدا الزيارة التى تحصن بها العتوب، ولكن إبراهيم بن عفيصان "شدد هجماته على الزبارة فعول العتوب على الرحيل من الزبارة وساروا إلى البحرين وأخضعوها لحكمهم[٢]. وبهذا صارت الزكاة تحصل لحساب السعوديين من جميع القبائل تقريبا التى تنزل بين قطر وعمان ومعظم قبائل قطر وصار آل ثانى يدفعون هذه الزكاة نيابة عن القبائل القطرية التى تسلم بالولاء لهم[٣].

وعمل الشيخ محمد بن ثانى - الذي اعتنق الوهابية - وكيلاً للسعوديين في قطر فكان مسئولا عن جمع الضريبة - الزكاة- من القبائل القطرية ويسلمها بعد ذلك إلى إمام السعوديين في نجد - الإمام فيصل بن تركي-وذلك في الفترة من عام ١٨٥١م إلى عام ١٨٦٦م ومن المعلوم أن الدولة السعودية الثانية التى أقامها فيصل بن تركي قد انتهت عام ١٨٦٦م[٤]. وأن ظل القطريون يشايعون السعوديين ويؤيدون حكمهم بل انخرطوا في اعتناقهم للطريقة السلفية[٥].

تقدير الشيخ قاسم للطبيعة القبلية

وثالث صروح الوحدة الوطنية في قطر تقدير الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى لطبيعة القبائل العربية عامة بما فيها القبائل القطرية بطبيعة الحال من حب الثورة على السلطة والظلم، ومن هذا التقدير عمل على امتصاص كل محاولة تحدث من بعض القبائل القطرية للخروج على الوحدة الوطنية بالترضية المعنوية أو المادية تارة وبشدة تارة أخرى، مع العفو عن الخارجين

---

(١) حسين بن غانم : تاريخ نجد - صفحة ١٨٠.

(٢) حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين، صفحة ١٠٢.

(٣) مركز أبحاث شركة أرامكو: عمان والساحل الجنوبي الخليج الفارسي صفحة ٢٨٠.

(٤) عبد العزيز المنصور : المرجع السابق صفحة ٢٤.

(٥) لوريمر : دليل الخليج- القسم التاريخي جـ ٣ صفحة ١٢١٤.

أكثر من مرة حتى يتعود الخارجون على احترام السلطة والتمسك بالوحدة الوطنية.

ومن الأمثلة على الترضية التى لجأ إليها الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى مع القبائل القطرية ما ترويه الوثائق عن ترضية لقبيلة البوعينين عام ١٩٠٨م ذلك أن السفير البريطاني بالآستانة أبلغ السير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية بفحوى رسالة وصلت إليه من القنصل البريطاني بالبصرة تفيد أن القائم بعمل والي البصرة العثماني قد أخبره أي أخبر القنصل البريطاني - أن الشيخ عبد الرحمن البوعينين قد تخلى عن منصب مدير "الوكرة" إحدى مدن شبه جزيرة قطر جنوب الدوحة ، وأن قبيلة البوعينين قد بعثت وفدًا من رجالها إلى والي البصرة يطلب إقامة مركز عسكرى تركي بالوكرة[١].

وقد أوضح القنصل البريطاني في البصرة أن المقيم البريطاني في (بوشهر) بالخليج يخشى من أن بعثة قبيلة بوعينين قد تؤدي إلى مزيد من التدخل التركي في شبه جزيرة قطر خاصة والخليج العربي بصفة عامة استنادا إلى السيادة التركية على هذه الأجزاء ، وعلية فإن القنصل البريطاني سيوضح للوالي العثماني بالبصرة خطأ الاستماع إلى أي طلبات تطلبها قبيلة البوعينين[٢] ولا يخفي علينا هذا الموقف البريطاني الذي يسعى إلى منع الأتراك من اتخاذ أيه خطوات إجرائية نحو قطر يكون من شأنها تأكيد السيطرة التركية في الوقت الذي تحاول فيه السلطات البريطانية إبعاد اليد التركية عن شبه جزيرة قطر بل وعن بقية مناطق الخليج التى للأتراك ادعاءات عليها ، ومما لا شك فيه أن هذا الموقف البريطاني قد أفاد الوحدة الوطنية القطرية ولو بطريقة غير مباشرة وغير مقصودة.

كما أن المقيم العام البريطاني في الخليج قد كتب من "بوشهر" إلى القنصل البريطاني بالبصرة من أجل توجيه نظر الوالي التركي بالبصرة لكي لا يشجع مطالب وفد قبيلة البوعينين ويبلغهم باستعداد الممثل البريطاني بالبحرين للذهاب إلى قطر وإزالة سوء التفاعم بين قبيلة البوعينين والشيخ قاسم بن محمد آل ثانى[٣].

ولكن الشيخ قاسم أتخذ خطوة ايجابية من أجل الحفاظ على الوحدة الوطنية القطرية وجاءت هذه الخطوة ترضية لقبيلة البوعينين ، وتفصيل ذلك أن الشيخ قاسم توجه من "لوسيل" إلى الدوحة ، وبعث ابن أخيه خالد بن محمد آل ثاني إلى الوكرة حيث طلب من

(1) F.O. 424, Confidential (9482): Further correspondence respecting the Affairs of Asiatic Turkey and Arabia, 217: Sir G. Lowther to Sir Edward Grey, pero, December 15, 1908, piece 68.

(2) bid, Inclosure 1 in No, 68 consul Crow to Sir Gerald Lowther, Bussorah, November 20, 1980.

(3) bid, Inclosure 2 in No, 68 British Resident, Bushire (M) E. Raejto consul Grow. Bushire, November 17, 1908.

قبيلة البوعينين عقد لقاء مع الشيخ قاسم، وقد لبى زعماء البوعينين الدعوة وقد حرص الشيخ قاسم في هذا اللقاء على تذكير البوعينين بالصداقة القديمة المستقرة والمحبة الدائمة بين المعاضيد- قبيلة الشيخ قاسم- والبوعينين، ووعدهم بأنه سيعمل هو وأبناؤه من بعده على عدم اللجوء إلى أية إجراءات قد تشوب العلاقات الودية بين البوعينين وآل ثانى. وقد تقبل زعماء البوعينين هذه التأكيدات بالرضا والقبول وقرروا البقاء في الوكرة كما كانوا قبلا. ومن ثم زار الشيخ عبد الرحمن - زعيم البوعينين - رؤساء عشائر وأسر البوعينين وطمأنهم وهذا يعني نجاح الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى في ترضية قبيلة البوعينين ترضية معنوية[1].

كما تروى المصادر عن كيفية معالجة الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى لفتنة محمد بن عبد الوهاب الذي يتنمي إلى الرعوية التركية والذي كان زعيمًا للغارية وتآمر ضد الشيخ قاسم في عامى ١٨٨٦م و ١٨٨٧م، على أمل أن يتزعم هو - أي محمد بن عبد الوهاب - شبه جزيرة قطر، ومحمد بن عبد الوهاب آل فيحان من قبيلة سبيع كانت تربطه علاقة مصاهرة مع آل ثانى، كما كان تاجرا للؤلؤ ومستشارًا للشيخ محمد بن ثانى بالإضافة إلى تزعمه قبيلة آل كوارة بسبب مصاهرته لهم وأقام في بلدة- "الغارية" وهي من أهم قرى قطر، وقد حاول الأتراك الاعتماد عليه كمنافس للشيخ قاسم بن محمد آل ثانى الذي رفض المشاريع التركية لتقوية السلطة التركية على قطر[2].

وبدأت تحرشات محمد بن عبد الوهاب عندما اقترح ضباط البحرية التركية المسئول عن سواحل قطر أن يسمح لأهل الغارية بالإقامة في سلام تحت حكم محمد بن عبد الوهاب، وسافر محمد بن عبد الوهاب إلى الأحساء- بعد أن أقترح إقامة دار تركية، ولقد اثارت هذه الإجراءات غضب الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وهدد بالإنسحاب من الدوحة.

واستنادا إلى المساعدات والمساندة التركية بنى محمد بن عبد الوهاب في الغارية قلعة كبيرة محصنة ودعا جميع أثرياء البلد إلى سكناها، وأخذ يجمع الناس والقبائل حوله ويبذل الأموال في سبيل ذلك وهو لا يدرى أنه يهدم الوحدة الوطنية القطرية أو يدرى ولكنه في سبيل زعامة قطر لا يبالي، وأخذ يستثير الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى بتصرفات غير مسئولة، مما دفع الشيخ قاسم إلى التصميم على تخليص قطر من هذه الفتنة واستعادة

---

(1) bid, Inclosure 3 in No, 68 : Extracat form the Diary of the Bahrein political Agency for the week Kending, No- vember 13, 1908, Item 354, November 7.

(٢) عبد العزيز المنصور: المرجع صفحة ٢٨.

الوحدة الوطنية القطرية لقوتها، فجمع قواته والمتحالفين معه وأتجه إلى حيث تجمع محمد بن عبد الوهاب والملتفين حوله، ولما حل الشيخ قاسم بساحتهم قتل بعضهم وصادر أموالهم ثم عفا عنهم واستقل بالإمارة[1]، أما محمد بن عبد الوهاب فقد انتقل بعد هذه المعركة إلى بلدة دارين على ساحل الأحساء هو وجماعته حيث استوطنها[2].

ويبدو أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى قد حزن لهذا الخروج على الوحدة الوطنية القطرية، وأن بذل في سبيل إنهاء هذا الخروج جهدا كبيرا، فعبر عن كل ذلك بشعر مرهف أختتمه بإبراز فضل الله عليه الذي نصره ودعا ابنه، الشيخ على بن قاسم، إلى التمسك بحبل الله المتين لكي يحوز النصر دائمًا.

ومن هذا الشعر نسوق الأبيات الآتية:

أرى الجفن والنوم ما يألف الكرى ... إذا هم في بعض الهمم والمطالب

قمم يانديبى وارتحل عيد هية[3] ... عمانية من ساس هجن نجايب

فأنالى على كل البوادى قدايم[4] ... أذا نابهم سنة الغلا والحرايب[5]

أبذل لهم نفسى ومالى وعصبتى ... وحصن لهم موجبات النوايب

ويقول:

فلا خير فيمن يتبع الهون والردى ... ورزقه سؤال بين معطي وطالب

يلوموننى العزال في مطلب العلا ... يقولون يسلك بك دورب صعايب

فلولا ركوب الصعب في كل شدة ... وصبر على شداتها والكرايب

مالذ في الدنيا لذيذ ومطعم ... ولا لذ لي فيها لذيذ المشارب

ويقول:

ولينا وعفينا وجدنا بعتقهم ... وجدنا لهم بأموالهم والربايب

ويقول لأبنه:

تمسك بتقوى الله وأخلص له العمل ... بعلم على حق صواب وصايب

(١) ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى صفحة ١٦.
(٢) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ١٤٧.
(٣) عيد هية: من صفت الناقة الطيبة.
(٤) قدايم: يعنى معروف سابق.
(٥) الحرايب: الحروب وما يتبعها من تلف وشدة.

ترى من أطاع الله طاعت له الملا وذلت له رقاب الملوك الصعايب

وأجابه ابنه الشيخ علي بن قاسم بقوله:

لك الحمد يامن هو لنا في النوايب معين على شداتها بالوهايب

فقد رابنى من يمة الغرب دولة طوابير روم[1] مخنتين غضايب

وقد رابنى من يمة الشرق دولة نصارى يدورون[2] الحجج والسبايب

ونادى لهم من يمة العجم شوشة تحامو علينا مدعين طلايب

وثوب لهم[3] من يمة الجدى[4] دولة خاليط فيها من بعيد وقرايب

ومع ذا وفي الشيخ اليماني[5] عصابة أهناوية فينا تدور الضرايب

تعاطوا علينا بالعداوة جميعهم ولا ثمنوا دوراتها والعقايب

فما نجد الوالي واسع العطا بحيث أن يجعل فينا عطيب الضرايب[6]

---

(١) طوابير روم: يعنى عسكر الدولة العثمانية.

(٢) النصارى: يقصد بهم الإنجليز الذين يثيرون الفتنة ويبحثون عن أسبابها.

(٣) ثوب لهم: استجاب لهم.

(٤) من يمة الجدى: من جهة الشمال.

(٥) الشيخ اليماني: يقصد الشيخ زايد حاكم عمان حين ذلك.

(٦) عطيب الضرايب: الذي اذا سدد الضرب أصاب هدفه مقتل. والأبيات والتوضيحات من كتاب ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني صفحة ١٦- ٢٠.

المحافظة على استمرار الوحدة الوطنية القطرية في مواجهة التنافس التركي الإنجليزى

ورابع صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر يتمثل في المحافظة على استمرار هذه الوحدة أمام تنافس انجليزى عثماني حول السيطرة على شبه الجزيرة القطرية وسلبها كيانها الذاتي وشخصيتها السياسية، ذلك أن الإنجليز كان لهم نشاط بحري في الخليج تزايد منذ أن قضوا على النفوذ البرتغالي الهولندي هناك، وانفردوا هم بالنفوذ من أجل إحكام سيطرتهم على الهند المستعمرة البريطانية الكبرى.

وكانت انجلترا قد لجأت من أجل فرض نفوذها في الأقطار العربية الخليجية إلى عقد معاهدات مع حكام هذه الأقطار تعطي لانجلترا نفوذا كبيرا بوضع أقطار الخليج العربية تحت الحماية البريطانية، وذلك منذ أوائل القرن التاسع عشر وتمثل معاهدة عام ١٨٦٨م التى وقعها الشيخ محمد بن ثانى والد الشيخ قاسم أول أتصال رسمي بين قطر وبريطانيا تعهدت فيها قطر بألا تخرق السلم البحري وأعترف فيها الشيخ محمد بن ثانى بسلطة المقيم البريطاني بالخليج في فض المنازعات والخلافات الناجمة عن تطبيق المعاهدة[1].

واعتمدت السياسة البريطانية اعتمادا كبيرا في تنفيذ خططها وسيطرتها على قطر بتعميق الخلافات الشخصية بين شيخ الدوحة - الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى - ورؤساء القبائل والعشائر القطرية وشيوخ البحرين، وتثير المشكلة تلو المشكلة لتتمكن من إحكام سيطرتها وإجبار الأطراف المتنازعة على طلب مساعدتها سواء بالسلاح أو التأييد المادى والمعنوى[2]، ولكن ظهور الأتراك في الخليج العربي واحتلالهم لقطر قد أضر بتنفيذ مخططات انجلترا الاستعمارية لظهور قوة كبيرة في المنطقة[3].

وكان العثمانيون الذين فرضوا سلطاتهم على العراق منذ عام ١٥١٤م ومصر والحجاز منذ عام ١٥١٧م قد تطلعوا إلى الخليج، فقام جيش عثماني بالاستيلاء على الأحساء عام ٩٦٣هـ الموافق ١٥٥٥م وظلوا بها حتى أستخلصها منهم براك بن غرير من بنى خالد عام ١٠٨١هـ الموافق ١٦٨٣م تقريبًا[4] ثم عادوا مرة أخري إلى الخليج بعد أن استقر الأمر لهم

(١) د. جمال الدين قاسم: الخليج العربي (١٨٤٠- ١٩١٤) صفحة ٤٧٢.
(٢) نفس المرجع صفحة ٢٣٦.
(٣) د. سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة صفحة ٦٣.
(٤) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث وملحقاته صفحة ٧٣.

فــي العــراق، ومن ثم رأيناهم في أقطار الخليج العربــي ابتداء من أوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر.

ومــع وجود الأتــراك في الدوحة منذ عام ١٨٧١م الذي يمكن وصفه بالاحتلال المباشــر أطلقــوا يــدي آل ثانى في مزاولة الســلطة وإدارة شــئون قطر، ومن ثم قامت سياســة الشــيخ قاســم بــن محمد آل ثانى في الفترة من ١٨٧١إلــى ١٨٩٣م على التحالف مع الأتراك، ولكن تلك السياسة تحولت من عام ١٨٩٣ إلى ١٩١٣م في اتجاه التحالف والاعتماد على بريطانيا، وكان الســبب المباشــر لهذا التحول هو محاولة الأتراك تقوية قبضتهم على قطر من خلال مشــروع عاكف بك متصرف الأحســاء في إقامة إدارة تركية مباشرة في قطر وانشاء إدارة للعوائــد الجمركيــة[1]، ولا شــك أن كل ذلــك يضعــف من الوحــدة الوطنيــة القطرية ذات الكيان السياسى الذي يرعاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى، والذي اعتبر شروع "عاكف بك" تدخلا مباشــرا في ســلطاته وحدا من الاستقلال الذي تمتعت به قطر منذ عام ١٨٦٨م، وبالتالى تعود قطر إلى عهد ما قبل الوحدة الوطنية، ولعل هذا يفســر لنا بحث الشــيخ قاسم عن حليف آخر للمحافظة على الوحدة الوطنية القطرية.

وأمــام أطمــاع كل من انجلتــرا وتركيا في قطر، ونظــرا لتفوق القوتيــن أمام قوة قطر العســكرية، فقد قبل الشــيخ قاســم بن محمد آل ثانى رفع العلم التركي في الدوحة منذ عام ١٨٧١م رغم معارضة الشيخ محمد الذي يرفع العلم العربي على بيته[2]، وكان الأتراك قد أرسلوا قوة عسكرية إلى شبه جزيرة قطر في ذلك العام بأمر"مدحت باشا" والي العراق التركي بعد أن احتلت القوات التركية ميناء القطيف بالأحساء.

ويبدو أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى قبل التعاون مع الأتراك بحكم أنهم القوة البرية الإسلامية التى تعاون معها من قبل آل الصباح بالكويت، وأنه قبل بالوجود التركي من أجل مناواة ســيطرة بريطانيا البحرية في الخليج، ويدل علــى ذلك التحركات المحمومة للمقيم العام البريطاني ومساعده في الخليج عقب نزول قوات العثمانيين ورفع علمهم في قطر، وقد استطاع الشيخ قاسم تهدئة ثائرة الإنجليز دون أن يستجلب عداءهم.

وكان النفوذ التركي لا يتعدي حدود مدينة الدوحة وضواحيها القريبة، وسحبت تركيا عــام ١٨٧٢م قواتها النظامية التى كانت في مدينــة الدوحة وأبدلتها بثلاثين رجلاً من رجال

---

(١) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق ٢٦- ٢٧.

(٢) العلم العربي هو علم الهدنة الذي قبل حكام الإمارات العربية الخليجية رفعه على بلادهم احتراما للسلم البحري مع بريطانيا. عبد العزيز المنصور. المرجع السابق صفحة ١٤.

الضبطية أى الشـرطة، وأصبحت قطر قائمقامية تتبع لواء الأحساء الذي يحكمه متصرف يخضع لوالي ولاية البصرة، ويتبع قائمقامية قطر بعض القرى الصغيرة على رأس كل منها مدير يخضع إلى قائمقام قطر وكان الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى أول قائمقام لقطر[1].

ولم يكن الشيخ قاسم ليقبل بوجود الأتراك في الدوحة على حساب الوحدة الوطنية في قطـر، ولذلك رأيناه يقبل من الأتراك منصـب قائمقام لحكم قطر عام ١٨٧٦م، في الوقت الذي بدأت فيه تركيا تروج لفكرة الجامعة الإسلامية، ولم يجد الشيخ قاسم غضاضة في أن يقبل هذا المنصب في هذا الإطار الإسلامي الذي وجد صدي كبير بين الزعماء العرب والمسلمين، وطالما لم يتدخل الأتراك في زعامته الداخلية ركيزة الوحدة الوطنية.

إلا أن الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى كان على استعداد لاتخاذ موقف العداء من الأتراك إذا شـعر بمؤامـرات يحيكونهـا ضـد وحدة قطـر الوطنية، ومـن ثم نجد لـه مواقف وطنية أمـام محـاولات الأتـراك إحكام قبضتهم على قطر خـلال أعـوام ١٨٨٩/ ١٨٩١م، خاصة عندمـا أصرت تركيـا على إقامة إدراة تركية مباشـرة في قطر، وفـرض التنظميات التى رأت السـلطات التركية تنفيذها بسـبب وقف الامتداد المالية غير المحسـوبة التى يحصل عليها الشيخ قاسم من خلال فرض الضرائب[2] ومحاولة الوالي التركي في البصرة إحكام السيطرة التركية على قطر بتعيين مساعد لقائمقام قطر الشيخ قاسم دون موافقة الأخير، وتعييـن مديريـن للزبارة والعديد وتجهيـز تركيا قوة قوامها أربعمائة جنـدى لتقوية الحامية التركية في قطر[3].

ولم يكن الشـيخ قاسـم بن محمد آل ثانى ليقبل تلك الإجراءات التى تنتقض من سـلطته وتهدد الوحدة الوطنية القطرية، ولذلك حدث الصدام بين قطر والأتراك بدأ بإذاعة الشـيخ قاسم عن عزمه في الاستقالة من منصب القائمقام على قبائل شبه جزيرة قطر، وأن الأتراك تسلطوا على البلاد، وهذا الإعلان كان بمثابة إنذار بالحرب لأن القبائل القطرية التى قبلت بزعامة الشيخ قاسم لم تكن على استعداد لأن تخضع للحكم التركي المباشر بما يحمله لهم من احتلال واستغلال.

وتطـورت الأمور بين الشـيخ قاسـم بن محمد آل ثانـي والأتراك إلى الحـرب بعد أن أيقن من مؤامرات الأتراك وخيانتهم له عام ١٨٩٢م، وجعل من إنشـاء دار للعوائد الجمركية في

(١) نفس المرجع: صفحة ١٤١.

(٢) لوريمر: المرجع السابق صفحة ١٢٢٤.

(٣) سالدانا : الشئون القطرية صفحة ١٦٤.

مدينة الدوحة سببا رئيسا للجهر بعدائه متذرعا بأن الضرائب على التجارة والسفن الوطنية ودخل اللؤلؤ سيترتب عليها هجرة السكان بمجرد تطبيق هذا الإجراء، كذلك علل الشيخ قاسم عدم موافقته على تعيين مساعد له بأنه سيتدخل في الشئون القطرية الخاصة دون مراعاة للروح البدوية والنظام القبلي السائد في التعامل بين الشعب القطري[1].

وبدأت تركيا العداء بإحضار قوة تركية برية قوامها ١٥٠ جنديا وسفينة حربية وجهت نيرانها للدوحة في الوقت الذي لقيت فيه القوة التركية البرية هزيمة منكرة أمام قوات قطر بقيادة الشيخ قاسم بن محمد أل ثانى في ٢٦ مارس ١٨٩٣م، كان من نتيجها إطلاق سراح الشيخ أحمد بن محمد آل ثاني شقيق الشيخ قاسم و ١٢ من أعيان الدوحة الذين احتجزهم الأتراك رهائن قبل المعركة، كما كان من نتيجة المعركة عزل والي البصرة الذي دبر الهجوم على قطر وأدار المعركة بنفسه وهو محمد حافظ باشا.

ونتيجة للسياسة التركية نحو الوحدة الوطنية في قطر، فقد بدأت سياسة التقارب بين قطر والإنجليز، وذلك للأسباب التالية:

١) عجز الأتراك عن التعاون مع الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني من أجل المحافظة على استقلال قطر ووحدتها الوطنية في مواجهة طلبات البحرين المالية والإقليمية.

٢) الاعتداء المستمر للمأمورين والمديرين الذين كانت تعينهم السلطات التركية المسئولة للعمل في قطر علي رعايتهم إلى جانب وقوع منازعات كثيرة بين العسكريين من رجال الحامية العثمانية والقبائل البدوية الضاربة على حدود قطر والتى كانت تدين للشيخ قاسم بالولاء[2]. في إطار الوحدة الوطنية القطرية.

٣) ظهور ضعف الدولة العثمانية بعد هزيمتها أمام الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى، تلك الهزيمة التى تؤدي بالتالي إلى القضاء على مركز الدولة في أعين العشائر البدوية لذا فقد أعلن الباب العالي أن ما فعله والي البصرة كان دون علم منه، فاتجهت الدولة العثمانية إلى التفاوض مع قاسم[3].

لكن أخطر نتائج الصدام بين قطر والأتراك كان إدراك الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى لخطر الوجود التركي، وأنه لابد من عمل توازن في العلاقة مع الأتراك بتحسين علاقته بالإنجليز، ورفض التعاون مع الأتراك على النحو الذي كان قبل معركة ٢٦ مارس

(١) نفس المرجع صفحة ١٦٤.

(٢) الألوسي : تاريخ نجد صفحة ٣٨.

(٣) د. جمال زكريا : المرجع السابق صفحة ٢٤٦.

١٨٩٣م، ففى عام ١٨٩٧م رفض الشيخ قاسم باسم قطر المساهمة في الحرب الدائرة بين تركيا واليونان آنذاك، ورفض الشيخ قاسم قبول دعوة من متصرف الأحساء التركي لزيارة المتصرفية ومعه شقيقه الشيخ أحمد.

وقد ظل الأتراك موجودين بقطر حتى جلوا عنها أثناء الحرب العالمية الأولى ولكن مع اعترافهم بآل ثانى كزعماء لقطر الموحدة، وإذا كان الشيخ قاسم قد اعتزل منصب القائمقام بعد معاركه مع الأتراك فأن الأتراك لم يعترفوا إلا بزعامته وعهدوا إلى شقيقه أحمد بمنصب مساعد القائمقام مع استشارة الشيخ قاسم في كل الأمور، رغم ما ذكره متصرف نجد من أن الشيخ قاسم تغلب عليه الطبيعة البدوية من خشونة مما أدى إلى عدم تأثير نصائحي ونصائح أسلافي بحسب المناسبات الملائمة من حيث المكان والزمان، وينصح المتصرف بإبقاء الشيخ قاسم في منصب القائمقام والعمل الملح لإقناعه لآخر نفس بأخذ موافقته لتنفيذ الإجراءات المتصورة[1].

وأما اتجاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى إلى الإنجليز لعمل توازن في علاقته مع الأتراك فإن ذلك يعطي دليلاً على زعامة هذا الرجل وشخصيته، وحرصه على الوحدة الوطنية لقطر، ففي الوقت الذي كان يحمل فيه رتبة القائمقام العثمانية اتصل بالسلطات البريطانية مباشرة، وهذا أمر لم يكن مسموحًا به للولاة العثمانيين ناهيك عن المتصرفين والقائمين.

تقدير الدولة العثمانية لزعامة آل ثانى

وخامس صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر تقدير الدولة السعودية لزعامة آل ثانى، ذلك التقدير الذي تجلي في مواقف كثيرة، كترحيب الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى بالدعوة الوهابية، وترحيبه بقيام الدولة السعودية الحديثة على يد "الأمير" عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، لأن في وجود هذه الدولة العربية الإسلامية الكبري وقوتهافي شبه الجزيرة العربية، وعلى الجانب الآخر من حدود قطر، قوة لوحدة شبه جزيرة قطر الوطنية في مواجهة الأخطار الخارجية.

وكان انتشار الدعوة السلفية في قطر مما يقرب بين آل ثانى وآل سعود، ومن ثم لم يكن غريبا أن نجد الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى يذهب للترحيب بعبد العزيز آل سعود حينما ظهر قرب ساحل السلام أواخر سنة ١٩٠٥م[2].

---

(١) إرادة عسكرية رقم ١٦ في ٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ، صورة التحريرات الواردة من متصرفيه نجد.

(٢) د. صلاح العقاد : المرجع السابق صفحة ١٩٢.

وفي مقابل المساعدات التى تلقاها عبد العزيز آل سعود من الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى خلال سنوات حرب ابن سعود مع ابن الرشيد، وهي المساعدات التى شدت من أزره في وقت المحنة، فقد وجد ابن سعود في الفترة من ٥ يونيو حتى أغسطس عام ١٩٠٥م أنه من الواجب عليه تقديم المساعدة والعون لشيخ قطر أثناء الفتنة الأهلية في إمارته، تلك الفتنة التى كان يقودها أخو الشيخ أحمد بن ثانى والتى كان هدفها انتزاع الإمارة من قاسم[١].

وقد تمثل تقدير آل سعود لزعامة الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى في قبول شفاعة الأخير في آل بسام من عنيزة الذين كانوا من أعداء "الإمام" عبد العزيز آل سعود وغلبهم وأخذ زعماءهم إلى الرياض عام ١٩٠٤م أكثر من عام، ولم يقبل شفاعة أشراف مكة المكرمة وزعماء البصرة حتى تشفع فيهم الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني فقبل "الإمام" عبد العزيز آل سعود شفاعته، وأرسل زعماء آل بسام مع أخيه وخدمه إلى قطر عام ١٣٢٢هـ[٢].

كما تمثل تقدير آل سعود لزعامة الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى أيضًا، في قبول عبد العزيز آل سعود شفاعة الشيخ قاسم في أمير بلاد الحريق- في نجد - المسمى "راشد الهزاني" وجماعته لما شق عصا الطاعة ونقض بيعة الإمام وصار جريرة سوء، أسره الإمام وحبسه في بلاده الرياض ولم يظن أحد أنه يفك أسره أبدا لأنه أجرم جرما كبيرا في الولاية للمسلمين فتشفع فيهم الشيخ قاسم، فأطلعه له الإمام وأرسله مع عبد الرحمن بن سويلم بقطر[٣].

كانت تلك أذن صروح الوحدة الوطنية في شبه جزيرة قطر التى عمل لها الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى طوال حكمه وزعامته لشبه الجزيرة القطرية، وهي جميعًا توضح الجهود المضنية والطويلة التى بذلها الشيخ قاسم في سبيل تحقيق وتثبيت الوحدة الوطنية القطرية أمام قوى أكثر نفوذًا وأوضح أطماعا، وظروفا أكثر صعوبة وذلك على المستويين الخارجى والداخلى. وعندما خلفه في زعامة قطر ابنه الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثانى كانت الوحدة الوطنية القطرية مستقرة اعترفت بها الأقطار العربية في شبه الجزيرة واعترفت بها انجلترا بتوقيع معاهدة بين الطرفين كانت أول اعتراف دولي باستقلال قطر.

---

(١) عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ٢٠٠.

(٢) ديوان الشيخ قاسم محمد آل ثانى صفحة ٣٦.

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة.

قطر قبيل الحرب العالمية الأولى[1]

مقدمة

تحتفل قطر كل عام بعيد استقلالها في الأول من سبتمبر ١٩٧١، عندما وجه الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر، وكان وقتها وليا للعهد ورئيسا لمجلس الوزراء - خطابا إلى شعب قطر أعلن فيه استقلال قطر منهيا بذلك علاقاتها التعاهدية مع بريطانيا وملغيا معاهدة سنة ١٩١٦م، ومبشرا بقيام دولة قطر ذات السيادة التامة والسلطان الكامل على كل مقدراتها في الداخل والخارج على السواء.

وقبل هذا الإعلان كانت هناك أحداث أوصلت قطر إلى الاستقلال، من هذه الأحداث بدء ظهور قطر كإمارة ذات كيان سياسي يحكمها أمراء من آل ثاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكانت هناك ارتباطات سياسية واقتصادية بين حكام قطر وكل حكام نجد آل سعود وحكام البحرين آل خليفة بحكم ارتباط قطر بريا بالأرض السعودية وبحريا بمواجهة جزر البحرين، إلى جانب ترحيب القطريين - وفي مقدمتهم آل ثاني - بالدعوة الوهابية، بالإضافة إلى ارتباط القبائل العربية في شبه جزيرة قطر وفي جزر البحرين ارتباط قربى وتعاون في مجالات صيد اللؤلؤ والتجارة فيه وفي غيره من السلع.

وفي ظل آل ثاني اتجهت قطر في سياستها الخارجية - خاصة في عهد الشيخ محمد بن ثاني وأبنه الشيخ قاسم - إلى النزوع إلى الاستقلال من كل من حكومة الرياض وحكومة المنامة في الوقت الذي أخذ فيه الصراع الإنجليزي التركي يشتد حول النفوذ في مناطق الخليج العربي، فكان على آل ثاني إذن عمل التوازن المطلوب بين هذه القوى المختلفة سواء كان الخليجية أو الخارجية من أجل تأكيد استقلال قطر.

ونتيجة لهذا التوازن، فقد حصلت قطر بموجب اتفاقية ١٢ سبتمبر ١٨٦٨م مع بريطانيا على اعتراف باستقلال قطر، وإن وجدت روابط اقتصادية جمعت القطرين العربيين، قطر والبحرين، بضمان بريطانيا، وهو استقلال مبكر يتناسب في شروطه مع ظروف ذلك العصر، ويضع الأساس لإرساء قواعد الأمن والاستقرار ليس في قطر وحدها بل وفي كل الخليج العربي كله.

كما أن نتيجة لهذا التوازن أيضًا فقد حصلت قطربموجب الاتفاقية التركية البريطانية

---

(١) نشر هذا البحث بالمجلة التاريخية المصرية التى تصدرها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة العدد ٢٧ لسنة ١٩٨٠م.

الموقعة بين الطرفين عام ١٩١٣م على اعتراف القوتين المتنافستين على النفوذ في منطقة الخليج العربي آنذاك باستقلال قطر تحت حكم آل ثانى، ورغم أنه وقعت بعد ذلك بريطانيا في معاهدة ١٩١٦م مع تركيا باستقلال قطر بزعامة آل ثانى كانت نقطة كسبتها قطر وسبقت بها إعلان الاستقلال التام وإنهاء معاهدة الحماية مع بريطانيا في سبتمبر ١٩٧١م.

وفي الصفحات التالية نسجل كيف أدى التوازن الذي عمل له الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى على الاعتراف باستقلال قطر من جانب أكبر قوتين متنافستين على النفوذ في منطقة الخليج العربي وأعني كلا من انجلترا وتركيا. وهو الاستقلال الذي دفعنا إلى إبراز دوره ودور صانعه في تاريخ قطر الحديث والمعاصر.

استقلال قطر ومعاهدة ١٨٦٨م

استفاد الشيخ محمد بن ثانى من الظروف المحيطة بقطر والأحداث العربية التى تعرضت لها منطقة الخليج، وأعني بها الحرب بين القطريين من ناحية وكل من حكام البحرين وأبو ظبي من ناحية أخرى عام ١٨٦٨م، فانضم إلى السعوديين الذين ناصروه، وفاوض المقيم البريطاني في الخليج الكالونيل بيللي Billey باسم القطريين في اجتماع عقد بمدينة الوكرة القطرية.

وقد تمت هذه المفاوضات بتدخل من الكولونيل بيللي، وبموجب الصلاحيات المتعلقة بالأمن البحري، ومن ثم أنشئت عبر هذا التدخل أول علاقة رسمية على شكل اتفاقية مع الشيخ محمد بن ثانى في ١٢ سبتمبر ١٨٦٨م، كانت بمثابة اعتراف بريطاني بالشيخ محمد بن ثانى كحاكم يمثل قطر[١].

وقد أدخلت هذه المعاهدة قطر عضوا في معاهدات الهدنة البحرية، وكانت تقضي في مجملها على ألا يرتكب أهالي قطر أعمالاً عدوانية على البحر، وأعطت شخصيتها الكاملة، واعترف بعدها بآل ثانى حكاما لقطر حتى اليوم[٢].

ومما هو جدير بالذكر أن قطر دخلت متأخرة في معاهدات الهدنة البحرية عن غيرها من إمارات الخليج العربي التى دخلت في هذه المعاهدات منذ عام ١٨٢٠م، تلك المعاهدات التى التزمت فيها هذه الإمارات العربية الخليجية - بعد معركة بريطانيا مع القواسم في رأس الخيمة عام ١٨٢٠م، بنبذ الأعمال العدائية ضد بعضها البعض أو ضد الغير في مياه الخليج وقبول وساطة المقيم العام البريطاني في الخليج في أي نزاع يتعارض مع هذه المعاهدات.

(١) إبراهيم أبو ناب : قطر قصة بناء دولة صفحة ٧١.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر (١٩١٦- ١٩٤٩م) صفحة ١٢٨.

وهذا التأخير في الانضمام لمعاهدات السلم البحري قد جعل لقطر وضعا متميزا حتى عن البحرين التى وقعت معاهدة مماثلة مع بريطانيا عام ١٨٦١م.

وقد تضمنت المعاهدة بين الشيخ محمد بن ثانى والكولونيل بيللي على وثيقتين : الوثيقة الأولى تعهد من الشيخ محمد بعدم خرق المعاهدة البحرية، وهذا التعهد يتضمن خمسة بنود أهمها عودة الشيخ محمد وبقية القبائل القطرية المتحالفة إلى سكن مدينة الدوحة وتعميرها بعد أن تركوها أثناء هجوم حكام البحرين وابو ظبى عليها، وعدم القيام بأي أعمال حربية في مياه الخليج، ورفع أمر أي نزاع ينشأ بين قطر وأية إمارة خليجية أخرى إلي المقيم البريطاني، وأن تكون علاقة قطر بالبحرين علاقة طيبة وأن يدفع الشيخ محمد بن ثانى قدرا من المال وقدره ١٥٫٠٠٠قران(١) لحاكم البحرين كل سنة وذلك عن طريق المقيم البريطاني، ووقع هذا التعهد كل من الشيخ محمد بن ثانى والكولونيل س. لويس بيللي في ٢٤ جمادي الأولي ١٢٨٥هـ الموافق سبتمبر ١٨٦٨م.(٢)

وأما الوثيقة الثانية التى اشتملت عليها معاهدة ١٨٦٨م بين قطر ويمثلها حاكمها الشيخ محمد بن ثانى والمقيم السياسي البريطاني العام في الخليج العربي الكولونيل بيللي فهي عبارة عن تعهد القبائل القطرية بدفع مبلغ ١٥٫٠٠٠ قران سنوي متضامنين وعن طريق حاكم قطر الشيخ محمد بن ثانى الذي يسلمها للمقيم البريطاني الذي يسلمها بدوره لحاكم البحرين من آل خليفة.

وقد نصت هذه الوثيقة على ما يلى:

نقر نحن شيوخ القبائل الموقعين على هذا والمقيمين مع قبائلنا في الأرض القطرية ونوافق على أن ندفع للشيخ علي بن خليفة حاكم البحرين المبالغ المالية التى كنا ندفعها سنويا من قبل لحكام البحرين وهذه المبالغ كلها نسلمها للشيخ محمد بن ثانى شيخ الدوحة الذي يقوم بتسليمها للمقيم العام البريطاني الذي يقوم بدوره بتسليمها لوكيل حاكم البحرين في بوشهر وهذه المبالغ موزعة على النحو التالي حسب نصيب كل قبيلة :

- قبيلة المهاندة تدفع ١٫٧٠٠قران.
- قبيلتي البوعينين والنعيم تدفع ١٫٥٠٠ قران.
- قبيلة سميسمة (قبيلة البوكوارة التى تسكن في سميسمة) وتدفع ٥٠٠قران.

---

(١) يذكر د. أحمد أبو حاكمة في كتابه : تاريخ شرقي الجزيرة العربية نقلاعن تقرير واردن Warden أن "القران" عملة ضربت في فارس وهي تعادل في قيمتها الريال الحجازى.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر (١٨٦٨- ١٩١٦) صفحة ٢١١.

- قبيلة كيليب وتدفع ٥٠٠قران.
- قبيلة السودان وتدفع ١٫٥٠٠قران.
- محمد بن ثانى (زعيم قبائل المعضيد والمسلم) ويدفع ٢٫٥٠٠.
- قبيلة العمامرة وتدفع ٨٠٠قران.
- الجملة ٩٠٠٠ قران

وإذ ندرك نحن الشيوخ المذكورين بأن ما يطالبنا به حاكم البحرين هو ١٥٫٠٠٠قران سنويا وليس ٩٫٠٠٠ المتوزعين على القبائل أعلاه، فأننا نوافق على دفع أي مبلغ إضافي بحيث لا يتجاوز مجموعة ما ندفعه ١٥٫٠٠٠قران والذي يجب أن يصدر به المقيم السياسي البريطاني بعد دراسة الموضوع دراسة قانونية.

وقد تحرر هذا التعهد في ٢٥ جمادى الأول ١٢٨٥هـ الموافق ١٣ سبتمبر ١٨٦٨م، أي في اليوم التالي لتوقيع الوثيقة الأولي[١].

ولم يكن هذا التساهل من جانب الشيخ محمد بن ثانى حاكم قطر إلا تحقيقا لهدف أكبر وهو نيل الاستقلال، وإبعاد النفوذ التركي عن شبه جزيرة قطر وهو النفوذ الذي ظهر فجأه في الأحساء والبحرين حتى يبعد وطنه عن الصراع الأكبر بين القوتين المتنافستين انجلترا وتركيا، وهو يدرك أن قطر لا قبل لها بهذا الصراع، ومن الخير لها عمل التوازن بين القوتين.

ومن ثم لا نعجب أن نجد بريطانيا عن طريق معاهدة ١٨٦٨م تسهم في تأسيس مركز مستقل لقطر عن البحرين لأول مرة في تاريخ شبه جزيرة قطر[٢].

ولكن انجلترا رغم توقيعها معاهدة ١٨٦٨م مع قطر فإنها لم تنجح في فرض نفوذها كاملا بالسرعة التى نجحت فيها في البحرين بسبب امساك الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى زمام الأمور في شبه الجزيرة القطرية من والده الذي بلغ الثمانين من عمره، وكان الشيخ قاسم في الرابعة والأربعين من عمره عندما تسلم زعامة قطر عقب توقيع اتفاقية عام ١٨٦٨م مع البريطانيين، وقد عمل الشيخ قاسم على الاستفادة من مزايا تلك الإتفاقية والتخلص من مضارها عند أول فرصة سانحة. وقد سنحت الفرصة بحدوث غزو تركي لشبه جزيرة قطر عام ١٨٧١م بعد توقيع الاتفاقية القطرية البريطانية لعام ١٨٦٨م بثلاث سنوات حيث اعتبرت تركيا قطر قائمقامية

---

(1) F.O.424, Confidential (10376), part X, : NO. 238, piece NO.492: India Office, to foreign Office, India Office,June 28, 1913. Incolosure 2 in NO.492: Extract form "Aitchisn>s Treaties" 4th edition, vol, XII, P. 148.

(٢) د. جمال زكريا : الخليج العربي (١٨٤٠ - ١٩١٤) صفحة ١٦٠.

عثمانية، واختارت الشيخ قاسم بن محمد آل ثان قائمقام لحكم قطر.

جاء تعيين الشيخ قاسم في منصب القائمقام لحكم قطر اعتراف من تركيا بسلطة آل ثاني على قطر ذات الكيان السياسي، وكان البريطانيون يعترفون بموجب معاهدة ١٨٦٨م بسلطة آل ثاني على قطر المستقلة، وهنا وجد الشيخ قاسم الفرصة سانحة لكي يحقق استقلال شبه جزيرة قطر على طريقته وهو عن طريق الاستفادة من القوتين المتنافستين في التقرب إلى قطر، وذلك بعمل توازن في علاقة قطر بين كل من انجلترا وتركيا. وفي ظل هذا التوازن بين الدولتين الكبيرتين في المنطقة أخذ الشيخ قاسم يعمل علي جمع سكان قطر جميعهم على هدف واحد وإشاعة السلام بينهم وتوحيدهم[١]، أي تحقيق الوحدة الوطنية القطرية ركيزة الاستقلال الكامل المنشود والمحققة لاستمرار المحافظة على الاستقلال.

ولكن يبدو أن كلا من تركيا وبريطانيا لم تقبل بسياسة التوازن بين القوى التى لجأ إليها الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في تعامله معها. فرغم أن بريطانيا سلمت منذ البداية بامتداد السيادة العثمانية إلى بعض أجزاء من شبه جزيرة قطر إلا أنها لم تلبث أن فطنت إلى أغراض الأتراك التوسعية في الخليج العربي فصارت تعارض في امتداد النفوذ العثماني إلى قطر وتعمل في نفس الوقت على تقوية علاقاتها بشيخ البحرين ومساندته في مواجهة الأخطار التى تحدق به[٢].

وتعرض استقلال قطر الذي يحاول الشيخ قاسم صيانته لمؤامرات من قبل الإنجليز والأتراك فبالنسبة للإنجليز فقد انتهزوا تعاون الشيخ قاسم مع العثمانيين بقبول منصب قائمقام قطر وحرضت البحرين لإثارة المشاكل مع قطر بخصوص مسألة السيادة على مدينة الزبارة وعلى قطر بأكملها استنادا إلى أن مدينة الزبارة هي الأرض التى خرج منها آل خليفة وفتحوا جزر البحرين فهي موطن أجدادهم وقد نسوا أن الشيخ ثاني قد ولد في الزبارة واشتغل بالتجارة هناك وعن طريقه وصلت تلك الأسرة إلى ما وصلت إليه الآن، كما أن قطر توقفت عن دفع الأموال السنوية التى كانت تدفعها للبحرين بموجب معاهدة ١٨٦٨م والتى كانت تنتقص من استقلال قطر الكامل، توقفت دفع هذه الأموال عقب ظهور الأتراك في المنطقة أي عام ١٨٧٠م[٣].

واستطاع الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني المحافظة على استقلال قطر باستمرار تقوية

(١) إبراهيم أبو ناب : المرجع السابق صفحة ٧٢.

(٢) محمود شكري الالوسي: تاريخ نجد صفحة ٣٩.

(٣) د. عبد العزيز المنصور : التطور السياسي لقطر(١٨٦٨- ١٩١٦) صفحة ٤٩.

علاقته بالأتراك، ولكن الأتراك ما لبثوا أن راوا في رفضه لبسط سيطرتهم على قطر نزعة استقلالية منه، ومن ثم عولوا على محاربته، ولم تفلح الحرب التى وقعت عام ١٨٩٢م لأن الأتراك هزموا فيها على الأرض القطرية، مما دفع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني إلى الكتابة إلى الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى برسالة يطلب منه تسوية الأمور بين الطرفين واطلاق سراح الأسرى الأتراك والاعتذار عن أن والي البصرة محمد حافظ باشا دبر هذا الهجوم دون علم السلطان، ومن ثم عزله السلطان من ولاية البصرة إرضاءًا للشيخ قاسم، ولا شك أن هذا تعزيز لاستقلال قطر.

ولكن أخطر نتائج هذا الصدام بين قطر وتركيا كان اتجاه الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى إلى التعاون مع الإنجليز الذين أبدوا استعدادهم بعد صدام الشيخ قاسم مع الأتراك لعقد معاهدة حماية مع الشيخ قاسم ولكنه رفض هذا العرض[1]، وعندما عقدت بريطانيا معاهدات محلية في الخليج لتجريم تجارة الأسلحة عام ١٨٨١م مع شاه إيران وعام ١٨٩٨م مع حاكم البحرين، لم يستثن من مثل هذه المعاهدات سوى قطر في عهد الشيخ قاسم التى استطاعت أن تحتفظ بحريتها في هذا المجال إلى ما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وهذا مظهر آخر لاستقلال قطر[2].

الصراع التركي الإنجليزي واستقلال قطر

أثارت محاولات الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر توطيد سيطرتها في الخليج العربي معارضة عند الحكومة البريطانية، ورغم تعدد هذه المحاولات في عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦- ١٩٠٨م) إلا أنها لم تعد ذات تأثير كبير نظرا لانشغال الدولة بأمور أخرى داخل اسطنبول وفي أجنحة الدولة أوروبيا وأفريقيا كثورات اليونانيين وتوسيع الاستعمار الفرنسي من الجزائر إلى تونس عام ١٨٨١م، والاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م.

ولكن الدولة العثمانية عادت في السنوات الأولى من القرن العشرين إلى الاهتمام بأقطار الخليج العربي، ولعل هذا مرده فى الدرجة الأولى إلى الانقلاب الذي حدث عام ١٩٠٨م ضد السلطان عبد الحميد، والذي تزعمه ضباط يتشيعون إلى الأفكار الألمانية وينتمون لما عرف بجماعة الاتحاد والترقى أو تركيا الفتاة ذات الاتجاه التعصبي باعتبار الأتراك جنسا أرقي وأعلي من بقية الأجناس الداخلة تحت السيادة العثمانية ومنها العرب، وقامت

---

(١) إبراهيم أبو ناب : المرجع السابق صفحة ٧٣.

(٢) نفس المرجع صفحة ٧٤.

سيادة جماعة الاتحاد والترقي بالنسبة لمنطقة الخليج على تقوية السيطرة العثمانية هناك، وكانت خططها في العمل تقوم على إضعاف سلطة حكام إمارات الخليج وانضوائهم إلى فكرة الجامعة الإسلامية التى أخذوها عن السلطان عبد الحميد، كما تقوم على استعمال الشدة والعنف ضد القبائل العربية الخليجية، وإرغام شيوخ المنطقة بالقوة على إعلان ولائهم للدولة العثمانية عن طريق فرض الضرائب عليهم وتجنيدهم في الجيش العثماني(١).

وكان حماس المواطنين الأتراك في تحقيق مخططات الحكومة العثمانية في منطقة الخليج العربي يعني من ناحية أخرى تجديد الصراع بين الحكومتين البريطانية والعثمانية، على أن الخلاف بين الطرفين لم يتخذ صورة إجرائية إلا في شهر يوليو ١٩٠٨م حينما أرسلت السلطات العثمانية في البصرة فرقة من الجنود لاحتلال جزيرة "الزخنونية" وهي جزيرة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من ميناء العقير على مسافة عشرة أميال من الساحل الغربي لخليج سلوي.

وعندما وصلت الفرقة العثمانية إلى جزيرة "الزخنونية" قامت برفع الراية العثمانية على الجزيرة، وإزاء ذلك سارع المسئولون البريطانيون في الخليج بالاحتجاج استنادا إلى أنهم رأوا في احتلال الأتراك للجزيرة خطوة لفرض السيطرة التركية على ساحل شبه جزيرة قطر الغربي وربما على إمارات الساحل العماني المهادن. وقد اكد السفير البريطاني في احتجاج حكومته إلى الحكومة التركية بأن جزيرة الزخنونية تقع إلى ميناء جنوب العقير الذي يعتبر الحد الأقصى للسيادة العثمانية في الأحساء طبقًا لاعتراف الحكومة البريطانية بموجب التفاهم بين الطرفين البريطاني و العثماني على النفوذ في الخليج، وأضاف لوثر **Lowther** السفير البريطاني في الآستانة في احتجاجه إلى الحكومة التركية، بأن محاولة الدولة العثمانية التقدم فيما وراء هذه المناطق يؤدي إلى تأزم الموقف بين الدولتين(٢).

ولكن الدولة العثمانية لم تعبأ باعتراضات الحكومة البريطانية إذ استمر والي البصرة بفرز الحامية العسكرية بجزيرة الزخنونية باعتبارها أرضا عثمانية، أنكر على القنصل البريطاني في البصرة حقه في أن يناقش معه هذه المشكلة رسميا أو شخصيا. وأن كانت الحكومة العثمانية قد ردت مذكرة الاحتجاج البريطانية بأن وجود الجند العثمانيين في جزيرة الزخنونية أمر ضروري لحفظ الأمن بين قبائل الدواسر الذين يترددون على الجزيرة.

ولكن يبدو أن الحكومة التركية قد استجابت للضغط البريطاني، خاصة أن تركيا

---

(١) د. جمال زكريا : المرجع السابق صفحة ٣٢٤.

(2) F.O.424, Confidential (9482) ,NO. 217 Futrther correspondence respecting the Affairs of turkey and Arabia, Piecec NO. 68 Sir Gerald Lowther , to Sir Edward Grey, Constantintinople, November 20, 1908.

كانت تعاني متاعب في البلقان ومع روسيا ، فرأى رجال الدولة العثمانية ضرورة أن تسوى الدولة العثمانية مشاكلها مع بريطانيا أملاً في الحصول على تأييد الحكومة البريطانية إزاء ما تصادفه الدولة العثمانية من مشكلات. وأن حقي باشا وزير الخارجية العثمانية على رأس القائلين بضرورة التسوية السلمية للخلافات القائمة للوصول إلى اتفاق مع بريطانيا وغيرها من الدول[1]، ومن ثم يبرق وكيل الوزارة لشئون نائب الملك لشئون الهند إلى زميله وكيل وزارة الخارجية البريطانية بنص برقية نائب الملك في الهند التى تضمنت أن الوكيل السياسي البريطاني في البحرين أبلغه بجلاء القوات العسكرية التركية من جزيرة "الزخنونية" ولم يعد هناك جند عثمانيون في الجزيرة[2].

وكان جلاء الأتراك من جزيرة الزخنونية كسب لوجهة النظر البريطانية التى كسبت هذه الجولة في صراعها على النفوذ مع الدولة العثمانية في الخليج العربي وهي في نفس الوقت كسب لقطر إذ في هذا الجلاء اعتراف ضمني من جانب الأتراك بوجهة النظر القائلة بأن جزيرة الزخنونية جزء من قطر التى يحكمها آل ثانى.

ولكن هل ينتهى الصراع العثماني البريطاني في قطر وفي الخليج عامة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تبدأ من اقتناع الطرفين بضرورة التوصل إلى اتفاق يحدد مناطق النفوذ السياسي لكل منهما في الخليج منعا للتصادم، مع هذا الاقتناع كانت هناك تصريحات وإجراءات اعتبرت عراقيل في سبيل التفاهم، من ذلك ما صرح به اللورد هاردنج الحاكم العام البريطاني للهند من أن وجود العثمانيين في الخليج أشد خطورة من روسيا أو فرنسا لأن لهم - العثمانيين- تأثير على بعض الحكام العرب تحت ستار الجامعة الإسلامية، ولذلك ذهب إلى المطالبة بإسقاط سيادتهم عن الكويت[3].

وفى نفس الوقت الذي جرت فيه المفاوضات بين بريطانيا والدولة العثمانية والتى استمرت سنتين (١٩١١- ١٩١٣م) فقد ظهرت مواقف تفاهم ومواقف تصادم، إذ بينما تساهل العثمانيون في التنازل عن قطر وعن البحرين، وموافقة بريطانيا على بقاء الكويت تحت السيادة العثمانية التى تمتد حتى ميناء العقير بالأحساء ولا تمتد أبعد منه ، وحتى بعد توقيع الاتفاقية في ٢٩ مايو ١٩١٣م سعت تركيا إلى التمسك باحتلال شبه جزيرة قطر

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية صفحة ٢٠١.

(2) F.O.424, NO. 221 Futrther correspondence respecting the Affairs of Asiatic turkey and Arabia Piecec 97 of India office to Foregin office;97 Governmment of India to viscount Morley (telegrafic), November 26, 1909.

(٣) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي صفحة ١٩٥.

خلال شهر يونيو ١٩١٣م رغم ما نصت عليه الاتفاقية من إقرار تركيا بالتخلي عن قطر.

وتقصيل ذلك أن السفير البريطاني في اسطنبول بعث إلى السير إدورد جراى وزير الخارجية البريطانية في ١٦ يونيو ١٩١٣م بأنهم أرسلوا إلى قطر ٧٥ جنديا على رأسهم ضابط تركي واحد يستقلون سفينة تجارية عربية تسمى "بدر"(١).

وعندما أبلغت الحكومة البريطانية حكومة الهند لمتابعة موضوع نزول القوات التركية التى خرجت من البصرة إلى قطر، ردت حكومة الهند على وزارة الخارجية البريطانية في ٢٤يونيو ١٩١٣م، بأن هذا الإجراء التركي مثير للاضطراب ويدعو إلى القلق ومن ثم فلا يمكن احتماله(٢). لأنه في رأي تلك الحكومة يخالف ما تعهدت به الدولة العثمانية في الاتفاقية التى وقعتها مع بريطانيا قبل أقل من شهر واحد.

ولعل هذه العقبات هي التى - إلى جانب عوامل أخرى- كانت سببا في عدم التصديق على المعاهدة العثمانية البريطانية رغم التوقيع عليها من ممثلي الطرفين. وما يهمنا هنا هو مناقشة ما نصت عليه تلك الاتفاقية من بنود قرارات استقلال قطر باعتراف كل من تركيا وإنجلترا اعترافًا رسميًا.

وقد شهد شهرى إبريل ومايو١٩١٣م مواقف حاسمة في المفاوضات العثمانية البريطانية حتى تم التوقيع على الاتفاقية بين الطرفين في آواخر شهر مايو لأن المفاوضات تناولت عديدا من موضوعات الخلاف بين البلدين منها مسألة الرسوم الجمركية، وخط حديد بغداد، ومناطق النفوذ في الخليج العربي، ومسألة شط العرب(٣).

وفي هذا المقام بعثت حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٧ إبريل ١٩١٣م برسالة تعبر عن رأي حكومة الهند بشأن مشروع الاتفاق الجارى إعداده بين الحكومتين البريطانية والتركية وخاصة فيما يتعلق بتمسك العثمانيين بجزيرة الزخنونية. إذ تري حكومة الهند أنه على الرغم من الخوف من أن اعتراف بريطانيا بالسيادة التركية على جزيرة الزخنونية والساحل - ساحل الأحساء، الواقع بين "العقير" ونقطة تواجه تلك الجزيرة قد يؤدي إلى بعض الخلاف أو الاحتكاك في المستقبل بين البريطانيين والأتراك، فإن حكومة الهند على استعداد للموافقة على مشروع الاتفاق الإنجليزي التركي بما احتواه

---

(1) F.O.424, Confidential (10376) ,NO. 238 Ibid.. Piecec NO. 387: Sir Gerald Lowther , to Sir Edward Grey.constantinople, June 16, 1913 (Telegraphic) NO.218.

(2) Ibid: India office to Foregin office.june24,1913, Piece NO.451.

(٣) د. صلاح العقاد: المرجع السابق صفحة ١٩٤- ١٩٥.

من البند المشار إليه بخصوص جزيرة الزخنونية وفي إطار الشروط التى عرضتها حكومة الهند والتى وافقت عليها جميعا الحكومة التركية[1].

وهذا يعنى تنازل بريطانيا عن شيء تمسكت به من قبل لصالح قطر وهو جزيرة الزخنونية في سبيل تركيا بإنهاء سيادتها على قطر واستقلال قطر عن البحرين.

وقد تضمنت مذكرة حكومة الهند إلى وزارة الخارجية البريطانية عدة ملاحق كان الملحق الأول عبارة عن برقية من الماركيز كروCrewe المفاوض البريطاني موجهة إلى حكومة الهند البريطانية تفيد أنه بالنسبة لقطر في مجال المفاوضات التركية البريطانية فسوف تبقى مستقلة وذات كيان سياسي ولن تتبع البحرين، وذلك في إطار ما عبرت عنه الحكومة التركية من رغبتها في الجلاء الكامل من شبه جزيرة قطر. ويأمل الأتراك أن توافق بريطانيا على بقاء سيادتهم على ساحل الأحساء بحيث تمتد من الشمال حتى نقطة في الجنوب تواجه جزيرة الزخنونية الراغبين في إخضاعها أيضا لسيطرتهم[2].

واحتوى الملحق الثاني على شروط حكومة الهند لإقرار اتفاق مع تركيا على الأسس السابق الإشارة إليها - وأعنى انسحابها من قطر والاعتراف باستقلالها تحت حكم آل ثانى، وعدم تبعية قطر للبحرين، في مقابل امتداد النفوذ التركي حتى جزيرة الزخنونية ونقطة على ساحل الأحساء تواجهها، وأن حكومة الهند ترى الموافقة على الاتفاقية أذا وافق الأتراك على شروط حكومة الهند وهي:

١- بخصوص استقلال قطر، فيجب أن تتخلى تركيا تماما عن كل ادعاءاتها السابقة بالسيادة على شبه الجزيرة القطرية، في الوقت الذي تعترف فيه تركيا لبريطانيا بالحرية في أن تدخل مع شعب قطر في اتفاقيات تتعلق بمسألة تجارة الأسلحة أو تامين السلم البحري.

٢- أنه بالنسبة لمطالب حاكم البحرين بجزيرة الزخنونية فيمكن تخليه عنها بتقديم تعويض مادي محدود له.

٣- كفالة السماح باستمرار إقامة بعض رجال القبائل من البحرين على جزيرة الزخنونية كالعادة من أجل صيد الأسماك خلال شهور الشتاء، وأنهم لم يخضعوا لأية مضايقات أو تفرض عليهم أية ضرائب من أي شكل.

---

(1) India office,April 17 , 1913. Ibid: India office to Foregin office. NO.52

(2) Ibid : Encolsure I in NO. 52: the Marouess of Crewe to Government of India, India office, April 7, 1913.

٤- بقاء جزيرتي "لبينات السلفية" و " لبينات العالية" في حوزة حاكم البحرين[1].

وحدد الملحق الثالث مبلغ التعويض الذي يقترح منحه لحاكم البحرين في مقابل تنازله عن مطالبته بجزيرة الزخنونية، إذ أجاب المقيم البريطاني العام في الخليج بأنه تم اقتراح تعويض لحاكم البحرين مبلغ ١,٠٠٠ جنيه، وأنه لكي يكون الاقتراح مقبولاً تماما من حاكم البحرين في نظير رفع يده تقديم هدية مناسبة من جانبهم إلى حاكم البحرين لإنهاء كل ادعاءاته، وهذه الهدية لن تتجاوز المبلغ المقترح عليه كتعويض[2].

وأخيرا تم الاتفاق على تسوية شاملة للمشكلات التى تعترض سبيل العلاقات التركية البريطانية، حيث وقع كل من إبراهيم حقي باشا وزير خارجية الدولة العثمانية والسير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية اتفاقيات هذه التسوية وهي التسوية التى تضمنت على ما يلي:

١) إعلان عام تمهيدي لمشروع المعاهدة[3].

٢) مشروع اتفاق يتعلق بخط حديدي في آسيا الصغرى[4] ويتكون من ١٢مادة.

٣) مشروع اتفاق يتعلق بالخليج "الفارسي" وهو يتعلق بكل من الكويت وقطر والبحرين وأمور الخليج[5] وتشكل لجنة لتعيين الحدود وهذا الاتفاق احتوى على بنود تتعلق باستقلال قطر وهو موضوع بحثنا.

كما احتوي على أربعة ملاحق تتعلق باتفاقات بريطانية كويتية لأعوام ١٨٩٩م و١٩٠٠م، ١٩٠٤م ورسالة السير إدوارد جراى إلى توفيق باشا رئيس وزراء تركيا في ٢٤ أكتوبر ١٩١٣م.

٤) مشروع اتفاق يتعلق بتشكيل لجنة من أجل تحسين الملاحة في شط العرب وهو يحتوي على ٢١ مادة وله ملحق[6].

وبالنسبة لقطر فقد نصت المادة رقم (١٠) والمادة رقم(١١) من مشروع الاتفاق البريطاني العثماني بشأن الخليج على إقرار مستقبل قطر على النحو التالي:

(1) Ibid: Incolsure 2 in NO. 52: Goveenment of India to the Marpuess of Crewe, April 14, 1913.

(2) Ibid: Incolsure 3 in NO. 52: Goveenment of India to the Marpuess of Crewe, April 15, 1913.

(3) Ibid, Enclosure 1 in NO. 144: Draft Declaration

(4) Ibid, Enclosure2 in NO. 144: Draft Convention respecting Railways in Asia Minor.

(5) Ibid, Enclosure3 in NO. 144: Draft Convention Respecting the Persian Gulf, & C.

(6) Ibid, Enclosure1 in NO. 144: Draft Convention respecting the Creation of a Commission for improving Navgation in the Chatt-el-Irab.

نصت المادة رقم (١٠) على أن تتنازل الدولة العثمانية تنازلاً نهائيًا عن كل ادعاء لها بالسيادة على شبه جزيرة قطر، على أن يتولي حكم شبه الجزيرة آل ثانى حكما وراثيا، وتعهدت الحكومة البريطانية بمنع حاكم البحرين من محاولة ضم قطر إلى سلطته.

كما نصت المادة رقم (١١) من الاتفاق المذكور على السماح لأهل البحرين بالنزول إلى جزيرة الزخنونية من أجل صيد اللؤلؤ، علما بأن تلك الجزيرة صارت جزءًا من الأحساء التركي.

وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تلزم نفسها في هذا الاتفاق بالاعتراف مسبقا باستقلال قطر استقلالا تاما بعد انتهاء السيادة العثمانية، وأنها أعطت لنفسها الحرية في عقد معاهدات مع حكام قطر من آل ثانى بشأن تجارة الأسلحة أو السلم البحري في الخليج، فإن النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر إعلان باستقلال شبه الجزيرة القطرية ولم يكن الأمر يستدعى تنازلا مماثلا من بريطانيا لأنه لم تكن لها أية ادعاءات بالسيادة على شبه الجزيرة القطرية، هذا على الرغم من أن هذا النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر جاء نتيجة مفاوضات بريطانية عثمانية ولم يأت نتيجة مفاوضات قطرية عثمانية، وهذا فرضته طبيعة الصراع في الخليج الذي كان صراعًا بريطانيا عثمانيا.

وإزاء اتجاه الأمير عبد العزيز بن سعود بأنظاره إلى قطر بعد استيلائه على الأحساء قبل توقيع الاتفاق العثماني البريطاني بحوالي شهرين، فقد اتخذت السلطات البريطانية موقفا محذرا بعدم اتخاذ أي موقف يغير الوضع القائم، أو خلق أي اضطراب بين الإمارات العربية التى يدخل حكامها في اتفاقات مع الحكومة البريطانية، بما فيها إمارة قطر المستقلة تحت حكم المرحوم الشيخ قاسم آل ثانى وأبناؤه من بعده، والتى تم الاعتراف بها من جانب كل من الحكومتين البريطانية والعثمانية، وأن الحكومة البريطانية حريصة على استمرار علاقات الصداقة التى لها جذور بعيدة في الماضي[1].

توفي الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في ١٧ يوليو ١٩١٣م الموافق لعام ١٣٣١هـ فخلفة في الحكم ابنه الشيخ عبد الله، وجاء ذلك في ظل المعاهدة العثمانية البريطانية، وفي ظل علاقات حسنة بين آل ثانى وآل سعود خاصة عندما تعهد الأمير عبد العزيز آل سعود أمام المندوبين البريطانيين، والمعتمد البريطاني في الكويت، والمعتمد البريطاني في البحرين بعدم الاعتداء على قطر[2].

(1) F.O.424,240 Ibid: Piece39: India Office, to foreign Office, India Office, October 15, 1913. Enclosure 2 in NO.39; Lieutenant-Colonel Sir P. Cox to Abdul Aziz- Saud Bushire, September 11, 1913.

(٢) نفس المرجع السابق صفحة ١٢٠.

وتحققا للاتفاقية البريطانية العثمانية والخاصة بانسحاب تركيا من قطر، فقد أظهر الأمير عبد العزيز آل سعود اهتماما بموضوع جلاء الأتراك عن قطر ومن ثم سعي لمقابلة المسئولين البريطانيين لبحث مستقبل قطر وبقية مناطق الخليج العربي التى سيجلوا عنها العثمانيون، وقد أبدت حكومة الهند رغبتها الملحة في ضمان جلاء سريع للقوات التركية من قطر، ولكن طالما أنه لم يتم التصديق على الاتفاقية العثمانية البريطانية، فإنه من الصعب ممارسة ضغط على الحكومة التركية لكي تسرع في الجلاء، وإن أبدت الحكومة البريطانية تفاؤلا بأن التصديق على تلك الاتفاقية لن يتأخر طويلاً[1].

وأثار المقيم العام السياسي البريطاني في الخليج العربي موضوع اللقاء الذي طلب تدبيره معه الأمير عبد العزيز بن سعود برسالة منه في ٢٧ سبتمبر تشير إلي أن الأمير سيكون على استعداد لمقابلة المقيم العام البريطاني في الأسبوع الثاني من شهر نوفمبر، وأنه تعهد بعدم مناقشة أية موضوعات أو يتخذ موقفا يتعارض مع سياسة الحكومة البريطانية. وفي هذا المقام ألح المقيم العام على حكومته لكي تمارس ضغطا على الحكومة التركية لكي تجلي قواتها العسكرية عن الأرض القطرية وأنه يجب عدم الاعتماد على حسن نية السلطات العثمانية بالبصرة بخصوص جلاء الأتراك عن شبه جزيرة قطر، وأنه إذا لم تنسحب الحامية العثمانية من قبل اللقاء المقترح بين كل من الأمير عبد العزيز بن سعود والمقيم العام البريطاني في الخليج فسوف تكون الأمور في غاية الحرج والصعوبة سواء للمقيم السياسي البريطاني أو للشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني[2].

وقامت الحرب العالمية الأولى في صيف ١٩١٤م وكانت القوات التركية ما تزال موجودة على الأرض القطرية. وكان عدد هذه القوات ٢٧٥ جنديا وضابطا، ولم يكن بوسع الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني طرد الحامية التركية دون مساعدة قوية من بريطانيا بدون إراقة الدماء، وكانت أحوال هذه القوات سيئة، ومن ثم انتهزت بريطانيا الفرصة وأرسلت قوة عسكرية بحرية بريطانية لإجلاء الحامية التركية عن قطر، وذلك في ١٩ أغسطس ١٩١٥م وطلبت بريطانيا من الشيخ عبد الله إقناعهم فسلموا ورحلوا إلى البحرين على سفينة حربية بريطانية، وقامت بريطانيا بعد ذلك بمصادرة أسلحتهم وذخائرهم الموجودة في القلعة المحصنة بالدوحة وأسدل الستار على آخر وجود تركي في قطر.

وهكذا يمكن تتبع علاقة قطر بالدولة العثمانية في إطار الاستراتيجية العثمانية في

---

(1) Ibid;PieceNO. 76: India Office, to foreign Office, India32 Office ,October 29,1913.

(2) Ibid: Incolosure.in : NO. Government of India to Marpuessof Crewe,October 26,1913.

منطقة الخليج العربي في النقاط التالية:

١- بدأ اهتمام البريطانيين بمشيخة قطر في إطار المعاهدات المانعة التى وقعتها السلطات البريطانية مع مشيخات الخليج العربي بداية من عام ١٨٢٠م.

٢- زاد الاهتمام البريطاني بمشيخة قطر أثناء حملات جيش محمد علي الوالي العثماني على مشيخات الخليج سواء الأحساء أو الكويت أو قطر، وعندما انسحبت قوات محمد علي التى كانت تعمل في إطار الإستراتيجية العثمانية الموجهة نحومشيخات الخليج العربية بعد عام ١٨٤٠م، ومن ثم عمل البريطانيون على إنهاء ادعاءات مشيخة البحرين بسيادتهم على قطر، بإبرام اتفاقية عام ١٨٦٨م تنازلت بموجبها مشيخة البحرين عن ادعاءاتها عن قطر في مقابل مبلغ مالي سنوي يتولى المقيم السياسي البريطاني في الخليج باستلامها من الشيخ محمد بن ثانى (شيخ الدوحة) نيابة عن قبائل قطر ويقوم بتسليمها لشيخ البحرين، كما سبق أن ذكرنا.

٣- في إطار الاستراتيجية العثمانية في منطقة الخليج، لم يكد يمضي شهر على احتلال القوات التركية لميناء القطيف بالأحساء، حتى أرسل قائد القوات التركية في يوليو ١٨٧١م حملة عسكرية يقودها شيخ الكويت إلى الدوحة في قطر، وهناك استطاعت الحملة التركية إقناع الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى شيخ الدوحة، وأكثر الرجال نفوذا بقبول رفع العلم التركي، وكان والده الشيخ الكبير في ذلك الوقت قد شاخ وأعوزه الحزم، فلم يوافق على هذه الخطوة، واستمر يرفع العلم العربي على بيته، وحاول الرائد بيللي المقيم السياسي البريطاني في الخليج الاحتجاج على رفع العلم التركي، إلا أن الشيخ قاسم قدم تبريرا لخضوعه للأتراك أنه يعيش في البر، وتركيا قوة برية عظيمة، هذا إلى جانب أن الحكومة البريطانية قد أخفقت في تحقيق العدالة لرعاياه في غير حادثة واحدة من حوادث القرصنة، ولكن يبدو أن تركيا سحبت في عام ١٨٧٣م قواتها النظامية من الدوحة وأبدلتها بثلاثين رجلا من رجال الضبطية أو الشرطة[1].

٤- كان شيوخ آل ثانى يشعرون بالضيق والتبرم من تصرفات ممثل تركيا في قطر قاسم أغا الذي كان يطلب استشارته في كل كبيرة وصغيرة، إضافة إلى ما كان يحصله من مبالغ كبيرة من أموال أهل الدوحة. ومع ذلك قبل الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى منصب قائمقام العثماني عام ١٨٧٦م، واستقبل في مايو ١٨٧٩م متصرف الأحساء التركي الذي قدم إلى الدوحة على ظهر السفينة التركية "الإسكندرية" واستعرض المتصرف التركي

(١) لوريمر ح ج : دليل الخليج، القسم التاريخي جـ ٣ صفحة ١٢١٧- ١٢١٩.

الحاميـة التركيـة الموجودة في الدوحة - بمـا فيها من رجال الجاندرمـة أيضًا - والتى يبلغ عددها ١٣٠رجلا.

٥- حـاول الأتـراك إحـكام قبضتهـم على قطر، فقـام نافذ باشـا والي البصـرة بزيارة للدوحة في بداية عام ١٨٨٨م، والتقى أثناء زيارته بالشيخ قاسم ووعده بلقب ووسام، وأنشئ فـي الدوحـة مخزن للفحم، وبعدها بقليل وضعت حامية تركية قواتها كتيبه من المشـاه - ٢٥٠جنديا - في الدوحة، ورسـا زورق بخاري تركـي في مينائها. وفي يوليو عام ١٨٨٩م قام عاكف بك متصرف الأحساء بزيارة للدوحة. ربما كانت هذه الزيارة كانت ترتبط بمشروع - قـد يكـون هو الذي وضعه - لإقامة إدارة تركية مباشـرة في قطـر منظمة ودار للعوائد، لكن الشيخ قاسم عارض هذا التوجه التركـي معارضة شديدة وأصر على أن يقدم استقالة كتابية من قائمقام قطر. وفي عام ١٨٩٠م أذاع الشيخ بأن حكم قطر قد انتقل من بين يديه إلى أيدى المسئولين الأتراك، ولكن والي البصرة لم يقبل هذه الاستقالة، ونصحة في أوائل عام ١٨٩١م بالمضي في تأدية واجباته بحماسة[1].

٦- ازدادت العلاقات بين شـيخ الدوحة قاسـم بن محمد آل ثانى وممثلي الدولة العثمانية فـي البصرة والأحسـاء، وازدادت توترا، فوصل والي البصـرة إلى الدوحة لإجراء مفاوضات مع الشـيخ قاسـم أسـتمرت شـهرا - فبراير ومارس ١٨٩٣م وعندما فشـلت المفاوضات لجأ الوالي العثماني إلى اسـتعمال العنف مع القطريين، فاحتجز أحمد شـقيق الشيخ قاسم و١٢ من أعيان الدوحة، ثم تحركت القوات التركية لتباغت الشـيخ قاسـم في الوجبة ولكنها فشـلت، وتجمـع أهل قطـر وهاجموا القـوات التركية فهزموها وشـتتوا أفرادهـا، فعادت بعـد أن تكبـدت خسـائر كثيـرة متراجعة إلى حصـن الدوحـة، وقامت السـفينة الحربية التركية(فيرنج) بإطلاق نيرانها لتغطية هذا الانسـحاب، واضطر الوالي إلى إطلاق سـراح الشـيخ أحمد ووجهاء الدوحة الذين كانوا رهائن عنده، وظل الشـيخ قاسم يعيش هادئا في الوجبة، وظلت السفينة التركية والوالى على ظهرها راسية في ميناء الدوحة[2].

٧- رغم رغبة الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى في الاستقالة من منصب القائمقامية إلا أن الأتراك ظلوا يعاملون الشـيخ قاسـم على أنه قائمقامهم في قطر، ولكن مسئولا تركيا تم تعيينـه كمسـاعد للقائمقام في الدوحة في عـام ١٨٩٣م، ولكن الجنود الأتراك قاموا عام ١٨٩٤م بقتل هذا المسـاعد التركي وزوجته وظل الشـيخ قاسـم رغم السـنوات الستة التى

---

(١) لوريمر : المرجع السابق صفحة ١٢٢٢- ١٢٢٥.

(٢) نفس المرجع : صفحة ١٢٤٨- ١٢٤٩:

قضاها متقاعدا في مدينة "الوسـيل" رغم اسـتقالته رسـميًا من القائمقامية والرئاسـة، ظل الحاكم الفعلى للدوحة وما حولها ولم يكن يتم إبرام شىء ذي خطر في قطر دون مشورته، وفـي نفس الوقت نجح شـقيقه الشـيخ أحمـد، وكان يقوم فعـلا بمهـام القائمقام، وكان بالتالي وسـيط التعامل مع السـلطات التركية، ولكن في ديسـمبر عام ١٩٠٥ لقى الشـيخ أحمد مصرعه على يد خادم من خدمه من بني هاجر بسبب حقد شخصي [١].

٨- خـلال الأحـداث الأخيرة في الدوحة، سـلم السـفير التركي في لنـدن مذكرة للورد "روزبري" يشـير فيها إلى أن قطر ولاية تحت الحكم التركي، وبأنها تابعة لمتصرفية نجد، وقد لفتت حكومة الهند البريطانية النظر إلى هذه التعبيرات، فتعهد وزير الخارجية البريطاني - ما دامت هذه المراسلات ذات طابع رسمي - بأن يذكر للسفير التركي - فيما بينهما - بأن حكومة صاحبة الجلالة لا توافق على وجهة النظر الواردة في المذكرة التركية[٢].

(١) لوريمر : المرجع السابق صفحة ١٢٠٥.

(٢) نفس المرجع صفحة ١٢٥٤.

الفصل التاسع

موقف بريطانيا من الإستراتيجية العثمانية في الخليج العربي

- مقدمة.
- محادثات بين الباب العالي والحكومة البريطانية.
- السياسة البريطانية في الخليج من حيث علاقتها بالحملة التركية.
- قضية السيادة التركية على الأحساء وموقف بريطانيا ١٨٧١ - ١٨٨١م.
- موقف بريطانيا من القرصنة.
- علاقة بريطانيا بالأحساء١٨٧١ - ١٩٠٧م.
- علاقة الأحساء الخارجية بدول أخرى غير بريطانيا ١٨٧١ - ١٩٠٧م.
- بريطانيا وإستراتيجية مدحت باشا في الخليج في إطار التنافس العثماني البريطاني.
- تقارير عثمانية عن علاقة سكان الخليج بالدولة العثمانية ١٨٧١ - ١٩٠٧م.

مقدمة:

أتاحت الخلافات التى نشبت بين الأسـرة السـعودية الحاكمة في نجد فرصة مناسـبة للتدخـل . فقد نشـب الصـراع بمجرد موت الأمير فيصل بن تركـي في سـنة ١٨٦٥ بين ابنيه عبد الله وسعود ، وأفاد الأتراك من هذه الفرصة ليجعلوا من عبد الله قائمقامًا لنجد باسمهم. ويحصلوا منه علي اعتراف بسيادتهم على وسط الجزيرة العربية.

محادثات بين الباب العالي والحكومة البريطانية:

ويبدو أن إشـارة إلى نوايا الحكومة التركية قد وصلت إلى مسـامع حكومة الهند في أوائل سنة ١٨٧١ ، ففي فبراير من نفس السنة صدرت الأوامر للرائد هربرت المقيم السياسي في بغداد بتحري الأمر . ولم يجد في البداية ما يعزز هذه الشـائعة لكنه أخيرًا - في أواخر مـارس - كتـب تقريره الـذي جاء فيه أن حملة تركية سترسـل قريبا عـن طريق البحر من العراق للقطيف للوقوف إلى جانب عبد الله في وسط الجزيرة . وعلى الفور، لفتت حكومة الهنـد نظـر حكومـة صاحبـة الجلالـة إلى عـدم رغبتها في نشـوب هذه الحـرب من جانب البـاب العالي لأنها سـتخرق السـلم فـي البحار، وقد تؤدي إلـى تدمير التجـارة البريطانية ، إلى جانب المشـكلات السياسـية التى سـتنجم عن حـرب مثلها ، وبالإضافـة إلى ذلك فقد أبلغ الرائد هربرت في بغداد بأن النية تتجه إلى مد السـيادة العثمانية إلى "البحرين ومسـقط والقبائل العربية المجاورة في جنوب الجزيرة العربية" ، وأجرت حكومة الهند اتصالا جديدًا بحكومـة صاحـب الجلالة ، وفي نهاية إبريل أو أوائل مايـو ورد تأكيد من الباب العالي في القسـطنطينية بعـدم وجود أية نوايا توسـعية في هـذه المنطقة ، وأضاف الأتـراك في ردهم يقولـون إن هدفهـم الوحيـد هو عـودة الهدوء إلى نجـد ، وأنهم لا يودون إحداث ما من شـأنه تعكير السلم في البحار لكنهم سيقتصرون على نقل قوة عن طريق البحر إلى أقرب نقطة على الساحل يمكن منها السير إلى نجد في الداخل[1].

وفـي مايـو تأكـد أن مدحت باشـا - الذي وصف البحرين سـنة ١٨٧٠ بأنهـا "بلاد تابعة للسـيطرة العثمانيـة.. وهي جزء مـن قائمقامية نجـد"- كان يعرف يقينًا الأعـذار التى تعلل بهـا البـاب العالي، فأعلن أن قائد الحملة قد صدرت لـه أوامر صريحة "بعدم التعرض لجزر البحريـن علـى الإطلاق". وفي نفس الوقت سـأل شـاه إيران ممثـل بريطانيا فـي طهران عن

(١) لوريمر : المرجع السابق صفحة ١٤٠٥.

نوايا الحكومة التركية فيما يتعلق بالبحرين، وأبلغ بالتأكيدات التى صدرت عن الباب العالي. أما رئيس الوزراء في القسطنطينية فقد وضح أنه ساخط بعض الشيء على المصالح البريطانية، واهتمامها بحركة التوسع التركية أصبح ضروريًا تخليصه من اعتقاده الراسخ بأن السلطات البريطانية هي المحرض الأول للقبائل العربية كي تتمرد على سلطة تركيا في الجزيرة والخليج.

السياسة البريطانية في الخليج من حيث علاقتها بالحملة التركية:

وكان احتمال اضطراب حبل الأمن في الخليج، وهو حدث مستبعد قد أوقع حكومة الهند في مأزق، ووضح الآن أكثر من أي وقت مضى عدم كفاية الأسس الرسمية، أي المعتمدة على اتفاقيات قائمة بالفعل، للتدخل العسكري في الأمر. ولم تكن المشكلة هي الأعمال العدائية بين الموقعين على اتفاقية السلم الشاملة، بل الحرب المحتملة بين الموقعين عليها وغير الموقعين، ولم يكن في الاتفاقية نص يتعلق بهذه الحالة. وتقدم بعض مشايخ العرب إلى الرائد بيللي المقيم العام في الخليج يتساءلون عما إذا كانت السلطات البريطانية ستمنع القبائل البحرية من الوقوف إلى جانب الأمير سعود الوهابي في نجد ضد الأتراك. كما أرسل سعود كتابًا إلى المقيم يخطره فيه بضرورة منع شيخ الكويت من تقديم العون للأتراك، وإلا فإنه حر في أن يقوم بأعمال بحرية ضده، ومن ناحية، كان احساس من جانب السلطات البريطانية بأن منع القبائل العربية من تقديم عونها لسعود يعني تأييدًا بشكل غير مباشر للحملة التركية، ومن الناحية الأخرى، كان ثمة خوف من أن يؤدي إطلاق حريتهم الكاملة إلى اضطراب التوازن القائم في الخليج، وإلى تقديم تبريرات للأتراك يمارسون بمقتضاها مزيدًا من التدخل وضم أرض هذه القبائل إلى الدولة العثمانية.

وأخيرًا في ٣٠ مايو سنة ١٨٧١ صدرت التعليمات للمقيم السياسي بزيارة البحرين ليؤكد للشيخ أنه طالما ظل ملتزما باتفاقية سنة ١٨٦١ مع الحكومة البريطانية فإن هذه الحكومة - بدورها - ستوفي بالتزاماتها نحوه[1]. وفي ٥ يونيو صدرت تعليمات جديدة للرائد بيللي بأن يمنع شيوخ عمان المتصالحة من القيام بأية عمليات بحرية سواء في صف الأتراك أو ضدهم، وأن يستخدم نفوذه مع غيره من الشيوخ لتحقيق السلم في البحار. ولم يرسل أي رد حتى ذلك الوقت إلى سعود أمير الوهابيين. وحين نشبت هذه الأزمة لم تكن ثمة سفينة

(١) يبدو أن الهدف كان هو تأكيد تقديم المعونة. أما في الاتفاقية فلم تعد الحكومة البريطانية بأن تتجاوز حمايتها "زعماء وقبائل الخليج..." فقط.

بريطانيـة واحـدة فـي الخليج. ولكـن أخيرًا وصلت السـفينة "بولفيتش" إلـى البحرين يوم ٣ يونيو، ومرت السـفينة "مجباي" بجاشـك يوم ٥ يونيو ووصلت السفينة "لينكس" هانجام في ١٦ يونيو.

وأبلغـت الحكومـة التركيـة بالتعليمـات التى صـدرت للمقيم السياسـي، وقدم كبير الوزراء شكره وامتنانه، ولكنه أضاف، أنه إذا شاء بعض مشايخ عمان المتصالحة الوقوف إلى جانب تركيا فإن الحكومة التركية لابد أن تقبل هذا من جانبها، فهي لا تعرف شيئا عن اتفاقيات السـلم البحرية هذه. ولتفادي هذا المأزق قدمت نسـخ من الاتفاقيات المعقودة بين الحكومتين البريطانية والشيوخ المتصالحين للوزير التركي[1].

قضية السيادة العثمانية على الأحساء:

لقد ثارت مشـكلة حادة بسـبب تداخل اسـتبدال السـيادة التركية على ساحل الأحساء بالسـيادة البريطانيـة الفعليـة ونتيجة عدم وضوح حـدود هذه الحقوق التركيـة المزعومة، أو التـى يطالـب الأتراك بالاعتـراف بها. فمن ناحية، كانت لـدي بريطانيا الرغبة في عدم الاعتـداء علـى تركيـا، ومن الناحيـة الأخرى كان أي تنـازل للباب العالي يعنـي مزيدًا من عمليات القرصنة.

رأي حكومة الهند:

وجاء رأي حكومة الهند وكانت بدأت مناقشة هذه المشكلة في سنة ١٨٧٨ وأوضحت آراءها تحديدًا في مايو ١٨٧٩م منكرًا الاعتراف بأي حق لتركيا بالسيادة على أي مكان جنوبي العقير باستثناء مدينة الدوحة بقطر التى تقيم فيها حامية تركية. واعتبرت حكومة الهنـد مشـيخات عمان المتصالحة خارج النفوذ التركـي تمامًا سـواء مناطقها السـاحلية أو الداخليـة كمـا أوصـت ترتيب الأمور مع شـيخ البحرين بحيـث تفرض الحمايـة البريطانية على إماراته، وبألاتمنعه السـلطات البريطانية من مطاردة المعتدين على الجزر حتى الأرض التركية. ولضمان تحديد الوضع السياسي لهؤلاء المشايخ العرب، من وجهة نظر العلاقات الدولية، اقترح أن يدفعوا في المسـتقبل جزية صغيرة للحكومة البريطانية في مقابل تعهد هذه بحمايتهم أما بالنسـبة لمنـع القرصنة فقد أصدرت حكومة الهند تعليماتها باسـتمرار مطاردة السفن الحربية البريطانية للقراصنة في المياه التركية بل وحتى على الأرض التركية ما دامت في نطاق مرمي مدافع السـفن، على أن يعهد إلى المقيم السياسـي البريطاني في

(١) لوريمر: المرجع السابق صفحة ١٤٥٢.

الخليج بمعاقبة القراصنة الذين يتم القبض عليهم تحت هذه الظروف، وتكون السلطات التركية مسئولة عن دفع التعويض في كل الحالات التى يرتكب القراصنة فيها رعايا أقاليم تابعة لتركيا.

رأي حكومة صاحبة الجلالة:

وكان مفروضًا أن يتولي مكتب الهند تنفيذ توصيات حكومة الهند غير أن وزير الخارجية كانت تعتقد أن قبول الباب العالي هذا المخطط - الذي كان يعني تنازلا من جانبها عن بعض المطالب الإقليمية واعترافًا بحق دولة أخري في التدخل في مياه تركية- ليس متوقعًا. كما أن إعلان الحماية البريطانية الواضحة كان - في رأي لورد سالسبورى- سيؤدي إلى نتائج أوخم واخطر من هذه التى تبذل الجهود لتجنبها. وكانت وزراة الخارجية تميل إلى الأخذ بأن يكون تدخل البحرية البريطانية في المياه التركية قاصرًا على الأمور الخطيرة فقط وبعد موافقة السلطات التركية المحلية على ذلك.

وقف عمل السفن الحربية البريطانية على شاطئ الأحساء مايو ١٨٧٩:

وفي نفس الوقت كان موضوع استخدام السفن الحربية البريطانية ضد القراصنة في المياه التركية أو على الساحل التركي قد صدر به تفويض من حكومة الهند في مارس ١٨٧٩ ورفعه قائد عام البحرية في الهند إلى الاميرالية البريطانية التى أبلغته بدورها إلى وزراة الخارجية. وفي مايو ١٨٧٩ صدرت الأوامر بإيقاف عمل هذه السفن الحربية. وأفاد المستشارون القانونيون لحكومة صاحبة الجلالة بأن هذا العمل - حتى بالنسبة للظروف الخاصة على ساحل الأحساء- أمر يمنعه القانون الدولي.

مفاوضات مع تركيا:

وبمضي الوقت، ولعدم وجود أية دلائل تشير إلى أن هذا الاضطراب سيتوقف في القريب، أصبح ضروريا توجيه الانتباه بإصرار من وقت آخر عن طريق ممثلي بريطانيا للحكومة التركية، ولكن هذه لم تقابل تلك المحاولات كلها إلا بالإرجاء والمراوغة، وهكذا صدرت التعليمات لسفير صاحبة الجلالة في القسطنطينية بأن يتخذ من الإجراءات ما يجعل الحكومة التركية تسمح بتدخل بريطاني يهدف أساسًا لوقف القرصنة على مدي ثلاثة أميال شمالي "العديد"، وكذلك كان من المقرر التعاون مع الحكومة التركية لفرض هيبة هذه الحكومة نفسها في مياهها، ودامت المفاوضات على هذا الأساس في القسطنطينية معظم سنة ١٨٨٠، لكنها لم تؤدِ إلي نتيجة تذكر.

ولما فشلت كل السبل المؤدية إلي تسوية هذه المشكلة تسوية ودية قررت حكومة صاحبة الجلالة أخيرًا سنة ١٨٨١م ألا يتقيد ضباط البحرية البريطانية في الهند الشرقية بمسافة الاميال الثلاثة في مطاردة سفن وقوارب القراصنة في المياه التركية، وبعدها شرح وزير الدولة لشئون الهند الأمر لحكومة الهند فأشار إلى أن الهدف من ذلك أشمل مما يبدو في الظاهر، فهو يعني في الحقيقة أن لقادة السفن البريطانية في الخليج حرية العمل وقت الضرورة لمنع الاضطراب في البحر أو توقيع العقاب على مرتكبيه، على أن يتجنبوا - بطبيعة الحال - إثارة مشاكل لا داعي لها مع الحكومة أو السلطات التركية حيث لها وجود، وأن يتجنبوا أيضًا المساس بسيادة السلطان في المناطق التى يتمتع فيها بسيطرة فعلية على طول الساحل شمالي العديد . ولم ينتج عن المفاوضات والمحادثات التى دارت من قبل - وأشرنا إليها - أي تحديد دقيق لأملاك تركيا في شرق جزيرة العرب، والواقع قد تجنبت السلطات البريطانية إثارة هذه المشكلة مع تركيا. فقد كان من المعروف أن مزاعمها في هذا الصدد مبالغ فيها وتشمل البحرين أو على أي مكان شرقي خور العديد على إطلاق، إلا أن حكومة صاحبة الجلالة تجنبت الوصول إلى قرار بهذا الشأن.

عمل السلطات البريطانية حيال قرصنة أحمد بن سلمان ١٩٠٥- ١٩٠٧:

وفي يونيو ويوليو ١٩٠٥ خرج الكابتن ف.ب. بريدو الوكيل السياسي في البحرين في رحلتين شراعيتين كل منهما أربعة أيام للبحث عن أحمد بن سلمان صحبه حوالي ٥٠ رجلا مسلحًا من رجال شيخ البحرين لكنه لم يستطع اكتشاف مخبأ القرصان. لكن كابتن بريدو عثر على عبد هارب من عبيد أحمد شهد بعينيه عملية القرصنة الثانية التى ارتكبها سيده، وقد أرسل إلى القطيف ليدلى بشهادته أمام السلطات التركية. ويبدو أن القائم قام التركي هناك ألقى بالشاهد في السجن لكنه أيضًا ألقى القبض على أربعة رجال من أنصار أحمد، وردت العصابة على هذا العمل بقرصنة ثالثة ارتكبت في يوليو.

وفي سبتمبر قام كابتن بريدو بزيارة القطيف حيث التقى بالقائمقام الجديد الذي وصل مؤخرًا لقاء وديًا كانت نتيجته إطلاق سراح العبد الذي كان شاهدًا، ثم أعتق فيما بعد، وفي صيف سنة ١٩٠٦ حين عاد أحمد بن سلمان إلى الظهور ظل قارب بريطاني مسلح موجودًا في البحرين أو على شواطىء اللؤلؤ طوال موسم الغوص. وفي أغسطس زار هذا القرصان الدوحة، ورغم أن زيارة هذه تمت خلسة فيما يبدو فقد طلبت السلطات البريطانية تفسيرًا لزيارته من الشيخ جاسم . ولم يتخذ أي إجراء آخر.

:١٩٠٧

وفي يونيو ١٩٠٧ وبعد ما أشيع من أن أحمد على وشك أن يعاود أعمال القرصنة قامت سفينة صاحبة الجلالة "لابونج" بزيارة القطيف لكي يناقش قائدها هذا الأمر في لقاء ودي مع القائمقام، إلا أن الأخير رفض الاجتماع وقوبل الضابط البريطاني ورفاقه بمعاملة بلغت من السوء ما جعل حكومة صاحبة الجلالة تتقدم باحتجاجات على ذلك إلى الباب العالي.

علاقة بريطانيا بالأحساء ١٨٧١- ١٩٠٧

العلاقات العامة والسياسية:

نبدأ الآن عن علاقات بريطانيا بالأحساء وكان معظم هذه العلاقات متعلقًا بعمليات القرصنة مما أشرنا إليه فيما سبق أو بأمور البحرين وسنشير إليه فيما بعد ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنه في سنة ١٨٨٤م كانت السفينة "مبارك" وهي سفينة تاجر هندي في البحرين راسية في ميناء القطيف فأرغمتها السلطات التركية على أن تنقل جنودًا من القطيف إلى العقير. وحين رفع ممثلو بريطانيا الأمر إلى الباب العالي، دفع التعويض عن هذا العمل وقدر بمبلغ ٥٠ روبية.

العلاقات التجارية :

وقد سبق أن أشرنا إلى وجود جالية هندية كانت تعمل في التجارة بالقطيف قبل أن يحتلها الأتراك، وسنواصل الآن متابعة هذه الجالية بين عامى ١٨٧١- ١٨٩٠م.

وباحتلال الأتراك الفعلي للأحساء وإقامة دور للجمارك والعوائد انتهت الفترة الذهبية للتجارة الخارجية وإن ظلت حالة الجالية الهندية المشتغلة بالتجارة على حالها من الازدهار عدة سنوات تالية . وقد قدر حجم التجارة بين أيدي هؤلاء التجار- حين كانوا في قمة رخائهم- بما لا يقل عن ١٥ آلاف من الروبيات كل سنة. وفي المواسم التى تزاحم بالعمل كان يضاف إليهم حوالي ٦٠ تاجرًا هندوكيًا أيضًا تصحب سبعة منهم عائلاتهم في القطيف.

وحوالي سنة ١٨٨٠ بذل هانجام رام تيكام داس وشركاه- وهو أحد كبار التجار الهنود في البحرين - جهودا كبيرة لتحسين حال الجالية بأن أقام وكالة قوية تكون مسئولة عن تجارة الهنود في القطيف، وتبعته في ذلك وكالة هندية أخري.

١٨٩٠- ١٨٩٧:

وأخيرًا بدأت تجارة الهنود في الانهيار بسبب تعسف جامعي الضرائب والعقبات التى يقيمها أمامهم المسئولون في الميناء بايعاز من التجار المحليين ولمصلحتهم . وكانت البضائع المصدرة إلى الهند خاضعة لضريبة قدرها ١٪ فقط لكن الضريبة التى كانت

تجمـع بالفعـل كانت تصل إلى ٨٪ وكان المفروض أن ترد نسـبة الـ٧٪ عندما يثبت وصول هـذه البضائع إلى الهنـد لكن محصلي الضرائب نادرًا ما كانـوا يفعلون ذلك، وقد قدرت الضرائب الزائدة التى حصلت من التجار الهنود في ثلاثة المواسم المنتهية سنه ١٨٩٤م بمبلغ يتجـاوز ١٩,٥٠٠ روبيـة ، بلـغ ما تمت اسـتعادته منها - بعـد طلب ممثلي بريطانيـا من الباب العالـي - مبلـغ ٥٠١٢ روبيـة فقـط . وكانت المضايقـات الأخرى التى يشـكو منها التجار الهنـود تتمثـل في التأخير المتعمد لوزن بضاعتهم أو حجز سـفنهم مددًا طويلة دون مبرر في الحجـر الصحـي، وكذلك في الأوامر التى كانت تجعل مـن المتعذر عليهم الحصول على دواب يسـتخدمونها في نقل بضاعتهم، وفي تقصير السـلطات التركية في تقديم العون لهم لاسترجاع ديونهم . وزادت الاضطرابات السياسية ومظاهر الخروج على القانون من صعوبات الموقـف، وبعـد الهجوم العنيف الذي شـن في سـنة ١٨٩٥م على بيت أحـد أصحاب وكالة السادة جانجارام تيكام داس وشركاه، انسحب التجار الهنود تدريجيًا من القطيف كلها ، وأصبح عملهم خلال سنة ١٨٩٧ هو نصف وربما ثلث ما كان عليه . وما بقي من العمل كان يسير سيرًا سيئًا عن طريق وكلاء مسلمين من أهل البلاد .

١٩٠١-١٩٠٣م:

وحـاول تجـار الهند البريطانية في البحرين، بما عهد عنهم من إصرار، تعزيز مركزهم في القطيف، فعرضوا، في سـنة ١٩٠١ أن يسـهموا بدفع مبلغ ١٢٠٠ روبية في كل سـنة - لمدة خمس سنوات- في مقابل تعيين وكيل قنصلي بريطانيا في القطيف. وفي نوفمبر سنة ١٩٠٣م وبمناسـبة زيارة لورد كيرزون للبحرين - جددوا طلبهم بإيجادهم حماية قنصلية في الأحساء، وعرضوا أن يساهموا في نفقاتها بمبلغ ٢٠٠٠ روبية في كل سنة.

وكانت ضرورة القيام بعمل إيجابي ضرورة ملحة، ما دام المبلغ الذي جمع دون وجه حق من تجار الهند البريطانية قد وصل في سنه ١٩٠٣ فقط إلى أكثر من ٢٥ ألف روبية . وقد تم لفت نظـر الباب العالي إلى هـذه الإجراءات عن طريق ممثلي بريطانيـا العظمي، وتم الحصول على وعـد من والـي البصرة بتصحيح هذا الوضع وبرد المبالغ التى سـبق تحصيلها دون حق. ونتيجة هذا الوعد، تم التخلي عن المشروع المقترح وهو الحصول على اعتراف بالوكيل السياسي في البحرين كوكيل قنصلي للأحساء أيضًا، تم تعيين وكيل أهلي تابع له في القطيف.

علاقات الأحساء الخارجية بدول أخري غير بريطانيا العظمي ١٨٧١- ١٩٠٧م

ظلت العلاقة الوثيقة بين الأحسـاء والبحرين بسـبب اعتماد هذا الإقليم تجاريًا على إمارة البحرين مستمرة بحكم الضرورة في ظل الحكم التركي . وكانت هذه الإمارة هي التى

تتأثر بإعمال القراصنة على الساحل التركي مما وصفناها سابقًا، وكانت الأحساء هي القاعدة - كما شرحنا ذلك في تاريخ البحرين - التى تود تركيا أن تنطلق منها لتأكيد سيطرتها على جزر البحرين.

مذبحة شيوخ البحرين وأنصارهم في الأحساء وعمل السلطات البريطانية حيال ذلك ١٩٠٠- ١٩٠٤م:

وقد وقعت حادثة مؤسفة - لا تتصل بأي من هذه المشاكل - لكننا لا نستطيع إهمالها، ففي نهاية سنة ١٩٠٠م خرج سلمان بن دعيج ابن عم عيسى بن علي شيخ البحرين للصيد بالصقور على شاطئ الظهران في الأحساء، وكان بصحبته أبناء دعيج وبشير وابن شقيق له اسمه عبد الرحمن ابن راشد، وتبع الشيوخ ٢٠ خادمًا وأربعة أدلاء: أحدهم من آل مره، والثاني من عجمان والباقيان من بني هاجر. وفي الصباح الباكر ليوم ٣ ديسمبر هوجم مخيم الشيوخ إلي جوار بئر ابن عقدان على مسافة خمسة أميال من دوحة عين السيح.. هاجمته عصابة مكونة من حوالي خمسين رجلاً من بدو آل مرة التابعين لآل بحيح يقودهم راشد بن مقارح شيخ فرع آل بحيح الذي قُتل ابن من أبنائه في العام السابق في عراك نشب مع العمامرة رعايا شيخ البحرين. ولم ينجُ من هذه الجماعة كلها سوى بشير ابن الشيخ سلمان واثنين من رجال القبائل استطاعوا النجاة من الموت، وفروا جرحى. كما قتل أيضًا رجل من دواسر البحرين كان في خيمة الشيخ سلمان وقت حدوث هذه المباغتة فشاركه المصير. ومن الجانب الآخر قتل القائد راشد وابن من أبنائه كما جرح واحد أو أكثر من رجال القبائل. وحمل آل بحيح معهم فيما حملوا ثلاثين بعيرًا وعشرين بندقية. وكان يبدو أن هدفهم هو النهب لا الانتقام، وكان مسلكهم هذا منافيًا لكل التقاليد العربية. وقد قام محمد بن عبد الوهاب من القطيف بالسفر إلى مكان الحادثة خصيصًا للقيام بدفن جثث الشيخ سلمان ورفاقه.

وقام القنصل البريطاني في البصرة بإبلاغ النبأ مباشرة إلى والي البصرة وكان من المتوقع أن تبادر السلطات التركية لتقديم التعويض العاجل ويبدو أن هذه السلطات في البداية كانت تقلل من شأن الانتقام من آل بحيح، وكانت أيضًا تخشى الإجراءات الانتقامية التى قد يقوم بها شيخ البحرين ضد هذه القبيلة. والحقيقة إن خطاباتهم لشيخ البحرين كشفت عن استعدادهم لقبول قيام الشيخ بالانتقام منهم، لكن السلطات بمجرد أن عرفت قدرة هذه القبيلة على الإفلات والمراوغة، وعرفت أيضًا أن السلطات البريطانية ستحول بين شيخ البحرين والقيام بعمل انتقامي مفاجي هدأت حماسها وأصبحت تنظر للقضية ببرود واضح.

وقد تأخرت حكومة صاحبة الجلالة في تقديم مطالبها واحتجاجاتها الشديدة إلى الباب العالي بسبب شكها فيما إذا كانت سلطة تركيا تمتد جنوبا حتى مكان وقوع الحادثة، لكنها أخيرًا - في أغسطس سنة ١٩٠١م قدمتها على أساس أن آل بحيح يقيمون في أرض تابعة لتركيا، وقبل أن تقع الكارثة التى وقعت للأتراك كما ذكرنا سابقًا في القطيف بالقرب من العقير في إبريل ١٩٠٢م كانت الحكومة التركية قد خضعت لطلب بريطانيا فيما يتعلق بمذبحة الظهران حتى إنها أرسلت أوامر صريحة مشددة إلى مسئوليها المحليين لإلقاء القبض على القتلة وعقابهم. وبما أن آل بحيح قاموا أيضًا بدور بارز في مذبحة الأتراك في القطيف فقد زاد هؤلاء بمبرر جديد للعمل. وزاد احتمال نجاح المفاوضات المتعلقة بقضية شيخ البحرين خاصة بعد انتصار القوات العثمانية على آل مرة فى سبتمبر سنة ١٩٠٢.

وفى نفس الوقت طلبت حكومة الهند من شيخ البحرين أن يحدد التعويض الذي يرى أنه يستحقه. وأجاب الشيخ بأن قتل ثلاثة من أقربائه لا بد أن يقابل بتسليم ثلاثة في مقابلهم ودون قيد أو شروط آل بحيح. وبالنسبة للدية فإنه يستحق مبلغ ٢٣,٥٢٠ روبية عن العشرين تابعًا والضيف الدوسري. أما قيمة الممتلكات التى نهبوها فتصل إلى ١١,٦٢٠ روبية. وقد اعترض الأتراك على هذه المطالب، من حيث نوعها وكمها كذلك، ومن المحتمل أن نجاحهم وانتصاراتهم على تلك القبيلة كان لا يكاد يكفي لتغطية تعويضاتهم هم عن كارثة القفطية. وفي الداخل، تقدم آل بحيح - عن طريق الثانى شيوخ الدوحة في قطر- بطلب لشيخ البحرين لتسوية الأمور ودية. وسمحت السلطات البريطانية للشيخ بإجابتهم إلى مطالبهم، غير أن آل بحيح تراجعوا أخيرًا، ولم تبدأ المفاوضات المنتظرة.

وفي سنة ١٩٠٣م حين لم تكن أية خطوات اتخذت من جانب السلطات التركية لتعويض شيخ البحرين عن هذه الكارثة استمرت المفاوضات دائرة حولها بين الحكومة البريطانية والباب العالي، وثبت كذب ادعاء السلطات التركية بأن هؤلاء القتلة قد لقوا حتفهم في الاشتباكات التالية مع القوات التركية. وسرعان ما وضح أن الباب العالي لا يود ولا يستطيع أن يقوم بأي عمل بهذا الصدد، وقررت حكومة صاحب الجلالة الترخيص لشيخ البحرين بالثأر من آل بحيح على ألا يقوم بعمله هذا في إقليم تابع لتركيا.وأبلغ هذا القرار للباب العالي في أكتوبر سنة ١٩٠٤م، لكن الترخيص سحب من الشيخ نظرًا لسوء تصرفه في بعض الأمور الوارد تفصيلها في تاريخ البحرين.

وفي فبراير ١٩٠٥م حدث اعتداء جديد على رعايا البحرين من جانب قبيلة آل بحيح في

دوحة حويقيل في بر القارة، وكان الضحايا في هذه المرة هم بحارة سفينتين صغيرتين تابعين للحد في جزيرة المحرق نزلوا إلى البر لجمع بعض الأخشاب فهاجمهم عصابة من ٣٥ بدويًا، وجرح عبد كان مملوكًا لهم. وفي ١٩٠٧ يبدو أن آل بحيح كانوا يعتبرون أنفسهم بسبب منع الشيخ لهم من الدخول إلى البحرين على عداء دموي لكل أهل هذه الجزر من العرب.

بريطانيا وإستراتيجية مدحت باشا في الخليج

في إطار التنافس العثماني البريطاني

رأينا اهتمام بريطانيا بالخليج وإماراته العربية منذ القرن السابع عشر بعد تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠م، ومن الهند باشرت السلطات البريطانية هناك نشاطا تجاريا عبر مياه الخليج العربي إلى البصرة في العراق من الفرات إلى الشام ثم البحر المتوسط إلى أوروبا، وكان البريطانيون يحرصون على عدم منافسة أية قوة أخرى لانفرادها بالنشاط في الخليج، وقد رأينا أنها تحالفت مع عرب الخليج ومع فارس في تخليص إمارات الخليج العربية، ومياه الخليج من الوجود البرتغالي في القرن الثامن عشر، ثم الوجود الهولندي، ومتابعة المحاولات الفرنسية من أواخر القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر للوجود في منطقة الخليج، بحيث شهدت بدايات القرن التاسع عشر انفرادًا بريطانيًا بالنفوذ في إمارات ومياه الخليج العربي.

ولكن تطلع العثمانيين إلى الوجود في منطقة الخليج العربي في النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد أثار استياء البريطانيين واستنكارهم للمحاولات العثمانية التى نفذها مدحت باشا امتدادًا من العراق، وهو الكاره لكل نفوذ أوروبي ومعاد للوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي وفرض معاهدات تكبل أمراء وشيوخ الإمارات العربية الخليجية، ومن ثم فإنه رغم محاولات مدحت باشا للتحرك نحو الأحساء بسرية كبيرة فإن البريطانيين الذين علموا من الأمير سعود بن فيصل آل سعود بتحركات القوات العثمانية في المنطقة أخذوا في اتخاذ مواقف ضد هذه التحركات.

ويرجع تخوف بريطانيا وقلقها من التحركات العثمانية في منطقة الخليج العربي إلى الأسباب الآتية:

(١) خشية البريطانيون من السيطرة العثمانية الكاملة على شبه الجزيرة العربية وخاصة سواحلها الشرقية المطلة على الخليج العربي والجنوبية المطلة على البحر العربي والمحيط الهندي، والسواحل الغربية المطلة على البحر الأحمر في الوقت الذي

احتلت فيه بريطانيا ميناء عدن اليمني عام ١٨٣٩م.

(٢) الخشية من فارس لأن تبقي لها في مياه الخليج أسطول كبير لتحقيق ادعاءاتها في البحرين مما يهدد انفراد النفوذ البريطاني في منطقة الخليج.

(٣) خوف بريطانيا من قيام الدولة العثمانية بعد سيطرتها على ساحل الخليج العربي بإماراته العربية بالمحاولة لمد سيطرتها على ساحل الخليج العربي الفارسي بحكم العداء القديم منذ عام ١٥٠٠م عند قيام الدولة الصفوية الشيعية المذهب وصراعها مع الدولة العثمانية حول العراق، ومحاولة نشر المذهب الشيعي في منطقة الخليج العربي.

(٤) خوف بريطانيا من سيطرة العثمانيين على إمارات الخليج العربي والأحساء والقضاء على قوة الأمير سعود بن فيصل آل سعود سيوطد النفوذ العثماني في المنطقة ولن تستطيع بريطانيا التى تسعى للسيطرة على الخليج بدون منافسة، مع السيادة العثمانية على منطقة الخليج العربي[1].

(٥) أدت حملة الأحساء إلى قيام صراع بريطاني عثماني في منطقة الخليج العربي مما ساعد على زيادة الاضطراب في المنطقة، إذ أن بريطانيا كانت تشجع القبائل وكانت تمنحها الهبات والأموال للقيام بالثورات ضد العثمانيين. فوقفت بريطانيا أمام محاولات مدحت باشا إرسال سفينتين إلى جزر البحرين وإقامة مخازن للفحم هناك، مما دفع بالحكومة العثمانية إلى توقف مدحت باشا عن الدخول في صراع مع البريطانيين بالنسبة للبحرين التى تعبرها بريطانيا مشمولة بحمايتها.

(٦) وصلت أول إشارة إلى مسامع حكومة الهند البريطانية عن نية الدولة العثمانية إعداد حملة الأحساء أوائل عام ١٨٧١م، وفي شهر فبراير من نفس العام صدرت الأوامر للكولونيل هربرت القنصل البريطاني في بغداد بالتحري عن الأمر وقد كتب هربرت في أواخر شهر مارس تقريرا للحكومة البريطانية بأن حملة عثمانية سيتم إرسالها عن طريق البحر من العراق إلى القطيف للوقوف إلى جانب الأمير عبد الله بن فيصل آل سعود في وسط الجزيرة العربية، كما ذكر أن نية العثمانيين تتجه إلى مد السيادة العثمانية إلى البحرين ومسقط والقبائل العربية المجاورة في جنوب الجزيرة العربية[2].

(٧) تقدمت الحكومة البريطانية باستفسار إلى الحكومة العثمانية عن صحة أخبار

---

(١) د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق صفحة ١٩٠.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر ١٨٦٨ - ١٩١٦م، الكويت ١٩٧٥ صفحة ١٣٨.

إعـداد حملة عسـكرية لضم الأحسـاء ومناطق أخري في الخليـج والجزيرة العربية إلى السـيادة العثمانية، وجاء الرد العثماني بأن الباب العالي لديه نوايا توسـعية، وأن هدف الحملة هو تحقيق الأمن والاستقرار في نجد.

(٨) لجـأت بريطانيـا منذ بدايـة اهتمامها بالخليـج العربي بألا تكون لها سياسـة معلنة واضحـة تجـاه أقطـار الخليج العربـي بحكـم وجودها غير الشـرعي فـي المنطقة وخشـية مـن إعلانهـا روابط لسياسـة معينة تجاه الخليـج العربي قد تـؤدي إلى إثارة قوى أخري تربطها بالخليج روابط اتفاقية أو تجارية كبلاد فارس وغيرها، ومن ثم تسـعي تلك الدول إلـى إبعادها عن المنطقة، ولذلك لجـأت بريطانيا إلى التعامل مع كافة الأطراف في منطقة الخليج العربي حسـب اتجاهات سياسـية متغيرة تتمشـي مع مصالحها السياسية والاقتصادية [١].

وهذا اتضح من موقفها من إستراتيجية الدولة العثمانية التى تعهد بتنفيذها مدحت باشا، تلك الإسـتراتيجية الساعية لفرض السـيادة العثمانية على منطقة الخليج والجزيرة العربية، حيث أن بريطانيا تابعت من بداية تحركات حملة مدحت باشـا إلى الأحسـاء وهي في طور الإعداد بالعراق، وسـاعدت الأمير سـعود بن فيصل آل سـعود في رفضه للوجود العثماني، ودافعـت عـن البحرين أمـام الرغبة العثمانية في ضـم البحرين للسـيادة العثمانية، وأظهرت اسـتياءها مـن نـزول قـوات عثمانية إلى شـبه جزيرة قطـر، وحرصت على ألا يمتـد الوجود العثماني أبعد من شبه جزيرة قطر[٢].

(٩) جاء الاتجاه إلى إعادة النظر في السياسة البريطانية في الخليج نحو التبلور منذ بعض الوقـت في أوسـاط المسـئولين من مكتب شـئون الهند البريطانـي، وذلك ردًا على التحـركات العثمانية لمحاولة تحجيم التوسـع البريطاني الـذي وجد في الخلافات الداخليـة فـي المنطقة، فـي تلك الفترة فرصة لفرض السـيطرة السياسـة على بقية أجـزاء المنطقة، الأمر الذي أظهر العثمانيين كقوة مناوئة للسياسـة البريطانية في منطقة الخليج العربي، ومن ثم ركزت سلطات الهند البريطانية على أن تجعل سفنها في أبحار دائم في الخليج، وقد تبنى ذلك وزير الهند منذ أغسطس عام ١٨٦٩م، وهو عام أفتتاح الملاحة العالمية في قناة السويس[٣].

---

(١) د. عبد العزيز عبد الغني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، الرياض ١٩٨٢ صفحة ٣٢.

(٢) د. عبد العزيز المنصور: المرجع السابق صفحة ١٣٩.

(٣) جـون كيلـي : بريطانيا والخليج، عمان - مسـقط ١٩٧٩م صفحة ٤٨٤. ولوريمر: دليل الخليج، القسـم التاريخي حـ ٢ - الدوحة صفحة ١٣٩٧.

(١٠) استقدمت حكومة الهند البريطانية عدة بوارج حربية إلى الخليج للدفاع عن نفوذها، ومنحت الكولونيل "بيللي Belly" المقيم السياسي البريطاني في الخليج سلطات واسعة للتصدي للتحرك العثماني بحجة العمل على إقرار الأمن في مصائد اللؤلؤ، ثم أخذت بريطانيا تتقرب من شيوخ الإمارات العربية وتحثهم على عدم التعاون مع العثمانيين الذين كانوا جادين في تسيير حملتهم العسكرية إلى الأحساء، كما أقدمت بريطانيا إلى ما هو أبعد من التحريض، حيث أخذت تحدد الحدود بين المشايخ العربية على الخليج ولصالحها فقط [١].

(١١) أسفر الصراع العثماني البريطاني في منطقة الخليج العربي عن وجود عثماني في المنطقة، اسمى على الأقل في بعض المناطق، وفعلى في بعض المناطق الأخرى، وفي بعض الأحيان، لكن لا يمكن تفسير عدم استقرار الوجود العثماني بوجود معارضة من بعض الزعماء المحليين فقط، وإنما كانت الأطماع الأوروبية وبخاصة البريطانية متجهة إلى منطقة الخليج، مما جعل الوجود العثماني في المنطقة في حالة مد وجزر حسب تعاون الزعماء المحليين مع الإدارة العثمانية.

(١٢) كانت بريطانيا تخسر منطقة ثم تصل إليها يدها من جديد وتعيدها مرة أخرى، وأحيانًا يتقلص الوجود البريطاني في بعض المناطق لتخضع للسيطرة العثمانية، وكثيرًا ما كان ذلك يحدث بمساعدة الزعماء المحليين، وكل تلك الظروف جعلت بريطانيا والدولة العثمانية تميلان إلى المصالحة غير المعلنة، والاتفاق الذي يتمشي مع المصالح السياسية لكلا الطرفين. وقد دارت المراسلات بذلك الشأن بين الدولتين حتى عقدت اتفاقية عام ١٩١٣م بينهما لتقسيم مناطق النفوذ في منطقة الخليج العربي[٢].

تقارير عثمانية عن علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية ١٨٧١- ١٩٠٧م

مقدمة:

يتناول هذا البحث أساسًا عرض التقارير والمراسلات التى بعثها القنصل العثماني الفخري في لنجه المدعو محمد بن عبد الله الخاجه، في الفترة من ١٣١٦- ١٣٢٥هـ/ ١٨٩٨-١٩٠٧م . مع تقارير أخرى رفعت إلى الدولة العثمانية قبل ذلك . منها : الخطاب الذي بعث به ثلاث

---

(١) عبد العزيز الشعيل : الوجود العثماني في منطقة الخليج الأحساء ١٨٧١- ١٩١٤م، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، كلية الآداب جامعة الزقازيق عام ١٩٨٨م صفحة ٧٣- ٧٧.

(٢) نفس المرجع، صفحة ٨٠- ٨١.

وعشرون شخصًا من أهالي بندر بوشهر إلى مدحت باشا؛ لفتح قنصلية عثمانية فيه، وخطاب مماثل قدم باسم ثلاثة عشر شخصًا من أهالي المنطقة إلى القنصل العثماني في مومباي.

وتكمن أهمية هذه التقارير التى وقعها محمد بن عبد الله في لفت انتباه الدولة العثمانية إلى سياسات الإنجليز في المنطقة من جهة، وما مارسته السلطات القاجارية (الحاكمة آنذاك) في إيران من ضغوط على أهالي تلك البنادر من العرب من جهة ثانية، وكيفية استعادة الدولة العثمانية لمكانتها في المنطقة من خلال استمالة شيوخ الإمارات من جهة ثالثة. ومما يجدر ذكره هنا أنه بعد افتتاح القنصلية العثمانية في لنجه بزمن، تعرض علم الدولة العثمانية لعمل استهزائي من بعض الأشخاص مما أدى إلى قيام الحكومة الإيرانية بترضية الدولة العثمانية والاعتذار لها عن ذلك، كما جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في (١٣ شعبان ١٣٢٧هـ / ٣٠ أغسطس ١٩٠٩م) [1].

الوثائق العثمانية المتعلقة بالخليج العربي

دخل العثمانيون إلى مسرح الأحداث في الخليج العربي حوالي منتصف القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مما جعل للمصادر التاريخية العثمانية أهمية بالغة. فإضافة إلى الكتب التاريخية المؤلفة باللغة العثمانية، فهناك عشرات الآلاف من الوثائق المهمة المتعلقة بتاريخ الخليج والجزيرة العربية وقبائلها وحواضرها في الأرشيف العثماني، مفتوحة للباحثين ممن يود دراسة تاريخ المنطقة والاطلاع عليها، والاستفادة منها في كشف النقاب عن كثير من الأحداث التاريخية للمنطقة والتى لا تتحدث عنها المصادر الأخري. وهذا الأمر ليس للتقليل من شأن المصادر الأخري المؤلفة بلغات عربية وأجنبية؛ وأنما لكون الوثائق العثمانية تورد تفصيلاً للأحداث وكشفًا للغموض وتوضيحًا للكثير من المسائل التاريخية عن تلك الحقبة التى تمتد أربعمائة سنة على وجه التقريب.

ومن الطبيعى أن يكون هناك تفاوت بين بعض مناطق الخليج من حيث تعلقها بالدولة العثمانية، وبالتالي فإن الوثائق الخاصة بالمناطق المرتبطة بالحكم العثماني بشكل، أكثر من وثائق المناطق الأخرى التى لم ترتبط بذلك الحكم. ومع ذلك فلا يخلو الأرشيف العثماني من وثائق تتعلق بمناطق الخليج كافة. وذلك بحكم الجوار والعلاقات الثنائية من جهة، والأحداث التى ارتبطت بالقوى الموجودة في الخليج، سواء أكانت إدارية محلية لم ترتبط بالحكم العثماني، أو تلك التى تعلقت بذلك الحكم من جهة أخري.

---

(١) د. سهيل صابان: علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال بعض التقارير العثمانية (١٢٨٨-١٣٢٥هـ/ ١٨٧١- ١٩٠٧م).

ومهما يكن من أمر فإن وثائق الخليج الموجودة بالأرشيف العثماني - سواء أكانت تقارير أو مراسلات إدارية - تكشف النقاب عن أمور غير واردة في المدونات التاريخية، ولاسيما تلك الموضوعات المتعلقة بالوجود العثماني في المنطقة.

فتح قنصلية عثمانية في بوشهر

تبين من الخطاب[1] الذي رفعه أهالي بندر بوشهر في (٢٦ ربيع الأول ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) إلى والي بغداد مدحت باشا والذي حمل أسماء وأختام ثلاثة وعشرين شخصًا[2] أن السبب الأساسي الداعي لفتح القنصلية العثمانية في هذا البندر هو : تغير معاملة السلطان الإيرانية عن السابق لأهالي الكويت والبصرة القاطنين في بندر بوشهر والمترددين إليه؛ لأجل التجارة، وعدم الاستجابة لطلباتهم، وعدم تمكينهم من تحصيل حقوقهم، ووقوع التعدي عليهم وعلى إمام مسجد أهل السنة والجماعة الشيخ عبد الله بن إبراهيم، حتى تكون هذه القنصلية العثمانية ترعى شؤونهم على غرار القنصلية الإنجليزية والقنصلية الهولندية الموجودتين في هذا البندر. فوجور قنصلية عثمانية فيه، تدافع عن حقوقهم وترفع المظالم عنهم، وتخاطب السلطات الإيرانية بمشكلاتهم سوف يكون له أكبر الأثر في التخفيف من المعاناة التى يعانون منها مع السلطات الإيرانية[3].

وقد بين الخطاب الذي رفعه مدحت باشا إلى نظارة الخارجية في(١٧ ربيع الآخر ١٢٨٨هـ/ ٥ تموز ١٨٧١م) - عطفًا على أهالي بندر بوشهر السابق- أهمية هذا البندر بكونه متميزًا في الحركة التجارية النشطة، وأن مجموعة كبيرة من تجار الكويت والبصرة والأحساء والقطيف يقصدونه، وأن القنصلية الهولندية تقوم بمتابعة بعض المعاملات الخاصة لرعايا الدولة العليا، غير أن ذلك غير كاف في الحد من معاناتهم. وأضاف مدحت باشا على كل ذلك تعرض أهالي البندر العرب السنة، وهم أكثر من غيرهم من حيث الاعتقاد المذهبي، بتغيير مذاهبهم من لدن السلطات القاجارية. وذكر في نهاية الخطاب أن ميزانية ولاية بغداد قادرة على تحمل مصروفات فتح القنصلية ورواتب موظفيها، وهي تبلغ شهريًا خمسة

---

(١) أنظر نص الخطاب العربي الذي صوره الباحث من الأرشيف العثماني في نهاية هذا البحث.

(٢) وهم : إمام الجامع عبد الله بن إبراهيم، والسيد عبد الرحيم صادق، وعبد الوهاب الإبراهيم، وعبد السلام بن عبد الوهاب الإبراهيم، وإبراهيم بن أحمد بو شهاب، وعبد اللطيف بن أحمد الدوسري، وموسي بن أيوب الميمني، وسالمين أبي معراج (معارج)، وإبراهيم بن إسماعيل، وعلي بن محمد إسماعيل، وإسماعيل بن محمد إسماعيل، وإيراهيم بن أحمد ثامر، وجاسم بن زيد، وإبراهيم بن علي عيدان، ومحمد بن خميس، وخميس بن خليفة، ومحمد إسماعيل، وجمال بن علي، وهاشم بن داود، وسليمان بن عيسي الميمني، وجمعة بن خلف، وحسين بن يوسف، وإبراهيم بن على عيدان. الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

(٣) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

آلاف قروش، إشارة منه للباب العالي باستعداده لفتح القنصلية المذكورة إذا وافقت عليه. وقد استجاب الباب العالي لذلك وعلى تعيين أحمد أفندي قنصلاً للدولة العثمانية في بندر بوشهر في (٢١ رجب ١٢٨٨هـ / ٥ أكتوبر ١٨٧١)[١].

خطاب القنصل العثماني في مومباي

ومن خطابات المهمة التى تبين مدى أهمية السواحل الشرقية للخليج العربي للدولة العثمانية، الخطاب الذي بعث به القنصل العثماني في بندر بومباي حسين حسيب إلى نظارة الخارجية العثمانية في (٢٣ ربيع الأول ١٢٩٤هـ/ ٧إبريل ١٨٧٧م)، بدءًا من لنجه وحتى شيراز ولا سيما أهالي بندر عباس وبندر بوشهر، من أهل السنة والجماعة، وأنهم مرتبطون بالخلافة الإسلامية ارتباطا معنويا، وأن اسم الخليفة تقرأ في الخطب، وأن دعوات الخير تتلي على المنابر، لنصرة الجيش العثماني في حربه ضد روسيا، وأنه على الرغم من محاولة السلطات الإيرانية رفع السلطان من الخطب إلا أن الأهالى لن يسمعوا لها، وأن بعض الأهالي قدموا مساعدات مالية للقنصلية العثمانية في بندر بوشهر، مشيرًا إلى أن التجار القادمين إلى بومباي من أهالي تلك البنادر قد أكدوا أنه في حال قيام الحرب بين الدولة العثمانية وإيران فإن أكثر من مائة ألف متطوع من أهل السنة والجماعة من أهالي تلك السواحل، جاهزون للحرب في صفوف العثمانيين ضد إيران. وقد ذكر القنصل حسين حسيب أنه أرفق خطابا مقدما من ثلاثة عشر شخصًا من أعيان الأهالي في تلك السواحل[٢]، تضمن استعدادهم للحرب مع العثمانيين ضد الروس. إلا أن الأمر الصادر من الباب العالي ردًا على

---

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/252/14954

(٢) وقد ظهر الخطاب ضمن التصنيف المذكور. وعلى الرغم من أن أصلة باللغة العربية إلا أننا لم نعثر إلا على ترجمته العثمانية. وترجمته إلى اللغة العربية على النحو الآتي: نحن شوافع على مذهب أهل السنة والجماعة. من أهالي بندر عباس وبندر لنجه وبندرعلو (هكذا) وبندر محار(؟) وبندر كنكار(كنكان) وبندر ظاهر(طاهري)، والواقع كلها في داخل خليج البصرة (الخليج العربي) تابعين لإيران. وعلى الرغم من أن عدد سكاننا يتراوح ما بين مائتي ألف وثلاثمائة ألف، فإننا كلنا من أهل السنة وعلى المذهب الشافعي. وبمقدورنا تجهيز مائة ألف جندي. وعلى الرغم من الظلم الذي نتعرض له على يد السلطات الإيرانية، إلا أننا من القديم معترفين بسلاطين آل عثماني بأنهم أئمة المسلمين وخلفاء (الرسول) رب العالمين. وقد قال تعالي في محكم تنزيله المبين نستعيذ بالله « أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم» . وبناء على ذلك فإن طاعة السلطان عبد الحميد الثاني - الذي هو سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين وحامي الدين المبين وهادم أساس المشركين - والانقياد لأمره واجب. كما أن الدعاء بالنصر للخلافة على الأعداء فرض علينا. وامتثالاً لهذا الأمر الإلهي، فإن علماء المنابر والعوام من الناس يدعون بطول العمر والنصر لجناب الخليفة، مواظبون على ذلك. ولاسيما في حرب الدولة العلية في وجه الروس المنحوسين أعداء الدين المبين. كما أننا مع سلاطين آل عثمان من القديم بـ اللهم انصر سلطان المسلمين. وعلى الرغم من أننا تابعين فإيران في الظاهر، إلا أننا مع سلاطين آل عثمان باطنًا وقلبًا، كما سبق بيانه. وبناء على معرفتنا بذلك فأننا مستعدون بالتضحية بالمال والجسم في خدمة الدولة العلية. وقد اجتمع لذلك الآن حوالي أربعة آلاف شخص، للحفاظ على حدود الدولة العلية. والمرجو من جنابكم إبلاغنا بكيفية التحرك. الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/274/16634

خطاب القنصل اشتمل فقط على تصدير خطاب من المشيخة الإسلامية لعلماء المنطقة بأن الدولـة العثمانيـة تقدر ذلك التصـرف منهم، وأنها راضية عنهم كل الرضـى[1]، دون اتخاذ خطوة أخري في هذا الصدد حسب على الباحث.

تقارير القنصل العثماني الفخري في لنجة

عثر الباحث على عدة تقارير : خطابات وبرقيات، أرسلها القنصل العثماني الفخري في لنجة محمد بن عبد الله الخاجه، تبين مدي ارتباط الأهالي في السـواحل الشـرقية للخليج العربي بالخلافة العثمانية . وهذه التقارير باللغة العربية، ما عدا التقرير الأخير؛ حيث كان باللغـة العثمانيـة . وقد تبن للباحث من خلال قراءته تلك التقارير أن ضعف صاحبها في اللغة العربية واضح . وعلى الرغم من ذلك الضعف اللغوي، إلا أن نشـاط القنصل في إبلاغ الباب العالـي بالتحركات الإنجليزية كان واضحًا. كما أن حســه الديني وانتماءه الوطني للنجه كانا ظاهرين في تلك التقارير.

وقـد تبيـن مـن التقارير الثلاثة الأولـى الآتية أنـه كان تاجرًا من تجار لنجـه، من خلال القيـود الموجـودة في أسـفلها . إلا أن تقريـره الرابع الذي صدر في عـام (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م) ومن خلال القيد الذي وضعه في أسـفل التقرير بين أنه قنصل فخري للدولة العثمانية . وقد تكون هناك تقارير أخري في الأرشيف العثماني، إلا أن الباحث لم يطلع على غير ما أدرجه في هذا البحث، على الرغم من متابعة الموضوع منذ عدة سنوات.

وسوف نورد أدناه تلك التقارير مرتبة بحسب تسلسها التاريخي:

١- التقرير الأول: برقية بعثها محمد بن عبد الله بصفته أحد تجار لنجة ووكيل شركة خاصة، وذلك في ٧تموز ٣١٤(رومي/ ٣٠ سـفر١٣١٦هـ/ ٢٠ تموز١٨٨٩م) . وقد طلب فيها الباب العالي إرسال خطاب إلى الشيخ محمد بن خليفة وآخر إلى السفارة الإيرانية في اسطنبول، حتى لا يقع على أهالي لنجه، بسبب الصراع الدائر بين الطرفين، بعد استيلاء الشيخ محمد بن خليفة على لنجه . ونصها:

لحضور حضرة جناب الصدارة العظمي

فـي ١٤ صفـر ٣١٦ (١هـ/تمـوز١٨٩٨م) الشـيخ محمد بن خليفة اسـتولي علـى بلدة لنجه وضبطهـا دون ضرر لأحد من الأهالي والسـرياز (السـركال) . وعمـوم الأهالي انقادوا له مع الشكر. ولا تدري إيش(ماذا) يقع بينه وبين الإيرانيين بعد هذا . فنسترحم تلغراف من دولتكم

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف I.HR/274/16634

للشيخ المذكور، كي لا يقع ضرر على التبعية العثمانية الموجودين في لنجه . وتسليمهم الأمنية (أي تأمينهم) على أنفسهم وأموالهم . وكذا تلغراف لسفارة إيران باستحصال أمر لحكومة العجم(أي إيران) على المحافظة (على أرواح الأهالي في لنجة) فرمان.

٧ تموز ٣١٤ (ارومي/ ٣٠ صفر ١٣١٦هـ/ ١٩ تموز ١٨٩٨م)

أحد تجار لنجه ووكيل أجنته إدارة المخصوص

محمد بن عبد الله حاجا

٢- التقرير الثاني: برقية بعثها محمد بن عبد الله الخاجة ، علي غرار التقرير الأول، في ١٩ تموز ١٣١٤ (رومي / ١٢ربيع الأول ١٣١٦هـ/ ٣٠ تموز١٨٩٨م) . وقد طلب فيه من الباب العالي للمرة الثانية الشروع في اتخاذ ما يوفر أمن أهالي بندر لنجة، بسبب الصراع بين الشيخ محمد بن خليفة والسلطات القاجارية في إيران، في خضم الأحداث التى شهدتها، وممانعة القنصل الإنجليزي في توفير الأمن للأهالي. ونصها:

إن الاغتشاش (الاضطراب) الذي ظهر في بندر لنجه قبلاً عرضت لمقامكم السامي .والأهالي أمنهم منسلب، وشدة من الاضطراب. وأتى مركب من دولة إيران، وفيه دريا بكي (أمير البحر) . والآن نتخابر مع الشيخ محمد بن الشيخ خليفة ودولة الإنجليز يكره وترفض أن نرسل استمبوط (سمبوك: قارب حربي سريع) من أبو شهر، لأجل محافظة تبعة (رعايا) الدولة العلية العثمانية. والأمر لكم.

وكيل أجنته (شركة) إدارة المخصوصة بلنجه محمد[١]

٣- التقرير الثالث :وهو عبارة عن برقية مطولة بعثها محمد بن عبد الله الخاجه في ٦أغسطس١٣١٤(رومي/ ٣٠ ربيع الأول ١٣١٦هـ/ ١٨ أغسطس ١٩٨٩م) إلى الصدر الأعظم . وهذه البرقية أيضًا باللهجة العامية وليست بالعربية الفصحي. وقد شرح فيها ملخص ما دار في لنجة بين الشيخ محمد بن خليفة وأمير البحر الفارسي. وبين فيها أيضًا تضرر أهالي لنجة من ذلك الصراع وأن الإنجليز ساعدوا رعاياهم في الخروج من لنجه، بينما الأهالي لم يلتفت إليهم أحد . ومع ذلك فهم قد أخذوا معهم عزيز أموالهم وتفرقوا في الأطراف : في عمان ودبي والشارقة ومسقط: تخليصًا بأرواحهم وأموالهم من تلك الفتنة التي شهدها لنجة. وقد ذكر فيها أيضًا بوجود ألف شخص مسلحين في خدمة الشيخ محمد بن خليفة في لنجة وأطرافها، جاهزين لخوض غمار

---

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.MTV. 722/51

الحرب إذا ما قامت السلطات الإيرانية بإعلان الحرب عليه. مشيرًا في نهاية التقرير بضرورة تدخل الدولة العثمانية في ذلك الصراع ولاسيما أنه تحمل عنوان الخلافة الإسلامية التى يجب عليها الدفاع عن المسلمين أينما كانوا؛ حتى لا يخرب البندر بعد أن غادروه أهله، ولم يبق فيه سوى ثلاثمائة شخص. ويبدو أن الدولة العثمانية استجابت له، فعينته قنصلاً فخريًا، كما تتضح من التقرير الرابع.

ونص البرقية:

"إلي حضور حضرة الصدارة العظمى"

بعد استيلاء الشيخ محمد (بن خليفة) على لنجه بتاريخ ٣ربيع الأول (قدم) من أبوشهر إلى لنجه برس بوليس غانبوط (غاليوط) الحضرة الشاهانية إيران (أي قدم قارب حربي لشاه إيران) دفعه حاجي أحمد خان دريا بكي (أمير البحر) وتوروده بواسطة معتبرين أهالي البلد صارم(صارت) المحاربة فيها بين دريا بكي والشيخ محمد علي أجلاه من القعلة. والمذكور الشيخ محمد جاوب دريابكي(قائلاً) أنه أتي ليس عاصيًا على الدولة، والقلعة هذه بيتي المسكني وحرم آبائي وأجدادي. والآن ما بقي في حالي شي. ولم أزل أنا وتوابعي على خطر. وفي وجل عظيم. فهذا الاضطرار (جعلني) أجيز دخول البلد. والآن قطعيًا ما أنزل من القلعة. هذا حرم(حرام) وأنا في حماية الله تعالي ثم في حماية الدولة . وهذا بيراقها (علمها) منشور على رأسي. و(لماسمع) دريا بكي هذا الكلام من الشيخ وعدم نزوله من القلعة أو عده بمواعيد. وفي ٤ ربيع الأول من الشهر يوم الحد الفضل ورد غانبوط (غاليوط) دولة الإنجليز المسمى اسكبي بن أبو شهر. وأول نتيجة نتجت من قبل كل حركة ركزالعودة(العود) على بيت وكيله، ونشر بيراق دولة الإنجليز . وقيل هكذا مع وجود وكلائهم من سالفة الزمان، ما نشر هكذا البيراق قطعيًا . وبعد ذلك دريا بكي أعلن على القبطان اسكبس بخروج تبعة الإنجليز من البلد، وأنه يطلق الأطواب (جمع طوب، أي المدفع) بحرًا من برنس بوليس على البلد، ويحرب القلعة . وقبطان اسكبس أعلن على توكيله في البحر في البر (أن) يعلن إلى تبعية (أي الرعايا الإنجليز) بالخروج ليلاً قبل الصباح، والوكيل أعلن إلى تبعية الإنجليز بالخروج، والذي لم يكن كمن خروجه عاجلاً يدخل بيت الوكيل تحت البيراق ومنزل عسكر من اسكبس وتحت بالبيت لمحافظه، وعملوا السياسة لمصالحهم، وتبقوا بالهلاك، وتأسفوا على مطانهم (لعل: مظانهم) وفراق من أزلهم، ومفرقة(مفارقة) بعض الأهالي في السفائن بحرًا والفقراء برًا وأصحاب الأحمال الثقيلة من التجار المعتبرين، وتجرأوا في أمورهم لعدم السعة، فنقل الأهالي وتحميل أموالهم وضيق الوقت والليل ولا

يفرقـوا مـا يحدث من الشـيـخ (محمـد بن خليفة) ومـن دريـا بكـي(أمير البحر) لما شـاهد وحامت الأمور متوقف عن ما علنه(أعلنه) سـابقًا. وذلك النهار الساعة ثماني عربي سافر من لنجه(إلي) بندر عباس والجاش(بحارة)، ويرجع (إلى) لجنه . ومع رجوعه ما ندري ما يحدث من الاغتشاش.

٤- التقريـر الرابـع: بعثه محمـد بن عبد الله الخاجـة في (١٧محـرم ١٣٢٣هـ/ ٢٤مارس ١٩٠٥م). وهـو مثل سـابقاته باللغة العربية العامية . وقد شـرح فيه مـا قام به القنصل الإنجليزي المقيم في بوشهر من أعمال في البحرين ضد الشيخ علي بن أحمد بن علي آل خليفة، من نهب لممتلكاتها وإقامة العسـاكر في منزله، بعد أن فر الشـيخ إلي قطر ولم يتمكن القنصل الإنجليزي من القبض عليه . ولم توضح البرقية سبب رغبة ذلك الشيخ علي، وأنه أخذها إلى عدة جهات لبيعها ؛ تنكيلاً به . ونصها:

"حضرة أفندينا ذي الأكرام ذي الدولة نظارة الجليلة الخارجية "

(وزير الخارجية الجليلة)

أعـرض لمقامكـم المقـدس العالـي مـن مدة شـهر واحد قبـل الآن جنرال قنصـل دولة الإنجليز المقيم في بوشـهر وصل البحرين . وبرفقته ثلاثة أسـاطيل (سـفن) إنجليزية. وطلب من الشـيخ عيسـى بن علي شـيخ البحرين أن يقبض له على ابن أخيه الشيخ على بن أحمد بن علي، ويسـلمه له بلا سـبب. فأبي الشيخ عيسـى عن ذلك الطلب، ولا قبل . حيث إنه لم يجد لذلك سـببًا، ولم يقدر قبضته خوفًا من وقوع الفسـاد والاغتشـاش في البحرين .فلما أحس الشيخ على بن أحمد بهذه المادة(أي الموضوع) فر من البجرين خوفًا على نفسه. والتجأ عند الشيخ جاسم(قاسم بن محمد)الثاني (آل ثانى) في قطر. وجنرال القنصل المذكور لما بلغه هذا الخبر شـدد الأمر على الشـيـخ عيسى بن على ووبخه، ونزل من الأسطول وبمعيته مقدار خمسـين نفرًا من عسـكر الإنجليز، مكملين (أي مجهزين) السـلاح. وهجموا جبرًا علي (أي منزل) الشيخ علي بن محمد أحمد واعتصب (أي نهب) جميع ما كان في البيت من ذهب وفضة وحلي ونحاس وأسـلحة وأواني وصناديق وأسرة، وكشفوا على النساء وفتشوا عليهم ولم يحترموهم . واعتصبوهم الخيل والإبل وجميع الحيوانات وستة سفن بين صغار وكبار، ومقـدار ألفيـن (هنا كلمة غير واضحة) واثواب النسـوان وأثاث البيـت كله، ولا يبقى لهم حاجة الذي يستنفعون بها. وحملة الجميع في بوابير(سفن) البوسطة(البريد) إلي بندر بوشهر والكويت ومسـقط ؛ لأجل البيع . وأحرق السـفن في البحرين . ونسـاء الشيخ علي بن أحمد خرجوا من البيت، وراحوا في بيت الشـيخ عيسـى بن علي. وجنرال قنصل المشار إليه ضبط

بيت الشيخ أحمد بن أحمد، وحطا (وضع) فيه مقدار خمسين نفرًا (من) عسكر الإنجليز، وخلا(أي أبقى) عندهم أسطولا(سفينة واحدة) في البحرين ؛ لأجل المحافظة وبنفسه رجع العبد العاجز بعرضه لمسندكم العالي، ولطفًا يلتمس العفو أفندم.حرر في ١٧من شهر محرم١٣٢٣(هـ/٢٤مارس١٩٠٥م)

العبد العاجز الأقل شهبندر فخري لنجه: محمد بن عبد الله الخاجه (الختم)" [١].

٥- التقرير الخامس:بعثة محمد بن عبد الله الخاجه في (١٥صفر١٣٢٣هـ/٢٠أبريل ١٩٠٥م). وهو مثل سابقاته باللغة العربية العامية . وقد أشار فيها إلى العلاقات الثنائية الممتازة التى كانت تربط بين الإنجليز والسلطات الإيرانية . حيث ذكر باتفاقهم على بيع الإيرانيين أراضي للإنجليز في بندر بن عباس، ورغبتهم في الحصول على قرض من الإنجليز، بغية دفع ديون الروس واستلام الجمارك منهم، وتسليمها للإنجليز، ونصه:

" حضرة أفندينا الأكرم ذي الدولة ناظر الجليلة الخارجية "

(وزير الخارجية الجليلة)

أعرض لمقامكم المقدس بتاريخ ثامن (الـ) ثامن الشهر صفر الجاري قد ورد علي لنجه أدميرال (أمير البحر) في دولة الإنجليز من مومباي، وبمعيته خمس أساطيل حربية، وتواجه (توجه) مع دريا بكي (أمير البحر) حاكم بنادر وجزائر فارس، وتبادلا من المراسم الودادية (الود) ما هو لائق في شأن الدولتين. ومع مجيء الأدميرال المذكور من مومباي قد دخل مسقط والشارجة (الشارقة) من أحد بنادر عمان، وأظهر لهم المحبة والصداقة . وفي عاشر من شهر صفر الجاري سافر من لنجه إلى جزيرة هانجام وجزيرة هرمز. ولابد (أن) يدخل بندر عباس،ومنها يسافر إلى جهة الهند .ودولة الإنجليز قصدها (من تلك الزيارة) أن تبتاع من دولة الإيران أحد عشر ألف ذراع (من) الشاه من الأرض في بندر عباس. ودولة الإيران قد قبلت ذلك، واعدة دولة الإنجليز بإعطاء الأرض لها. وعرفت (ذلك من) دريا بكي من هذه الخصوص. ودريا بكي في أحد عشر من (الـ) شهر الجاري سافر من لنجه في (بـ) السفائن الشراعية إلى جزيرة هنجام . ومنها يتوجه إلى بندر عباس . حسب الإشعارات المخيفة أن دريا بكي بهذه الأيام من بندر عباس يتوجه على كلكته. والشاه زاده (أي ابن الشاه) إجلال الدولة ابن ظل السلطان متعين لحكومة البنادر وجزائر فارس. ويحتمل أنه يصل إلى بندر بوشهر . وهذه المواد ما تخلوا من الأمور السياسية بين دولة الإيران والإنجليز . يحتمل أن

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.SYS. 114/46

هذه المواد من جهة الجمارك قصدهم يأخذون القرض من دولة الإنجليز ويسلمون إلى دولة الروسيا، ويسترجعون منهم الجمارك، ويجعلون في تصرف الإنجليز. والله أعلم بحقيقة هذه الأمور بعد هذا، مع أخذ الحقائق والصحة، يعرض العبد لمقامكم العالي لطفًا يلتمس العفو منا (مما) تجاسر بعرضه. والأمر لولية أفندم.

حرر في ١٥ الخير ١٣٢٣(هـ/ ٢٠أبريل ١٩٠٥م) العبد الأقل لنجه فخري شهبندر (القنصل الفخري للدولة العثمانية في لنجه) محمد بن عبد الله الخاجة(الختم)"[1].

٦- التقرير السادس: وهو بخلاف التقارير السابقة باللغة العثمانية. بعثه محمد بن عبد الله الخاجة إلى عزت باشا، الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد الثاني في (٣٠ ذي القعدة ١٣٢٥هـ / ٤يناير١٩٠٨م). وقد تضمن هذا التقرير معلومات عن أهالي الإمارات العربية، ونظرتهم الإيجابية إلى الدولة العثمانية، وما يجب على الدولة العثمانية القيام بها في منطقة الخليج؛ حتى تستعيد نفوذها بين الأهالي. وقد اقترح فيه القنصل منح بعض الأوسمة لشيوخ الإمارات؛ بغية استمالهم نحو الدولة العثمانية؛ بعدها الخلافة الإسلامية. ولأجل استجابة السلطات العثمانية في إستانبول للطلب، أرسل القنصل المذكور معروضًا آخر إلى عزت باشا في (٨ ذي الحجة ١٣٥٢هـ/١٢يناير١٩٠٨م)، أي بعد أسبوع واحد من معرضه الأول، فوائد تسيير السفن العثمانية للملاحة في منطقة، ليس فقط في استمالة قلوب الأهالي الطيبين نحو الدولة العثمانية، بل لوجود فوائد مادية أيضًا من نقل البضائع والمسافرين إلى مختلف الموانئ، سواء في الخليج العربي أو الموانئ الهندية، مشيرًا إلى أن أجرة النقل حتى لو كانت فوق أجرة السفن الإنجليزية فإن الأهالي سوف يرجحون استخدام السفن العثمانية على غيرها من السفن الأجنبية، ولاسيما السفينتين العثمانيين اللتين قدمتا إلى الخليج العربي بالأعلام العثمانية، قد أدخلت السرور في قلوب الأهالي.

وفيما يلي الترجمة العربية للتقرير السادس:

---

(١) الأرشيف العثماني، تصنيف HR.SYS. 114/46

قنصلية الدولة العلية العثمانية في لنجه الرقم ٦٣

إلى جانب عزت باشا، الكاتب الثاني لحضرة جناب السلطان

سيدي صاحب الدولة؛

إن أهالـي البـر والبحر من الخليج الفارسـي[1] وجزيرة عمان الواسـعة التى تتشـكل من أهل السنة والجماعة، طيبون في خلقهم وطبائعهم، أهل صدق في مسلكهم، بعيدون كل البعد عن الحيل والخديعة، ليس للتمدن الشيطاني نصيب فيهم، ولهم رغبة أكيدة في الخلافة العظمي، وعلـى وجه الخصوص لجناب سـلطان السـلاطين. الدمعة التى تسـقط من عيونهـم أثرًا من ذلك الشـوق والرغبـة، وتشـكل مجري كبيرًا مـن الماء كالبحـر المتلاطم. وقـد افتتحت قنصلية فخرية للدولة العلية في موقع لنجة منذ عدة سـنوات بأمر سـلطاني، ووضع عليها العلم العثماني الذي يموج مع الخليج وتتنور العيون به. ويمسح أولئك الأهالي عيونهم بالظل الذي يعكسه ذلك فينعشـون بذلـك. بل إنهم يرون أن نطق اسـم الخليفة على غير وضـوء مخالف للآداب. وهذا في الحقيقة يبين مدي إخلاصهم، ويوضح هوية اعتقادهم في الخلافة العظمي. وفي خضم السياسة العالمية الجارية حاليًا في الخليج الفارسـي وفي سـواحل عمان، تقوم الدول المعروفة[2] بتسـيير سـفنها بشـكل منظـم ودون أي انقطاع؛ بغية اسـتمالة الأهالـي وإيقاعهم في مخالب شـرورهم. وفي مقابل ذلك فإن عدم رؤية الأهالي للسـفن العثمانية يؤدي بهم إلى الحزن والأسـي الشديدين. والنقطـة الباديـة لذلك الخليج يبدأ من الموقع الذي يسـمى بالكويت والمناطق المجاورة له في الخليـج البصـرة. وهو من ممالك الدولة العلية كما لا يخفى عليكم. وبناءً على ألأن بندر عباس وبوشهر ولنجه والقرى مختلفة الأسامي الموجودة في اليمين واليسار وفيما بعدها تابعة للحكومة الإيرانية، ونظرًا لكون أهالي هذه المنطقة من أهل السـنة والجماعة، فهم لا يتجرأون من إبراز نسـبتهم إلـى الخلافة العظمي الإسـلامية جهـرًا؛ خوفًا من الحكومة الإيرانيـة. إلاأن كل فرد منهم وفي كل فرصة سانحة يدلي - بما تدور به لسانه- بالحديث عن خضوعه للسلطنة السنية وتفانيـة في سـبيلها مـالاً وبدنًا. وهذا الإخـلاص منهم تجاه الدولـة العلية وشـوقهم إليها معروف لـدي الجميـع. وهـذا الوضع يحيـر الأجانب كافة ويغيظهـم. ولذلك وبغض النظـر عن تفريعات ذلـك وتفصيـلاً، فإن أهالي الخليج جاهـزون في كل وقت لإبراز حسـن نيتهم واثار محيتهم تجاه

(١) يستخدم العثمانيون الخليج الفارسي حينًا وخليج البصرة أحيانًا والخليج العربي حينًا آخر. والقصد من كل تلك المسميات واحد، كما يتضح مما ورد في الوثيقة وهو الخليج العربي وأهل الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص.

(٢) وهـي الإنجليـز بالدرجة الأولي، ثم الروس والفرنسـيين وإيـران وغيرهم. أبو ظبي: توحيد الإمـارة الاتحاد/ عبد العزيز عبد الغني - أبوظبي: مركز الوثائق والبحوث، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م. صفحة ١١٩.

جناب الخليفة، ولذلك فإن المطلوب من جناب السلطان عطف عنان الرحمة لأصحاب الاشتياق من هؤلاء الأهالي القاطنين في الساحل العماني الملاصق برًا بمكة المكرمة، وبحرًا بقضاء قطر في سنحق نجد. علمًا أن الإنجليز لا يتأخرون ولو للحظة واحدة في حبك آلاف السياسات والحيل والدسائس تجاههم، متمنين من الأهالي والمشايخ بالسماح لهم في الموافقة على رفع الأعلام الإنجليزية، ويبذلون قصاري جهدهم في الوصول إلى بغيتهم، ويوزعون لذلك أنواعًا من الهدايا والخلع والنقود. وعلى الرغم من ذلك فإن الأهالي المتدينون يأتون حتي إلى مقر القنصلية (العثمانيون)، واضعين الأعلام العثمانية على سفنهم الشراعية؛ وبحسب الآية الكريمة "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" فإن هؤلاء الأهالي سليمي الاعتقاد، الذين لم يبق فيهم أحد غير مسلح؛ أسد قلوبهم نمور ميراجهم، منتفرين من كافة العباد ومبتعدين عنهم، ملجئين فقط إلى الخلافة الإسلامية الكبرى ومنتظريها، كما سبق أن بينت ذلك لسفارة الدولة السنية في طهران في مختلف المناسبات. حتى لا ييأس هؤلاء الأهالي الموحدون في المذهب الواحد وفي الكيان الواحد، ولا يصابون بالضعف والفتور في شوقهم إلى المستقبل المأمول والاعتماد عليه، فإن عدم الرد من السفير المذكور ومن أصحاب المناصب على ما يجب على الدولة العلية القيام به من تقديم المساعدات المادية والمعنوية إليهم حسب المصلحة العامة والظروف المواتية، سوف يزيد من ذلك الضعف والفتور. وبما أن السفير المذكور شمس الدين أفندي مطلع عن كثب على أعمال الأجانب ونفوذ الأعداء، دون أدني شك، وبالنظر لكون هؤلاء الأهالي (الخليجيين) إخواننا في الدين، ومعدودين من بريو مكة المكرمة، ومجاورين لقضاء قطر من البحر، وبما أن إلقاءهم في صحيفة النسيان غير متوائم وشأن جناب الخليفة وينافيه، ونظرًا لأن هؤلاء الأهالي الوديعة الكبرى في أعناقهم، وهم لا يفتؤون يطلبون مقدم سفينة عثمانية إلى جزرهم؛ حتى تقر بهم عيونهم وقد شاهدنا بحمد الله - تعالى - ليس مقدم سفينة واحدة وإنما العديد من السفن المشعشعة والمهيبة إليها في هذه الأيام، فإن رد طلبهم المنافي لمرضاة جناب الخليفة، سوف يخل بنظرتهم الإسلامية (إلى الدولة العثمانية) كما لا يخفي. والحقيقة أن الجهد الذي أقدم على بذله في ليلي ونهاري، منصب كله في استمالة قلوب هؤلاء وغيرهم. ولذلك فإن قبول مطلبهم واستجابة رغبتهم، سوف يزيد من دعوات الخير لديهم إزاء الخلافة العثمانية التى تشكلت بالدولة المحمدية والسلطنة الأحمدية، مادامت السماوات والأرض، كما يزيد في هؤلاء الأهالي من اجتماعاتهم في العديد من المواقع في كل يوم جمعة؛ لذكر مولد النبي ﷺ والذبح (لله تعالى)؛ لإطعام المساكن والفقراء وتلاوة القرآن الكريم، كما اتضح لنا ذلك من خلال مراقبة أوضاعهم والتى لم نغفل عنها ولو لحظة واحدة.

الخاتمـة

بينـت التقاريـر التـى رفعهـا القنصل الفخـري للدولـة العثمانية في لنجـة محمد بن عبد اللـه الخاجة مجموعة من الأمور السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية في الخليج العربي في الفتـرة التـي بعث فيها تقاريره . ففي الوقت الذي تحـث التقارير الأول عن طلب القنصل في إرسـال البـاب العالـي لخطابين إلى الشـيخ محمد بن خليفة والسـفارة الإيرانيـة ، بغية عدم التعرض لأهالي لنجة في الصراع الذي وقع بين الطرفين ، ذكـر التقرير الثاني طلب القنصل المذكـور فـي توفير الأمـن لأهـالي لنجة في ذلك الصـراع المحموم على النفوذ بين الشـيخ خليفة والسـلطات الإيرانية . وقد ذكـر في التقرير الثالث أن الإنجليز سـاعدوا رعاياهم في الخروج من البندر بأمن وسـلام وأن أهـالي البندر الأصليين لم يلقوا تلك المساعدة من أحد ، مـا أدى إلـى تكرار طلبـه من الباب العالي في توفير الأمن للباقيـن من أهل لنجه في البلد ، حتـى لا يتعـرض البندر للخراب. وهذه التقارير الثلاثة توضـح بجلاء مدى تفاني القنصل في حبه للنجه وأهلها وسعيه الحسيس في توفير الأمن والسلامة لهم من أي أعتداء. أما التقرير الرابع فقد تناول ما قام به القنصل الإنجليزي المقيم في بوشهر من أعمال في البحرين ضد الشيخ علي بن أحمد بن علي آل خليفة ، من نهب لممتلكـاته ، وأقامت العساكر في منزله ، بعـد أن فر الشـيخ إلى قطر ولم يتمكن القنصـل إنجليزي من القبض عليهم . وهذا التقرير يوضح طرفًا من سياسة الإنجليز تجاه الأهالي في الخليج ، ولاسيما إذا أعترض أمرًا صادرًا من القنصل أو المسـئول الإنجليزي في المنطقة ، فالويل له . كما الأمر في الشـيخ علي بن أحمد آل عيسـى وتحدث التقرير الخامس عن العلاقـات الثنائية الممتازة التى كانت تربط بين الإنجليز والسلطات الإيرانية . حيث ذكر باتفاقهم على بيع الإيرانيين أراضي للإنجليز في بندر عباس ورغبتهم في الحصول علي قرض من الإنجليز ، بغية دفع ديون الروس واستلام الجمارك منهم ، وتسـليمها للإنجليز وعلى الرغم من أهمية تلك التقارير في توضيح جوانب من تاريخ الخليج العربي الحديث ، فإن التقرير السادس قد بين عدة أمور مهمة ، تتعلق ببعض الأوضاع السياسية والاجتماعية للإمارات العربية في تلك الفترة . وتلك المعلومات ، تعكس وجـه نظر معدها القنصل المشـار إليـه إلى أهـالي الأمارات وحكامهـا وكذلك إلى الدولة العثمانيـة وخلافاتهـا . وهـي وجهة نظر إيجابية ، ترمـى إلى توثيق علاقـات الدولة العثمانية بالحـكام المذكورين من خلال اسـتمالتهم إليها ، في خضم التحركات الإنجليزية ، على وجه الخصوص ، في الخليج العربي. ويمكن تلخيص تلك الأمور في الأتي:

١- إن أهالي الأمارات العربية من أهل السنة ، المذهب الرسمى للدولة العثمانية. وأنهم طيبون في أخلاقهم، مستقيمون في طبائعهم، صادقون في مسلكهم، باعدون عن الحيل والدسائس . وأن لهم رغبة أكيدة في الارتباط بالخلافة العثمانية ، كما هو كذلك شأن أهالي الساحل الشرقي للخليج العربي، في كل من بندر عباس وبندر بوشهر ولنجة .

٢- أنما تقوم به الدول الأجنبية في الخليج من أعمال سياسية ، غير مقبولة لدى الأهالي ، الذين لا يرغبون في وجود هؤلاء فيما بينهم، ولا سيما الإنجليز. وأن عدم سير السفن العثمانية في الخليج مدعاة لدى الأهالي للحزن والأسى.

٣- عدم رغبة الأهالي رفع الأعلام الإنجليزية على سفنهم، على الرغم من الضغوط الشديدة عليهم من الإنجليز، الذين يقومون بحبك الحيل والدسائس ضد هؤلاء الأهالي الطيبين.

٤- أن عدد السكان في كل من أمارة أبوظبي، ودبي، والشارقة، ورأس الخيمة، وأم قوين، يتكون من خمسة الآف نسمة تقريبًا .

٥- أن القنصل المذكور أقترح بمنح شيوخ الأمارات أوسمة عثمانية، لتوثيق العلاقات معهم وقد عد القنصل الوقوف مع هؤلاء الحكام ضد السياسات الأجنبية في المنطقة واجبًا دينيًا للدولة العثمانية، عليها القيام بها[1].

---

(١) د. سهيل صابان: علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال بعض التقارير العثمانية(١٢٨٨-١٣٢٥هـ/ ١٨٧١-١٩٠٧م) بحث منشور في مجلة الخليج للتاريخ والآثار، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٨هـ أبريل ٢٠٠٧م صفحة ٦٩-٩٠ .

وقام بمراجعته وتدقيقه الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الحميدان أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بقسم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود .

تعليق:

تأكيـدًا للجهد الذي بذله الدكتور سـهيل صابان عضو هيئة التدريس بقسـم التاريخ، كلية الآداب جامعة الملك سعود في الحصول على هذه التقارير العثمانية عن علاقة سكان الخليج العربي بالدولة العثمانية من خلال رجالها في المنطقة في فترة ذات أهمية كبيرة في تاريـخ الخليـج العربي وتاريخ الوطن العربي بصفة عامة، وهـي فترة بداية حملة مدحت باشـا إلى الأحساء عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م.

وتثمينًـا لهـذا الجهـد المشـكور مـن الدكتـور سـهيل صابـان رأينا أن نسـجله في مؤلفنـا عـن الإسـتراتيجية العثمانيـة في منطقـة الخليج العربـي حتى يمكن الاسـتفادة منـه، خاصـة أن الدكتور سـهيل أورد تقارير وثائقية من الأرشـيف العثمانـي بتصنيفاته الأكاديميـة الواضحـة والدقيقـة، وبهذا يعتبر هـذا البحث إضافة للدراسـات التاريخية الحديثـة والمعاصـرة بالنسـبة لتاريخ الدولـة العثمانيـة وعلاقتها بالأقطـار العربية بصفة عامة والأقطار الخليجية بصفة خاصة.

وقـد احتوى بحث الدكتور سـهيل صابان على مقدمة تتناول الوثائـق العثمانية المتعلقة بالخليـج العربـي حتـى عـام ١٩٠٩م - وهو عـام انتهاء حكم السـلطان عبد الحميـد للدولة العثمانيـة، منهـا فتـح قنصليـة عثمانية في بوشـهر. وخطـاب القنصل العثماني فـي بومباي بالهند، وتقارير القنصل العثماني الفخري في "لنجة".

كما احتوى البحث على استعراض لمحتويات ستة تقارير عثمانية، أولها برقية من أحد تجـار "لنجـه" إلى الباب العالي، ثانيها برقيـة مماثلة من نفس التاجر، وثالثها برقية من نفس التاجـر إلـى الباب العالـي، ورابعها برقية مماثلة من نفس التاجر إلـى الباب العالي في تاريخ لاحـق، وخامـس التقاريـر برقية للصـدر الأعظم في اسـطنبول من التاجر نفسـه من "لنجه" وسـادس التقارير من نفس التاجر محمد بن عبد الله الخاجة نفسـه القنصل الفخري للدولة العثمانيـة فـي لنجـة إلى عزت باشـا الكاتب الثاني للسـلطان عبد الحميد الثانـي في يناير ١٩٠٨م. وختم الباحث دراسـته بخاتمة علق فيها على هذه البرقيات المحفوظة في الأرشـيف العثمانـي باسـطنبول؟ ليؤكـد الروابـط الإسـلامية بيـن الدولـة العثمانية وعـرب الأقطار الخليجية.

المصادر والمراجع العربية

١. عبد العزيز عبد الرحمن الشعيل: الوجود العثماني في منطقة الأحساء، ١٨٧١ - ١٩١٤م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٨م.
٢. كمال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، المبحث الرابع من كتاب دراسات في التاريخ العثماني ترجمة وتعليق دكتور سيد محمد السيد دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣. يوسف كمال بك حتاحة، ود. صديق الدملوجي: مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٢م.
٤. عباس الغزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين ٨ أجزاء، بغداد ١٩٤٩م.
٥. د. عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨م.
٧. د. رأفت غنيمي الشيخ: تاريخ العرب الحديث القاهرة، ٢٠٠٠م.
٨. د. رأفت الشيخ: أفريقيا في التاريخ المعاصر، القاهرة، ١٩٩٠م.
٩. أحمد بن ماجد: ثلاث أزهار في معرفة البحار، تحقيق ونشر تيودورشوموفسكي، ترجمة وتعليق د. محمد منير مرسي، عالم الكتب القاهرة، ١٩٦٩م.
١٠. لوريمر: دليل الخليج - القسم التاريخي، ترجمة الديوان الأميري لقطر، الدوحة.
١١. محمود بهجت سنان: البحرين، درة الخليج العربي، دمشق، ١٩٦٢م.
١٢. خالد العزي: الخليج العربي في ماضيه وحاضره، بغداد، ١٩٧٢م.
١٣. محمود علي الداود: أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، ١٩م.
١٤. د. حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦١م.
١٥. د. أحمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية، بيروت، ١٩٦٥م.
١٦. د. مديحة درويش: تاريخ الدولة السعودية.
١٧. د. رأفت غنيمي الشيخ: العرب دراسات في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٣م.
١٨. حسين بن غنام: تاريخ نجد.
١٩. د. محمد مرسي عبد الله: إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى.
٢٠. أرنولد ويلسون تعريب عبد القادر يوسف: الخليج العربي.
٢١. د. عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الأولى، القاهرة، ١٩م.
٢٢. خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.
٢٣. عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد.
٢٤. محمد بن عمر الفاخري: دراسة وتحقيق د. عبد الله بن يوسف الشبل: الأخبار النجدية.
٢٥. محمد بن عبد الله الأنصاري الإحسائي: تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ط٢، الرياض، ١٩٨٢م.
٢٦. فيلبدي، تعريب عمر الديراوي: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية.
٢٧. أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته.
٢٨. إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا، القاهرة، ١٩٢٣م.
٢٩. محمد عرابي نخلة: تاريخ الأحساء السياسي ١٨١٨ - ١٩١٣م الكويت، ١٩٨٠.
٣٠. د. عبد الفتاح أبو علية: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر، الرياض، ١٩٨٦م.
٣١. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، القاهرة، ١٦٦٦م.

٣٢. د. محمد أنيس: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة.
٣٣. د. أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: دراسات في النهضة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٧٦م. د.
٣٤. رأفت غنيمي الشيخ: في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ١٩٧٥م.
٣٥. Longring, Iraq, 1900 - 150.
36. د. مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لعلاقات العراق الدولية بالخليج العربي، بغداد ١٩٧٥م.
٣٧. د. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر، ١٨٦٨ - ١٩١٦م، الكويت، ١٩٧٥م.
٣٨. د. عبد العزيز عبد الغني: سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، الرياض، ١٩٨٢م.
٣٩. جون كيلي، بريطانيا والخليج، مسقط، ١٩٧٩م.
٤٠. أمين سعيد: الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة.
٤١. د. عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ٤ أجزاء القاهرة.
٤٢. شفيق جحا، منير البلعبكي، بهيج عثمان: المصور في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت.
٤٣. محمد سهيل طقوس: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة.
٤٤. محمد بك فريد: تاريخ الدولة العلمية العثمانية، تحقيق دكتور إحسان حقي، ٢٠٠٦م.

الوثائق:

([١]) الأرشيف العثماني بإستانبول، وثائق الباب العالي، قسم رئاسة الوزراء، وثائق خاصة بمخصصات آل رشيد وأعيان جبل شمر، نظارة الخزينة، دائرة التحريرات، رقم ٧٦٧، بتاريخ شوال ١٣٢٢هـ.

([٢]) الأرشيف العثماني بإستانبول، وثائق الباب العالي، بخصوص الإرادة السنية الصادرة في ٢٤ رمضان ١٣٣٤هـ، رقم ١٢٣٨، موجهة إلى نظارة الحربية الجليلة بشأن تعيين الأمير سعود بن رشيد باشا قائدًا عامًا للقوات في منطقة نجد.

([٣]) ج. ج. لوريمر (ب. ت)، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، طبعة جديدة معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ص٥٧٢.

([٤]) د. أبو علية، عبدالفتاح حسن، النقود والموازين والمقاييس في سنجق الحسا في العهد العثماني ١٨٧١ - ١٩١٣م، قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية (A. C. O. S) المنعقد في تونس في المدة من ٢٠ - ٢٦ يناير ١٩٨٤م.

([٥]) للاطلاع على سير الوقعة ونتائجها ارجع إلى الريحاني، أمين (١٩٨٨م) تاريخ نجد الحديث، دار الجيل، بيروت، ص ص١٤٠ - ١٤٧.

([٦]) من خطاب الأميرالاي التركي العثماني حسن شكري إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود، مؤرخ في ١٠ ربيع الآخر ١٣٢٢هـ، انظر ذلك تفصيلاً في الزركلي، خير الدين (١٩٨٥م)، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ج١ دار العلم للملايين، ص ص١٥٥ - ١٥٦، وذلك نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام، ولدينا صورة من هذه الرسالة من خلال ما أورده الشيخ آل بسام. وورد نصها في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢هـ.

([٧]) ورد نص هذه الرسالة في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢هـ، وقد أوردها الزركلي في كتابه شبه الجزيرة، ج١، ص ص١٥٧ - ١٥٨، نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق للشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن آل بسام. ولدينا صورة عن هذه الرسالة من خلال ما أورده الشيخ آل بسام.

([٨]) من الرسالة نفسها.

([٩]) من الرسالة نفسها.

([١٠]) الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٦٤.

([١١]) الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٤٨ - ١٤٩.

([١٢]) صورة التحريرات الواردة من متصرفية نجد: إرادة عسكرية رقم ١٦ في٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.

([١٣]) جدول الإحصائيات: إرادة عسكرية رقم ١٦ في٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.

([١٤]) صورة التحريرات الواردة من وكالة معاونيه قائمقام قضاء قطر: إرادة عسكرية رقم ١٦ في٢٧ محرم سنة ١٣١٠هـ.

ـ وهذه الوثائق مترجمة إلى العربية ومحفوظة بقسم الوثائق بالديوان الأميري بالدوحة.

٤٥. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٤٩.

٤٦. الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٧٣.

٤٧. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، ص٥٠.

٤٨. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٤٩.

٤٩. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٤٩.

٥٠. الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٧٣.

٥١. الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٤٩ - ١٥٠.

٥٢. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٥٠.

٥٣. لمعرفة المزيد عمّا دار من مناقشات حادة بين الملك عبدالعزيز والفاروقي، ارجع إلى الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٦٠ - ١٦١.

٥٤. الريحاني، تاريخ نجد، ص ص١٦١ - ١٦٢.

٥٥. الزركلي، شبه الجزيرة، ج١، ص١٧٤.

٥٦. الريحاني، تاريخ نجد، ص١٦٣.

٥٧. د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارت العربية (١٨٤٠ - م١٩١٤) القاهرة ١٩٦٦.

٥٨. حسين بن غنام: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الأمام وتعداد غزوات ذي الإسلام، المسمى تاريخ نجد تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد - القاهرة ١٩٦١م.

٥٩. د. سيد نوفل: الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة وهو كتابان مدخل عام ودراسة للكويت، نشره معهد الدراسات والبحوث العربية - القاهرة ١٩٦٧م، والكتاب الثاني يتناول ساحل عمان ونشره معهد البحوث والدراسات العربية أيضًا - القاهرة ١٩٧٢م.

٦٠. د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي - القاهرة ١٩٧٤.

٦١. شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) - إدارة العلاقات شعبة البحث عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي - مترجم - القاهرة ١٩٥١م.

٦٢. ديوان الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني وقصائد آخرى نبطية، طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر السابق الطبعة الخامسة سنة ١٣٨٩هـ تحت أشراف دار الكتب القطرية.

٦٣. عبد العزيز المنصور: التطور السياسي لقطر في الفترة ما بين ١٨٦٨ - ١٩١٦م الطبعة الأولى - الكويت ١٩٧٥م.

٦٤. سالدانا (جى. أي) الشئون القطرية من سنة ١٨٧٣ إلى ١٩٠٤م مترجم بقلم أحمد العناني ونشرته لجنة

كتابة تاريخ قطر وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر - الدوحة ١٩٧٦م.
٦٥. لوريمر (ج.ع) دليل الخليج - القسم التاريخي ٧ أجزاء، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير قطر - الدوحة ١٩٦٩م.
٦٦. حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين. طبعة ثانية القاهرة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.
٦٧. محمود شكري الالوسي: تاريخ نجد، حققه وعلق عليه محمد بهجت الأتربي - االطبعة الأولي - القاهرة ١٣٤٧هـ.
٦٨. أمين الريحاني: تاريخ نجد الحديث وملحقاته - الطبعة الثانية بيروت١٩٥٤م.
٦٩. إبراهيم أبو ناب: (قطر قصة بناء دولة) الدوحة بدون
٧٠. احمد أبو حاكمة: تاريخ شرقي الجزيرة العربية. القاهرة.
٧١. د. جمال الدين زكريا قاسم: الخليج العربي - دراسات الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤) القاهرة ٦٦.
٧٢. د. صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي القاهرة (١٩٧٤م).
٧٣. د. عبد العزيز المنصور: (التطور السياسي لقطر)(١٨٦٨ - ١٩١٦) الكويت (١٩٧٥).
٧٤. د. عبد العزيز المنصور: (التطور السياسي بقطر)(١٩١٦ - ١٩٤٩) الكويت (١٩٧٩).
٧٥. ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ١٩٦٠م).
٧٦. محمود شكري الألوسي: (تاريخ نجد) القاهرة (١٣٤٧هـ).

المصادر الإنجليزية:

1. The Encyclopedia Britannica, 14ed, Vol. 51.
2. Finkel, Caroline: Opamś Dream, New York, Basic Books, 2005.
3. Standard jay shaw, Erylialshaw: History of the Ottoman Empire and Modern Turkey.
4. J. J. Norwich (1996): Byrantium, the Decline and Fall, London.
5. Howarth, David, (1964) The Desert King, Ibn Saud and His Arabia, New York, Toronto, London, p. 64.
6. Howarth, The Desert King, p. 65.
7. India Office, L+S/18, No B164, from Townley to Foreign Office, dated on 12th Feb. and 17th Feb., 1905.
8. Philby, H. St. J. B., Arabia (1930) London, p. 189.
8. F. O 424, Confidential (9482); Futher Correspondence respecting the Affairs of Asiatic Tuekey and Arabia 217, picec 68.
9 . Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No 217.
10 . Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No221.
11. 3 - Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No 238.
12. 4 - Furthr Correspondence respecting the AF - rs of Asiaticurky and Arabia No 240.
13 - Lewis bernard : The Emergence of modern Turkey . Oxford University press , 2002 .
14 - Amira K. Bennison , " Muslim Universalism and Western Globalization " in Globalization in world history . (London Pimlico, 2002).

المؤلفون

أ. د. رأفت غنيمي الشيخ

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- عميد كلية الآداب جامعة الزقازيق سابقًا.
- مؤسس وأول عميد لمعهد الدراسات الأسيوية.
- مؤسس وأول عميد لكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قناة السويس.
- مستشار رابطة الجامعات الإسلامية.
- عضو المجالس القومية المتخصصة. رئاسة الجمهورية.
- عضو مجلس إدارة إتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- عضو المجمع العلمى المصري.
- عضو لجان الترقيات بالمجلس الأعلى للجامعات.
- تأليف ٣٦ كتابًا فى التاريخ والدراسات الإسلامية.
- كتابة ١٥٠ بحثًا فى مؤتمرات محلية ودولية.

أ. د. ناجى عبد الباسط هدهود

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- وكيل معهد البحوث والدراسات الأسيوية - جامعة الزقازيق.
- رئيس قسم الحضارات الأسيوية بمعهد الدراسات الأسيوية.
- عضو إتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- تأليف ١٠ كتب فى التاريخ الحديث والمعاصر.
- المشاركة ببحوث فى مؤتمرات بمصر وإندونيسيا وتركيا.

د. محمود رمضان

- مدير مركز الخليج للبحوث والدراسات التاريخية - خبير الآثار والعمارة الإسلامية.
- باحث وخبير حاصل على درجة الدكتوراه في الآثار والعمارة الإسلامية، وتخصصه العلمي الدقيق (الآثار والعمارة والفنون الإسلامية في قطر «العمارة الدفاعية الإسلامية).
- عُين خبيرًا للآثار بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث بالدوحة سابقا ، دولة قطر.
- شغل وظيفة خبير ثقافي تاريخي بمجلس شؤون العائلة بدولة قطر أيضًا.
- شغل وظيفة خبير جمع التراث بالمؤسسة العامة للحى الثقافى " كتارا Katara " بالدوحة.
- شغل وظيفة مدير مركز مُسَيْمِير للدراسات والبحوث التاريخية بالدوحة. يتولى حاليًا إدارة وتنفيذ ومهام الإشراف على المشروع العلمي الخاص بإعداد دراسة تاريخية وثائقية عن الخليج والجزيرة العربية في وثائق الأرشيف العثماني بإستانبول- تركيا.
- أصدر له ١٦ مؤلف علمى. شارك بمجموعة كبيرة من الأبحاث العلمية محليًا وإقليميًا ودوليًا.

- المراسلات: القاهرة - جوال: ٠١٢٢٣٥٧٢٥٤٠(٢+). الدوحة - جوال: ٥٥٤٧٦٧٣٣ (٩٧٤+).

البريد الالكتروني: E-mail:dr.mahmoudramadan@yahoo.com

الفهرس

إستراتيجية الدولة العثمانية في منطقة الخليج العربي ١٨٦٩ ـ ١٩١٤م

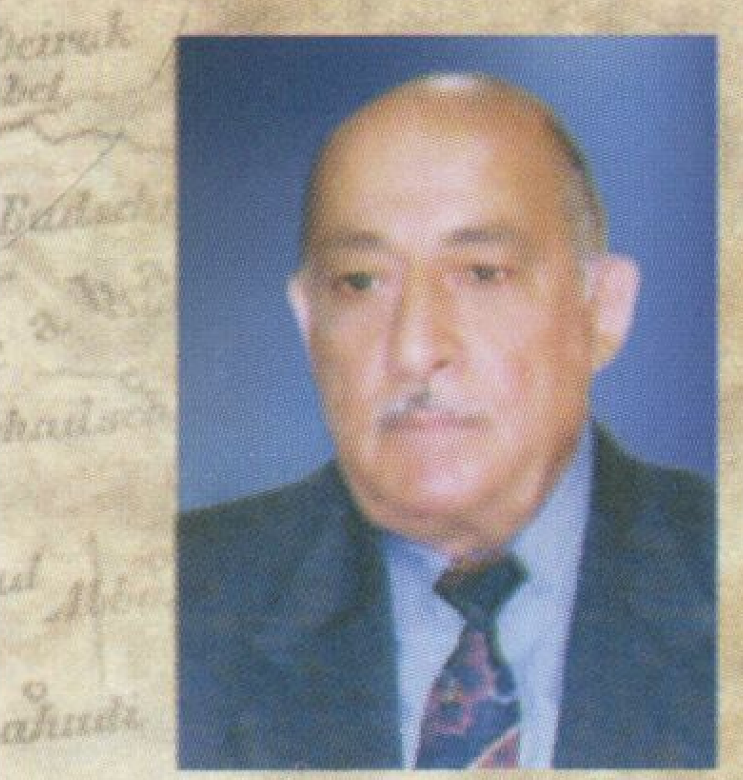
في إطار التنافس العثماني البريطاني على أقطار الخليج العربي

هذا الكتاب

يلقى الضوء على جهود الدولة العثمانية لخدمة الإسلام والمسلمين فى مرحلة هامة من تاريخ الوطن العربي الكبير ، وخاصة منطقة الخليج العربي الذى كان مطمعاً لقوى إستعمارية أوروبية ، بداية بالبرتغال ثم هولندا ثم فرنسا ثم أخيرا بريطانيا.

كان للدولة العثمانية الدولة الاسلامية استراتيجية نحو منطقة الخليج العربي تتمثل فى إخلاء هذه المنطقة من القوى الإستعمارية الأوروبية المعادية للشعوب العربية والإسلامية ، ومن ثم دخلت فى صراعات متواصلة مع تلك القوى حتى كانت الحرب العالمية الأولى التى أنتجت خروج الوجود العثماني من منطقة الخليج العربي ليستأثر والوجود البريطانى منفردا بالمنطقة.

وقد رحبت قبائل وشيوخ مشيخات الخليج بالوجود العثماني منذ القرن السادس عشر انط الارتباط الإسلامي الذى يربط بين مشيخات العربي والدولة العثمانية ، وكراهية هذه الم للوجود الإستعمارى الأوروبي.



أ. د. رأفت غنيمي الشيخ



د. ناجي عبد الباسط هدهود



د. محمود رمضان

مركز الحضارة العربية